«التكملة»

صلاح الأمة في علو الهمة

المجلد التاسع

تأليف

دكتور/سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ أبو بكر الجزائري

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم

الشيخ أحمد فريد

الشيخ سعيد عبد العظيم

الشيخ ياسر برهامي

الشيخ محمد عبد المقصود

الشيخ عائض القرني

الشيخ أحمد عيسى

الشيخ أبو إسحاق الحويني

د. حمزة بن يافع الفتحي

أ.د. عبد الرحمن فوده

دار العفاني

بسم الله الرحمن الرحيم

صَلاحُ الأُمَّةِ فِي عُلُوِّ الهِمَّةِ

المجلد التاسع

الطبعة السابعة
طبعة جديدة مزيدة ومنقحة
١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م
رقم الإيداع بدار الكتاب المصرية
٢٠٠٧/٢٠٦١٢

دار العفاني
٣ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر - القاهرة
ت/ ٠٢/٢٥١٠٨٢٥٧ - ٠١٢/٢٥٧٧٥٧١١
فرع بني سويف - برج الري - حي الرمد - بجوار مجمع المحاكم - بني سويف
ت/ ٠٨٢/٢٣١٧٣٤٤

تكملة
علو الهمة في حب النبي ﷺ
وتعظيمه وتوقيره ورعاية حقوقه

تكملة علو الهمة في حب النبي ﷺ وتعظيمه وتوقيره ورعاية حقوقه

علو الهمة في تعزيره وتوقيره وتعظيمه:

أعطى الله عز وجل رسوله ﷺ أعلى مكانة وأعظمها وأشرفها في الداريْن، وخصّه بخصائص أفرده بها دون سائر البشر، وجعله سيد الأولين والآخرين.. بأبي هو وأمي.

□ قال الشافعي رحمه الله: «ما أعطى الله نبيًّا ما أعطى محمدًا ﷺ»[(١)].

□ وقال السيوطي: «قال العلماء ما أُوتِي نبي معجزة ولا فضيلة إلَّا ولنبينا ﷺ نظيرها وأعظم منها»[(٢)].

يا أيها الكاتبون عن حبيبي!!

اجمعوا وأنتم تكتبون بين عبير الفكر.. ورحيق الزهر.. وروعة البيان.. وسحر اللسان.. فإن حبيبي سيد الأنام.

سماحة نفسٍ كرَوْح الصَّبا.. ورِقَّةُ طبع كعهدِ الصِّبَا.. وحُسْنُ بيان كزهر الرُّبَا.. وروعةُ خَلْق كبيض الظبا.. فمن ذا يساميه في العالمين؟! لأي النواحي يفيه المقال؟! وقدْ جمَّع الله فيه الكمال.. وألَّف فيه فنون الجمال.. وألْقى عليه رداء الجلال.. ففاق الملائك روحًا ونفسًا. ورقَّت حواشيه لُطفًا وأنسًا.. وحاز الكمالات طُهْرًا وقُدْسًا.. فمن ذا يقول؟! ومن ذا يبين؟!

فيا أيها الكاتبون! املؤوا القلب ببرد اليقين!.. وأطلقوا الأشواق في

---

(١) «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم (ص٨٣).

(٢) «الخصائص الكبرىٰ» للسيوطي (٢/ ٣٠٤).

الآفاق.. وأنطقوا الأكوان بالأشواق.. فلغة الحب أقوى[(١)].

□ الدخول إلى هذا الجنان والرحاب الأطهر الأنور يحتاج إلى عُمْر جديد، أوَّل نَفَسٍ منه حتى آخرِه ملؤه الطهارةُ كلُّ الطهارة.. ونور الإيمان الغامر، وجمال الإحسان الباهر.. وأفق وضيء طليق مرفرف، نَرِفُّ بأجنحة الشوق والنور والطُّهْر إلى ذلك المقام الأعلى، ونتخذ من ذلك معراجًا إلى السِّراج المنير والقلب المصفّى لسيد الرسل، وأزكى العالمين، وأحبِّ الرجال، وأجلِّهم وأفضلِهم وأعلاهم.

□ الدخول إلى هذا الجناب والرحاب المُصَفَّى يحتاج إلى قلب حي كأجمل ما تكون القلوب.. رقيق ليِّن صافٍ.. تَنبضُ فيه كل نابضة بالإشراق والتفتحِ لاستقبال النور الذي يشرق في الضمائر مع النور الذي يُشرق في النواظِر.

□ الحديث عن هذا الحبيب الغالي ﷺ يحتاج إلى خَطَرات رفَّافة شفَّافة، وأعماقٍ طاهرةٍ كلَّ الطُّهر تستجيش فيها وفي أغوارها كلُّ مشاعر الطُّهرِ اللامتناهية.

□ الحديث عن الطاهر والطيِّب المطيَّب يحتاج إلى كل رُوح مأنوسة شفيقة، يحتاج إلى إيناس ودودٍ نَدِيٍّ، وأنفاس مناجاة دامعة.. فيها كلُّ ذبول العبادة الوضيء وجمالها الحبيب الهامس اللطيف.. جمال لا يدانيه جمال التصوُّرَات الشاعرية الطليقة.. نحتاج لنتكلم عن الطيِّب الذي طابت من آثار طيب رسالته الحياة.. نحتاج إلى كُلِّ طيب في الجنة قبل

---

(١) «السيرة بلغة الحب والشعر» للأستاذ سعيد حوّىٰ (ص٨- ٩)- طبع دار السلام.

الدنيا كل مسكٍ أذفر، وكلُّ طيوب العنبر.. كل بريق الماس واللآلئ وأصفى الدر والجواهر.

□ نحتاج حين نتكلم عن الحبيب العظيم ﷺ إلى كل جمالٍ في الكون.. نسائم الأسحار، وزجل المسبِّحين آناء الليل وأطراف النهار، وطُهر المستغفرين الأبرار قائمي الليل وصائمي النهار.. نحتاج إلى آهات المشتاقين الطاهرين.. كل طُهْر وطُمأنينة في الكونُ ويقين.. كل رُوح فجر وضيئة.

□ نحتاج إلى غمس القلم في مدادٍ نير طاهر يُغمس في كل الجمال والنور.. جمال كل هامسٍ وكل جاهر، وكل مُسْتَخْفٍ وكل سارب.. نحتاج إلى كلام من نورٍ عليه رَوْنق الماء، كأنما اشتعلت به الغيوم، كلام يتلألأ بالنور، كأنما عُصِر من النُّجوم.

نقترب في حياء من يعلم أنه يجاوز قدره..

أَمِـنَ الحـضيضِ أُريـدُ لَـمْـسًا ... جَـلَّ المقـامُ فـلا يُطـالُ مُقـامُ

يا ملءَ روحي وَهْج حُبِّكَ في دمِي ... قَـبَسٌ يُـضيء سـريرتي وزمَـامُ

نقترب في تهلُّل، لنعيش لحظات مترعة بغبطة الحياة حين نتكلم عن توقير وتعظيم وتعزير السراج المنير.. وحامل النور إلى هذه البسيطة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[الأحزاب].

* قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة].

□ قال الطبري: «يعني بالنور محمَّدًا ﷺ الذي أنار الله به الحقَّ،

وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به»[(١)].

فأي عبارات تليق بمقام النبوة؟!! وتتأب مع جلالها؟!

حروفُ معانٍ أو عقودُ جواهرِ ... تُحاكي مصابيح النجوم الزواهر
وإبريزُ تبريزِ من النَّظْم فُتِّحتْ ... قوافيه زهْرًا في رياض الدَّفاترِ
يروح بأرواح المحامدِ حُسْنُها ... فيَرْقى بها في ساميات المفاخرِ
إذا ما هداها الفكرُ أَهْدَت لذي النُّهى ... شمائلَ أشهى من طُيوب المَعاصَر
تشعشع من نورِ المعاني عنايةً ... بها تُضرَبُ الأمثال بين المعاشر
وتنظِمُ من نَثْر المثاني قلائدًا ... تُزَخْرف جِيْدَ الجُودِ من كُلِّ فاخرِ
وتنشر من طَيِّ المروءةِ للفتى ... مكارمَ أخلاقٍ وحُسْنَ سرائرِ
إذا سَتَروها بالحِجاب تبرَّجتْ ... محاسنُ تبدو من وراء الستائرِ
وإنْ فُضَّ في الأكوان مِسْكُ ختامها ... تَعطَّرَ منها كُلُّ نَجْدٍ وغائرِ
تخيَّرتها اللهاشميِّ محمَّدِ ... حميد المساعي خير بادٍ وحاضرِ
هدانا الصراط المستقيمَ بهدْيه ... وأورَى بنور الحقِّ نورَ البصائرِ

تعزيره وتوقيره وتعظيمه ﷺ:

* قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ⁨٨⁩ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ⁨٩⁩﴾ [الفتح].

* وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ⁨١٥٧⁩﴾ [الأعراف].

(١) «تفسير الطبري» (٨/ ٢٦٤)- طبع دار هجر.

□ قال صاحب «معجم مقاييس اللغة عن أصل كلمة التعزير» عزر العين، والزاء، والراء كلمتان، أحدهما: التعظيم والنصر. والكلمة الأخرى: جنس من الضرب. فالأُولى: النصر والتوقير كقوله تعالى: ﴿وَتُعَـزِّرُوهُ وَتُوَقِّـرُوهُ﴾.

والأصل الآخر: التعزير وهو الضرب دون الحَدِّ»[(١)].

□ وفي «النهاية في غريب الحديث»: «أصل التعزير: المنع والرد، فكأنَّ من نصرته قد ردت عنه أعداءه ومنعتهم مِن أذاه.

ولهذا قيل للتأديب الذي هو دون الحدِّ تعزير؛ لأنه يمنع الجاني أن يعاود الذنب، يقال عَزَرْته، وعَزَّرْته. فهو من الأضداد»[(٢)].

□ عن ابن عباس رضي الله عنهما: يقول: ﴿وَعَـزَّرُوهُ﴾ «حَمَوه ووقّروه»[(٣)].

□ وعن مجاهد قال: «عزروه: سدَّدوا أمره، وأعانوا رسوله ونصروه»[(٤)].

□ وعن قتادة قال: «ينصروه»[(٥)].

□ وقال الطبري: ﴿وَعَـزَّرُوهُ﴾: «وقروه وعظموه وحموه من الناس»[(٦)].

□ وقال أيضًا بعد أن نقل قول ابن عباس ومجاهد وقتادة «وهذه

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٣١١)- لابن فارس- تحقيق عبد السلام هارون- طبع مصطفى الحلبي.
(٢) «النهاية» لابن الأثير (٣/ ٢٢٨).
(٣) «تفسير الطبري» (٩/ ٨٥).
(٤) «تفسير الطبري» (٩/ ٨٥).
(٥) «تفسير الطبري» (٢٦/ ٧٥).
(٦) المصدر السابق (٩/ ٨٥).

الأقوال متقاربات المعنى، وإن اختلفت ألفاظ أهلها بها. ومعنى التعزير في هذا الموضع: التقوية بالنصر والمعونة، ولا يكون ذلك إلَّا بالطاعة والتعظيم والإجلال»[١].

□ وقال شيخ الإسلام: «التعزير: اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كلِّ ما يؤذيه»[٢].

(ب) وأما عن التوقير:

ففي «معجم مقاييس اللغة» «وقر» الواو والقاف. والراء: أصل يدلُّ على ثقل في الشيء. ومنه الوقار: الحلم والرزانة»[٣].

وفي «تهذيب اللغة»: وقر الرجل من الوقار، يقر، فهو وقور.

ووقرت الرجل: إذا عظمته ومنه قوله ﷻ: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[٤].

وفي «لسان العرب»: «وقر الرجل: بَجَّله، والتوقير: التعظيم والترزين»[٥].

وأما المعنى الشرعي المراد هنا:

□ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ويوقِّروه»، يعني: «التعظيم»[٦].

□ وقال قتادة: «ويوقروه»: «أمر الله بتسويده وتفخيمه»[٧].

---

(١) المصدر السابق (٢٦/ ٧٥).
(٢) «الصارم المسلول» لابن تيمية (ص٤٢٢).
(٣) «معجم مقاييس اللغة» (٦/ ١٣٢).
(٤) «تهذيب اللغة» للأزهري (٩/ ٢٨٠).
(٥) «لسان العرب» (٥/ ٢٩١).
(٦) «تفسير الطبري» (٢٦/ ٧٤).
(٧) «تفسير الطبري» (٢٦/ ٧٤).

□ وقال أيضًا: «ويوقروه»: «أيْ: ليعظموه»[(١)].

□ وقال ابن جرير الطبري: «فأما التوقير فهو التعظيم والإجلال والتفخيم»[(٢)].

□ وقال ابن تيمية: «التوقير: اسم جامع لكلِّ ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يُعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حدِّ الوقار»[(٣)].

□ وقال ابن كثير: «التوقير: هو الاحترام والإجلال والإعظام»[(٤)].

□ وإن تعظيم النبي ﷺ وإجلاله، وتوقيره، شُعبة عظيمة من شُعب الإيمان، وهذه الشُّعْبة غير شعبة المحبَّة[(٥)]، بل إن منزلتها ورتبتها فوق منزلة ورتبة المحبة، ذلك لأنه ليس كل مُحَبٍّ مُعظَّم، ألا ترى أن الوالد يحب ولده ولكن حبّه إياه يدعوه إلى تكريمه ولا يدعوه إلى تعظيمه. والولد يحب والده فيجمع له بين التكريم والتعظيم. والسيد قد يحبُّ مماليكه ولكنه لا يُعظِّمهم. والمماليك يُحبُّون ساداتهم ويُعظِّمونهم. فعلمنا بذلك أن التعظيم رتبته فوق رُتبة المحبّة»[(٦)].

* قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٦/ ٧٥).
(٢) المصدر السابق (٢٦/ ٧٥).
(٣) «الصارم المسلول» (ص٤٢٢).
(٤) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٨٥).
(٥) انظر: «المنهاج في شعب الحليمي» (٢/ ١٢٤)- الشعبة الخامسة عشرة و«الجامع في شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٣٠٠)- الشعبة الخامسة عشرة.
(٦) «المنهاج في شعب الإيمان» للحليمي (٢/ ١٢٤).

أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف]. فأبان أن حق الرسول ﷺ في أُمَّته أن يكون معززًا موقَّرًا مهيبًا.

وأخبر سبحانه أن الفلاح إنما يكون لمن جمع بين الإيمان به وتعزيره ولا خلاف في أن التعزير هنا التعظيم (١).

وفي الجمع الحاصل في الآيتيْن بين الإيمان به وتعظيمه، تنبيه وإرشاد إلى أن القيام بحقوقه ﷺ يُعَدُّ من الإيمان الواجب الذي لا يتمُّ إيمان العبد إلَّا به.

□ قال الحليمي (٢): «فمعلوم أن حقوق رسول الله ﷺ أجلُّ وأعظمُ وأكرمُ وألزمُ لنا وأوجب علينا من حقوق السادات على مماليكهم والآباء على أولادهم؛ لأن الله تعالى أنقذنا به من النار في الآخرة، وعصم به لنا أرواحنا وأبداننا وأعراضنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا في العاجلة، فهدانا به لما إذا أطعناه فيه أدَّانا إلى جنّات النعيم. فأيُّ نعمة توازي هذه النِّعم وأيَّةُ مِنَّة تُداني هذه المنن.

ثم أنه جلَّ ثناؤه ألزمنا طاعته، وتوعَّدنا على معصيته بالنار، ووعدنا باتباعه الجنة.

فأي رتبة تضاهي هذه الرتبة، وأي درجة تساوي في العُلَا هذه الدرجة. فحقٌّ علينا أن نحبَّه ونجلَّه ونعظمه ونهابه أكثر من إجلال كل عبد سيده وكل ولد والده. وبمثل هذا نطق القرآن ووردت

(١) انظر: المصدر السابق (٢/ ١٢٥).

(٢) الحليمي: هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني، فقيه شافعي، قاضي كان رئيس أهل الحديث في ما وراء النهر. توفىٰ في بخارىٰ سنة ٤٠٣هـ وله كتاب «المنهاج في شعب الإيمان».

أوامر الله جل ثناؤه»[١]،[٢].

□ وفي القرآن الكريم آيات كثيرة جاء فيها التأكيد على هذا الحق من حقوقه وبخاصة في جوانب مُعيَّنة من جوانب تعظيمه، ومن تلك الآيات.

* قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣].

«ففي هذه الآية نهي من الله أن يدعو رسول الله بغلظ وجفاء، وأمرٌ لهم أن يدعوه بلينٍ وتواضع»[٣].

□ قال مجاهد: «أمرهم أن يدعوه يا رسول الله في لين وتواضع، ولا يقولوا: يا محمد في تجهم»[٤].

□ وعن قتادة قال: «أمرهم أن يفخِّموه ويُشرِّفوه»[٥].

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «خصّ الله نبيه في هذه الآية بالمخاطبة بما يليق به، فنهى أن يقولوا: يا محمد أو يا أحمد، أو يا أبا القاسم، ولكن يقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وكيف لا يخاطبونه بذلك، والله سبحانه أكرمه في مخاطبته إياه بما لم يكرم به أحدًا من الأنبياء، فلم يدعه باسمه في القرآن قط، بل يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ١]،

---

(١) «المنهاج في شعب الإيمان» (٢/ ١٢٤- ١٢٥)، «والجامع لشعب الإيمان» (١/ ٣٠٢- ٣٠٣).

(٢) «حقوق النبي ﷺ على أمته» (ص٤٠٤- ٤٠٥) للدكتور محمد خليفة التميمي.

(٣) «تفسير الطبري» (١٨/ ١٧٧).

(٤) الهامش السابق.

(٥) الهامش السابق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥﴾ [الأحزاب]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾[المزمل]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ [المدثر]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤].

مع أنه سبحانه قال: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ﴾ [هود: ٧٦]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ [المائدة: ١١٠]»[1].

□ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كُنَّا في باب العبارة عن النبي ﷺ علينا أن نُفَرِّق بين مخاطبته والإخبار عنه.

فإذا خاطبناه كان علينا أن نتأدَّب بآداب الله حيث قال: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ [النور: ٦٣]، فلا تقول: يا محمد يا أحمد، كما يدعو بعضنا بعضًا، بل نقول: يا رسول الله، يا نبي الله، والله سبحانه وتعالى خاطب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ولما خاطبه ﷺ قال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ

(١) «الصارم المسلول» (ص٤٢٢ - ٤٢٣).

﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١].. فنحن أحق أن نتأدّب في دعائه وخطابه.

وأما إذا كنا في مقام الإخبار عنه قلنا: «أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»، وقلنا محمد رسول الله وخاتم النبيين، فنخبر عنه باسمه كما أخبر سبحانه لما أخبر عنه ﷺ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢]، فالفرق بين مقام المخاطبة ومقام الإخبار فرق ثابت بالشرع والعقل»[(١)].

* وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ①﴾ [الحجرات].

□ قال ابن كثير: «أي لا تُسارعوا في الأشياء بين يديه أي قبله، بل كونوا تبعًا له في جميع الأمور.

لقد تأدّب الصحابة مع ربهم ومع رسولهم ﷺ، فما عاد بعد نزول هذه الآية مقترح منهم يقترح على الله ورسوله، وما عاد واحد منهم يُدلي إن برأيه لم يطلب منه رسول الله ﷺ أن يُدلي به، وما عاد أحد يقضي برأيه في أمرٍ أو حُكم إلّا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول النبي ﷺ.

حتى كان الرسول ﷺ يسألهم عن اليوم الذي هم فيه والمكان الذي هم فيه، وهم يعلمونه حقَّ العلم، فيتحرَّجون أن يُجيبوا إلّا بقولهم: الله

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (١/ ٢٩٧، ٢٩٨).

ورسوله أعلم، خشية أن يكون في قولهم تقدُّمٌ بين يدي الله ورسوله.

• ومن ذلك ما جاء في حديث أبي بكرة نُفيْع بن الحارث الثقفي رضي الله عنه أن النبي ﷺ سأل في حجة الوداع: «**أي شهر هذا؟**».. قلنا: الله ورسوله أعلم. حتى ظننا أنه سيُسمِّيه بغير اسمه، قال: «**أليس ذو الحِجَّة؟**»، قلنا: بلى، قال: «**فأي بلدٍ هذا؟**». قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سَيسمِّيه بغير اسمه، قال: «**أليس البلدة؟**». قلنا: بلى. قال: «**فأي يوم هذا؟**». قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظنَنَّا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «**أليس يوم النحر؟**». قلنا: بلى.. الحديث..»[١].

* وكما سيأتي في «علو الهمة في الأدب» حُرِّم رفْع الصوت فوق صوت النبي وأن يُجهر له بالكلام كما يجهر الرجل للرجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات].

□ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجُلَيْن في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال: «أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: مِن أين أنتما؟ قالا من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا»[٢].

□ والمراد بقوله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ أنه إذا نطق

---

(١) أخرجه البخاري (٨/١٠٠٨) (ح٤٤٠٦)- كتاب المغازي- باب حجة الوداع.

(٢) أخرجه البخاري -كتاب الصلاة- باب رفع الصوت في المسجد (١/ ٥٦٠) (ح٤٧٠).

ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدِّ الذي يبلغه بصوته وأن تغضُّوا منها بحيث يكون كلامه عاليًا لكلامكم، وجهره باهرًا لجهركم، حتى تكون ميزته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، لا أن تغمروا صوته بلغطكم، وتبهروا منطقه بصخبكم؛ لأن في هذا خلوٌّ عن مراعاة أُبَّهَة النبوَّة، وجلالة مقدارها، وانحطاط الرتب وإنْ جلَّتْ عن رتبتها.

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب].

فالله تعالى من تعظيمه لنبيه ﷺ حفظ له كرامته وصان له حقه ففرق بين أذاه وأذى المؤمنين، فأوجب على من أذى النبي ﷺ اللعن والطرد من رحمته وهذا حكم على من أذاه بالكفر وفي الآخرة له العذاب المهين ومصيره إلى جهنم وبئس المصير.

بينما حكم على من أذى المؤمنين بالبهتان والإثم، والفرق بين الحكمين ناتج عن الفرق بين حق النبي ﷺ وحق غيره.

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية في استدلاله بهذه الآية على وجوب قتل من أذى النبي ﷺ ودلالتها من وجوه.

أحدها: أنه قرن آذاه بآذاه كما قرن طاعته بطاعته، فمن آذاه فقد آذى الله تعالى، وقد جاء ذلك منصوصًا عنه، ومن آذى الله فهو كافر حلال الدم.

* بين ذلك أن الله تعالى جعل محبة الله ورسوله، وإرضاء الله ورسوله وطاعة الله ورسوله شيئًا واحدًا فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ

وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤].

* وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ في مواضع متعددة.

* وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة: ٦٢]. فوحد الضمير، وفي ذلك إشارة إلى أن إرضاء الله فيه إرضاء للرسول وإرضاء الرسول فيه إرضاء لله.

* وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح: ١٠].

* وقال أيضًا: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ١].

* وجعل شقاق الله ورسوله ومحادة الله ورسوله وأذى الله ورسوله ومعصية والله رسوله شيئًا واحدًا، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفال: ١٣].

* وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [المجادلة: ٢٠].

* وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [التوبة: ٦٣].

* وقال: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [النساء: ١٤].

وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقين، وأن جهة حرمة الله تعالى ورسوله جهة واحدة، فمن آذى الرسول فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله؛ لأن الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلَّا بواسطة الرسول، ليس لأحد منهم طريق غيره، ولا سبب سواه، وقد أقامه الله مقام نفسه في أمره ونهيه وإخباره وبيانه، فلا يجوز أن يفرق بين الله ورسوله في شيءٍ من هذه الأمور.

وثانيها: أنه فرق بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين والمؤمنات، فجعل على هذا أنه قد احتمل بهتانًا وإثمًا مبينًا وجعل على ذلك اللعنة في الدنيا والآخرة وأعد له العذاب المهين، ومعلوم أن أذى المؤمنين قد يكون من كبائر الإثم فيه الجلد، وليس فوق ذلك إلَّا الكفر والقتل.

الثالث: أنه ذكر أنه لعنهم في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابًا مهينًا، واللعن: الإبعاد عن الرحمة، ومن طرده من رحمته في الدنيا والآخرة لا يكون إلَّا كافر، فإن المؤمن يقرب إليها بعض الأوقات ولا يكون مباح الدم؛ لأن حقن الدم رحمة عظيمة من الله، فلا تثبت في حقه..»(١).

* وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ [البقرة].

◻ قال بعض المفسرين: «هي لغة كانت في الأنصار، نهوا عن قولها تعظيمًا للنبي ﷺ وتبجيلًا له؛ لأن معناها ارعنا نرعك، فنهوا عن قولها، إذ مقتضاها كأنهم لا يرعونه إلَّا برعايته لهم، بل حقه أن يرعى على كل حال.

وقيل: كانت اليهود تعرض بها للنبي ﷺ بالرعونة فنهى المسلمون عن قولها قطعًا للذريعة، ومنعًا للتشبه بهم في قولها لمشاركة اللفظة وقيل غير هذا»(٢).

* وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ

---

(١) «الصارم المسلول» (ص٤٠- ٤١).
(٢) «الصارم المسلول» (ص٥٩- ٦٠).

﴿أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾ [الأحزاب].

ففي هذه الآية حرم الله على الأمة أن تنكح أزواجه من بعده؛ لأن ذلك يؤذيه، وجعله عظيمًا عند الله تعظيمًا لحرمته ﷺ، فحرم تعالى على الأمة ما هو مباح أن يعامل به بعضهم بعضًا، وذلك تميزًا لنبيه ﷺ وتعظيمًا لشأنه.

وقد ذكر أن هذه الآية نزلت لما قال بعض الناس: «لو قد توفي رسول الله ﷺ تزوجت عائشة»[(١)].

ولو أن أحدًا أقدم على هذا الأمر فنكح أزواجه أو سراريه لكانت عقوبته في الشرع هي القتل جزاء له بما انتهك من حرمته والدليل على ذلك ما رواه مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلًا كان يتهم بأم ولد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لعلي: «اذهب فاضرب عنقه»، فأتاه علي فإذا هو في ركي[(٢)] يتبرد فيها، فقال له علي: أخرج فناوله يده فأخرجه، فإذا هو مجبوب ليس له ذكر فكف عليّ عنه، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه مجبوب ما له ذكر»[(٣)].

□ قال ابن تيمية رحمه الله: «فهذا الرجل أمر النبي ﷺ بضرب عنقه لما قد استحل من حرمته، ولم يأمر بإقامة حد الزنا؛ لأن إقامة حد الزنا ليس هو ضرب الرقبة، بل إن كان محصنًا رجم، وإن كان غير محصن جلد، ولا يقام عليه الحد إلَّا بأربعة شهداء أو بالإقرار المعتبر فلما أمر النبي

---

(١) «الصارم المسلول» (ص٤٢٣).

(٢) الركي: جنس للركية، هي البئر، وجمعها ركايا «النهاية» (٢/ ٢٦١).

(٣) «صحيح مسلم» كتاب التوبة، باب برائة حرم النبي ﷺ من الريبة (٨/ ١١٩).

ﷺ بضرب عنقه من غير تفصيل بين أن يكون محصنًا أو غير محصن علم أن قتله لما انتهكه من حرمته.. فلما تبين أنه كان مجبوب علم أن المفسدة مأمونة منه..»(١).

وبالإضافة إلى ما تقدم، فقد أوجب الله على الأمة احترام أزواج النبي ﷺ وجعلهن أمهات في التحريم والاحترام(٢).

* فقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦]. ففي هذه الآية رفع الله مقام أزواج النبي ﷺ وبوأهن منزلة عالية، وهي منزلة الأمومة لجميع المؤمنين، وفي ذلك من الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام ما يوجب على كل مسلم أن يحفظ لهن هذا الحق ويؤديه على الوجه المطلوب منه شرعًا.

وهذه المنزلة لأمهات المؤمنين هي من التشريف والتعظيم الذي أعطاه الله للنبي ﷺ.

تعظيم الصحابة للنبي ﷺ في حياته:

✍ الصحابة ﭬ هم أعلم الأمة بالنبي ﷺ؛ ولذلك فقد كانوا بقدره ومنزلته أعلم وأعرف من غيرهم. وكان تعظيمهم وتوقيرهم للنبي ﷺ أشد وأكبر من غيرهم.

✍ وقد أوردت كتب السنة والتفسير وغيرها صورًا متعددة من ذلك التعظيم والتوقير الذي كان يفعله الصحابة رضوان الله عليهم مع النبي ﷺ.

(١) «الصارم المسلول» (ص٥٩- ٦٠).
(٢) المصدر السابق (ص٤٢٣).

توقير ذي النورين «عثمان بن عفان» رضي الله عنه:

في الحديبية أرسل رسولُ الله ﷺ عثمانَ رضي الله عنه إلى قريش، ليخبرَهم أنه لم يأتِ ومَن معه لقتال، وإنمَا جاؤوا عُمَّارًا.

انطلق عثمَانُ، وبلَّغ رسالةَ رسولِ الله ﷺ، ولمَّا رجع عثمَانُ قال المسلمون: هنيئًا -أبا عبد الله-، لقد اشتَفيتَ من الطواف بالبيت. فقال: بِئسمَا ظننتم بي، والذي نفسي بيدِه، لو مكثتُ بها سنةً ورسولُ الله ﷺ بالحُديبية، ما طُفتُ بها حتى يطوفَ رسولُ الله ﷺ، ولقد دعتني قريشٌ إلى الطواف بالبيت فأبيت[١].

توقير المغيرة بن شعبة رضي الله عنه للنبي ﷺ:

• قال الصحابي الجليل أبو عيسى المغيرة بن شعبة: «بَعَثَت قريشٌ عامَ الحديبية عروة بن مسعود إلى رسول الله ﷺ ليُكَلِّمَه. فأتاه، فكَلَّمه، وجعلَ يَمَسُّ لحيتَه، وأنا قائمٌ على رأس رسول الله ﷺ مُقَنَّعٌ في الحديد، فقال المغيرة لِعُروة: كُفَّ يدك قبل أن لا تصلَ إليك، فقال: مَن ذا يا محمد؟ ما أَفَظَّهُ وأغلَظَه. قال: «**ابنُ أخيك**»، فقال: يا غُدَر، والله ما غسلتُ عني سَوْءَتَكَ إلَّا بالأمس[٢]»[٣].

ومن أبلغ ما قيل في وصف هذا التعظيم ما قاله عروة بن مسعود.

---

(١) «نفح الطيب من محبة الحبيب ﷺ..» للشيخ عليٍّ القرْني.

(٢) قال ابن هشام في «السيرة» (٢/ ٣١٣): «أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف، فتهايج الحيَّان من ثقيف: بنو مالك رهط المقتولين، والأحلاف رهط المغيرة، فودىٰ عروة المقتولين ثلاث عشرة دية، وأصلح ذلك الأمر.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢١- ٣٢).

حين وجهته قريش إلى رسول الله ﷺ ورأى من تعظيم أصحابه له ما رأى وأنه لا يتوضأ إلَّا ابتدروا وضوءه، وكادوا يقتتلون عليه، ولا يبصق بصاقًا، ولا يتنخم نخامة إلَّا تلقوها بأكفهم فدلكوا بها وجوههم وأجساده، ولا تسقط منه شعرة إلَّا ابتدروها، وإذا أمرهم بأمرٍ ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له.

فلما رجع إلى قريش قال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مليكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدًا، والله إن انتخم نخامة إلَّا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له..[(١)].

□ وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: «أتيت رسول الله ﷺ وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير..» الحديث[(٢)].

□ وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير..» الحديث[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، كتابة الشروط. انظر: «فتح الباري» (٥/ ٣٢٩، ٣٣١).

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» - كتاب الطب، باب في الرجل يتداوىٰ (ح٣٨٥٥)، وأخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٧٨).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٧) وأخرجه ابن ماجه في «سننه»، كتاب الجنائز، باب ما جاء في الجلوس في المقابر (١/ ٤٩٤) (ح١٥٤٩).

• وعن أبي سعيد الخدري ﵁ أن رسول الله ﷺ قام على المنبر فقال: «**إنما أخشى عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من بركات الأرض**»، ثم ذكر زهرة الدنيا فبدأ بإحداهما وثنى بالأخرى، فقام رجل فقال: يا رسول الله، أو يأتي الخير بالشر؟

فسكت عنه النبي ﷺ، قلنا: يوحى إليه، وسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير.. الحديث [(١)].

فالشاهد من الآثار الثلاثة المتقدمة قولهم: كأن على رؤوسهم الطير، فهذه العبارة هي كناية عن التعظيم الذي كانوا يظهرونه في مجلس الرسول ﷺ توقيًا وإجلالًا له صلوات الله وسلامه عليه، فلم يكن من عادة الصحابة ﵃ أن يتجادلوا في مجلس النبي ﷺ أو يعلوا أصواتهم بنقاش أو حوار بل يعطون لهذا المجلس حقه من التشريف والاحترام وعن بريدة ابن الحصيب ﵁ [(٢)] قال: «كنا إذا قعدنا عند رسول الله ﷺ لم نرفع رؤوسنا إليه إعظامًا له» [(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الجهاد، باب فضل النفقة في سبيل الله. انظر «فتح الباري» (٦/ ٤٨، ٤٩) (ح٢٨٤٢).

(٢) بريدة بن الحصيب بن عبد الله الأسلمي، قيل: أنه أسلم حين مر به النبي ﷺ مهاجرًا، وقيل: أسلم بعد منصرف النبي ﷺ من بدر، وفي «الصحيحين» عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة، وأخباره كثيرة ومناقبة مشهورة، مات سنة ثلاث وستين. «الإصابة» (١/ ١٥٠).

(٣) أخرجه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرىٰ»، باب توقير العالم والعلم (ص٣٨١) (ح٦٥٨).

علو همة عمرو بن العاص في توقير النبي ﷺ:

□ وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «وما كان أحد أحب إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه»[(١)].

علو همة حَبْر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

• وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «قام رسول الله ﷺ يصلي من الليل، قال: فقمت وتوضأت أصلي خلفه فأخذ بيدي فجعلني حذاءه فخنست[(٢)] فقمت خلفه فأخذ بيدي فجعلني حذاءه فخنست فقمت خلفه، فانصرف رسول الله ﷺ فقال: «**ما لي كلما جعلتك حذائي خنست؟**».

قال: فقلت له: لا ينبغي لأحد أن يصلي حذاءك وأنت رسول الله.

قال: فدعا الله أن يزيدني فهمًا وعلمًا»[(٣)].

□ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن أبواب النبي ﷺ كانت تُقرَع بالأظافير»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١/ ٧٨).

(٢) خنست: أي انقبضت وتأخرت. «النهاية» (٢/ ٨٣).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٣٠)، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٣٤)، وقال: حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، باب شعبة تعظيم النبي ﷺ (١/ ٣٢٠، ٣٢١) (ح١٢٩).

(٤) رواه البزار في «كشف الأستار» (٢/ ٤٢١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» باب شعبة تعظيم النبي ﷺ (١/ ٣٣٨) (ح١٣٤).

◻ وعن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يقرعون بابه بالأظافير»[(١)].

◻ وعن أبي هريرة ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يجلس معنا في المسجد يحدثنا فإذا قام، قمنا حتى نراه، وقد دخل بعض بيوت أزواجه..» الحديث[(٢)].

◻ وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «لما كان يوم بدر فذكر الحديث في الأسارى وذكر قول عمر في قتلهم، فقال ابن مسعود قلت: يا رسول الله إلَّا سهل[(٣)] بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام فسكت رسول الله ﷺ

(١) أخرجه الحاكم في «معرفة علوم الحديث النوع الخامس» (ص١٩). وأخرجه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرىٰ» (ص٣٨١). وقال السخاوي في «فتح المغيث» (١/ ١١٧): الحديث أخرجه الحاكم في علومه، وكذا في «الأمالي» كما عزاه إليهما البيهقي في «المدخل» حيث أخرجه عن راو، ورواه أبو نعيم في «المستخرج علىٰ علوم الحديث» له – أي: الحاكم- عن راو آخر كلاهما عن أحمد بن عمرو (كذا) الزيبقي عن زكريا بن يحيىٰ المنقري، عن الأصمعي، عن كيسان مولىٰ هشام بن حسان، وفي رواية الآخرين، عن محمد بن حسان زاد البيهقي وهو أخو هشام بن حسان وهو حسن الحديث. انتهىٰ قول السخاوي.

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب الأدب، باب في الحلم وأخلاق النبي ﷺ (٥/ ١٣٣، ١٣٤) (ح٤٧٧٣). وأخرجه النسائي في «سننه»، في القسامة، باب القود، من الجندة (٨/ ٣٣، ٣٤). وأخرجه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرىٰ» (ص٤٠١) (ح٧١٧).

(٣) سهل بن بيضاء القرشي، وبيضاء أمه واسمها دعد واسم أبيه وهب بن ربيعة بن هلال القرشي، كان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش علىٰ بني هاشم، أسلم بمكة فكتم إسلامه فأخرجته قريش إلىٰ بدر فأسر يومئذٍ فشهد له ابن مسعود أنه رآه يصلي بمكة فأطلق ومات بالمدينة. «الإصابة» (٢/ ٨٤).

فما رأيتني في يوم بدر أخوف أن تقع علي حجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ إلَّا سهل بن بيضاء»(١).

□ وعن أبي رمثة (٢) قال: «قدمت المدينة ولم أكن رأيت رسول الله ﷺ فخرج وعليه ثوبان أخضران فقلت لابني: هذا والله رسول الله ﷺ فجعل ابني يرتعد هيبة لرسول الله ﷺ»(٣).

□ وعن أبي جري جابر بن سليم (٤) قال: «رأيت رجلًا يصدر الناس

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٨٣). وأخرجه الترمذي في «سننه»، كتاب التفسير، تفسير سورة الأنفال (٤/ ٣٣٥) (ح٥٠٨٠) وقال: حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٧٧) (ح١٠٢٥٨) بنحوه وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢١- ٢٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٣٢٥) (ح١٣٠).

(٢) أبو رمثة – بكسر أوله وسكون الميم ثم مثلثة- التيمي اختلف في اسمه فقيل: رفاعة بن يثربي، ويقال: عكسه، ويقال: عمارة بن يثربي، وقيل غير ذلك، له صحبة، ومات بأفريقية. «الإصابة» (٤/ ٧١)، و«تقريب التهذيب» (٤٠٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٢٦- ٢٢٧- ٢٢٨) بعدة طرق عن لقيط بن إياد عن أبي رمثة به. وأخرجه أبو داود في «سننه»، كتاب اللباس، باب في الخضرة (٤/ ٣٣٤) (ح٦٤٥/ ٤٠٥). وأخرجه الترمذي في «سننه» كتاب الأدب، باب ما جاء في الثوب الأخضر (٥/ ١١٩) (٢٨١٢). وأخرجه النسائي في «سننه» كتاب الزينة، باب لبس الخضر من الثياب (٨/ ٢٠٤). وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٣٤٢)، وفي «دلائل النبوة» (١/ ٢٣٧).

(٤) أبو جري – بالتصغير- الهجيمي وأسمه جابر بن سليم وقيل سليم بن جابر، وقال البخاري الأول أصح، له صحبة وهو من بني أنمار بن الهجيم بن عمرو ابن تميم. «تهذيب التهذيب» (١٢/ ٥٤).

عن رأيه لا يقول شيئًا إلَّا صدورًا عنه، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ..» الحديث(١).

□ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه وأطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلَّا في يد رجل»(٢).

□ وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما حلق رأسه كان أبو طلحة(٣) أول من أخذ من شعره»(٤).

□ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بإناء إلَّا غمس يده فيها فربما جاؤه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها»(٥).

□ ولما بعثت قريش أبا سفيان إلى الرسول ﷺ ليشهد في عقد صلح الحديبية ويزيد في المدة، فلما قدم المدينة دخل على ابنته أم حبيبة، فلما

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه»- كتاب اللباس- باب ما جاء في إسبال الإزار (٤/ ٣٤٤) (ح٤٠٨٤) واللفظ له..، وأخرجه الترمذي في «سننه» - كتاب الاستئذان- باب كراهية أن يقول عليك السلام مبتدئًا وقال: حسن صحيح (٥/ ٧١، ٧٢) (ح٢٧٢١).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٧/ ٧٩).

(٣) اسمه زيد بن سهل.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الوضوء، باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان. انظر: «فتح الباري» (٣/ ٢٧٣) (ح١٧١).

(٥) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٧/ ٧٩).

ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوته، فقال: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أو رغبت به عني؟

فقالت: هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراشه..»[(١)] فأكرمت فراش رسول الله ﷺ أن يجلس عليه رجل مشرك.

□ ولما قدم أبو سفيان مكة بعد ذلك قالت له قريش: «ما وراءك، هل جئت بكتاب من محمد أو عهد؟ قال: لا والله قد أبى علي، وقد تتبعت أصحابه فما رأيت قومًا لملك عليه أطوع منهم له..»[(٢)].

علو همة عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول رضي الله عنه في توقير النبي ﷺ:

ولما قال رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول[(٣)] لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

• قال رسول الله ﷺ: «**ادعوا لي عبد الله بن عبد الله بن أبيّ**»[(٤)]فدعاه،

---

(١) أورده ابن كثير في «البداية» (٤/ ٢٨٠) من طريق ابن إسحاق، وابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٢٩٩، ٣٠٠).

(٢) «البداية» لابن كثير (٤/ ٢٨٢).

(٣) عبد الله بن أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي، أبو الحباب المشهور بابن سلول، وسلول جدته لأبيه، رأس المنافقين في الإسلام أظهر الإسلام بعد وقعة بدر، تقية، مات بالمدينة سنة تسع من الهجرة. «طبقات ابن سعد» (٣/ ٩٠).

(٤) عبد الله بن عبد الله بن أبي بن مالك، وهو ابن عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين الذي تقدمت ترجمته. وكان اسم عبد الله بن عبد الله «الحباب» فسماه النبي ﷺ «عبد الله» وهو صحابي جليل، شهد بدرًا وما بعدها، واستشهد باليمامة في قتال الردة سنة اثنتي عشرة «الإصابة» (٢/ ٣٢٧، ٣٢٨).

فقال: «ألا ترى ما يقول أبوك؟». قال: وما يقول بأبي أنت وأمي؟ قال: «يقول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»، فقال: فقد صدق والله يا رسول الله، أنت والله الأعز وهو الأذل، أما والله قد قدمت المدينة يا رسول الله، وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر مني، ولئن كان يرضي الله ورسوله أن آتيهما برأسه لآتيتهما به. فقال رسول الله ﷺ: «لا». فلما قدموا المدينة، قام عبد الله بن عبد الله بن أبيّ على بابها بالسيف لأبيه، ثم قال: أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله، والله لا يأويك ظله، ولا تأويه أبدًا إلَّا بإذن من الله ورسوله. فقال: يا للخزرج ابني يمنعني بيتي، يا للخزرج ابني يمنعني بيتي فقال: والله لا تأويه أبدًا إلَّا بإذنٍ منه.

فاجتمع إليه رجال فكلموه، فقال: والله لا يدخله إلَّا بإذنٍ من الله ورسوله، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه.

فقال: «اذهبوا إليه، فقولوا له خله ومسكنه»، فأتوه فقال: أما إذا جاء أمر النبي ﷺ فنعم»(١).

وفي رواية عند الترمذي: «فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله: «والله لا تنفلت حتى تقر أنك الذليل ورسول الله ﷺ العزيز ففعل»(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨/ ١١٤، ١١٥)، تفسير سورة المنافقين الآية (٨).

(٢) «سنن الترمذي» (٥/ ٤١٨) (ح٣٣١٥) كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المنافقين. وأورده ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٧٢) وعزاه للحميدي في «مسنده». وأورده ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٦٥٢).

علو همة الأنصار رضي الله عنهم في تعظيم النبي ﷺ وتوقيره:

□ عن أنس رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: «لو أتيْت عبد الله بن أبيّ فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حمارًا، فانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرضٌ سَبِخَة [(١)]، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، والله لقد آذاني نَتْنُ حِمارِك. فقال رجلٌ من الأنصار منهم: والله لحَمَارُ رسول الله أطيب ريحًا منك» [(٢)].

✍ يا لَعِظم الأنصار.. يقول أحدهم هذا لابن سلول الذي كانوا يعقدون له خرز التاج ليُنَصِّبوه ملكًا عليهم وقت هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.. فلما آمنوا وكفر، ما كان شيءٍ أعظم وأوقر في صدورهم من رسول الله ﷺ.

توقير أبي محذورة للنبي ﷺ وتعظيمه لآثاره:

كانت لأبي محذورة قُصَّة في مُقدَّم رأسه، إذا قعد وأرسلها وَصَلَت إلى الأرض، فقيل له: ألا تحلِقُها؟ قال: لم أكن بالذي يحلقها، وقد مَسَّها رسول الله ﷺ بيده [(٣)].

تعظيم سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه لِشَعْر رسول الله ﷺ:

□ وكانت لخالد بن الوليد رضي الله عنه قُلُنسوة، فيها شَعَراتٌ من شَعْر

---

(١) السَّبِخَة: هي الأرض التي لا تنبت لملوحة أرضها.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه»- كتاب الصلح- باب ما جاء في الإصلاح بين الناس (٥/٢٩٧- ٢٦٩١)، ورواه مسلم في «صحيحه»- كتاب الجهاد والسير- باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين.

(٣) «هذا الحبيب محمد» (ص٤٤٧) للشيخ أبي بكر جابر الجزائري.

رسول الله ﷺ فسقطت منه في بعض حروبه، فشدَّ عليهم شدَّة، أنكرها عليه أصحابه؛ لكثرة مَن قُتِل فيها. فقال: «لم أفعلها من أجل القَلَنْسُوة؛ بل لما فيها مِن شَعْر رسول الله ﷺ، لِئَلَّا أُسْلَبَ بركتها، وتقع في أيدي المشركين!!!»[١].

حُبُّ الصحابي البدري سواد بن غَزِيَّة رضي الله عنه وتوقيره لرسوله ﷺ:

□ يَا لَحُبِّ الصحابي الجليل سَوَاد بن غُزِية بن وهب[٢] لرسول الله ﷺ يترجم ذلك في معركة بدر.

في يوم بدر عدل رسول الله ﷺ الصفوف وفي يده قَدَح، فَمَرَّ بسواد ابن غُزِيَّة فطعنه في بطنه، فقال: «أَوْجَعتني فأَقِدْني، فكشف عن بطنه فاعتنقه وقبَّل بطنه، فدعا له بخير».

□ قال أبو عمر ابن عبد البر: «رُويت هذه القصة لسواد بن عمرو. قال الحافظ ابن حجر: لا يمتنع التعدُّد، لا سيما مع اختلاف السبب».

□ وفي رواية: «أنه لما كشف له عن بطنه فقبَّله وقال: أتركها لتشفع لي بها يوم القيامة، قال الحسن: «فأدركه الإيمان عند ذلك»[٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) قالوا: هو من بليّ بن عمرو بن الحاف من قضاعة حليف الأنصار. وقالوا: بل هو من بني عدي بن النجار. وحكىٰ السهيلي تشديد الواو أي يُقال سوّاد. شهد بدرًا وأُحُد والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

(٣) انظر: «طبقات ابن سعد» (٣/ ٥١٦)، و«أسد الغابة» (ترجمة ٢٣٣٣)، و«الاستيعاب» (ترجمة ١١١٣)، و«الإصابة» (٣/ ١٨٠) (ترجمة ٣٥٩٥).

وسَوَاد بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه:

□ أخرج ابن سعد عن الحسن أن رسول الله ﷺ رأى سواد بن عمرو ملتحفًا فقال: «خط خط ورس ورس. ثم طعنه بعود أو سواك في بطنه، فماد في بطنه فأثَّر في بطنه – فذكر نحوه»[١].

□ وأخرج عبد الرزاق[٢] عن الحسن قال: «كان رجل من الأنصار يُقال له: سوادة بن عمرو رضي الله عنه يتخلَّق[٣] كأنه عرجون، وكان النبي ﷺ إذا رآه نَغَضَ[٤] له، فجاء يومًا وهو متخلِّقٌ، فأهوى له النبي ﷺ بعُود كان في يده فجرحه، فقال له: القصاص يا رسول الله، فأعطاه العود – وكان على النبي ﷺ قَميصان– فجعل يرفعهما، فنهره[٥] الناس، وكفّ عنه حتى إذا انتهى إلى المكان الذي جرحه رمى بالقضيب وعلقه يقبِّله[٦]، وقال: يا نبي الله، بل أَدَعها لك تشفع لي بها يوم القيامة»[٧].

تقبيل أُسَيْد حُضير بن جسد رسول الله ﷺ:

• عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، قال: «كان أُسيد بن حُضَيْر رضي الله عنه رجلًا صالحًا ضاحكًا مليحًا، فبينما هو عند رسول الله ﷺ يُحدِّث

(١) «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد (٣/ ٥١٦).
(٢) «المصنف» لعبد الرزاق (٩/ ٤٦٩) (١٨٠٣٩).
(٣) أي: يتطيَّب بالخلوق، وهو طيب مُرَكَّب من زعفران وغيره.
(٤) نغض له: أي حرَّك رأسه.
(٥) أي زجروه.
(٦) أي: طفق يُقبِّله.
(٧) «الإصابة» لابن حجر (٢/ ٩٦).

القوم ويضحكهم، فطعنه رسول الله ﷺ في خاصرته. فقال: أوجعتني، قال: «اقتص»[(١)]، قال: يا رسول الله إنَّ عليك قميصًا ولم يكن عليَّ قميص. قال: فرفع رسول الله ﷺ قميصه فاحتضنه، ثم جعل يقبل كشحه، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أردتُ هذا»[(٢)].

□ وأخرج ابن سعد عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن القاريّ أنه نظر إلى ابن عمر رضي الله عنهما وضع يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر، ثم وضعها على وجهه»[(٣)].

بأبي وأمي رسول الله ﷺ:

لقد جبل الله عز وجل نبيّه ﷺ على مكارم الأخلاق وكرائم الشيم، فإن من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق، فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة وأصدقهم حديثًا وأجودهم وأسخاهم وأشدهم احتمالا، وأعظمهم عفوًا ومغفرة، كان لا يزيده شدة الجهل عليه إلَّا حلمًا، كما روى البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن عمرو أنه قال في صفة رسول الله ﷺ في التوراة «محمد عبدي ورسولي سميته المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء وأفتح به أعينًا

---

(١) أي: خذ مني القصاص.

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢٨٨)، وابن عساكر، والطبراني في «المعجم الكبير» (٥٥٦) و(٥٥٧)، انظر «كنز العمال» (٤/ ٤٣): وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. والكشح: الموضع الذي بين الإبط والخاصرة.

(٣) «الطبقات الكبرىٰ» (١/ ٢٥٤).

عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا، حتى يقولوا: لا إله إلَّا الله».

وأرحم الخلق وأرأفهم بهم وأعظم الخلق نفعًا لهم في دينهم ودنياهم وأفصح خلق الله وأحسنهم تعبيرًا عن المعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة الدالة على المراد، وأصبرهم في مواطن الصبر، وأصدقهم في مواطن اللقاء، وأوفاهم بالعهد والذمة، وأعظمهم مكافأة على الجميل بأضعافه، وأشدهم تواضعًا، وأعظمهم إيثارًا على نفسه، وأشد الخلق ذبًا عن أصحابه وحماية لهم ودفاعًا عنهم، وأقوم الخلق بما يأمر به، وأتركهم لما ينهى عنه، وأوصل الخلق لرحمه.

وكان أجود الناس صدرًا، وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم ير قبله ولا بعده مثله ﷺ.

وقد خصه الله بصفتين خص بهما أهل الصدق والإخلاص وهما الإجلال والمحبة، فقد ألقى عليه هيبة منه ومحبة، فكان كل من يراه يهابه ويجله ويملأ قلبه تعظيمًا وإجلالًا، وإن كان عدوًا له، فإذا خالطه وعاشره كان أحب إليه من كل مخلوق، فهو المجل المعظم المحبوب المكرم، وهذا غاية كمال المحبة أن تقرن من كل مخلوق، فهو المجل المعظم المحبوب المكرم، وهذا غاية كمال المحبة أن تقرن بالتعظيم والهيبة، فالمحبة بلا تعظيم ولا هيبة ناقصة والهيبة والتعظيم من غير محبة -كما يكون الظالم القادر- نقص أيضًا، وكمال أن تجتمع المحبة والود والتعظيم والإجلال، وهذا لا يوجد إلَّا إذا كان في المحبوب

صفات الكمال التي يستحق أن يعظم لأجلها ويحب لأجلها»[١].

ولقد جمع الله تعالى لنبينا ﷺ من الصفات والخصائص ما لم يجمعه لبشر، وافترض على العباد طاعته وتعزيره وتوقيره ورعايته والقيام بحقوقه، وامتثال ما قرره في مفهومه ومنطوقه، والصلاة عليه والتسليم ونشر شريعته بالعلم والتعليم، وجعل الطرق مسدودة عن جنته، إلَّا من سلك طريقه واعترف بمحبته، وشرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، فيا سعد من وفق لذلك ويا ويح من قصر عن هذه المسالك[٢].

وما هذه المحبة والمهابة التي جعلها الله لنبيه ﷺ إلَّا تبع لمحبته سبحانه وإجلاله.

ذلك لأن كل محبة وتعظيم للبشر إنما هي تبع لمحبة الله وتعظيمه، فمحبة الرسول وتعظيمه إنما هي من تمام محبة مرسله وتعظيمه، فأمته يحبونه لمحبة الله له، ويعظمونه ويجلونه لإجلال الله له، فهي من موجبات محبة الله وتعظيمه، ولهذا لم يكن بشر أحب إلى بشر ولا أهيب ولا أجل في صدره من رسول الله ﷺ في صدر أصحابه ﷺ.

فإذا كان هذا شأن النبي ﷺ، وهذه مكانته التي بوأه الله إياها، فحري بهذه الأمة أن تعرف له قدره وتعظم من شأنه وذلك بموجب ما شرعه الله وأمر به، فذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلَّا به.

---

(١) «جلاء الأفهام» (ص٨٩- ٩٤) بتصرف.
(٢) «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع» للسخاوي (ص١١) بتصرف، و«حقوق النبي» (ص٤٤٥- ٤٤٦).

وهذا التعظيم والتوقير الواجب له ﷺ على كل فرد من أفراد هذه الأمة محله القلب واللسان والجوارح.

أما تعظيم القلب: فهو ما يتبع اعتقاد كونه عبدًا رسولًا، من تقديم محبته على النفس والولد والوالد والناس أجمعين، والتي من لوازمها الإكثار من ذكره الذي هو سبب لدوام محبته ﷺ وزيادتها وتضاعفها.

وكذلك فإن من تعظيم القلب استشعاره لهيبة النبي ﷺ وجلالة قدره وعظيم شأنه، واستحضاره لمحاسنه ومكانته ومنزلته، والمعاني الجالبة لحبه وإجلاله وكل ما من شأنه أن يجعل القلب ذاكرًا لحقه من التوقير والتعزير، معترفًا به ومذعنا له.

فالقلب ملك الأعضاء وهي له جند وتبع، فمتى ما كان تعظيم النبي آثار ذلك ستظهر على الجوارح حتمًا لا محالة، وحينئذٍ سترى اللسان يجري بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه، وترى باقي الجوارح ممتثلة لما جاء به ومتبعه لشرعه وأوامره، ومؤدية لما له من الحق والتكريم.

أما تعظيم اللسان: فهو الثناء عليه بما هو أهله مما أثنى به عليه ربه وأثنى على نفسه من غير غلو ولا تقصير.

□ ومن توقير النبي ﷺ بعد مماته طاعته والذب عن سنته، واتباعه، وتعظيم حديثه.

□ كان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت، وقال: «لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﷺ، ويرى أنه يجب الإنصاتُ عند قراءة حديثه، كما يجب ذلك عند سماع قوله ﷺ».

□ وما رُوي عن جعفر بن محمد الصادق: «أنه إذا ذُكِر عنده النبي ﷺ اصفرَّ وجهه، وما رُئي يحدث عن رسول الله ﷺ إلَّا على طهارة».

□ ومرّ مالك بن أنس – إمام دار الهجرة على أبي حازم وهو يحدِّث فجازه ولم يقف عنده، وعلل لذلك بقوله: «إني لم أرَ موضعًا أجلس فيه، فكرهتُ أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم، وكان رَحِمَهُ اللهُ تعالى إذا أراد أن يُحدِّث عن رسول الله ﷺ، اغتسل وتطيَّب، ولبس أحسن ثيابه، ثم خرج فحدَّث»(١).

ومن توقيره ﷺ بعد مماته توقير آله وذريته وأزواجه رضي الله عنهن:

إن من توقير النبي ﷺ ورعاية جنابه وتبجيله وتعظيمه توقير آله وذريته وأزواجه، كما حض عليه ﷺ وسلكه السلف الصالح رضوان الله عليهم.

١ – فآل بيت النبي ﷺ لهم من الحقوق ما يجب رعايتها، فإن الله جعل لهم حقًّا في الفيء قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١ ﴾ [الأنفال].

* وقال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الحشر: ٧].

وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله ﷺ ففي الحديث عن

(١) «هذا الحبيب محمد ﷺ» (ص٤٤٦).

كعب ابن عجرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله فقلنا: قد عرفنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟

قال: قولوا: «**اللَّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللَّهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»(١).

فالصلاة على آل محمد حق لهم عند المسلمين، وذلك سبب رحمة الله تعالى لهم بهذا النسب.

كما تجب محبتهم لحب رسول الله ﷺ لهم، ولأن محبتهم من محبة رسول الله ﷺ.

وأن نتولاهم ونحفظ فيهم وصية رسول الله ﷺ حيث قال في يوم غدير خُم: «**وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي..**» الحديث (٢).

□ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا تنكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على ظهر الأرض فخرًا وحسبًا ونسبًا ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية كما كان عليه سلفهم

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾. انظر: «فتح الباري» (٨/ ٥٣٢).
وأخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب، باب الصلاة علىٰ النبي ﷺ بعد التشهد. انظر: (٢/ ١٦).

(٢) تقدم تخريجه.

كالعباس وبنيه وعليّ وأهل بيته وذريته ﭫ»[١].

□ وقال ابن تيمية ﵀: «ولا ريب أن لآل محمد ﷺ حقًّا على الأمة لا يشركهم فيه غيرهم، ويستحقون من زيادة المحبة والموالاة ما لا يستحقه سائر بطون قريش، كما أن قريشًا يستحقون من المحبة والموالاة ما لا يستحقه غير قريش من القبائل، كما أن جنس العرب يستحق من المحبة والموالاة ما لا يستحقه سائر أجناس بني آدم، وهذا على مذهب الجمهور الذين يرون فضل العرب على غيرهم، وفضل قريش على سائر العرب وفضل بني هاشم على سائر قريش، وهذا هو المنصوص عن الأئمة كأحمد وغيره»[٢].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١١٣).

(٢) هذا من تفضيل الجملة علىٰ الجملة وهو لا يقتضي تفضيل كل فرد علىٰ كل فرد، فالعرب في الأجناس، وقريش فيها ثم هاشم في قريش مظنة أن يكون فيهم من الخير أعظم مما يوجد في غيرهم. ولهذا كان في بني هاشم النبي ﷺ الذي لا يماثله أحد في قريش فضلاً عن وجوده في سائر العرب وغير العرب، وكان في قريش الخلفاء الراشدون وسائر العشرة وغيرهم ممن لا يوجد له نظير في العرب وغير العرب، وكان في العرب من السابقين الأولين من لا يوجد له نظير في سائر الأجناس.

فلا بد أن يوجد في الصنف الأفضل ما لا يوجد مثله في المفضول. وقد يوجد في المفضول ما يكون أفضل من كثير مما يوجد في الفاضل كما أن الأنبياء الذين ليسوا من العرب أفضل من العرب الذين ليسوا بأنبياء، والمؤمنين المتقون من غير قريش أفضل من القرشين الذين ليسوا مثلهم في الإيمان والتقوىٰ، وكذلك المؤمنين المتقون من قريش وغيرهم أفضل ممن ليس مثلهم في الإيمان والتقوىٰ من بني هاشم.

فهذا هو الأصل المعتبر في هذا الباب دون من ألغىٰ فضيلة الأنساب مطلقًا، =

• والنصوص دلت على هذا القول، كقوله ﷺ: «إن الله اصطفى قريشًا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»(١).

٢- أما زوجات النبي ﷺ رضوان الله عليهن أجمعين فيجب علينا أن نحفظ لهن حقهن في الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام،

ودون من ظن أن الله تعالىٰ يفضل الإنسان بنسبه علىٰ من هو مثله في الإيمان والتقوىٰ، فضلاً عمن هو أعظم إيمانًا وتقوىٰ، فكلا القولين خطأ وهما متقابلان، بل الفضيلة بالنسب فضيلة جملة، وفضيلة لأجل المظنة والسبب.

والفضيلة بالإيمان والتقوىٰ فضيلة تعيين وتحقيق وغاية.

فالأول: يفضل به لأنه سبب وعلامة؛ ولأن الجملة أفضل من جملة تساويها في العدد.

والثاني: يفضل به لأنه الحقيقة والغاية، ولأن كل من كان أتقىٰ لله كان أكرم عند الله، والثواب من الله يقع علىٰ هذا؛ لأن الحقيقة قد وجدت، فلم يعلق الحكم بالمظنة، ولأن الله تعالىٰ يعلم الأشياء علىٰ ما هي عليه، فلا يستدل بالأسباب والعلامات فالاعتبار العام هو التقوىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فكل من كان أتقىٰ كان أفضل مطلقًا، وإذا تساوىٰ اثنان في التقوىٰ استويا في الفضل سواء كانا أو أحدهما عربيين أو أعجميين، أو قرشيين أو هاشميين أو كان أحدهما من صنف والآخر من صنف، وإن قدر أن أحدهما له من سبب الفضيلة ومظنتها ما ليس للآخر، فإذا كان ذلك قد أتىٰ بحقيقة الفضيلة كان أفضل ممن لم يأت بحقيقتها، وإن كان أقدر علىٰ الإتيان بها، فالعالم خير من الجاهل، وإن كان الجاهل أقدر علىٰ تحصيل العلم. انظر: «منهاج السنة» (٤/ ٦٠٢- ٦٠٣- ٦٠٤- ٦٠٨) بتصرف. انظر «حقوق النبي ﷺ» (ص٢٥٥) وما بعدها .

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ (٧/ ٥٨).

والمكانة التي جعل الله لهن.

فلقد رفع الله مقامهن وبوأهن أعلى منزلة عند جميع المؤمنين وهي منزلة الأمومة، فجعلهن أمهات في التحريم والاحترام فقد قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾[الأحزاب: ٦].

□ قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية: «شرف الله تعالى أزواج نبيه ﷺ بأن جعلهن أمهات المؤمنين، أي في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهن رضي الله عنهن، بخلاف الأمهات»(١).

وكيف لا تكون لهن هذه المنزلة وتلك المكانة وهن اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة عندما نزلت آيتا التخيير قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾ [الأحزاب].

وبعد اختيارهن رضي الله تعالى عنهن الله ورسوله والدار الآخرة كرمهن الله تبارك وتعالى وكافأهن على اختيارهن أحسن تكريم وأعظم مكافأة.

فكان لهن ما أعدَّ الله لهن من الأجر العظيم، ثم ميَّزهن عن نساء العالمين في العذاب والأجر، ثم أبان منهم فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، يعني: في الفضل والشرف، وذلك لِمَا منحهن الله من صحبة نبيه ﷺ وعظيم المحل منه ونزول القرآن في

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٤/ ١٢٣).

حقهن»[١].

فمن حقهن علينا أن نحفظ لهن هذه المكانة وذلك بأن نتولاهن وأن نثني عليهن بما ورد من فضائلهن وما كان لهن من دور في مؤازرة النبي ﷺ ونصرته، وما كان لهن من دور بعد وفاته في حفظ مسائل الدين ونشرها بين الأمة.

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة، خصوصًا خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده، وأول من آمن به وعاضده على أمره وكان له منها المنزلة العالية.

• والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها، التي قال فيها النبي ﷺ: «**فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[٢] ..»[٣].

فمن الواجب أن ننشر هذه الفضائل ونعلمها وبخاصة لنسائنا حتى يكون لهن في ذلك الأسوة والقدوة.

توقيره ﷺ في توقير أصحابه رضي الله عنهم:

ومن توقيره وبره ﷺ توقير أصحابه وبرهم ومعرفة حقهم والاقتداء

---

(١) المصدر السابق (١٤/ ١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضل عائشة رضي الله عنها. «فتح الباري» (٧/ ١٠٦) (ح٣٧٧٠).
وأخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٧/ ١٣٨).

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٥٤)، وانظر: «حقوق النبي» (ص٤٥٧- ٤٥٩).

بهم، وحسن الثناء عليهم، والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم، ومعاداة من عاداهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين، وجهلة الرواة وضلال الشيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم، وأن نلتمس لهم فيما نقل عنهم من مثل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات ويخرج لهم أصوب المخارج، إذ هم أهل لذلك، ولا يذكر أحد منهم بسوء ولا يغمص (١) عليه أمر، بل يذكر حسناتهم وفضائلهم، وحميد سيرتهم، ويسكت عما وراء ذلك (٢).

فهم أناس قد اختارهم الله وشرفهم بصحبة نبيه ﷺ وخصهم في الحياة الدنيا بالنظر إلى النبي ﷺ وسماع حديثه من فمه الشريف وتلقي الشريعة وأمور الدين عنه وتبليغ ما بعث الله به رسوله من النور والهدى على أكمل الوجوه وأتمها، فكان لهم الأجر العظيم لصحبتهم رسول الله ﷺ والجهاد معه في سبيل الله وأعمالهم الجليلة في نشر الإسلام والدعوة إليه، ولهم من الأجر مثل أجور من بعدهم لأنهم الواسطة بينهم وبين رسول الله ﷺ ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا.

ولقد أوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة وبذل: المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد والمناصحة في الدين وقوة الإيمان واليقين، القطع على عدالتهم وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون بعدهم أبد الآبدين.

---

(١) لا يغمص: لا يعاب ولا ينقص في أمر من أموره. «النهاية» (٣/ ٣٨٦).

(٢) «الشفا» (٣/ ٦١١، ٦١٢).

فالصحابة كلهم عدول بتعديل الله لهم وثنائه عليهم وثناء رسوله ﷺ.

□ قال النووي: «الصحابة كلهم عدول من لابس الفتن وغيرهم بإجماع من يعتد به»[١].

□ وقال ابن حجر: «اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول ولم يخالف في ذلك إلّا شذوذ من المبتدعة»[٢].

□ وعن أبي زرعة قال: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن رسول الله ﷺ عندنا حق والقرآن حق وإنما أدي إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهم زنادقة»[٣].

فهم الأئمة العالي، ومعرفتهم لقدر الصحابة رضي الله عنهم:

معاوية أفضل أم عمر بن عبد العزيز؟

سُئِل الإمام أحمد بن حنبل: أيُّما أفضل، معاوية أو عمر بن عبدالعزيز؟ فقال: «لغبارٌ لِحق بأنف جواد معاوية بين يديْ رسول الله ﷺ خيرٌ من عمر بن عبد العزيز»[٤].

□ وسُئِل ابن المبارك عن معاوية فقيل له: ما تقول فيه؟ قال: «ما

---

(١) «تدريب الراوي» للسيوطي (٢/ ٢١٤).

(٢) «الإصابة» (١/ ١٧).

(٣) «الكفاية» للخطيب البغدادي (ص٩٧).

(٤) «شذرات الذهب» (١/ ٦٥).

أقول في رجل قال رسول الله ﷺ: «**سمع الله لمن حمده**»، فقال معاوية من خلفه: ربنا ولك الحمد، فقيل له: ما تقول في معاوية؟ هو عندك أفضل أم عمر ابن عبد العزيز؟ فقال: لترابٌ في منخريْ معاوية مع رسول الله ﷺ خيرٌ أو أفضل من عمر بن عبد العزيز». وفي «البداية والنهاية»: خيرٌ وأفضل»[(١)].

□ وسُئِل ياقوتة العلم والعباد المعافي بن عمران: أيُّهما أفضل معاوية ابن أبي سفيان أو عمر بن عبد العزيز؟

فكأنه غَضب، وقال: «يومٌ من أيام معاوية أفضل من عمر بن عبدالعزيز، ثم التفت إلى الرَّجُل فقال: تجعلُ رجلًا من أصحاب محمد ﷺ مثل رجل من التابعين؟!»[(٢)].

□ وقال المعافي: «لا يُقاس بأصحاب رسول الله ﷺ أحدٌ، معاوية صاحبه، وصهره، وكاتبه، وأمينه على وحي الله عز وجل»[(٣)].

□ وسُئِل الفضل بن عنبسة: «معاوية أفضل أم عمر بن عبد العزيز؟

فعجب من ذلك، وقال: «سبحان الله، أأجعل من رأى رسول الله ﷺ كمَنْ لم يره؟! قالها ثلاثًا»[(٤)].

□ وقال أبو إسحاق السبيعي: «كان معاوية وكان ما رأينا مثله» وما استثنى أبو إسحاق عمر بن عبد العزيز.

---

(١) «تاريخ دمشق» (٥٩/ ٢٠٧- ٢٠٨).
(٢) المصدر السابق (٥٩/ ٢٠٨).
(٣) «تاريخ بغداد» (١/ ٢٠٩، ٢١٠)، و«تاريخ دمشق» (٥٩/ ٢٠٨)، و«البداية والنهاية» (٨/ ١٤٨).
(٤) «تاريخ دمشق» (٥٩/ ٢٠٨).

◻ وقال مجاهد: «لو رأيتم معاوية لقلتم هذا المهدي»(١).

◻ وقال ابن المبارك: «معاوية عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إلى معاوية شَزْرًا، اتَّهمناه على القوم، أعني على أصحاب محمد ﷺ»(٢).

◻ وقال الربيع بن نافع: «معاوية بن سفيان سِتْر أصحاب النبي ﷺ، فإذا كشف الرَّجُل الستر اجترأ على ما وراءه»(٣).

◻ وقال الإمام أحمد بن حنبل: «إذا رأيتَ الرجل يذكرُ أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ بسوء فاتهمه على الإسلام»(٤).

ومن تعظيم النبي ﷺ تعظيم المدينة وحفظ حُرْمَتها:

إن من تعظيم النبي ﷺ تعظيم المدينة النبوية (٥) التي هي دار المصطفى ومهاجره، فقد اختارها الله لنبيه ﷺ قرارًا، وجعل أهلها شيعة له وأنصارًا.

وهي التي انتشر منها دين الله وسنة رسوله ﷺ حتى وصل مشارق الأرض ومغاربها.

وهي التي ورد في فضلها وتعظيم شأنها وتحريمها وفضل بعض البقاع فيها الكثير من الأحاديث الثابتة الصحيحة والتي أورد منها ها هنا

---

(١) «البداية والنهاية» (٨/ ١٤٣)، و«تاريخ دمشق» (٥٩/ ١٧٢).

(٢) «البداية والنهاية» (٨/ ١٤٨)، و«تاريخ دمشق» (٥٩/ ٢٠٩).

(٣) «تاريخ بغداد» (١/ ٢٠٩)، و«تاريخ دمشق» (٥٩/ ٢٠٩).

(٤) «تاريخ دمشق» (٥٩/ ٢٠٩).

(٥) ذكر ذلك البيهقي في «الجامع لشعب الإيمان» (٢/ ١٣٠)، والقاضي عياض في «الشفا» (٢/ ٦١٩).

على سبيل المثال لا الحصر.

• فعن سفيان بن أبي زهير ﷺ أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تفتح اليمن، فيأتي قوم يبسون (١) فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون.**

وتفتح الشام، فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون.

وتفتح العراق، فيأتي قوم يبسون، فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» (٢).

• وعن عبد الله بن زيد بن عاصم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة**» (٣).

• وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاهها أو يقتل صيدها**».

---

(١) يُقال: بسست الناقة وأبسستها إذا سُقتها وزجرتها وقلتُ لها: بس بس بكسر الباء وفتحها انظر «النهاية» (١/ ١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة «واللفظ له». انظر: «فتح الباري» (٤/ ٩٠) (ح١٨٧٥).
وأخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحج، باب الترغيب في المدينة عند فتح الأمصار (١٢٢٤).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب البيوع، باب بركة صاع النبي ﷺ ومده. «فتح الباري» (٤/ ٣٤٦) (ح٢١٢٩). وأخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحج، باب فضل المدينة «واللفظ له» (٤/ ١١٢).

وقال ﷺ: «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبة عنها إلَّا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلَّا كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة»[١].

• وعن أبي هريرة ﵁ أنه قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاؤا به إلى النبي ﷺ فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «اللَّهم بارك لنا في ثمرنا وبارك لنا في مدينتنا وبارك لنا في صاعنا وبارك لنا في مدنا، اللَّهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإني عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه»، قال: ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر[٢].

• وعن أبي هريرة ﵁ أيضًا عن النبي ﷺ قال: «المدينة حرم فمن أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة عدل ولا صرف»[٣].

• وعنه ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم -كتاب الحج، باب فضل المدينة (٤/ ١١٣).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في «صحيحه»، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٤/ ١١٦- ١١٧).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في «صحيحه» كتاب الحج، باب فضل المدينة (٤/ ١١٦).

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرز إلى المدينة. انظر: «فتح الباري» (٤/ ٩٣) (ح١٨٧٦).
وأخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا =

• وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلّا انماع كما ينماع الملح في الماء»[(١)].

• وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلّا المسجد الحرام»[(٢)].

• وعنه ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»[(٣)].

والأحاديث في فضل المدينة كثيرة ومتنوعة، ولقد أفرد البخاري في «صحيحه» كتابًا لفضائل المدينة، وكذا مسلم في «صحيحه» قد أورد في آخر كتاب الحج العديد من الأحاديث الواردة في شأن المدينة، وكذا الحال عند أصحاب السنن والمسانيد.

والمقصود من تعظيم المدينة هو تعظيم حرمها، وهذا أمر واجب في

(١/ ٩٠، ٩١).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب فضائل المدينة، باب إثم من كاد أهل المدينة، انظر: «فتح الباري» (٤/ ٩٤) (ح١١٩٠).
وأخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحج، باب من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله (٤/ ١٢٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة. انظر: «فتح الباري» (٣/ ٦٣) (ح١١٩٠).
وأخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب فضائل المدينة، باب ١٢ انظر: «فتح الباري» (٤/ ٩٩) (ح١٨٨٨)، أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحج، باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة (٤/ ١٢٣).

حق من سكن بها أو دخل فيها، مع ما يجب على ساكنيها من مراعاة حق المجاورة وحسن التأدب فيها؛ وذلك لما لها من المنزلة والمكانة عند الله وعند رسوله ﷺ.

فإنها المواطن التي عمرت بالوحي والتنزيل، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر وانتشر عنها من دين الله وسنن رسول الله ﷺ ما انتشر، فهي مشاهد الفضائل والخيرات ومعاهد البراهين والمعجزات.

فحري بمن أكرمه الله بالإقامة فيها أن يتزود فيها من الأعمال الصالحة التي تنفعه بعد الموت، وأن يحذر من الوقوع فيها بما يسخط الله عَزَّ وَجَلَّ.

وفيما سبق ذكره من الأحاديث خير شاهد على فضل سكناها والترغيب في الإكثار من العمل الصالح فيها، والتحذير من الإساءة والمعصية والإفساد فيها»(١).

□ قال الإمام مالك إمام دار الهجرة: «من قال تربة المدينة رديئة، يُضرب ثلاثين دُرَّة ويُحبَس».

وقال: «ما أحوجه إلى ضرب عنقه!! تربةٌ دُفِن فيها رسول الله ﷺ يزعم أنها رديئة!!!»(٢).

□ ولله درُّ القائل:

هاتِ الحديثِ مِزاجُه الأشواقُ وَصِفِ الحبيب فَكُلُّنا تَوَّاقُ

(١) «حقوق النبي ﷺ» (ص٤٦٥- ٤٦٧).

(٢) «هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ» (ص٤٤٧).

تَهْوَى الحُروفَ تَعَطَّرَتْ أَرْدَانُها ... بِـشَذَا الأحبَّـةِ.. والهَـوى أذواقُ
فغدَا يُحَدِّثُ عن جلالِ المُصْطفَى ... فتوضـأَتْ بِـدُمُوعِها الأحـداقُ
يَحْكِـي بـشوقٍ عـن جمـالِ محمَّـدٍ ... أَحْلَى اللُّغَـى مـا قالـتِ الأشـواقُ
عـن قلبـهِ عـن حُبِّـهِ عـن لطفِـهِ ... عن كل مـا قـد جَـادتِ الأخـلاقُ
تحيـا بـذكرِ محمـدٍ ترنيمـةٌ ... في القلب تـسرِي والهـوى خَفَّـاقُ
طُوبى لمـن عـن نهجـه لم يَغْفَلـوا ... يومًا، وذاقـوا في الهـوى مـا ذاقـوا
طوبى لمـن في دربـه قـد أوغلـوا ... ناموا علـى أحلامهـم وأفـاقوا (١)

□ ولله در القائل:

إمـامَ المُرسـلين فِـدَاكَ رُوحـي ... وأرواحُ الأئمـةِ والـدُّعاةِ
رسـولَ العـالمين فـدِاكَ عِرْضِـي ... وأعـراضُ الأَحِبَّـةِ التُّقـاةِ
ويا عَلَـمَ الهُـدَى يفـديك عُمْـري ... وما لـي.. يـا نبـيَّ المَكْرُمـاتِ!!!
ويـا تـاجَ التُّقَـى تفـديكَ نفـسي ... ونفـسُ أُولـي الرئاسـة والـوُلاةِ
فِـدَاك الكـونُ يـا عَطِـرَ الـسَّجَايا ... فَـمَالِ النـاسِ دونـكَ مـن زكـاةِ
فَأَنـتَ قَدَاسَـةٌ إِمَّـا اسـتُحِلَّتْ ... فذَاك الموتُ مِن قبـل المـماتِ!!!
وعِرضُـكَ عِرْضُـنَا ورُؤاك فينـا ... بمنزلـةِ الـشَّهادة والـصَّلاةِ
رُفِعْتَ منازِلًا.. وشُرِحتَ صَـدْرًا ... ودينُـك ظـاهِرٌ رَغْـمَ العُـدَاةِ
وذِكـرُك يـا رسـولَ الله زادٌ ... تـضاءُ بـه أسـاريرُ الحيـاةِ
وغَرْسُـك مثمِـرٌ في كـل صَـقْعٍ ... وهَـدْيُكَ مُـشرِقٌ في كُـلِّ ذاتِ

(١) للدكتور عبد المعطي الدالاتي.

فمنك شريعتي.. وسكونُ نفْسي ومنك هُويَّتي.. وسموٌّ ذاتِي
ولي فيك اهتداءٌ لأخلاقِ العُلَا والمكْرُماتِ
ومنكَ دعاءُ إمسائي وصَحْوي وإقبالي وغمْضي والتفَانِي
يحارُ اللفظُ في نَجْواكَ عَجْزًا وفي القلبِ اتِّقادُ المُورِياتِ
ولو سُفِكتْ دمانا ما قَضيْنَا وفاءَكَ والحقوقَ الواجباتِ[1]

(١) لصالح بن علي العمري.

علو الهمة

في

استكمَال الإيمَان والحرص على زيادته

ورعاية القلب ومعرفة فقهه

علو الهمة في استكمَال الإيمَان والحرص على زيادته ورعاية القلب ومعرفة فقهه

فضل الإيمَان:

أولاً: الإيمَان بالله أفضل نعمة امتنَّ الله بها على عباده:

□ الإيمان رُوحُ الحياة وحياةُ الروح، سِرُّ العَالَمِ وعالمُ الأسرار، جمَالُ الدنيا ودنيا الجمَال، نورُ الطريق وطريق النور، قوة الخُلُق، وخُلُق القوة.

□ الإيمان هو واحة المسافر، ونجم الملّاح، ودليل الحيران، وعدة المُحارِب، وأنيس المستوحِش، ولِجامُ القوِيِّ، وقوة الضعيف.

□ الإيمان هو مصنع البطولات، ومحقِّق المعجزات، ومفتاح المغاليق، ومنارة الهدى في كل طريق.

□ الإيمان ضياء ثاقب، ينفذ إلى الفكر والعاطفة والإرادة في دُنيا الفرد، فيُجري في كيانه عُصارة الحياة، ويُنشئه من جديد، ويُحوِّله من مخلوق تافه إلى إنسان ذي رسالة وهدف، ومن حيوان أو سبع إلى كائن يفوق الملاك.

ويمتد إلى المجتمع بأشعته الوهّاجة المشرقة، فإذا دم الحياة قد جرى في عروقه، والعافية قد سرت في أوصاله، فيشفيه وهو سقيم، بل يُحييِهِ وهو رميم. شيءٍ

□ الإيمان الحق هو الذي يخطُّ آثاره الجميلة في الحياة كلها، ويصبغها بصبغة الرَّبانية في الأفكار والمفاهيم، والعواطف والمشاعر، والأخلاق والنظم والقوانين ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ ﴾

[البقرة: ١٣٨]»[(١)].

□ الإيمان نعمة جليلة، ومنحة ربَّانية حبيبة، وفيض إلهي غامر، ونور هادٍ مضيء.. هذه النعمة لا يعرفها إلَّا من ذاقها، ولا يحس بها إلَّا من عاشها.

هذه النعمة يمُنُّ الله بها على المؤمنين في أنه يمنحها لهم، ثم يمُنّ عليهم في أنهم يتذوّقونها ويعيشونها، يمُنُّ عليهم في أنه يجعلهم يحْيَوْن بها ويُحسِنُون النظر إليها على أنها نعمة من نِعم الله الغامرة، ومِنّة من مننه الفيّاضة، ورحمة من رحمَاته الوارفة.. فيحسنون النظر إلى الإيمان.

* قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات].

□ الإيمان هو كبرى المنن التي يُنعم الله بها على عبدٍ من عباده في الأرض، إنه أكبر من مِنّة الوجود الذي يمنحه الله ابتداءً لهذا العبد، وسائر مَا يتعلّق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع.

□ إنها المِنَّة التي تجعل للوجود الإنساني حقيقة مميزة، وتجعل له في نظام الكون دورًا أصيلًا عظيمًا.

وأول مَا يصنعه الإيمان في الكائن البشري – حين تستقرُّ حقيقته في قلبه- هو سعة تصوره لهذا الوجود ولارتباطاته هو به، ولدوره هو فيه، وصِحّة تصوُّره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله، وطمَانينته في رحلته على هذا الكوكب الأرضي حتى يلقى الله، وأنسه

(١) انظر: «الإيمَان والحياة» للدكتور يوسف القرضاوي (ص٣٣٢، ٣٣٣)- مكتبة وهبة.

بِكُلِّ مَا في الوجود من حوله، وأُنسه بالله خالقه وخالق هذا الوجود، وشعوره بقيمته وكرامته وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يرضى الله عنه ويُحقِّق الخير لهذا الوجود كله بكُلِّ مَا فيه وكل من فيه.

فمن سعة تصوره أن يخرج من نطاق ذاته المحدودة في الزمَان والمكان، الصغيرة الكيان، الضئيلة القوة إلى محيط هذا الوجود كله، بمَا فيه من قوى مذخورة، وأسرار مكنونة وانطلاق لا تقف دونه حدود ولا قيود في نهاية المطاف.

□ فهو بالقياس إلى الفئة التي ينتسب إليها فردٌ من الأمة المؤمنة.. الأمة الواحدة، الممتدة في شعاب الزمن، السائرة في موكب كريم، يقوده نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من النبيين، صلوات الله عليهم أجمعين.. ويكفي أن يستقر هذا التصور في قلب إنسان، فيشعر أنه فرع من تلك الشجرة الطيبة الباسقة المتطاولة، العميقة الجذور، الممتدة الفروع، المتصلة بالسمَاء في عمرها المديد.. يكفي أن يشعر الإنسان هذا الشعور ليجد للحياة طعمًا آخر، وليحسَّ بالحياة إحساسًا جديدًا، وليضيف إلى حياته هذه حياة كريمة مستمدّة من هذا النسب العريق. يكفي أن يستقرّ هذا التصور ليرفعه في نظر نفسه، وليكرمه في حسه، وليشعره بالوضاءة والانطلاق، وقدمَاه تدبّان على الأرض، وقلبه يرفُّ بأجنحة النور إلى آفاق كريمة نحو الملأ الأعلى.. إلى جوار الله رب العالمين.

□ ثم يتّسع تصوّره ويتَّسع حتى يتجاوز ذاته وأمته وجنسه الإنساني، ويرى هذا الوجود كله، كائنًا حيًّا مؤلَّفًا من كائنات حية، وأن لكل شيءٍ

فيه روحًا، وأن هذا الكون وهذا الوجود متجه لربه بالدعاء والتسبيح، ويستجيب له بالحمد والطاعة، وينتهي إليه بالإذعان والاستسلام. فإذا هو في كيان هذا الوجود، جزء من كُلّ، لا ينفصل ولا ينعزل، صادر عن بارئه، متَّجه إليه بروحه، راجع في النهاية إليه، وإذا هو أكبر من ذاته المحدودة، أكبر بقدر تصوره لضخامة هذا الوجود الهائل، وإذا هو مَانوس بكل مَا حوله، مَانوس بالله الذي يرعاه ويُسدِّد خطاه؟!

□ يعلم المؤمن قدره عند ربه وعظم مكانته عند خالقه حين يُقيم الله حملة العرش من الملائكة يستغفرون للمؤمن فأي قدر أرفع من هذا؟!

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر].

قيمة الإنسان عند الملاحدة والماديين:

إن الإنسان في نظر المَاديّين قبضة من تراب هذه الأرض، من الأرض نشأ، وعلى الأرض يمشي، ومن الأرض يأكل، وإلى الأرض يعود، هو كائن ليس له أهمية وامتياز على غيره، بل هو من جنس القرود، غاية أمره أنه «تطوّر» بمرور الزمن فأصبح هذا الإنسان!!

مَا قيمته عندهم حين يردوه إلى عناصره؟!

«إن أحد العلمَاء ردّ جسم الإنسان إلى العناصر الأساسية فيه فخرج بالنتائج الآتية: إذا جئنا بإنسان زِنَتُه مئة وأربعون رطلًا، وغلغلنا النظر في تكوينه وجدنا بدنه يحتوي على المواد الآتية:

قدر من الدُّهن يكفي لصنع (٧) قطع صابون

قدر من الكربون يكفي لصنع (٧) أقلام رصاص

قدر من الفوسفور يكفي لصنع (١٢٠) عود ثقاب

قدر من ملح المغنسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهِّلات

قدر من الحديد يمكن عمل مسمَار متوسط الحجم منه

قدر من الجير لتبييض بيت الدجاج

قدر من الكبريت يُطهِّر جلد كلب واحد من البراغيث التي تسكن شعره

قدر من المَاء يملأ برميلًا سعته عشرة جالونات.

وهذه المواد تشترى من الأسواق بمبلغ من المَال يساوي خمسين أو ستين قرشًا مصريًا وتلك هي قيمة الإنسان المَادية».

لا روح هنالك ولا نفحة من السمَاء يختصُّ بها الكائن الفذّ!!

□ يقول أحد ملاحدة العرب المعاصرين: «هل نحن فكرة أكثر من كون الحشرات فكرة؟! نحن لا نُساوي أكثر من أنفسنا، وكذلك الحشرات ونحن لا نريد إلَّا أن نحقِّق أنفسنا، وكذلك أيضًا الحشرات.

والفرق بيننا وبين الحشرات هو فرق التفوّق فقط.. وفرقُ التفوّق بيننا وبين أرقى حيوان لا يفوق أكثر كثيرًا فرق التفوق بين أدنى حشرة وأرقى حيوان.

مَاذا نفقد أو يفقد الإنسان أو تفقد الشمس والقمر بفقدنا أنفسنا؟!».

وليس مَا ذهب إليه «داروِن» و«فرويد» وأمثالهمَا من المَاديّين بأفضل من هذه النظرة إلى الإنسان، إنه عندهم أخو الحشرات، وصنو القرود! إنهم لا يبصرون فيه إلَّا القشرة والغلاف، ولا يعرفون فيه إلَّا

الطين والحمَا المسنون! فهو مخلوق من طبيعته الانجذاب إلى أسفل، وليس الرقيّ إلى أعلى، من طبيعته الهبوط إلى الأرض، وليس الارتفاع إلى السمَاء، هو بعبارة موجزة «حيوان متطوِّر» ترقّى من طَور إلى طور حتى بلغ مَا هو عليه. فالحيوانية في الإنسان قشرته ولبُّه، ولحمته وسداه.

فأي إيحاءٍ للنفس الإنسانية أسوأ من هذا الإيحاء أثرًا؟ يرى الإنسان نفسه مخلوقًا هابطًا.. حيوانًا.. طينًا وحمأً! إنه لا يستغرب من نفسه الانحدار والتلوث والإسفاف ولا يستنكف من القذارة والأوحال أن يتمرّغ فيها، ويتلطَّخ بها، بل المستغرب منه أن يتعفف ويتطهّر، وأن يحيا نظيفًا مستعليًا على الشهوات، والمطامع المَادية باذلًا النفس والمَال في سبيل الحق ابتغاء رضوان الله»[(١)].

* أين هذا من قول الله ﷻ: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء].

□ يقول الإمَام أبو بكر بن العربي: «ليس لله تعالى خلقٌ أحسن من الإنسان، فإن الله تعالى خلقه حيًّا عالمًا، وقادرًا، متكلِّمًا بصيرًا، مُدَبِّرًا حكيمًا».

□ وقال الإمَام ابن القيم رحمه الله: «اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختصّ نوع الإنسان من بين خلْقِه بأن كرّمه وفضَّلَهُ وشرَّفه، وخلقه لنفسه، وخلقَ له كلَّ شيءٍ، وخصّه من معرفته ومحبَّته، وقربه وإكرامه بمَا لم يُعطِه غيره، وسخَّر له مَا في سمَاواته وأرضه ومَا بينهمَا، حتى ملائكته —

(١) انظر: «الإيمَان والحياة» (ص٥٤، ٥٥).

الذين هم أهل قربه- استخدمهم له، وجعلهم حفظةً له في منامه ويقظته، وظعْنِه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلمَّه منه إليه.. فللإنسان شأنٌ ليس لسائر المخلوقات»[١].

حياة عُلاة الهممِ المؤمنين وحياة الكافرين:

* قال الله تعالى وهو أصدق القائلين في حياة الكافرين: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

* وقال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿ .. وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحج: ٣١].

* «والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحًا كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل].

فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا والحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين»[٢].

□ وقال ابن القيم رحمه الله: «ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار الفجار، من طيب المآكل والملبس

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢١).

(٢) «الجواب الكافي» لابن القيم (ص١٧٧).

والمشرب والمنكح، بل ربمَا زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافًا مضاعفة، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت همًّا واحدًا في مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله فصار ذكره بمحبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإراداته ومقصوده بكل خطرات قلبه. فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش وبه يمشي وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيا وبه يموت وبه يبعث»[(١)].

□ وقال رحمه الله: «هذا خبر أصدق الصادقين، ومخبره عند أهله عين اليقين، بل هو حق اليقين، ولا بد لكل من عمل صالحًا أن يحييه الله حياة طيبة بحسب إيمَانه وعمله، ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة حيث يظنونها التنعم في أنواع المَاكل والمشارب والملابس والمناكح أو لذة الرياسة والمَال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات. ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم. بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان فمن لم تكن عنده لذة إلَّا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلا عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن ورضي

---

(١) المصدر السابق (٢٧٧- ٢٧٨).

بتركها كلها والخروج منها رأسًا وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق وهو متحلٍّ بهذا منشرح الصدر به يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبه وأخيه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره، ويقول: «فزت ورب الكعبة»، ويستطيل الآخر حياته حتى يُلقي قوته من يده، ويقول: «إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها»، ثم يتقدم إلى الموت فرحًا مسرورًا.

ويقول الآخر مع فقره: «لو علم الملوك وأبناء الملوك مَا نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف».

ويقول الآخر: «إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا».

وقال بعض العارفين: «إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب» [(١)].

□ وقال رحمه الله: «فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علمًا وعملًا في العاجلة بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة» [(٢)].

* قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام].

والمرادُ بها من كان ميت القلب، بعدم روح العلم والهدى والإيمان،

---

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (ص٣٨).
(٢) المصدر السابق (ص٤٧).

فأحياه الرب تعالى بروح أخرى، غير الروح التي أحيا بها بَدَنه. وهي روح معرفته وتوحيده، ومحبته وعبادته وحده لا شريك له. إذ لا حياة للروح إلَّا بذلك. وإلَّا فهي في جملة الأموات. ولهذا وصف الله تعالى مَنْ عَدِم ذلك بالموت، فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، وسمى وحيه روحًا. لمَا يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢]. فأخبر: أنه «روح» تحصل به الحياة، وأنه «نور» تحصل به الإضاءة.

وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥﴾ [غافر]. فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن. ولهذا من فقد هذه الروح: فَقَدْ فقدَ الحياة النافعة في الدنيا والآخرة. أمَا في الدنيا: فحياته حياة البهائم. وله المعيشة الضنك. وأمَا في الآخرة: فله جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا.

وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته. فقال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل]. وقد فسرت «الحياة الطيبة» بالقناعة والرضى، والرزق الحسن وغير ذلك. والصواب:

أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه؛ فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها. ولا نعيم فوق نعيمه، إلَّا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنه لَتَمُرُّ بي أوقات أقول فيها: «إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب». وقال غيره: «إنه ليمر بالقلب أوقات يرقُص فيها طَرَبًا».

وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح. فإنه ملكها، ولهذا جعل الله المعيشة الضَّنْك لمن أعرض عن ذكره. وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث. أعني: دار الدنيا، ودار البَرْزخ. ودار القرار. والمعيشة الضنك أيضًا تكون في الدور الثلاث. فالأبرار في النعيم هنا وهنالك. والفجار في الجحيم هنا وهنالك، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]. فذكرُ الله سبحانه وتعالى، ومحبته وطاعته، والإقبالُ عليه: ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة. والإعراض عنه والغفلة ومعصيته: كفيل بالحياة المنغصة، والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة»[1].

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٥٨- ٢٥٩).

ومن هذه الحياة الطيبة: حياة العلم من موت الجهل:

□ فإن الجهل موتٌ لأصحابه، كما قيل:

وفي الجهل – قبل الموت – موت ... وأجسامهم قبل القبور قبورُ

وأرواحهم في وَحْشة من جسومهم ... فليس لهم حتى النشور نشورُ

ومن هذه الحياة الطيِّبة: حياة الإرادة والهمة:

وضعف الإرادة والطلب من ضعف حياة القلب، وكلمَا كان القلب أتم حياة، كانت همته أعلى، وإرادته ومحبته أقوى. فإن الإرادة والمحبة تتبع الشعور بالمراد المحبوب. وسلامة القلب من الآفة التي تحول بينه وبين طلبه وإرادته. فضعف الطلب، وفتور الهمة: إمَا من نقصان الشعور والإحساس، وإمَا من وجود الآفة المضعفة للحياة. فقوة الشعور، وقوة الإرادة: دليل على قوة الحياة. وضعفهمَا دليل على ضعفها. وكمَا أن علو الهمة، وصدق الإرادة، والطلب من كمَال الحياة: فهو سبب إلى حصول أَكمل الحياة وأطيبها، فإن الحياة الطيبة إنمَا تنال بالهمة العالية، والمحبة الصادقة، والإرادة الخالصة. فعلى قدر ذلك تكون الحياة الطيبة. وأَخَسُّ الناس حياة أخسهم همة، وأضعفهم محبة وطلبًا، وحياة البهائم خير من حياته، كما قيل:

نهارك، يا مغرور سَهْوٌ وغفلة ... ولَيْلُكَ نومٌ والرَّدَى لك لازم

وتكدح فيمَا سوف تنكر غِبَّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

تُسَرُّ بما يَفْنى. وتفرح بالْمُنَى ... كمَا غُرَّ باللذات – في النوم – حالم

□ والمقصود: أن حياة القلب بالعلم والإرادة والهمة، والناس إذا شاهدوا ذلك من الرجل. قالوا: هو حَيُّ القلب، وحياة القلب بدوام

الذكر، وترك الذنوب، كما قال عبد الله بن المبارك رحمه الله:

رأيتُ الذنوبَ تُميتُ القلوبَ ... وقد يُورِثُ الذُّلَّ إدمانُها
وتَرْكُ الذنوبِ حياةُ القلوبِ ... وَخَيْرٌ لنفسك عِصيانُها
وهل أفسدَ الدينَ إلَّا الملو ... كُ، وأحبارُ سوءٍ ورُهبانُها؟
وباعوا النفوسَ، ولم يربحوا ... ولم يغْلُ في البيع أثمَانُها
فقد رَتَعَ القوم في جِيفةٍ ... يَبِينُ لذي اللُّبِّ خُسرانُها

□ وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: «من واظب على «يا حي يا قيوم. لا إله إلَّا أنت» كل يوم -بين سنة الفجر وصلاة الفجر- أربعين مرة أحيى الله بها قلبه».

وكمَا أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام والشراب، فحياة القلب: بدوام الذكر، والإنابة إلى الله، وترك الذنوب، والغفلة الجاثمة على القلب، والتعلق بالرذائل والشهوات المنقطعة عن قريب يضعف هذه الحياة. ولا يزال الضعف يتوالى عليه حتى يموت. وعلامة موته: أنه لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا. كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أتدرون مَن ميت القلب، الذي قيل فيه:

ليس من مَات فاستراح بميت ... إنمَا الميت ميت الأحياء؟

قالوا: ومن هو؟ قال: الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا».

والرجل: هو الذي يخاف موت قلبه، لا موت بدنه؛ إذ أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم، ولا يعرفون من الحياة إلَّا الحياة الطبيعية. وذلك من موت القلب والروح؛ فإن هذه الحياة الطبيعية شبيهة بالظل الزائل، والنبات السريع الجفاف، والمنام

الذي يخيل كأنه حقيقة. فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالًا.

كمَا قال عمر بن الخطاب ﷺ: «لو أن الحياة الدنيا -من أولها إلى آخرها- أُوتيها رجل واحد. ثم جاءه الموت: لكان بمنزلة من رأى في منامه مَا يَسُرُّه، ثم استيقظ؛ فإذا ليس في يده شيء».

وقد قيل: «إن الموت موتان: موت إرادي، وموت طبيعي. فمن أمَات نفسه موتًا أراديًا كان موته الطبيعي حياة له»، ومعنى هذا: أن الموت الإرادي: هو قمع الشهوات المردية، وإخمَاد نيرانها المحرقة، وتسكين هوائجها المتلفة. فحينئذٍ يتفرغ القلب والروح للتفكر فيمَا فيه كمَال العبد، ومعرفته، والاشتغال به. ويرى حينئذٍ أن إيثار الظل الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم: أخسر الخسران. فأمَا إذا كانت الشهوات وافدة، واللذات مُؤثَرة، والعوائد غالبة، والطبيعة حاكمة. فالقلب حينئذٍ: إمَا أن يكون أسيرًا ذليلًا، أو مهزومَا مُخْرَجًا عن وطنه ومستقره الذي لا قرار له إلَّا فيه، أو قتيلًا ميتًا ومَا لجرح به إيلام. وأحسن أحواله: أن يكون في حرب، يدال له فيها مرة، ويدال عليه مرة، فإذا مَات العبد موته الطبيعي: كانت بعده حياة روحه بتلك العلوم النافعة، والأعمَال الصالحة، والأحوال الفاضلة التي حصلت له بإمَاتة نفسه. فتكون حياته هاهنا على حسب موته الإرادي في هذه الدار.

وهذا موضع لا يفهمه إلَّا ألباء الناس وعقلاؤهم، ولا يعمل بمقتضاه إلَّا أهل الهمم العلية، والنفوس الزكية الأبية»[(١)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٦٣ - ٢٦٥).

ومن هذه الحياة الطيبة: حياة الأخلاق، والصفات المحمودة:

التي هي حياة راسخة للموصوف بها، فهو لا يتكلف الترقي في درجات الكمَال، ولا يشق عليه؛ لاقتضاء أخلاقه وصفاته لذلك، بحيث لو فارقه ذلك لفارق مَا هو من طبيعته وسَجيته. فحياة من قد طبع على الحياء والعفة والجود والسخاء، والمروءة والصدق، والوفاء ونحوها: أتم من حياة من يقهر نفسه، ويغالب طبعه، حتى يكون كذلك. فإن هذا بمنزلة من تعارضه أسباب الداء وهو يعالجها ويقهرها بأضدادها. وذلك بمنزلة من قد عوفي من ذلك.

وكلمَا كانت هذه الأخلاق في صاحبها أكمل كانت حياته أقوى وأتم. ولهذا كان خُلُق «الحياء» مشتقًّا من «الحياة» اسمَا وحقيقة. فأكمل الناس حياة: أكملهم حياء، ونقصان حياء المرء من نقصان حياته؛ فإن الروح إذا مَاتت لم تحس بمَا يؤلمها من القبائح، فلا تستحيي منها. فإذا كانت صحيحة الحياة أحست بذلك، فاستحيت منه، وكذلك سائر الأخلاق الفاضلة، والصفات الممدوحة تابعة لقوة الحياة، وضدها من نقصان الحياة؛ ولهذا كانت حياة الشجاع أكمل من حياة الجبان، وحياة السخي أكمل من حياة البخيل، وحياة الفطن الذكي أكمل من حياة الفَدْم البليد؛ ولهذا لمَا كان الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم- أكمل الناس حياة حتى إن قوة حياتهم تمنع الأرض أن تبلى أجسامهم –كانوا أكمل الناس في هذه الأخلاق، ثم الأمثل فالأمثل من أتباعهم.

فانظر الآن إلى حياة دَوًّا لو تُدهنُ فيُدْهِنون ولا تطع كل ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

[القلم]. وحياة جواد شجاع، بَرٍّ عادل عفيف محسن -تجد الأول ميتًا بالنسبة إلى الثاني.

□ ولله در القائل:

ومَـا للمـرء خيـر في حيـاة إذا مَـا عُـدَّ مـن سـقط المتـاع (١)

ومن مراتب حياة علاة الهمم أهل الإيمَان: حياة الفرح والسرور، وقرّة العين بالله: وهذه دررٌ من كلام ابن القيم في وصفها:

□ قال رحمه الله: «وهذه الحياة إنمَا تكون بعد الظَّفَر بالمطلوب الذي تَقَرُّ به عين طالبه، فلا حياة نافعة له بدونه.

* إن الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه إنمَا هو فرح القلب، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الرعد: ٣٦].

* فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحي، فأولياء الله وأتباع رسوله أحقُ بالفرح به، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس].

□ قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «فضل الله: القرآن، ورحمتُه: أن جعلَكم من أهله».

□ وقال هلال بن سيّاف: «فضل الله ورحمته: الإسلام الذي هداكم إليه، والقرآن الذي علّمكم، هو خير من الذهب والفضة الذي تجمعون».

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٦٥- ٢٦٦).

□ وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين: فضل الله: الإسلام، ورحمته: القرآن، فهذا فرح القلب وهو الإيمان ويثاب عليه العبد، فإن فرحه به يدلُّ على رضاه به، بل هو فوق الرضا، فالفرح بذلك على قدر محبَّته. فإن الفرح إنمَا يكون بالظفر بالمحبوب. وعلى قدر محبّته يفرح بحصوله له. فالفرح بالله وأسمَائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل مَا يُعطاه بل هو أجل عطاياه. والفرح في الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته في الدنيا، فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها فهذا شأن فرح القلب.

□ وله فرح آخر: وهو فرحه بمَا مَنَّ الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه به، وكلمَا تمكَّن في ذلك قوي فرحه وابتهاجه.

وله فرحة أخرى عظيمة الوَقْع عجيبة الشأن، وهي الفرحة التي تحصل له بالتوبة، فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها ألبتة، فلو علم العاصي أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذّة المعصية وفرحتها أضعافًا مُضاعفة، لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية، وسِرُّ هذا الفرح إنمَا يعلمه مَن عَلِم سِرَّ فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشدَّ فرح يُقَدَّر فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافِرٌ من الفرح بالتوبة، ولكن ها هنا أمرٌ يجب التنبيه عليه، وهو أن لا يصل إلى ذلك إلَّا بعد ترحات ومضض ومحن، لا تثبت لها الجبال، فإن صبر لها ظفر بلذَّة الفرح.

«وحول هذه الحياة يدندنُ الناسُ كلُّهم، وكُلُّهم قد أخطأ طريقها،

وسلك طُرُقًا لا تُفضِي إليها بل تقطعه عنها إلَّا أقلّ القليل.

فدار طلب الكل حول هذه الحياة، وحُرِمَها أكثرهم.

وسبب حرمَانهم إياها: ضعف العقل والتمييز والبصيرة، وضعف الهمة والإرادة؛ فإن مَادتها بصيرة وقادة، وهمة نقادة. والبصيرة كالبصر تكون عمى وعَورًا وعَمَشًا ورمدًا، وتامة النور والضياء. وهذه الآفات قد تكون لها بالخلقة في الأصل. وقد تحدث فيها بالعوارض الكسبية.

□ والمقصود: أن هذه المرتبة من مراتب الحياة هي أعلى مراتبها، ولكن كيف يصل إليها مَنْ عقله مَسْبِيٌّ في بلاد الشهوات، وأمله موقوف على اجتناء اللذات، وسيرته جارية على أسوأ العادات، ودينه مستهلك بالمعاصي والمخالفات، وهمته واقفة مع السفليات، وعقيدته غير متلقاة من مشكاة النبوات؟!!.

فهو في الشهوات منغمس، وفي الشبهات منتكس، وعن الناصح معرض، وعلى المرشد معترض، وعن السراء نائم، وقلبه في كل واد هائم، فلو أنه تجرد من نفسه، ورغب عن مشاركة أبناء جنسه، وخرج من ضيق الجهل إلى فضاء العلم. ومن سجن الهوى إلى ساحة الهدى، ومن نجاسة النفس، إلى طهارة القدس: لرأي الإلف الذي نشأ بنشأته، وزاد بزيادته، وقوي بقوته، وشرف عند نفسه وأبناء جنسه بحصوله، قذى في عين بصيرته، وشجا في حلق إيمَانه، ومرضًا مترامِيًا إلى هلاكه.

فإن قلت: قد أشرت إلى حياة غير معهودة بين أموات الأحياء. فهل يمكنك وصف طريقها، لأصِلَ إلى شيءٍ من أذواقها، فقد بان لي أن مَا نحن فيه من الحياة حياة بهيمية. ربمَا زادت علينا فيها البهائم بخلوها عن

المنكرات والمنغصات وسلامة العاقبة؟.

□ قلت: لعمر الله إن اشتياقك إلى هذه الحياة، وطلب علمها ومعرفتها: لدليل على حياتك، وأنك لست من جملة الأموات.

فأول طريقها: أن تعرف الله، وتهتدي إليه طريقًا يوصلك إليه، ويحرق ظلمَات الطبع بأشعة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة. فينجذب إليها بكليته، ويزهد في التعلقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمَامورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة، ثم يقوم حارسًا على قلبه، فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله، ولا بخطرة فضول لا تنفعه، فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس ووسواسها، فيُفْدَى من أسرها. ويصير طليقًا. فحينئذٍ يخلو قلبه بذكر ربه، ومحبته والإنابة إليه، ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه، إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قيل:

وأخرج من بين البيوت، لعلني ... أحدث عنك النفس في السر خاليًا

فحينئذٍ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه، وطلبه والشوق إليه.

فإذا صدق في ذلك رزق محبة الرسول ﷺ، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمَامه ومعلمه، وأستاذه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهاديًا إليه. فيطلع على سيرته ومبادئ أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: فتح عليه بفهم الوحي المنزل عليه من ربه، بحيث لو قرأ السورة شاهد قلبُه مَا أنزلت فيه، ومَا أريد بها، وحظه المختص به منها، من الصفات والأخلاق، والأفعال المذمومة؛ فيجتهد في التخلص منها كما يجتهد في الشفاء من المرض المخوف، وشاهد حَظَّه من الصفات والأفعال الممدوحة؛ فيجتهد في تكميلها وإتمَامها.

فإذا تمكن من ذلك: انفتح في قلبه عين أخرى، يشاهد بها صفات الرب جلّ جلاله، حتى تصير لقلبه بمنزلة المرئي لعينه، فيشهد علو الرب سبحانه فوق خلقه، واستواءه على عرشه، ونزول الأمر من عنده بتدبير مملكته، وتكليمه بالوحي، وتكليمه لعبده جبريل به، وإرساله إلى من يشاء بمَا يشاء، وصعود الأمور إليه، وعرضها عليه.

فيشاهد قلبُه ربًا قاهرًا فوق عباده، آمرًا ناهيًا، باعثًا لرسله، منزلًا لكتبه، معبودًا مطاعًا، لا شريك له، ولا مثيل، ولا عدل له، ليس لأحد معه من الأمر شيء، بل الأمر كله له، فيشهد ربه سبحانه قائمًا بالملك والتدبير، فلا حركة ولا سكون، ولا نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط إلَّا بقدرته وتدبيره؛ فيشهد قيام الكون كله به، وقيامه سبحانه بنفسه، فهو القائم بنفسه، المقيم لكل مَا سواه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: شهد الصفة المصححة لجميع صفات الكمَال. وهي «الحياة» التي كمَالها يستلزم كمَال السمع والبصر، والقدرة والإرادة، والكلام، وسائر صفات الكمَال. وصفة «القيومية» الصحيحة المصححة لجميع الأفعال، فالحي القيوم: من له كل صفة كمَال، وهو الفعال لمَا يريد.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: فُتح له مشهد «القرب» و«المعية» فيشهده سبحانه معه، غير غائب عنه، قريبًا غير بعيد، مع كونه فوق سمَاواته على عرشه، بائنًا من خلقه، قائمًا بالصنع والتدبير، والخلق والأمر. فيحصل له – مع التعظيم والإجلال- الأنس بهذه الصفة؛ فيأنس به بعد أن كان مستوحشًا، ويقوى به بعد أن كان ضعيفًا، ويفرح به بعد أن كان حزينًا، ويجد بعد أن كان فاقدًا، فحينئذٍ يجد طعم قوله: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**».

فأطيب الحياة على الإطلاق: حياة هذا العبد؛ فإنه محب محبوب، متقرب إلى ربه، وربه قريب منه، قد صار له حبيبه لفرط استيلائه على قلبه، ولهجه بذكره، وعكوف همته على مرضاته، بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله، وهذه آلات إدراكه وعمله وسعيه، فإن سمع سمع بحبيبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به.

فإن صعب عليك فهم هذا المعنى، وكونُ المحب الكامل المحبة يسمع ويبصر ويبطش ويمشي بمحبوبه، وذاتُه غائبة عنه، فأضرب عنه صفحًا، وخَلِّ هذا الشأن لأهله..

خـل الهـوى لأنـاس يُعْرَفـون بـه قد كابدوا الحب حتى لانَ أصْبعه

فإن السالك إلى ربه لا تزال همته عاكفة على أمرين: استفراغ القلب في صدق الحب، وبذل الجهد في امتثال الأمر، فلا يزال كذلك حتى يبدو على سِره شواهد معرفته، وآثار صفاته وأسمَائه، ولكن يتوارى عنه ذلك

أحيانًا، ويبدو أحيانًا، يبدو من عين الجود، ويتوارى بحكم الفترة، والفترات أمر لازم للعبد، فكل عامل له شِرَّة، ولكل شرة فترة، فأعلاها فترة الوحي، وهي للأنبياء، وفترة الحال الخاص للعارفين، وفترة الهمة للمريدين، وفترة العمل للعابدين، وفي هذه الفترات أنواع من الحكمة والرحمة، والتعرفات الإلهية، وتعريف قدر النعمة، وتجديد الشوق إليها، ومحض التواجد إليها وغير ذلك.

ولا تزال تلك الشواهد تتكرر وتتزايد، حتى تستقر، وينصبغ بها قلبه، وتصير الفترة غير قاطعة له، بل تكون نعمة عليه، وراحة له، وترويحًا وتنفيسًا عنه.

فهمة المحب إذا تعلقت، روحه بحبيبه، عاكفًا على مزيد محبته، وأسباب قوتها، فهو يعمل على هذا، ثم يترقى منه إلى طلب محبة حبيبه له، فيعمل على حصول ذلك، ولا يعدم الطلب الأول، ولا يفارقه ألبتة، بل يندرج في هذا الطلب الثاني، فتتعلق همته بالأمرين جميعًا؛ فإنه إنمَا يحصل له منزلة «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**» بهذا الأمر الثاني، وهو كونه محبوبًا لحبيبه، كما قال في الحديث: «**فإذا أحببتُه كنت سمعه وبصره..**» إلخ، فهو يتقرب إلى ربه، حفظًا لمحبته له، واستدعاء لمحبة ربه له.

فحينئذٍ يَشُدُّ مِئْزر الجِدِّ في طلب محبة حبيبه له بأنواع التقرب إليه، فقلبه: للمحبة والإنابة والتوكل، والخوف والرجاء. ولسانه: للذكر وتلاوة كلام حبيبه. وجوارحه: للطاعات، فهو لا يفتر عن التقرب من حبيبه.

وهذا هو السير المفضي إلى هذه الغاية التي لا تنال إلَّا به، ولا يتوصل إليها إلَّا من هذا الباب، وهذه الطريق، وحينئذٍ تجمع له في سيره جميع متفرقات السلوك: من الحضور، والهيبة، والمراقبة، ونفي الخواطر، وتخلية الباطن.

فإن المحب يشرع -أولًا- في التقربات بالأعمَال الظاهرة. وهي ظاهر التقرب، ثم يترقى من ذلك إلى حال التقرب، وهو الانجذاب إلى حبيبه بكليته بروحه وقلبه، وعقله وبدنه، ثم يترقى من ذلك إلى حال الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، فيتقرب إليه حينئذٍ من باطنه بأعمَال القلوب: من المحبة والإنابة، والتعظيم والإجلال والخشية، فينبعث حينئذٍ من باطنه الجود ببذل الروح، والجود في محبة حبيبه بلا تكلف، فيجود بروحه ونفسه، وأنفاسه وإرادته، وأعمَاله لحبيبه حالًا، لا تكلفًا، فإذا وجد المحب ذلك فقد ظفر بحال التقرب وسره وباطنه، وإن لم يجده فهو يتقرب لسانه وبدنه وظاهره فقط، فَلْيَدُم على ذلك، وليتكلف التقرب بالأذكار والأعمَال على الدوام، فعساه أن يحظى بحال القرب.

• ووراء هذا «القرب الباطن» أمرٌ آخر أيضًا، وهو شيء لا يعبر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلق إلى الله رسول الله ﷺ عن هذا المعنى، حيث يقول حاكيًا عن ربه تبارك وتعالى: «**من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**»، فيجد هذا المحب في باطنه ذوق معنى هذا الحديث ذوقًا حقيقيًّا.

فذكر من مراتب القرب ثلاثة، ونبه بها على مَا دونها ومَا فوقها، فذكر

تقرب العبد إليه بالشبر، وتقربه سبحانه إلى العبد ذراعًا، فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرب الذراع، فيجد ذوق تقرب الرب إليه باعًا، فإذا ذاق حلاوة هذا القرب الثاني: أسرع المشي حينئذٍ إلى ربه، فيذوق حلاوة إتيانه إليه هرولةً، وهاهنا منتهى الحديث، منبها على أنه إذا هَرْوَل عبده إليه كان قرب حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه، فإمَا أن يكون قد أمسك عن ذلك لعظيم شاهد الجزاء، أو لأنه يدخل في الجزاء الذي لم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر، أو إحالةً له على المراتب المتقدمة، فكأنه قيل له: وقس على هذا، فعلى قدر مَا تبذل منك متقربًا إلى ربك: يتقرب إليك بأكثر منه، وعلى هذا فلازم هذا التقرب المذكور في مراتبه، أي من تقرب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه، وإرادته وأقواله وأعمَاله: تقرب الرب منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرب عبده إليه.

وليس القرب في هذا المراتب كلها قرب مسافة حسية، ولا ممَاسة، بل هو قرب حقيقي، والرب تعالى فوق سمَاواته على عرشه، والعبد في الأرض.

وهذا الموضع هو سر السلوك، وحقيقة العبودية، وهو معنى الوصول الذي يدندن حوله القوم.

وملاك هذا الأمر: هو قصد التقرب أولًا. ثم التقرب ثانيًا، ثم حال القرب ثالثًا، وهو الانبعاث بالكلية إلى الحبيب.

وحقيقة هذا الانبعاث: أن تفنَى بمراده عن هواك، وبمَا منه عن حظك. بل يصير ذلك هو مجموع حظك ومرادك، وقد عرفت أن من تقرب إلى حبيبه بشيءٍ من الأشياء جوزي على ذلك بقرب هو أضعافه،

وعرفت أن أعلى أنواع التقرب: تقرب العبد بجملته -بظاهره وباطنه، وبوجوده- إلى حبيبه، فمن فعل ذلك فقد تقرب بكله، ولم تبق منه بقية لغير حبيبه، كما قيل:

لا كـان مـن لـسواك فيـه بقيـة يجـد الـسبيل بهـا إليـه العُـذّل

وإذا كان المتقرب إليه بالأعمَال يعطى أضعاف أضعاف مَا تقرب به، فمَا الظن بمن أُعْطِي حال التقرب وذوقه ووجده؟ فمَا الظن بمن تقرب إليه بروحه، وجميع إرادته وهمته، وأقواله وأعمَاله؟.

وعلى هذا فكمَا جاد لحبيبه بنفسه، فإنه أهل أن يُجاد عليه، بأن يكون ربه سبحانه هو حظه ونصيبه، عوضًا عن كل شيءٍ، جزاءً وفاقًا، فإن الجزاء من جنس العمل، وشواهد هذا كثيرة.

منها: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق] ففرق بين الجزائين كما ترى، وجعل جزاء المتوكل عليه كونه سبحانه حسبه وكافيه.

ومنها: أن الشهيد لمَا بذل حياته لله أعاضه الله سبحانه حياة أكمل منها عنده في محل قربه وكرامته.

ومنها: أن من بذل لله شيئًا أعاضه الله خيرًا منه.

ومنها: قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة].

ومنها: قوله في الحديث القدسي: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في مَلإٍ ذكرته في مَلإٍ خير منه».

ومنها: قوله: «من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا» الحديث.

فالعبد لا يزال رابحًا على ربه أفضل ممَا قَدَّم له. وهذا المتقرب، بقلبه وروحه وعمله: يفتح عليه ربه بحياة لا تشبه مَا الناسُ فيه من أنواع الحياة، بل حياة من ليس كذلك بالنسبة إلى حياته: كحياة الجنين في بطن أمه بالنسبة إلى حياة أهل الدنيا ولذتهم فيها، بل أعظم من ذلك.

فهذا نموذج من بيان شرف هذه الحياة وفضلها، وإن كان علم هذا يوجب لصاحبه حياة طيبة، فكيف إن انصبغ القلب به، وصار حالًا ملازمًا لذاته؟ فالله المستعان.

فهذه الحياة: هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة، فمن فقدها ففقده لحياته الطبيعية أولى به..

هــذي حيــاة الفتــى فــإن فُقِـدت ... ففقـــده للحيـــاة أليـــق بـــه

فلا عيش إلَّا عيش المحبين، الذين قَرَّت أعينهم بحبيبهم، وسكنت نفوسهم إليه، واطمَأنت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه، وتنعموا بحبه، ففي القلب فاقة لا يَسُدُّها إلَّا محبة الله، والإقبال عليه، والإنابة إليه، ولا يُلَمُّ شَعَثُه بغير ذلك ألبتة، ومن لم يظفر بذلك: فحياته كلها هموم وغموم، وآلام وحسرات، فإنه إن كان ذا همة عالية تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. فإن همته لا ترضى فيها بالدون وإن كان مَهينًا خسيسًا فعيشه كعيش أخس الحيوانات، فلا تقر العيون إلَّا بمحبة الحبيب الأول..

نَقِّل فؤادك حيث شِئتَ من الهوى ... مَــا الحــب إلَّا للحبيــب الأول

كم منزل في الأرض يألفُـهُ الفتـى ... وحَنينــه أبــدًا لأول منــزل [(١)]

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٦٤- ٢٧٤).

ومن مراتب الحياة: حياةُ الأرواح بعد مفارقتها الأبدان:

وخلاصها من هذا السجن وضيقه، فإن من ورائه فضاءً وروحًا وريحانًا وراحة، نسبة هذه الدار إليه: كنسبة بطن الأم إلى هذه الدار، أو أدنى من ذلك، قال بعض العارفين: لِتَكُنْ مبادرتك إلى الخروج من الدنيا كمبادرتك إلى الخروج من السجن الضيق على أحبتك، والاجتمَاع بهم في البساتين المونِقة، قال الله تعالى في هذه الحياة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩)﴾ [الواقعة].

ويكفي في طيب هذه الحياة: مرافقة الرفيق الأعلى، ومفارقة الرفيق المؤذي المنكد، الذي تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة، فضلًا عن مخالطته وعِشْرته، إلى الرفيق الأعلى الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، في جوار الرب الرحمن الرحيم..

قد قلت، إذ مدحوا الحياة فأسرفوا: في الموت ألفُ فضيلة لا تعرف
منها: أمَان لقائه بلقائه وفراق كل معاشر لا ينصف

ولو لم يكن في الموت من الخير إلَّا أنه باب الدخول إلى هذه الحياة، وجِسْر يُعْبَر منه إليها: لكفى به تحفة للمؤمن..

جزى الله عنا الموت خيرًا، فإنه أَبَرُّ بنا من كل بَرٍّ وألطف
يُعَجِّل تخليص النفوس من الأذى ويُدْنِي إلى الدار التي هي أشرف

فالاجتهاد في هذا العمر القصير، والمدة القليلة، والسعي والكدح، وتحمل الأثقال، والتعب والمشقة، إنمَا هو لهذه الحياة، والعلوم والأعمَال: وسيلة إليها، وهي يقَظَة، ومَا قبلها من الحياة نوم، وهي عين،

ومَا قبلها أثر. وهي حياة جامعة بين فقد المكروه، وحصول المحبوب في مقام الأنس، وحضرة القدس، حيث لا يتعذر مطلوب، ولا يفقد محبوب، حيث الطمَانينة والراحة، والبهجة والسرور، حيث لا عبارة للعبد عن حقيقة كنهها؛ لأنها في بلد لا عهد لنا به، ولا إلف بيننا وبين ساكنه، فالنفس -لإلفها لهذا السجن الضيق النكد زمَانًا طويلًا- تكره الانتقال منه إلى ذلك البلد، وتستوحش إذا استشعرت مفارقته.

وحصول العلم بهذه الحياة: إنمَا وصل إلينا بخبر إلهي، على يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهم ﷺ، فقامت شواهدها في قلوب أهل الإيمان، حتى صارت لهم بمنزلة العيان، ففرت نفوسهم من هذا الظل الزائل، والخيال المضمحل، والعيش الفاني المشوب بالتنغيص وأنواع الغصص، رغبة في هذه الحياة، وشوقًا إلى ذلك الملكوت، ووجدًا بهذا السرور، وطربًا على هذا الحد، واشتياقًا لهذا النسيم، الوارد من محل النعيم المقيم.

ولعمر الله إن من سافر إلى بلد العدل والخِصْب، والأمن والسرور: صَبَرَ في طريقه على كل مشقة، وإعواز وجدب، وفارق المتخلفين أحوج مَا كان إليهم، وأجاب المنادي إذا نادى به: حي على الفلاح، وبذل نفسه في الوصول بَذْل المحب بالرضى والسمَاح، وواصل السير بالغدوِّ والرواح، فحمد عند الوصول مَسْراه، وإنمَا يحمد المسافر السُّرَى عند الصباح..

عند الصباح يحمد القوم السُّرَى وفي الممَات يحمد القوم اللقا

ومَا هذا -والله- بالصعب ولا بالشديد، مع هذا العمر القصير، الذي

هو بالنسبة إلى تلك الدار كساعة من نهار ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

* وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

* وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات].

* وقال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون].

فلو أن أحدنا يُجَرُّ على وجهه -يَتَّقِي به الشوك والحجارة- إلى هذه الحياة: لم يكن ذلك كثيرًا ولا غَبْنًا في جنب مَا يُوَقّاه.

فوا حسرتاه على بصيرة شاهدت هاتين الحياتين على مَا هُمَا عليه، وعلى همة تؤثر الأدنى على الأعلى، ومَا ذاك إلَّا بتوفيق مَنْ أَزِمَّة الأمور بيديه، ومنه ابتداء كل شيءٍ وانتهاؤه إليه، أقعدَ نفوس من غلبت عليهم الشقاوة عن السفر إلى هذه الدار، وجذب قلوب من سَبَقت لهم منه الحسنى، وأقامهم في الطريق، وسَهَّل عليهم ركوب الأخطار، فأضاع أولئك مراحل أعمَارهم مع المتخلفين وقطع هؤلاء مراحل أعمَارهم مع السائرين، وعُقِدت الغَبَرة وثار العَجاج، فتوارى عنه السائرون والمتخلفون، وسينجلي عن قريب، فيفوز العاملون، ويخسر المبطلون.

• ومن طيب هذه الحياة ولذاتها: قال النبي ﷺ: «مَا من نفس تموت -لها عند الله خير- يسرها أن ترجع إلى الدنيا، وأن لها الدنيا ومَا فيها، إلَّا الشهيد؛ فإنه يتمنى الرجوع إلى الدنيا، لمَا يرى من كرامة الله له»،

يعني: ليقتل فيه مرة أخرى»(١).

□ ثم قال رحمه الله: «وفي هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء، وأنهم عند ربهم يرزقون، وأنها أكمل من حياتهم في هذه الدنيا، وأتم وأطيب، وإن كانت أجسادهم متلاشية، ولحومهم متمزقة، وأوصالهم متفرقة، وعظامهم نَخِرة، فليس العمل على الطَّلَل، إنمَا الشأن في الساكِن.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة].

□ وإذا كان الشهداء إنمَا نالوا هذه الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم، فمَا الظن بحياة الرسل في البرزخ؟ ولقد أحسن القائل مَا شاء:

فالعيش نوم، والمنية يقظة ... والمرء بينهمَا خيال ساري

فللرسل والشهداء والصديقين من هذه الحياة – التي هي يقظة من نوم الدنيا – أكملها وأتمها، وعلى قدر حياة العبد في هذا العالم يكون شوقه إلى هذه الحياة، وسعيه وحرصه على الظفر بها، والله المستعان»(٢).

وآخر هذه المراتب وأعلاها: الحياة الدائمة الباقية في دار الحيوان بعدَ طَيِّ هذا العالم وذهاب الدنيا وأهلها:

«وهي الحياة التي شمر إليها المشمرون، وسابق إليها المتسابقون،

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٧٤ - ٢٧٦).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٨٢ - ٢٨٣).

ونافس فيها المتنافسون، وهي التي أجرينا الكلام إليها، ونادت الكتب السمَاوية ورسل الله جميعهم عليها، وهي التي يقول من فاته الاستعداد لها: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر].

* وهي التي قال الله ﷻ فيها: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت].

• والحياة المتقدمة كالنوم بالنسبة إليها، وكل مَا تقدم –من وصف السير ومنازله، وأحوال السائرين، وعبوديتهم الظاهرة والباطنة– فوسيلة إلى هذه الحياة، وإنمَا الحياة الدنيا، بالنسبة إليها، كما قال النبي ﷺ: «**مَا الدنيا في الآخرة إلّا كما يُدخِل أحدُكم إصبعه في اليَمِّ فلينظر بم ترجع؟**».

وكمَا قيل: تنفست الآخرة، فكانت الدنيا نفسًا من أنفاسها، فأصاب أهل السعادة نَفَس نعيمها، فهم على هذا النفس يعملون، وأصاب أهلَ الشقاوة نفس عذابها، فهم على ذلك النفس يعملون.

وإذا كانت حياة أهل الإيمان والعمل الصالح في هذه الدار حياة طيبة، فمَا الظن بحياتهم في البرزخ، وقد تخلصوا من سجن الدنيا وضيقها؟ فمَا الظن بحياتهم في دار النعيم المقيم الذي لا يزول، وهم يرون وجه ربهم تبارك وتعالى بُكْرَةً وعَشِيًّا ويسمعون خطابه؟.

فإن قلت: مَا سبب تخلف النفس عن طلب هذه الحياة التي لا خَطَر لها، ومَا الذي زَهَّدها فيها؟ ومَا سبب رغبتها في الحياة الفانية المضمحلة، التي هي كالخيال والمنام؟ أفسادٌ في تصورها وشعورها؟ أم

تكذيب بتلك الحياة؟ أم لآفة في العقل، وعمى هناك؟ أم إيثار للحاضر المشهود بالعيان على الغائب المعلوم بالإيمان؟

قيل: بل ذلكم لمجموع أمور مركبة من ذلك كله.

وأقوى الأسباب في ذلك: ضعف الإيمان؛ فإن الإيمان هو روح الأعمَال. وهو الباعث عليها، والآمر بأحسنها، والناهي عن أقبحها، وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وائتمَار صاحبه وانتهاؤه.

* قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة].

وبالجملة: فإذا قوي الإيمان قوي الشوق إلى هذه الحياة، واشتد طلب صاحبه لها.

السبب الثاني: جُثوم الغفلة على القلب؛ فإن الغفلة نوم القلب، ولهذا تجد كثيرًا من الأيقاظ في الحس نيامًا في الواقع، فتحسبُهم أيقاظًا وهم رقود، ضد حال من يكون يقظان القلب وهو نائم، فإن القلب إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن، وكمَال هذه الحياة كان لنبينا ﷺ، ولمن أحيا الله قلبه بمحبته واتباع رسالته على بصيرة من ذلك بحسب نصيبه منهمَا.

فالغفلة واليقظة يكونان في الحس والعقل والقلب، فمستيقظ القلب وغافله كمستيقظ البدن ونائمه، وكمَا أن يقظة الحس على نوعين، فكذلك يقظة القلب على نوعين.

فالنوع الأول من يقظة الحس: أن صاحبها ينفذ في الأمور الحسية،

ويتوغل فيها بكسبه وفطانته، واحتياله وحسن تأتيه.

والنوع الثاني: أن يُقبِل على نفسه وقلبه وذاته، فيعتني بتحصيل كمَاله. فيلحظ عوالي الأمور وسفسافها، فيؤثر الأعلى على الأدنى، ويقدم خير الخيرين بتفويت أدناهمَا، ويرتكب أخف الشرين خشية حصول أقواهمَا، ويتحلى بمكارم الأخلاق ومعالي الشِّيَم. فيكون ظاهره جميلًا، وباطنه أجمل من ظاهره، وسريرته خيرًا من علانيته، فيزاحم أصحاب المعالي عليها كما يتزاحم أهل الدينار والدرهم عليهمَا. فبهذه اليقظة يستعد للنوعين الآخرين منهمَا.

أحدهمَا: يقظة تبعثه على اقتباس الحياة الدائمة الباقية، التي لا خَطَر لها، من هذه الحياة الزائلة الفانية، التي لا قيمة لها.

فإن قلت: مَثِّل لي، كيف تقتبس الحياة الدائمة من الحياة الفانية؟ وكيف يكون هذا؟ فإني لا أفهمه.

قلت: وهذا أيضًا من نوم القلب، بل من موته. وهل تقتبس الحياة الدائمة إلَّا من هذه الحياة الزائلة؟ وأنت قد تشعل سراجك من سراج آخر قد أشفى على الانطفاء، فيتَّقِد الثاني ويضيء غاية الإضاءة، ويتصل ضوءه، وينطفئ الأول. والمقتبس لحياته الدائمة من حياته المنقطعة: إنمَا ينتقل من دار منقطعة إلى دار باقية. وقد توسط الموت بين الدارين، فهو قنطرة لا يعبر إلى تلك الدار إلَّا عليها، وباب لا يدخل إليها إلَّا منه، فهمَا حياتان في دارين بينهمَا موت؛ وكمَا أن نور تلك الدار مقتبس من نور هذه الدار، فحياتها كذلك مقتبسة من حياتها. فعلى قدر نور الإيمان في هذه الدار يكون نور العبد في تلك الدار، وعلى قدر حياته في هذه الدار

تكون حياته هناك»[١].

□ «فمَاذا فقد من وجد الأنس بتلك الحقائق والمدركات وتلك المعاني والمشاعر؟ وعاش بها ومعها، وقطع رحلته على هذا الكوكب في ظلالها وعلى هُدَاها؟ ومَا وجد من فقدها ولو تقلّبَ في أعطاف النعيم، وهو يتمتَّعُ ويأكل كما تأكل الأنعام. والأنعام أهدى؛ لأنها تعرف بفطرتها الإيمان؛ وتهتدي به إلى بارئها الكريم»[٢].

وحياة الآخرين تعيسة مريرة بلا حدود ولا قيود ولا أمل:

□ كتب أنيس منصور تحت عنوان «هذا الجيل بلا حدود ولا قيود ولا أمل» يقول: «هذه عبارة الكاتب الفرنسي «شارل موليه» في الجزء الثالث من كتابه عن «أدب القرن العشرين والمسيحية» في ٥٠٠ صفحة، وهو في هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة لا يدافع عن المسيحية ولا يهاجمها، ولكن يجعلها حائطًا كبيرًا ترجع إليه الحضارة الغربية في محنتها الروحية، وهذا الكتاب هو أحسن الكتب وأشملها عن أدب القرن العشرين فلم يظهر كتاب شامل عن أدب القرن العشرين إطلاقًا. وإنمَا كل الكتب التي صدرت هي دراسات خاصة مطوَّلة عن كثير من هؤلاء الأدباء.. ولكن هذه الدراسات الموضوعية قد انفرد بها صابرًا مجتهدًا «شارل موليه».

والمؤلف يعتمد على النصوص الأدبية ولا يُطلق حكمًا دون أن يكون في يديه وفي جيوبه حيثيات هذا الحكم، وهو لا يخلو للمداولة

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٨٣- ٢٨٥).
(٢) «الظلال» (٦/ ٣٣٥٣- ٣٣٥٤).

ويصدر أحكامه، وإنمَا يصدرها علنًا في محكمة النقد الأدبي.

والجزء الثالث هذا قد تناول فيه الآثار العميقة لكل من «مَالرو»، و«كفاكا»، و«فركور»، و«شولوخوف»، و«مولنيه»، و«بومبار»، و«فراسنواز ساجان»، و«لاديستاس ريمون». ومن رأي المؤلف أن الفيلسوف السياسي الموسيقار الطيار «أندريه مَالرو» هو الذي وضع أصابعه على الخطر الذي ينتظر الإنسانية، فهو وحده الذي أدرك منذ أكثر من ربع قرن محنة الروح الأوربية، و«المرو» هو الذي نفث روح القلق والأسى في الأدب الفرنسي والأوربي بعد ذلك.

والغريب في هذا الجزء الثالث مَا قاله المؤلف عن الأديبة الفرنسية «فرانسواز ساجان» التي صدرت لها قصتان همَا: «مرحبًا أيها الحزن».. و«ابتسامة مَا» فهو يرى أن «ساجان» قد سجَّلت روح اليأس والمرارة واللامبالاة والتواكل، تلك الروح التي عبَّر عنها سارتر في أعقاب الحرب الأخيرة. والذي يتذكر مَا قال «سارتر» في الأعداد الأولى من مجلة «العصور الحديثة» يجده يصرخ ويقول: «لقد انتهت الحرب في فرنسا الجائعة، ولكن السلام لم يبدأ. إننا نعيش في محنة مَا بين الحربين، لقد كذب هؤلاء الذين قالوا: إن السلام من طبيعة الأشياء وإن الحرب مسألة عارضة.. فمَا هذا الذي نحن فيه؟ إنه الحرب والسلام معًا، إنها المحنة دائمًا!!».

وهذا الذي قاله «سارتر» في قصصه وكتبه إنمَا هو تعميق للإحساس بالمَاساة واليأس والمرارة، وقد عبَّر عنه الشاعر الألمَاني «بروشرت» الذي توفي سنة ١٩٤٧، قال في قصته «أمَام الباب»: نحن جيل بلا رابط

ولا عمق. عمقنا هو الهاوية، نحن جيل بلا دين ولا راحة، شمسنا ضيقة، حبنا وحشية، وشبابنا بلا شباب!!.

إننا جيل بلا قيود ولا حدود ولا حماية من أحد.

وكان لا بد أن تظهر هذه الصورة الشابة المعذبة في طلبة الجامعات والمدارس وأعماق الأديرة، ومن هذه الأديرة، ومن الرهبانية القائمة، خرجت «فرانسواز ساجان» لتُعلن في قصتها: إنني لا أفكر، ولا أستطيع، ولا أطيق أن أبقى وحدي، ولا أريد لأحد أن يكون كذلك، وأريد أن أعيش مثل شيءٍ جديد، ولو كان فيه عذاب، المهم أن يكون جديدًا.

وكذلكم فعلت «سسيل» بطلة قصة «مرحبًا أيها الحزن»، ولم تتردد «دومنيك» طالبة الحقوق وبطلة قصة «ابتسامة مَا».

«سسيل»، و«دومنيك» صورتان لأبناء هذا الجيل الذي يتحرك ويتألم ويروح ويجيء، ويحارب ويصرخ في الظلام بلا حدود ولا قيود يؤمن بها، ولا أمل في أن يكون لديه أمل»، وكفى بهذه الوثائق مستندًا» (١)!

ثانيًا: الإيمان بالله عز وجل أفضل الأعمال:

الإيمان بالله عز وجل هو أفضل أعمال القلب، كما أن الصلاة وهي من الإيمان - أفضل أعمال الجوارح.

• قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الأعمال الإيمان بالله وحده، ثم الجهاد، ثم حجّة برّةٌ تفضُل سائر الأعمال كما بين مطلع الشمس إلى مغربها**» (٢)!

---

(١) «الإيمان والحياة» للقرضاوي (ص٣٠٩- ٣١١).

(٢) صحيح: رواه ابن حبان عن أبي ذر، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» =

• وقال رسول الله ﷺ: «أفضل العمل إيمان بالله، وجهادٌ في سبيل الله»(١).

• وقال النبي ﷺ: «أفضل الأعمال عند الله إيمانٌ لا شكّ فيه، وغزوٌ لا غلول فيه، وحج مبرور»(٢).

• وقال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله إيمان بالله، ثم صِلةُ الرَّحِمِ، ثم الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، وأبغض الأعمال إلى الله الإشراك بالله، ثم قطيعة الرَّحِمِ»(٣).

أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به، وأثنى على أهله ومدح من توسل إليه به:

* قال الله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة].

* ومدح الله عَزَّ وَجَلَّ المؤمنين الذين توسلوا إليه بالإيمان، وذلك تعظيمًا لقدر الإيمان وتنويهًا بشرفه فقال تعالى في وصف أولي الألباب: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ

(١١٢٤)، و«الصحيحة» (١٤٩٠).

(١) صحيح: رواه ابن حبان، وأحمد عن ماعز، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٩٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢٥٨، ٤٤٢، ٥٢١)، وابن حبان (١٠/ ٤٥٨- الإحسان)- وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) حسن: رواه أبو يعلى عن رجل من خثعم. وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٦)، وانظر: «مجمع الزوائد» (٨/ ١٥١)، و«الترغيب» (٣/ ٢٢٣).

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران].

* وأمر الله ﷻ المؤمنين بمزيد من الإيمان فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ ﴾ [النساء: ١٣٦].

* كما اثنى الله تعالى على أصحاب محمد ﷺ بإيمانهم بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله فقال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة]»(١).

جعل الله ﷻ الإيمان شرطًا لقبول الأعمال الصالحة وانتفاع العبد بها في الدنيا والآخرة:

* فقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

فاشترط الله ﷻ الإيمان.

* وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء].

---

(١) انظر: «شجرة الإيمان» للشيخ الدكتور أحمد فريد (ص٢٧- ٢٨)- طبع دار العقيدة.

إذا فقد العبد الإيمان حبط جميع عمله وكان من الخاسرين:

* ولو كان نبيًّا رسولًا، ولو كان خاتم الأنبياء ﷺ، قال الله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)﴾ [الزمر].

وهذا من تقدير المحال، وهو جائز في لغة العرب كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١)﴾[الزخرف].

أو هو خطاب للنبي ﷺ والمقصود به الأمة.

* وقال تعالى بعد أن ذكر الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)﴾[الأنعام].

ضرب الله عز وجل لكلمة الإيمان مثلاً بالشجرة الطيبة التي تضرب جذورها في الأرض الطيبة، وتثمر الثمرات اليانعة كل حين بإذن ربها:

* قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾ [إبراهيم].

□ قال العلامة السعدي: «فمثل الله كلمة الإيمان – التي هي أطيب الكلمات- بشجرة هي أطيب الأشجار موصوفة بهذه الأوصاف الحميدة: أصولها ثابتة مستقرة، ونماؤها مستمر، وثمراتها لا تزال كل وقت وكل حين تغل على أهلها وعلى غيرهم المنافع المتنوعة والثمرات النافعة»[(١)].

---

(١) «رسالة التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» من المجموعة الكاملة لمؤلفات =

□ وقال القاسمي: «لحظ في الممثل به -أعني الشجرة- أوصاف جليلة لتلحظ في جانب الممثل له. فمنها: كونها طيبة أعم من طيب المنظر والصورة والشكل، ومن طيب الريح وطيب الثمرة وطيب المنفعة، وكون أصلها ثابتًا أي راسخًا باقيًا في أمن من الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء ليعظم الفرح به والسرور، وكون فرعها في السمَاء، فدل على كمَال حال تلك الشجرة من جهة ارتفاع أغصانها وقوتها في التصاعد ممَا يبرهن على ثبات الأصل ورسوخ العروق، وجهة بعدها عن العفونات والأقذار، فتكون ثمرتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب، وكون ثمرتها تجنى كل حين فلا تنقطع بركاتها وخيراتها، ولا ريب أن وجود هذه الأوصاف ممَا يدل على فخامة الموصوف، وإنافة فضله ولا تخفى مطابقة هذا الممثل به للممثل له»[(١)]، [(٢)].

ومن شرف الإيمَان أنه إذا كمل دخل العبد الجنة من أول وهلة وحرَّمه الله على النار:

وكذا إذا رجحت حسناته بسيئاته والإيمان ولو كان قليلًا يمنع من الخلود في النار، فإنه يخرج من النار من كان في قلبه مثال ذرة من إيمَان، وقال النبي ﷺ: «**إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلَّا الله يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله**»[(٣)].

الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله (٣/ العقيدة الإسلامية/ ٨٨).

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (١٠/ ٢٧).

(٢) «شجرة الإيمَان» (ص٢٧- ٣٠).

(٣) رواه مسلم (١/ ٢٤٤).

□ قال شيخ الإسلام: «وأكثر من يقولها تقليدًا وعادة، ولم تخالط حلاوة الإيمان بشاشة قلبه، وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أصحاب المعاصي، وغالب أعمال هؤلاء إنمَا هو تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم من أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف]، وحينئذٍ فلا منافاة بين الأحاديث؛ فإنه إن قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصرًّا على ذنب أصلًا، فإن كمَال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحبَّ إليه من كل شيءٍ، فإذًا لا يبقى في قلبه إرادة لمَا حرم الله، ولا كراهة لمَا أمر الله، وهذا هو الذي يحرم على النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين لا يترك له ذنبًا إلَّا محي كما يمحو الليل النهار، فإن قالها على وجه الكمَال المَانع من الشرك الأكبر والأصغر فهذا غير مصرٍّ على ذنب أصلًا، ولم يأت بعدها بمَا يناقض ذلك فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات فيرجح لها ميزان الحسنات كما في حديث البطاقة فيحرم على النار ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، وهذا من رجحت سيئاته بحسناته ومَات مصرًّا على ذلك فإنه يستوجب النار» اهـ.

فمن رجحت سيئاته بحسناته وهو من أهل الإيمان فإنه في مشيئة الملك الديان، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، ولكنه يدخل النار إذا دخلها عقوبة، ثم يخرج منها برحمة أرحم الراحمين، ثم بشفاعة الشافعين، ولا يخلد في النار أحد من أهل الإيمان.

* قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء].

• وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله: من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان فأخرجوه**»[(١)].

ومن شرف الإيمان أن العبد لا يفلح الفلاح التام ويهتدي الاهتداء الكامل إلا بالإيمان:

* كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة].

□ قال السعدي رحمه الله: «فهذا هو الهدى التام والفلاح الكامل، فلا سبيل إلى الهدى والفلاح -اللذين لا صلاح ولا سعادة إلّا بهمَا إلّا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله الله وبكل رسول أرسله الله، فالهدى أجمل الوسائل والفلاح أكمل الغايات»[(٢)].

ولشرف الإيمان أخبر الله عز وجل أن الشيطان ليس له سلطان على أهله:

* فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النحل].

□ قال القاسمي رحمه الله: «بين تعالى أن أثر وسوسته إنمَا يكون فيمن له سلطان عليهم، أي تسلط وولاية من أوليائه المتبعين خطواته، وأمّا

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٤٢٤).

(٢) «المجموعة الكاملة» لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي «٣ العقيدة الإسلامية» (١٣١).

الذين آمنوا وتوكلوا على ربهم فصبروا على المكاره ولم يبالوا بمَا يلقون في سبيل الجهاد بالحق من العثرات، فليس له عليهم سلطان، فهم يُضَادُّون أمَانيه ويهدمون كل مَا يلقيه؛ لأن إيمَانهم يفيدهم النور الكاشف عن مكره والتوكل على الله يفيدهم التقوية بالله فيمنع من معاندة الشيطان وقوة تأثيره» [١].

ولشرف الإيمَان وعد الله المؤمنين أجرًا عظيمًا وفضلاً كبيرًا:

* فقال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب]» [٢] اهـ.

كلمَات مضيئة للشيخ أبي الحسن الندوي في أنَّ الإيمَان هو المفتاح الفَذُّ لأقفال الحياة:

«إن الإيمان الحق -كمَا جاء به الإسلام- هو الحل الفذ لعُقد الحياة المعاصرة التي استعصت على العلم وعلى الفلسفة، وحار فيها المفكرون والمُشرِّعون وطلَّاب الإصلاح.

ويطيب لي أن أنقل هنا كلمة مضيئة للداعية الإسلامي الكبير أبي الحسن الندوي، بيَّن فيها كيف طلعت شمس الرسالة المحمدية على العالم فأفاضت عليه نورًا جديدًا، وحياة جديدة.

وكيف فتح النبي محمد ﷺ أقفال الحياة الكثيرة المتعددة بمفتاح

---

(١) «محاسن التأويل» (١٠/ ١٥٧).

(٢) «شجرة الإيمَان» للشيخ د. أحمد فريد (ص٢٩- ٣٣).

الإيمان العجيب، قال الأستاذ في حديث شاعري بينه وبين نفسه عند غار حِراء في مكة المكرَّمة [١]: «لقد كانت الحياة كلها أقفالًا مُعقدة، وأبوابًا مُقفلة، كان العقل مقفلًا أعيا فتحه الحكمَاء والفلاسفة، كان الضمير مقفلًا أعيا فتحه الوعاظ والمرشدين، كانت القلوب مقفلة أعيا فتحها الحوادث والآيات، كانت المواهب مقفلة أعيا فتحها التعليم والتربية والمجتمع والبيئة، كانت المدرسة مقفلة أعيا فتحها العلمَاء والمعلمين، كانت المحكمة مقفلة أعيا فتحها المتظلمين، والمتحاكمين، كانت الأسرة مقفلة أعيا فتحها المصلحين والمفكرين، كان قصر الإمَارة مقفلًا أعيا فتحه الشعب المظلوم والفلاح المجهود والعامل المنهوك، وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مقفلة أعيا فتحها جوع الفقراء وعري النساء وعويل الرُّضعاء، لقد حاول المصلحون الكبار والمشرعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال ففشلوا وأخفقوا، فإن القفل لا يُفتح بغير مفتاحه وقد ضيَّعوا المفتاح من قرون كثيرة وجرَّبوا مفاتيح من صناعتهم ومعادنهم، فإذا هي لا توافق الأقفال وإذا هي لا تُغني عنهم شيئًا، وحاول بعضهم كسر هذه الأقفال فجرحوا أيديهم وكسروا آلتهم.

ففي هذا المكان المتواضع، المنقطع عن العالم المتمدن، على جبل ليس بخصب ولا بشامخ، تم مَا لم يتم في عواصم العالم الكبيرة ومدارسه الفخمة ومكتباته الضخمة، وهنا مَنَّ الله على العالم برسالة محمد ﷺ، وفي رسالته عاد هذا المفتاح المفقود إلى الإنسانية، ذلك المفتاح هو «الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر»، ففتح به هذه الأقفال المُعقدة قفلًا

---

(١) «الإيمَان والحياة» (ص٢٨٨ - ٢٨٩).

قفلًا، وفتح به هذه الأبواب المُقفلة بابًا بابًا، وُضعَ هذا المفتاح النبوي على العقل الملتوي فتفتح ونشط واستطاع أن ينتفع بآيات الله في الآفاق والأنفس، ويتوصل مع العالم إلى فاطره، ومن الكثرة إلى الوحدة، ويعرف شناعة الشرك والوثنية والخرافات والأوهام، وكان قبل ذلك محاميًا مَاجورًا يُدافع عن كل قضية حقًّا وباطلًا.

وضع هذا المفتاح على الضمير الإنساني النائم فانتبه، وعلى الشعور الميت فانتعش، وعاش، وتحوَّلت النفس الأمَارة بالسوء مطمئنة لا تسيغ الباطل ولا تتحمل الإثم حتى يعترف الجاني أمَام الرسول بجريمته ويُلح على العقاب الأليم الشديد، وترجع المرأة المذنبة إلى البادية حيث لا رقابة عليها ثم تحضر المدينة وتُعرِّض نفسها للعقوبة التي هي أشد من القتل. ويحمل الجندي الفقير تاج كِسرى ويُخفيه في لباسه ليستر صلاحه وأمَانته عن أعين الناس ويدفعه إلى الأمير؛ لأنه مَال الله الذي لا يجوز الخيانة فيه.

كانت القلوب مقفلة لا تعتبر ولا تزدجر ولا ترق ولا تلين، فأصبحت خاشعة واعية تعتبر بالحوادث وتنتفع بالآيات، وترق للمظلوم وتحنو على الضعيف.

□ وُضِعَ هذا المفتاح على القُوى المخنوقة والمواهب الضائعة فاشتعلت كاللهب وتدفقت كالسيل، واتجهت الاتجاه الصحيح، فكان راعي الإبل راعي الأمم وخليفة يحكم العالم وأصبح فارس قبيلة وبلد، قاهر الدول وفاتح الشعوب العريقة في القوة والمجد. وضع المفتاح على المدرسة المقفلة وقد هجرها المُعلِّمون وزهد فيها المُتعلِّمون وسقطت

قيمة العلم وهان المُعَلِّم، فذكر من شرف العلم وفضل العلم والمتعلم والمُرَبِّي والمُعَلِّم، وقرن الدين بالعلم حتى كانت له دولة ونَفَاق، وأصبح كل مسجد وكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة، وأصبح كل مسلم متعلمًا لنفسه، معلمًا لغيره، ووجد أكبر دافع إلى طلب العلم وهو الدين.

▫ وضعه على المحكمة المقفلة فأصبح كل عالم قاضيًا عادلًا وكل حاكم مسلم حكمًا مقسطًا، وأصبح المسلمون قوَّامين لله شهداء بالقسط، ووُجِدَ الإيمان بالله وبيوم الدين فكثر العدل وقل الجدل، وفُقِدت شهادة الزور والحكم بالجور.

▫ وضعه على الأسرة المقفلة وقد فشا فيها التطفيف بين الوالد وولده، والأخ وإخوته، والرجل وزوجته، وتعدى من الأسرة إلى المجتمع فظهر بين السيد وخادمه والرئيس والمرؤوس والكبير والصغير، كل يريد أن يأخذ مَا له ولا يدفع مَا عليه، وأصبحوا مطففين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، فغرس في الأسرة الإيمان وحذَّرها من عقاب الله، وقرأ عليها قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١﴾ [النساء]، وقَسَّم المسؤولية على الأسرة والمجتمع كله فقال: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»، وهكذا أوجد أسرة عادلة متحابة مستقيمة ومجتمعًا عادلًا، وأوجد في أعضائه شعورًا عميقًا بالأمَانة وخوفًا شديدًا من الآخرة حتى تورَّع الأمراء وولاة الأمور، وتقشَّفوا، وأصبح سيد القوم خادمهم، ووالي الأمة كولي اليتيم: إن استغنى استعفَّ وإن افتقر أكل بالمعروف،

وأقبل إلى الأغنياء والتجار فزهدهم في الدنيا ورغبهم في الآخرة وأضاف الأموال إلى الله فقرأ عليهم: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد: ٧]، ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة].

أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله، الخائف من عقاب الله، الخاشع الأمين، المؤثر للآخرة على الدنيا، المستهين بالمَادة المتغلب عليها بإيمَانه وقوته الروحية، يؤمن بأن الدنيا خُلقَت له وأنه خُلِقَ للآخرة، فإذا كان هذا الفرد تاجرًا فهو التاجر الصدوق الأمين، وإذا كان فقيرًا فهو الرجل الشريف الكادح، وإذا كان عاملًا فهو العامل المجتهد الناصح، وإذا كان غنيًّا فهو الغني السخي المواسي، وإذا كان قاضيًا فهو القاضي العادل الفهم، وإذا كان واليًا فهو الوالي المخلص الأمين، وإذا كان سيدًا رئيسًا فهو الرئيس المتواضع الرحيم، وإذا كان خادمًا أو أجيرًا فهو الرجل القوي الأمين، وإذا كان أمينًا للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم. وعلى هذه اللَّبنات قام المجتمع الإسلامي وتأسست الحكومة الإسلامية فيه بدورها، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلَّا صورة مُكَبَّرة لأخلاق الأفراد ونفسيتهم، فكان المجتمع مجتمعًا صالحًا أمينًا مؤثرًا للآخرة على الدنيا متغلبًا على المَادة غير محكوم لها، انتقل إليه صدق التاجر وأمَانته، وتعفف الفقير وكدحه، واجتهاد العامل ونصحه، وسخاوة الغني

ومواساته، وعدل القاضي وحكمته، وإخلاص الوالي وأمَانته، وتواضع الرئيس ورحمته، وقوة الخادم، وحراسة الخازن، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة ومؤثرة للمبادئ على المنافع، والهداية على الجباية، وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وُجِدت حياة عامة، كلها إيمَان وعمل صالح، وصدق وإخلاص، وجد واجتهاد، وعدل في الأخذ والعطاء، وإنصاف النفس مع الغير.

وقد ذهلتُ في حديثي لنفسي، وتمثلت إليَّ الجمَاعات الإسلامية الأولى بجملها وتفاصيلها كأني أشاهدها وأتنفسُ في جوِّها وانقطعت الصلة بيني وبين العالم المعاصر.

وحانت مني التفاتة إلى هذا العصر الذي نعيش فيه فقلت: إني لأرى أقفالًا جديدة على أبواب الحياة الإنسانية وقد قطعت الحياة مراحل طويلة وخطت خطوات واسعة وتعقدت الحياة والتوت وتطوَّرت المسائل وتنوَّعت، وتساءلتُ: هل يمكن فتح هذه الأقفال الجديدة بذلك المفتاح العتيق؟ وأبيتُ أن أحكم بشيء، حتى أختبر هذه الأقفال وأضع عليها المفتاح، ولمستُ هذه الأقفال بالبنان فإذا هي الأقفال القديمة بتلوين جديد، وإذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم، وإذا المشكلة الكبرى وأساس الأزمة هو الفرد الذي لا يزال لبنة المجتمع وأساس الحكومة، ووجدتُ أن هذا الفرد قد أصبح اليوم لا يُؤمن إلَّا بالمَادة والقوة، ولا يعنى إلَّا بذاته وشهواته وأنه يُبالغ في تقدير هذه الحياة ويُسرف في عبادة الذات وإرضاء الشهوات، وقد انقطعت الصلة بينه وبين ربه ورسالة الأنبياء وعقيدة الآخرة، فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء هذه المدنية، فإذا كان تاجرًا فهو التاجر المحتكر النهم الذي

يحجب السلع أيام رخصها ويُبرزها عند غلائها ويُسبِّب المجاعات والأزمَات، وإذا كان فقيرًا فهو الفقير الثائر الذي يريد أن يتغلب على جهود الآخرين بغير تعب، وإذا كان عاملًا فهو العامل المطفف الذي يريد أن يأخذ مَا له ولا يدفع مَا عليه، وإذا كان غنيًّا فهو الغني الشحيح القاسي الذي لا رحمة فيه ولا عطف، وإذا كان واليًا فهو الوالي الغاش الناهب للأموال، وإذا كان سيدًا فهو الرجل المستبد المستأثر الذي لا ينظر إلَّا إلى فائدته وراحته، وإذا كان خادمًا فهو الضعيف الخائن، وإذا كان خازنًا فهو السارق المختلس للأموال، وإذا كان وزير دولة أو رئيس وزارة أو رئيس جمهورية فهو المَادي المستأثر الذي لا يخدم إلَّا نفسه وحزبه ولا يعرف غيره، وإذا كان زعيمًا أو قائدًا فهو الوطني أو الجنسي الذي يقدس وطنه ويعبد عنصره ويدوس كرامة البلاد الأخرى والشعوب الأخرى، وإذا كان مُشرِّعًا فهو الذي يسن القوانين الجائرة والضرائب الفادحة، وإذا كان مخترعًا اخترع المدمرات والناسفات، وإذا كان مكتشفًا اكتشف الغازات المُبيدة للشعوب، المُخرِّبة للبلاد، والقنبلة الذَرِّية التي تُهلك الحرث والنسل، وإذا كان فيه قوة التطبيق والتنفيذ لم ير بأسًا بإلقاء القنابل على الأمم والبلاد.

وبهؤلاء الأفراد تكوَّن المجتمع وتأسست الحكومة، فكان مجتمعًا مَاديًّا، اجتمع فيه احتكار التاجر وثورة الفقير وتطفيف العامل وشُح الغني وغش الوالي، واستبداد السيد وخيانة الخادم وسرقة الخازن ونفعية الوزراء ووطنية الزعمَاء [١] وإجحاف المُشرِّع وإسراف المخترع

(١) يقصد الكاتب بـ «الوطنية» النزعة الإقليمية التي كل ولائها لأرضها فحسب دون =

والمكتشف وقسوة المُنَفِّذ، وبهذه النفسيات المَادية تولَّدت أزمَات عنيفة ومشاكل معقدة، تشكو منها الإنسانية بثها وحزنها، كالسوق السوداء وفشو الرشوة والغلاء الفاحش واختفاء الأشياء والتضخيم النقدي، وأصبح المفكرون والمُشرِّعون لا يجدون حلًّا لهذه المشاكل، وأصبحوا إذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمة أخرى، بل إن حلولهم القاصرة ومعالجتهم المؤقتة هي التي تُسبب أزمَات جديدة، وتنقلوا من حكومة شخصية إلى ديمقراطية إلى ديكتاتورية ثم إلى ديمقراطية، ومن نظام رأسمَالي إلى نظام اشتراكي إلى شيوعي، وإذا الوضع لا يتغيَّر لأن الفرد الذي هو الأساس لا يتغيَّر، ويجهلون، أو يتجاهلون، في كل ذلك، أن الفرد هو الفاسد المعوج، ولو عرفوا أن الفرد هو الأساس، وأنه فاسد معوج لمَا استطاعوا إصلاحه وتقويمه؛ لأنهم على كثرة مؤسساتهم العلمية ودور التعليم والتربية والنشر، لا يملكون مَا يُصلحون به الفرد، ويُقوِّمون اعوجاجه، ويُحوِّلون اتجاهه من الشر إلى الخير، ومن الهدم إلى البناء؛ لأنهم أفسدوا في الروح، وتخلَّوا عن الإيمان، وفقدوا كل مَا يُغذِّي القلب ويغرس الإيمان، ويُعيد الصلة بين العبد وربه، وبين هذه الحياة والحياة الأخرى، وبين المَادة والروح، وبين العلم والأخلاق، وفي الآخر أدى بهم إفلاسهم الروحي ومَاديتهم العمياء واستكبارهم إلى استعمَال آخر مَا عندهم من آلات التدمير التي تبيد شعبًا بأسره وتُخرِّب قُطرًا بطوله، حتى استهدفت الحضارة والحياة البشرية -إذا تبادلت الدول المتحاربة استعمَال هذه الآلات- للنهاية الأليمة». انتهى كلام

اعتبار للروابط الأخرىٰ، دينية أو إنسانية.

الشيخ الندوي رحمه الله.

إكسيرُ الإيمَان صانع العجائب ينشئ الإنسان خَلْقًا آخَر:

إن التحكُّمَ في مياه نهرٍ كبير، أو تحويل مجراه، أو حفر الأرض، أوْ نسف الجبال، أو أيّ تغيير في معالم الكون المَادي أسهل بكثير من تغيير النفوس وتقليب القلوب والأفكار وبناء الإنسان.

إن الإيمان وحده هو صانع العجائب، وهو العنصر الوحيد الذي يُغيِّر النفوس تغييرًا تامًا ويُنشئها خَلْقًا آخر – إن علمَاءَ النَّفْس والتربية يُقرِّرون أن هناك سِنًّا معيّنة هي سنُّ القبول لتكوين العادات، واكتساب الصفات، وتهذيب الطباع، تلك هي سِنُّ الطفولة، فإذا كبر المرء على صفات خاصة فهيهات أن يحدث فيه تغييرٌ يُذكر، فمن شبَّ على شيءٍ شاب عليه..

وينفع الأدب الأحداث في صِغَرٍ ... وليس ينفعُ عند الشيبة الأدبُ
إنَّ الغُصون إذا قوّمتها اعتدلت ... ولن تلين إذا قوّمْتها الخُشُبُ

ولكن هناك شيئًا واحدًا تخطَّى قواعد التربويّين والنفسيّين ذلك هو الإيمان وهو الدين، فالإيمان إذا سكن في قلب وتغلغل في أعمَاقه حوّل اتجاهه، غيّر نظرته للكون والحياة، وأحكامه على الأشياء والأعمَال، وعدَّل سلوكه مع الله والناس، ولم يقف في سبيل ذلك فُتُوّة الشباب، ولا كهولة الكهول، ولا هرم الشيوخ»[(١)].

---

(١) «الإيمَان والحياة» (ص٢٨٤).

ولادة من رحم العقيدة والإيمَان.. ولادة القلب:

□ قال الإمَام ابن القيم رحمه الله: «للعبد أربع نشآت: نشأةٌ في الرحم، حيث لا بصر يُدركه، ولا يد تناله، ونشأةٌ في الدنيا، ونشأة في البرزخ، ونشأة في المعاد الثاني. وكل نشأة أعظم من التي قبلها. وهذه النشأة للروح والقلب أصْلًا، وللبدن تبعًا. فللرُّوح في هذا العالم نشأتان:

إحداهمَا: النشأة الطبيعية المشتركة.

والثانية: نشأة قلبية روحانية، يُولدُ بها قلبه، وينفصل عن مشيمة طبعه، كما وُلِد بدنه وانفصل عن مشيمة البطن. ومَن لم يُصدِّق بهذا فليضربْ عن هذا صفحًا وليشتغل بغيره.

□ وفي كتاب «الزهد» للإمَام أحمد: أن المسيح عليه السلام قال للحواريين: «إنكم لن تلِجُوا ملكوت السمَاوات حتى تُولَدُوا مرَّتيْن».

□ وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: «هي ولادة الأرواح والقلوب من الأبدان، وخروجها من عالم الطبيعة، كما وُلِدت الأبدان من البدن وخرجت منه. والولادة الأخرى: هي الولادة المعروفة. والله أعلم»(١).

سرُّ قوة الإيمَان والعقيدة في النفس، وقوة النفس بالإيمَان:

مَا تكاد حقيقة الإيمان تستقرُّ في القلب حتى تتحرَّك لتعمل، ولتحقِّق ذاتها في الواقع، ولتوائِمَ بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة.

ذلك سرّ قوة العقيدة في النفس، وسرّ قوة النفس بالعقيدة، سرُّ تلك

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٣٩ - ١٤٠).

الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض ومَا تزال في كل يوم تصنعها. الخوارق التي تُغيِّر وجه الحياة من يوم إلى يوم، وتدفع بالفرد وتدفع بالجمَاعة إلى التضحية بالعمر الفاني المحدود في سبيل الحياة الكبرى التي لا تفنى، وتقف بالفرد القليل الضئيل أمَام قوى السلطان وقوى المَال وقوى الحديد والنار، فإذا هي كلها تنهزم أمَام العقيدة في روح فرد مؤمن.. والإيمان وراء هذا كله، وهو الينبوع الذي لا ينضُب ولا ينحسر ولا يضعف.

تلك الخوارق التي يأتي بها الإيمان في حياة الأفراد وفي حياة الجمَاعات لا تقوم على خرافة غامضة، ولا تعتمد على التهاويل والرُّؤى.. وإنمَا على قواعد ثابتة.. تبثُّ في روح المؤمن قوة الثقة بالله والطمَانينة في جواره واليقين بمَا عنده.

علو همة سحرة فرعون وكيف بدّلهم الإيمَان:

هل أتاك حديث سحرة فرعون؟

* قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ
أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ
لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا
لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ
سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ
ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ

خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء].

* ومن صورة طه يحكي الله تهديد فرعون لهم: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه].

كيف تغيّرت شخصيّاتهم؟ كيف انقلبت الموازين؟

لقد كانت هممهم مشدودةً إلى المَال ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ [الشعراء: ٤١]؟ وكانت آمَالهم منوطة بفرعون ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء].. هذا منطقهم قبل أن يُؤمنوا.. فلمَا ذاقوا حلاوة الإيمان كان جوابهم على التهديد والوعيد في بساطة ويقين: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [طه: ٧٢]. بعد أن كان همهم الدنيا صار همهم الآخرة ﴿لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾، وبعد أن كانوا يحلفون بعزّة فرعون صاروا يقولون: ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ تغيّر الاتجاه.. تغيَر المنطق.. تغيّر السلوك تغيّرت الألفاظ.. أصبح القوم غير القوم.. ومَا ذاك إلَّا من صنع الإيمان»[١].

يا لجمَال أثر الإيمَان:

• وفي القصة القصيرة التي رواها الإمَام مسلم في «صحيحه» برهان بين على مبلغ أثر الإيمان، ذلك أن رجلًا كان ضيفًا على النبي ﷺ فأمر له بشاة فحُلِبت، فشرب حلابها، ثم أمرَ له بثانية فشرب حلابها، ثم بثالثة

---

(١) «الإيمَان والحياة» (ص٢٨٥ - ٢٨٦).

فرابعة.. حتى شرب حلاب سبع شياه، وبات الرجل، وتفتّح قلبه للإسلام، فأصبح مسلِمًا، مُعْلِنًا إيمَانه بالله ورسوله، وأمر الرسول ﷺ له في الصباح بشاة فشرب حلابها، ثم أخرى فلم يستتمه، وهنا قال رسول الله ﷺ كلمته المشهورة: «**المؤمنُ يأكلُ في معي واحد، والكافر يأكلُ في سبعة أمعاء**»(١).

فيمَا بين يوم وليلة استحال الرجلُ مِن شَرِهٍ ممعن في التشبع، حريص على ملء بطنه، إلى رجل قاصدٍ عفيفٍ قنوع، مَاذا تغيّر فيه؟ تغيَّر فيه قلبه، كان كافرًا فأصبح مؤمنًا، وهل هناك أسرع أثرًا من الإيمان؟

إن الإيمان الجديد أشعر الرجل بغايةٍ ورسالة، وفروض وواجبات، ونفذ ذلك إلى أعمَاقه نفوذًا جعله ينسى همَّ أمعائه، ويعرض عن الإمعان في الطعام والشراب، وليست هذه حادثة فرديّة، أو واقعة شاذّة، فهل يُمكن أن نُنكِر أو ننسى مَا فعله الإيمان بأمة العرب جميعًا؟ قبل إسلام العرب وإيمَانهم بالله ﷻ كانوا يعيشون على هامش التاريخ.. رعاة أبل ومَاعز.. لا شأن لهم في الأرض ولا ذكر لهم في السمَاء.. كانوا كالعبيد للرومَان والفرس كانوا قبائل ضالة مسكينة حائرة، أَسِنَت حياتهم، وتعفَّنت قياداتهم، فأتاهم الإسلام والإيمان فكان مولدًا جديدًا لهم أعظم من المولد الذي كانت به نشأتهم. لقد أنشأ الإيمان للمؤمنين تَصَوُّرًا جديدًا عن الوجود والحياة والقيم والنظم؛ كما حقّق لهم واقعًا فريدًا،

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وابن مَاجه عن ابن عمر، وأحمد، ومسلم عن جابر، وأحمد، والبخاري ومسلم عن أبي هريرة، ومسلم وابن مَاجه عن أبي موسىٰ.

كان يعزُّ على خيالهم تصوُّره مجرَّد تصوُّر، قبل أن ينشئه لها الإيمان إنشاء.. نعم، لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمَال، والعظمة والارتفاع والسمو والاستقامة بحيث لا يخطر للبشرية على بال لقد حار المؤرخون من الغربيين والمستغربين، في فَهْم السِّرِّ العجيب الذي حوّل هذه الأمة من رُعاةِ غنم إلى رُعاةِ أُمم، ومن قبائل بدواة إلى أمة حضارة، وهيَّأ لها سبيل النَّصْر على كسرى وقيصر، وفتح لها باب السيادة على معظم الدنيا القديمة في عشرات من السِّنين لا عشراتٍ من القرون.

ولكن العارفين لا يدهشون ولا يحارون، فالسِّرُّ معروف، والسبب معلوم. إن مَرَدَّه هو «إكسير» الإيمان الذي صبَّه محمد عليه الصلاة والسلام في نفوس أصحابه، فنقلهم من حالٍ إلى حال، من وثنية إلى توحيد ومن جاهلية إلى إسلام.

أثر الإيمَان في نفس عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

حَسْبُنا مثلًا على هذا التحوّل الخطير رجل وامرأة عُرِف أمرهمَا في الجاهليّة وعُرِف أمرهمَا في الإسلام. الرجل هو عمر بن الخطّاب الذي قالوا عنه قبل إسلامه: «لو أسلَم حمَار الخطاب مَا أسلم عمر».

وكان فظًّا غليظًا في الجاهلية.. فلمَا أسلم بلغ من سموّ عاطفته، ورقّة قلبه وخشيته لله، مَا ملأ صفحات التاريخ بآيات الرحمة الشاملة للمسلم وغير المسلم، بل للإنسان والحيوان، حتى قال: «لو عثرت بغلة بشطِّ الفرات لرأيتني مسؤولًا عنها أمَام الله لِمَ لمْ أُسوِّ لها الطريق؟!

الإيمَان يغيِّر خنساء النواح والبكاء إلى خنساء التضحية والفداء:

أمَا المرأة فهي الخنساء.. المرأة التي فقدت في جاهليَّتها أخاها لأبيها

«صخرًا» فملأت الآفاق عليه بكاءً وعويلًا، وشعرًا حزينًا، ترك الزمن لنا منه ديوانًا كان الأول من نوعه في شعر المراثي والدموع..

يُذكِّرني طلوعُ الشمس صخرًا ... وأذكره لكل غروب شمسِ
ولولا كثرةُ الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

ولكننا بعد إسلامها نراها امرأة أُخرى.. نراها أمًا تُقدِّم فلذات أكبادها إلى الميدان، أي إلى الموت راضية مطمئنة، بل محرِّضة دافعة.

روى المؤرِّخون أنها شهدت حرب القادسية بين المسلمين والفُرس تحت راية القائد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكان معها بنوها الأربعة، فجلست إليهم في ليلة من الليالي الحاسمة، تعظهم وتحثُّهم على القتال والثبات، وكان من قولها لهم: «أيْ بَنِيَّ، إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، والذي لا إله إلَّا هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة، مَا خنت أباكم ولا فضحتُ خالكم، ولا هجَّنت حسبكم، ولا غيَّرتُ نسبكم، وقد تعلمون مَا أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خيرٌ من الدار الفانية، والله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران]. فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوِّكم مستبصرين، وبالله على أعدائكم مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمَّرتْ عن ساقها فتيمَّموا وطيسها، وجالدوا رئيسها، تظفروا بالغُنْم في دار الخلد..» فلمَا أصبحوا باشروا القتال بقلوب فتيّة، وأُنوفٍ حميَّة، إذا فتر أحدهم ذكَّره إخوتُه وصِيَّة الأم العجوز، فزأر كاللَّيث، وانطلق كالسهم، وانقضَّ كالصاعقة ونزل كقضاء الله على أعداء

الله، وظلُّوا كذلك حتى استشهدوا واحدًا بعد واحد. وبلغ الأمَّ نعيُ الأربعة الأبطال في يومٍ واحد، فلم تلطم خدًّا، ولم تشقّ جيبًا، ولكنها استقبلت النبأ بإيمَان الصابرين، وصبر المؤمنين، وقالت: «الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقرِّ رحمتهِ».

مَا الذي غيّر عمر القديم وصنع عمر الجديد؟.

ومَا الذي غيّر خنساءَ النُّوَاحَ والبكاء إلى خنساء التضحية والفداء؟

إنه صانع المعجزات.. إنه الإيمان!!»[١].

عالي الهِمَّة بصير بشُعَب الإيمَان حريصٌ على العمل بها:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الإيمان بِضْعٌ وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلَّا الله، وأدناها إمَاطةُ الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**[٢].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الإيمان بضعٌ وستُّون شعبة، والحياءُ شعبة من الإيمان»**[٣].

• وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الإيمان بِضْعٌ وسبعون بابًا، فأدناها إمَاطة الأذى عن الطريق، وأرفعها: قول لا إله إلَّا الله»**[٤]..

وقد رجّح البيهقي رواية البخاري وكذلك رجحها الحافظ ابن

---

(١) «الإيمَان والحياة» (ص٢٨٧- ٢٨٨).

(٢) رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن مَاجه عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة.

(٤) صحيح: رواه الترمذي، وأحمد، وابن مَاجه، وأبو عبيد، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٦٩)، و«صحيح الجامع» (٢٧٩٩).

حجر، ورجّح الألباني رواية مسلم.

□ قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: «إن هذه الشُّعَب تتفرَّع عن أعمَال القلب، وأعمَال اللسان، وأعمَال البدن».

فأعمَال القلب: فيه المعتقداتُ والنيّات، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة: الإيمان بالله، ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث مَا دونه، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره. والإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه المسألة في القبر، والبعث، والنشور،والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار. ومحبة الله، والحب والبغض فيه، ومحبة النبي ﷺ، واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه الصلاة عليه، واتباع سنته، والإخلاص، ويدخل فيه ترك الرياء والنفاق، والتوبة، والخوف، والرجاء، والشكر، والوفاء، والصبر، والرضا بالقضاء، والتوكل، والرحمة، والتواضع، ويدخل فيه توقير الكبير ورحمة الصغير، وترك الكبر والعجب، وترك الحسد، وترك الحقد، وترك الغضب.

وأعمَال اللسان: وتشتمل على سبع خصال: التلفظ بالتوحيد، وتلاوة القرآن، وتعلم العلم، وتعليمه، والدعاء، والذكر، ويدخل فيه الاستغفار، واجتناب اللغو.

وأعمَال البدن: وتشتمل على ثمَان وثلاثين خصلة، منها مَا يختص بالأعيان وهي خمس عشرة خصلة: التطهير حسًّا وحكمًا، ويدخل فيه اجتناب النجاسات، وستر العورة، والصلاة فرضًا ونفلا. والزكاة كذلك، وفك الرقاب، والجود، ويدخل فيه إطعام الطعام وإكرام الضيف،

والصيام فرضًا ونفلًا، والحج، والعمرة كذلك، والطواف، والاعتكاف، والتمَاس ليلة القدر، والفرار بالدين، ويدخل فيه الهجرة من دار الشرك، والوفاء بالنذر، والتحري في الأيمان، وأداء الكفارات، ومنها مَا يتعلق بالأتباع، وهي ست خصال: التعفف بالنكاح، والقيام بحقوق العيال، وبر الوالدين، وفيه اجتناب العقوق، وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وطاعة السادة أو الرفق بالعبيد، ومنها مَا يتعلق بالعامة، وهي سبع عشرة خصلة: القيام بالإمرة مع العدل، ومتابعة الجمَاعة، وطاعة أولي الأمر، والإصلاح بين الناس، ويدخل فيه قتال الخوارج والبغاة، والمعاونة على البر، ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود، والجهاد، ومنه المرابطة، وأداء الأمَانة، ومنه أداء الخمس، والقرض مع وفائه، وإكرام الجار، وحسن المعاملة، وفيه جمع المَال من حله، وإنفاق المَال في حقه، ومنه ترك التبذير والإسراف، ورد السلام، وتشميت العاطس، وكف الأذى عن الناس، واجتناب اللهو وإمَاطة الأذى عن الطريق، فهذه تسع وستون خصلة، ويُمكن عُدُّها تسعًا وسبعين خصلة باعتبار أفراد مَا ضُمَّ بعضه إلى بعض ممَا ذُكِر»[1].

□ قال ابن حجر: «فائدة: في رواية مسلم من الزيادة «**أعلاها لا إله إلَّا الله، وأدناها إمَاطة الأذى عن الطريق**»، وفي هذا إشارة إلى أن مراتبها متفاوتة»[2].

وعالي الهمة: من يعي هذه الشُّعَب جيّدًا، ويأتمر بمَا فيها، ويطبقها

(١) «فتح الباري» (١/ ٦٨- ٦٩).
(٢) «فتح الباري» (١/ ٦٩).

جهده، ويعمل بها، ويداوم عليها، ويبلغ في الحرص عليها أعلى الدرجات حتى يكمل إيمَانه فيضرب بسهم وافر.

وعالي الهمَّة يُجدِّد إيمَانه ويحرص على زيادته ويَعِي أسباب زيادة الإيمَان ويعمل بها ويدندن حولها:

• قال رسول الله ﷺ: «**إن الإيمان ليَخْلَقُ [1] في جوفِ أحدِكم كما يَخْلَقُ الثوبُ، فاسألوا الله تعالى أن يُجدِّدَ الإيمان في قلوبكم**»[2].

عالي الهمة يتعاهد إيمَانه حتى يرسخ في قلبه ويقوي، ويستعلي على القلع والاجتثاث من قبل أعدائه، الإيمان يطلب من صاحبه أن يكون معه وأن يكون له، وأن يعيش حياته به.

«الإيمان يزيد في قلب وحياة صاحبه، يزيد ويزيد حتى يملأ على صاحبه قلبه ووجوده، ويكون نورًا يضيء له حياته.. ويكون هو قد تمثل الإيمان عمليًّا في حياته، وتجسد الإيمان به وحل في كيانه: كلامه إيمَان، ونظره إيمَان، وسمعه إيمَان، وذهنه إيمَان، قيامه وقعوده إيمَان، نومه ويقظته إيمَان، حركته وسلوكه إيمَان، أنفاسه ودقات قلبه إيمَان، خواطره وخيالاته إيمَان.. أو قل: إنه هو إيمَان.

وقد وردت نصوص في كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ تقرر هذه الحقيقة، وتشير إليها، وتدعو المؤمنين إلى ملاحظتها ومعايشتها والاهتمَام بها.

---

(١) يَبْلَى.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، والحاكم في «المستدرك» عن ابن عمرو، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٨٥)، و«صحيح الجامع» (١٥٩٠).

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [الأنفال].

* وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾ [الأحزاب].

* وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)﴾ [الفتح].

* وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١)﴾ [المدثر].

هذه ستة مواضع من كتاب الله عز وجل تقرر هذه الحقيقة. إن الإيمان يزداد في قلوب أصحابه، وإن هناك عوامل وأسبابًا لزيادته.. ولا أدري كيف أجاز مسلمون سابقون لأنفسهم أن يختلفوا في هذه القضية؟

وكيف جاز لبعضهم أن يقول بعدم زيادة الإيمان، وأن يقرر خلاف مَا قرر القرآن! إن هؤلاء الذين جانبوا مقررات القرآن حول زيادة الإيمان إنمَا دخلوا عالَم القرآن بمقررات سابقة، وكانوا متأثرين وهم ينظرون فيه وفي حقائقه بالعقلية الفلسفية المتأثرة بعلم المنطق والكلام، والغريبة على التصور الإسلامي والهدى القرآني..»(١)، وهذا ترف عقلي وفراغ من الاهتمَامَات العملية الجادة.

• ومن الأحاديث الدالة على زيادة الإيمان مَا رواه الإمَام البخاري في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمَان، فيخرجون منها قد اسودوا، فيُلقون في نهر الحيا أو الحياة -شك مَالك (يعني: أبو سعيد)- فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية..**»(٢).

وتفاضل أهل الإيمان في الأعمَال ناتج عن تفاضلهم في الإيمان، فليسوا جميعًا على مستوى واحد من الإيمان، فمن زاد إيمَانه زادت أعمَاله وحسناته، ومن نقص إيمَانه نقصت حسناته ووقع في السيئات، وهذا تضره المعاصي التي فعلها فيعذب في النار، لكنه لا يخلد فيها لمَا عنده من إيمَان..

• ومن هذه الأحاديث مَا رواه البخاري عن أنس عن النبي ﷺ قال:

(١) «في ظلال الإيمَان» (ص١٠٤- ١٠٥) للدكتور صلاح الخالدي- دار القلم.
(٢) رواه البخاري (١/ ٩١) «الفتح» (ح٢٢)- كتاب الإيمَان -باب تفاضل أهل الإيمَان في الأعمَال.

«يخرج من النار من قال: لا إله إلّا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلّا الله وفي قلبه وزن بُرة من الخير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلّا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير..»(١).

وفي رواية «من إيمَان» مكان «من خير» وهذه الرواية الثانية تبين أن المراد بالخير هنا الإيمان..

□ وروى البخاري أيضًا عن عمر بن الخطاب ﵁ أن رجلًا من يهود قال له: «يا أمير المؤمنين: آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال: أي آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣]. قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة»(٢).

□ قال ابن حجر في «الفتح»: «فإن قيل: كيف دلت هذه القصة على ترجمة الباب حول زيادة الإيمان ونقصانه؟ أجيب: من جهة أنها بينت أن نزولها كان بعرفة، وكان ذلك في حجة الوداع، التي هي آخر عهد البعثة حين تمت الشريعة وأركانها، والله أعلم، وقد جزم السدي بأنه لم ينزل بعد هذه الآية شيء من الحلال والحرام»(٣).

• عن طارق بن شهاب قال: «أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٧) «فتح» (٤٤) -كتاب الإيمَان- باب زيادة الإيمَان ونقصانه.

(٢) رواه البخاري (١/ ١٢٩) (ح٤٥) -باب زيادة الإيمَان ونقصانه.

(٣) «فتح الباري» (١/ ٩٧).

الصلاة مروان. فقام إليه رجل فقال: الصلاة قبل الخطبة. فقال: قد تُرِك مَا هنالك. فقال أبو سعيد: أمَا هذا فقد أدى مَا عليه. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١).

◻ قال النووي في شرحه: «أضعف الإيمان: معناه – والله أعلم – أقلُّه ثمرة» ودلالة الحديث على زيادة الإيمان ونقصانه واضحة».

● ومن الأحاديث الدالة على ذلك مَا روى البخاري عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَيْنا أنا نائِمٌ رأيتُ الناسَ يُعرَضون عليّ وعليهم قُمُص، منها مَا يبلُغُ الثُّدِيَّ، ومنها مَا دُون ذلك، وعُرِضَ عليَّ عمرُ بنُ الخطاب وعليه قميص يَجُرُّهُ**». قالوا: فمَا أَوَّلْتَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «**الدِّين**»(٢).

◻ قال ابن حجر عن هذا الحديث: «ومطابقته للترجمة (٣) ظاهرة من جهة تأويل القمص بالدِّين، وقد ذكر أنهم متفاضلون في لبسها، فدَلَّ على أنهم متفاضلون في الإيمان»(٤).

● وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلّا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنهم تخلف من بعدهم خلوف، يقولون**

(١) رواه مسلم (١/ ٦٩- عبد الباقي)- كتاب الإيمَان- باب كون النهي عن المنكر من الإيمَان، وأن الإيمَان يزيد وينقص.

(٢) رواه البخاري (١/ ٩٣) «فتح» (ح٢٣)- باب تفاضل أهل الإيمَان في الأعمَال.

(٣) وهي: تفاضل أهل الإيمَان في الأعمَال.

(٤) «فتح الباري» (١/ ٩٣).

مَا لا يفعلون، ويفعلون مَا لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[(١)].

• وروى الإمَام مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن». وكان أبو هريرة يلحق معهن: ولا ينتهب نهبة ذات شرف، يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»[(٢)].

وفي رواية عن مسلم: «والتوبة معروضة بعد»[(٣)].

وهذا الحديث يدل على نقصان الإيمان، ويشير إلى ضرر الذنوب والمعاصي على الإيمان، وتأثر الإيمان بها..

ونفي الإيمان عن أصحاب هذه الكبائر ليس نفيًا لحقيقة الإيمان، بل هو نفي لكمَاله، كما ترجم الإمَام النووي عنوان الباب، وهذا من عظيم فقهه، ونافذ بصيرته رحمه الله.

□ قال الإمَام النووي في شرح الحديث: «هذا الحديث ممَا اختلف العلمَاء في معناه، فالقول الصحيح الذي عليه المحققون أن معناه: لا

---

(١) رواه مسلم (١/ ٦٩- ٧٠) باب- كون النهي عن المنكر من الإيمَان، وأن الإيمَان يزيد وينقص.

(٢) رواه مسلم (١/ ٧٦)- كتاب الإيمَان باب بيان نقصان الإيمَان بالمعاصي، ونفيه عن المتلبس بالمعصية علىٰ إرادة نفي كمَاله.

(٣) رواه مسلم (١/ ٧٧).

يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كمَاله»(١).

□ وقال موردًا بعض الأقوال الأخرى في الحديث -ولها وجاهتها أيضًا-: «وتأول بعض العلمَاء هذا الحديث على من فعل ذلك مستحلًا له مع علمه بورود الشرع بتحريمه».

□ وقال الحسن وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري: «معناه ينزع منه اسم المدح الذي يسمى به أولياء الله المؤمنين، ويستحق اسم الذم فيقال: سارق وزان وفاجر وفاسق».

□ وحكي عن ابن عباس ﷺ أن معناه: «ينزع منه نور الإيمان، وفيه حديث مرفوع».

□ وقال المهلب: «ينزع منه بصيرته في طاعة الله تعالى..»(٢).

□ وقد قال أهل السنَّة والجمَاعة بمَا أشارت إليه هذه الأحاديث -ومن قبلها تلك الآيات- قالوا: بزيادة الإيمان وبنقصانه، وتابعوا في ذلك النصوص، وكانوا علميين ومنهجيين في تفكيرهم ونظراتهم كما كانوا مقتدين سلفيين في آرائهم وأفهامهم رضوان الله عليهم».

□ قال الإمَام البخاري في أول كتاب الإيمان: «وهو قول وفعل، ويزيد وينقص قال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. و﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف]، و﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]. و﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد].

---

(١) «شرح النووي» (٢/ ٤١).

(٢) «شرح النووي» (٢/ ٤٢).

و﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]. وقوله: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]. وقوله جل ذكره: ﴿فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب]، والحب في الله والبغض في الله من الإيمان، وكتب عمر ابن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: إن للإيمَان فرائض وشرائع وحدودًا وسننًا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أَعِشْ فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فمَا أنا على صحبتكم بحريص.. وقال إبراهيم عليه السلام ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

□ وقال معاذ: «اجلس بنا نؤمن ساعة».

□ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «اليقين الإيمان كله».

□ وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع مَا حاك في الصدر»..»[(١)].

□ وقال البخاري في باب زيادة الإيمان ونقصانه من كتاب الإيمان: باب زيادة الإيمان ونقصانه، وقول الله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ و﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المَائدة: ٣]، فإذا ترك شيئًا من الكمَال فهو ناقص.

□ ونقل ابن حجر في «الفتح» قول البخاري: «لقيت أكثر من ألف رجل من العلمَاء بالأمصار فمَا رأيت أحدًا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص..».

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٤٣- ٤٦).

□ كما نقل قول الإمَام الشافعي: «الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ثم تلا: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾»[١].

□ ونقل الإمَام النووي في «شرح مسلم» قول ابن بطال: «فإيمَان من لم تحصل له الزيادة ناقص، فإن قيل الإيمان في اللغة التصديق؟ فالجواب: أن التصديق يكمل بالطاعات كلها، فكلمَا ازداد المؤمن من أعمَال البر كان إيمَانه أكمل، وبهذه الجملة يزيد الإيمان وبنقصانها ينقص، فمتى نقصت أعمَال البر نقص كمَال الإيمان ومتى زادت زاد الإيمان كمَالًا»[٢].

□ ولخص النووي قول السلف في هذا الموضوع فقال: «فإذا تقرر مَا ذكرناه من مذاهب السلف، وأئمة الخلف فهي متظاهرة متطابقة على كون الإيمان يزيد وينقص، وهذا مذهب السلف والمحدِّثين وجمَاعة من المتكلمين.. وأنكر أكثر المتكلمين زيادته ونقصانه، وقالوا: متى قبِل الزيادة كان شكًّا وكفرًا.. قال المحققون من أصحابنا المتكلمين: نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، والإيمان الشرعي يزيد وينقص، بزيادة ثمراته وهي الأعمَال ونقصانها.. قالوا: وفي هذا توفيق بين ظواهر النصوص التي جاءت بالزيادة وأقاويل السلف، وبين أصل وضعه في اللغة ومَا عليه المتكلمون..

وهذا الذي قاله هؤلاء وإن كان ظاهرًا حسنًا، فالأظهر –والله أعلم–

(١) «فتح الباري» (١/ ٤٤).
(٢) «شرح النووي على مسلم» (١/ ١٤٦).

أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة، ولهذا يكون إيمَان الصديقين أقوى من إيمَان غيرهم، بحيث لا تعتريهم الشبهة، ولا يتزلزل إيمَانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة وإن اختلفت عليهم الأحوال، وأمَا غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم فليسوا كذلك..

فهذا ممَا لا يمكن إنكاره، ولا يتشكك عاقل في أن نفس تصديق أبي بكر الصديق لا يساويه تصديق آحاد الناس.

ولهذا قال البخاري في «صحيحه»: «قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، مَا منهم أحد يقول إنه على إيمَان جبريل وميكائيل..»(١).

✍ نأخذ من الآيات والأحاديث وأقوال الصحابة والعلمَاء: أن الإيمان يزيد وينقص.

□ فالقرآن صرح بزيادة الإيمان ولم يتحدث عن نقصانه، ولكن يستدل من الآيات على نقصان الإيمان ولهذا يقول ابن حجر في «فتح الباري»: «ثم شرع المصنف يستدل لذلك بآيات من القرآن مصرحة بالزيادة وبثبوتها يثبت المقابل، فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة»(٢).

□ «وإذا مَا سألنا مَا هو الذي يزيد في قلب المؤمن عندمَا يزداد إيمَانه، وعندمَا يسلك الوسائل إلى هذه الزيادة؟ نجد الجواب أن التصديق هو الذي يزيد، وأن اليقين هو الذي يزيد، وأن الاطمئنان هو

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٤٨- ١٤٩).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٩٦).

الذي يزيد، وأن الثقة هي التي تزيد.. وهي كلها من الإيمان»[١].

□ قال الشيخ عبد الرزّاق بن عبد المحسن العباد البدر: «فغير خافٍ مَا للإيمَان من منزلة رفيعة ومكانة عالية، إذ هو أهم المهمَات وأوجب الواجبات على الإطلاق وأعظمها وأجلها، وكل خير في الدنيا والآخرة متوقف على وجود الإيمان وصحته وسلامته، وكم للإيمَان من فوائد مغدقة، وثمَار يانعة، وجنى لذيذ، وأُكُل دائم، وخير مستمر.

ومن هنا شمر المشمرون وتنافس المتنافسون في العناية بالإيمان تحقيقًا وتكميلًا، إذ المسلم الموفق –ولا بد- تكون عنايته بإيمَانه أعظم من عنايته بكل شيءٍ، ولمَا تحقق سلف الأمة وصدرها وخيرها ومقدموها بذلك كانت عنايتهم بإيمَانهم بارزة واهتمَامهم به عظيمًا.

فكانوا – رضي الله عنهم ورحمهم- يتعاهدون إيمَانهم ويتفقدون أعمَالهم ويتواصون بينهم، والآثار عنهم في ذلك كثيرة جدًّا.

□ فكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأصحابه: «هلموا نزداد إيمَانًا»، وفي لفظ: «تعالوا نزداد إيمَانًا».

□ وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: «اجلسوا بنا نزداد إيمَانًا»، وكان يقول في دعائه: «اللهم زدني إيمَانًا ويقينًا وفقهًا».

□ وكان معاذ بن جبل ﷺ يقول: «اجلسوا بنا نؤمن ساعة».

□ وكان عبد الله بن رواحة ﷺ يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول: «تعالوا نؤمن ساعة، تعالوا فلنذكر الله ونزدد إيمَانًا بطاعته، لعله يذكرنا بمغفرته».

(١) «في ظلال الإيمَان» (ص١٣).

□ وكان عمير بن حبيب الخطمي ﵁ يقول: «الإيمان يزيد وينقص، فقيل: ومَا زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله ﷻ وحمدناه وسبحناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا، فذلك نقصانه».

□ وكان علقمة بن قيس النخعي ﵀ وهو أحد كبار التابعين وأجلائهم يقول لأصحابه: «امشوا بنا نزدد إيمانًا».

□ وسئل عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ﵀ عن الإيمان أيزيد؟ قال: «نعم حتى يكون كالجبال، قيل: فينقص؟ قال: نعم حتى لا يبقى منه شيء».

□ وسُئل إمَام أهل السنة أحمد بن حنبل ﵀ عن الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: «يزيد حتى يبلغ أعلى السموات السبع، وينقص حتى يصير إلى أسفل السافلين السبع».

□ وكان يقول: «الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، إذا عملت الخير زاد وإذا ضيعت نقص».

□ والنقول عنهم في ذلك كثيرة جدًّا، وكذلك من تأمل سيرهم وقرأ أخبارهم، علم شدة عنايتهم بأمر الإيمان وعظيم اهتمَامهم به.

فلقد علم هؤلاء الأخيار أن للإيمَان أسبابًا كثيرة تزيده وتقويه وتنميه، وأن له أسبابًا أخرى كثيرة تنقصه وتضعفه وتوهيه، فاجتهدوا في تحقيق مَا يقوي الإيمان ويكمله، واشتد حذرهم من كل مَا يضعف الإيمان وينقصه، فكانوا بذلك بررة أخيارًا.

لذا فإن في معرفة هذه الأسباب -أعني: أسباب زيادة الإيمان ونقصانه- فوائد عظيمة ومنافع جمة غفيرة، بل إن الضرورة مَاسة إلى معرفتها والعناية بها، معرفة واتصافًا؛ وذلك لأن الإيمان هو كمَال العبد

وسبيل فلاحه وسعادته، وبه ترتفع درجاته في الدنيا والآخرة، وهو السبب والطريق لكل خير عاجل وآجل، ولا يحصل ولا يقوى ولا يتم إلَّا بمعرفة طرقه وأسبابه.

فجدير بالعبد المسلم الناصح لنفسه الحريص على سعادتها أن يجتهد في معرفة هذه الأسباب، ويتأملها ثم يطبقها في حياته؛ ليزيد إيمَانُه ويقوى يقينه، وأن يبعد نفسه عن أسباب نقص الإيمان ويحصنها من الوقوع فيها؛ ليسلم من عواقبها الوخيمة ومغبتها الأليمة، ومن وفق لذلك فقد وفق للخير كله.

□ يقول العلامة ابن سعدي رحمه الله: «فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين:

أحدهما: تحقيق الإيمان وفروعه والتحقق بها علمًا وعملًا وحالًا.

والثاني: السعي في دفع مَا ينافيها وينقضها أو ينقصها من الفتن الظاهرة والباطنة، ويداوي مَا قصر من الأول، ومَا تجرأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته»(١)،(٢).

أسباب زيادة الإيمَان:

(١) تعلم العلم النافع المستمدّ من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ:

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

---

(١) «التوضيح والبيان لشجرة الإيمَان» للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ص٣٨).

(٢) «أسباب زيادة الإيمَان ونقصانه» (ص٥- ٧) لعبد الرزّاق بن عبد المحسن العباد – غراس للنشر والتوزيع- الكويت.

* وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج].

□ وقال الآجري في «أخلاق العلمَاء»: «إن الله ﷻ تقدّست أسمَاؤه اختص من خلقه من أحب فهداهم للإيمَان، ثم اختص من سائر المؤمنين من أحب فتفضَّل عليهم فعلَّمهم الكتاب والحكمة، وفقَّههم في الدين وعلَّمهم التأويل، وفضَّلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كل زمَان وأوان»(١). والمراد من العلم العمل به.

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العلمُ علمَان: علم في القلب، وعِلْمٌ على اللسان، فعلم القلب هو العلم النافع، وعلم اللسان هو حجة الله على عباده»(٢).. فالفقيه الذي تفقَّه قلبه غير الخطيب الذي يخطب بلسانه، وقد يحصل للقلب من الفقه والعلم أمور عظيمة، ولا يكون صاحبه مخاطِبًا بذلك لغيره، وقد يخاطب غيره بأمور كثيرة من معارف القلوب وأحوالها، وهو عار من ذلك، فارغ منه»(٣).

□ وقال ابن القيم: «وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان قوةً فمدخول»(٤).

---

(١) «أخلاق العلمَاء» للآجري (ص١٣، ١٤).

(٢) «من كلام الحسن البصري» أخرجه الدارمي (١/ ١٠٢)، وذكره ابن تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٢٣)، وعزاه للحسن.

(٣) «درء التعارض» (٧/ ٤٥٣، ٤٥٤).

(٤) «الفوائد» (ص١٦٢).

ومن هذا العلم النافع:

(أ) قراءة القرآن وتدبره:

* قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال].

لا يحول بين القلب وبين الانتفاع بالقرآن إلَّا حجاب الكفر، فإذا رُفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن، وزاده تدبّر القرآن إيمَانًا.

و«لا يزال العبد يستفيد من هذا التدبُّرِ لكتاب الله، ويشهد قلبه فيه من العلوم مَا يزيد في إيمَانه ويُقوِّيه، وكيف لا؟ وهو يجد في القرآن مَلِكًا عظيمًا جوادًا جميلًا هذا شأنه، فكيف لا يحبُّه وينافس في القرب منه، وينفق أنفاسه في التودُّد إليه، وكيف لا يكون أحب إليه ممَا سواه، وكيف لا يؤثر رضاه على رضَى كل من سواه، وكيف لا يلهج بذكره، ويصير حبّه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤه وقوته ودواؤه، بحيث إنْ فقد ذلك فسد وهلك، ولم ينتفع بحياته»[(١)].

* قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص].

□ وعن جُنْدَب بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن غِلمَانٌ حَزَاوِرَة[(٢)] فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلَّم القرآن، ثم تعلَّمنا القرآن فازددنا

---

(١) المصدر السابق (ص٦٠).

(٢) حزاورة: جمع حزور، والحزور هو الصبي الذي قارب البلوغ

به إيمَانًا»[١].

□ قال الشيخ محمد رشيد رضا: «واعلم أن قوة الدين وكمَال الإيمان به واليقين لا يحصلان إلَّا بكثرة قراءة القرآن واستمَاعه مع التدبر بنية الاهتداء به، والعمل بأمره ونهيه، فالإيمان الإذعاني الصحيح يزداد ويقوى وينمى وتترتب عليه آثاره من الأعمَال الصالحة وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن»[٢].

□ قال ابن سعدي: «ويقوّيه من وجوه كثيرة، فالمؤمن بمجرد مَا يتلو آيات الله، ويعرف مَا رُكِّب فيه من الأخبار الصادقة والأحكام الحسنة يحصل له من أمور الإيمان خير كبير، فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأسراره»[٣].

(ب) معرفة الله بأسمَائه وصفاته وربوبيته وإلهيته:

□ قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «إن علم توحيد الأسمَاء والصفات أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق، فالاشتغال بفهمه والبحث عنه اشتغال بأعلى المطالب وحصوله للعبد من أشرف المواهب.. وهو أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان بمجرد قوله آمنت بالله من غير معرفة بربه، بل حقيقة الإيمان أن يعرف الذي يُؤمن به ويبذل جهده في معرفة أسمَائه وصفاته

---

(١) حسن: رواه ابن مَاجه (٦١)، وابن منده في كتاب الإيمَان (١/ ٣٧٠) رقم (٢٠٨).

(٢) «مختصر تفسير المنار» (٣/ ١٧٠).

(٣) «التوضيح والبيان لشجرة الإيمَان» (ص٢٧).

حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمَانه، فكلمَا ازداد معرفة بربه ازداد إيمَانه، وكلمَا نقص نقص، وأقرب طريق يوصِّله إلى ذلك تدبر صفاته وأسمَائه سبحانه وتعالى»(١).

● قال رسول الله ﷺ: **«أنا أعلمكم بالله وأشدُّكم له خشية»**(٢).

□ قال ابن القيم رحمه الله: «جميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب سبحانه يستغني العبد بها بقدر حظه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها، فمن شهد مشهد علو الله تعالى على خلقه، وفوقيته لعباده، واستوائه على عرشه كما أخبر بها أعرف الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق، وتعبد بمقتضى هذه الصفة بحيث يصير لقلبه صمد يعرج إليه، مناجيًا له مطرقًا واقفًا بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز فيشعر بأن كلمه وعمله صاعد إليه معروض عليه مع أوفى خاصته وأوليائه، فيستحيي أن يصعد إليه من كلمه مَايخزيه ويفضحه هناك ويشهد نزول الأمر والمراسيم الإلهية إلى أقطار العوالِم كل وقت بأنواع التدبير والتصرف من الإمَاتة والإحياء والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وإرساله وتقلب الدول ومداولة الأيام بين الناس إلى غير ذلك من التصرفات في المملكة التي لا يتصرف فيها سواه، فمراسيمه نافذة فيها كما يشاء ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة] فمن أعطى هذا

---

(١) «تفسير ابن سعدي» (١/ ٢٤- ٢٦).

(٢) رواه البخاري (١٠/ ٥١٣)، ومسلم (١٥/ ١٠٦) في «الفضائل»، وأحمد (٦/ ٤٥، ١٨١).

المشهد حقه معرفةً وعبودية استغنى به، وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السمَاوات، ولا في قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال، بل أحاط بذلك علمه علمًا تفصيليًّا، ثم تعبد بمقتضى هذا الشهود، من حراسة خواطره وإرادته، وجميع أحواله وعزماته وجوارحه علم أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإرادته وجميع أحواله ظاهرة مكشوفة لديه علانية بادية لا يخفى عليه منها شيء، وكذلك إذا أشعر قلبه صفة سمعه سبحانه لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها، وسواء عنده من أَسَرَّ القول ومن جهر به، لا يشغله جهر من جهر عن سمعه صوت من أسر، ولا يشغله سمعٌ عن سمع، ولا تغلطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتمَاعها، بل هي عنده كلها كصوت واحد كما أنّ خلق الخلق جميعًا وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة، وكذلك إذا شهد معنى اسمه البصير جل جلاله الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَاء في حِندس الظلمَاء، ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة، ومخها وعروقها ولحمها وحركتها، ويرى مَدَّ البعوضة جناحها في ظلمة الليل، وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية بحرس حركاته وسكناته، وتيقن أنها بمرأى منه سبحانه ومشاهدة لا يغيب عنه منها شيء، وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال، وأنه قائم على كل نفس بمَا كسبت، وأنه تعالى هو القائم بنفسه المقيم لغيره، القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره، وإيصال جزاء المحسن وجزاء المسيء إليه، وأنه بكمَال قيوميته لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، لا تأخذه سنة

ولا نوم، ولا يضل ولا ينسى، وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية، وأعلى منه مشهد الألوهية الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء، وهو شهادة أن لا إله إلَّا الله، وأن إلهية مَا سواه باطل ومحال، كما أن ربوبية مَا سواه كذلك، فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويُعْبَد ويصلى له ويسجد، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل، لكمَال أسمَائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده على الحقيقة والمَالوه وحده، وله الحكم، فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال، وكلُّ محبة لغيره عذاب لصاحبها، وكل غنى بغيره فقر وفاقة، وكل عزٍّ بغيره ذلٌّ وصغار، وكل تكثر بغيره قلة وذلة، فكمَا استحال أن يكون للخلق رب غيره، فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره، فهو الذي انتهت إليه الرغبات، وتوجهت نحوه الطلبات، ويستحيل أن يكون معه إله آخر، فإن الإله على الحقيقة هو الغني الصمد الكامل في أسمَائه وصفاته، الذي حاجة كل أحدٍ إليه ولا حاجة به إلى أحدٍ، وقيام كل شيءٍ به وليس قيامه بغيره. إلى أن قال: فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء، وهو مشهد جامع للأسمَاء والصفات، وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسمَاء والصفات»[١] اهـ.

□ قال أبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكي: «من كان بالله أعرف كان له أخوف»[٢].

(١) نقلاً عن «معارج القبول» (١/ ٨٥- ٨٧).
(٢) «الرسالة القشيرية» للقشيري (ص١٤١). انظر ترجمة الأنطاكي في «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤٠٩).

□ وقال ابن القيم رحمه الله: «وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة باريها وفاطرها، ومحبته وذكره والابتهاج به،وطلب الوسيلة إليه والزلفى عنده ولا سبيل إلى هذا إلَّا بمعرفة أوصافه وأسمَائه فكلمَا كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف وله أطلب وإليه أقرب، وكلمَا كان لها أنكر كان بالله أجهل وإليه أكره ومنه أبعد، والله ينزل العبد من نفسه حيث ينزله العبد من نفسه..»[(١)].

وقد نبّه ابن القيم على أهمّية البصيرة في توحيد الأسمَاء والصفات وفقهها وفهمها على نهج السلف الصالح، وعلى أهمية الحذر من شُبَه أهل الكلام الباطل المُفسِد لهذا التوحيد، ثم ذكر كلامًا نافعًا جامعًا مؤدِّيًا إلى هذه البصيرة، فقال: «وعقد هذا أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستويًا على عرشه، متكلمًا بأمره ونهيه، بصيرًا بحركات العالم علويه وسفليه، وأشخاصه وذواته، سميعًا لأصواتهم، رقيبًا على ضمَائرهم وأسرارهم، وأمر الممَالك تحت تدبيره، نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممَالك، موصوفًا بصفات الكمَال، منعوتًا بنعوت الجلال، منزهًا عن العيوب والنقائص والمثال، هو كما وصف نفسه في كتابه، وفوق مَا يصفه به خلقه، حي لا يموت، قيوم لا ينام، عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بصير يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَاء في الليلة الظلمَاء، سميع يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، تمت كلمَاته صدقًا وعدلًا، وجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبهًا

(١) «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» لابن القيم (ص٣، ٤).

ومثلًا، وتعالت ذاته أن تشبه شيئًا من الذوات أصلًا، ووسعت الخليقة أفعاله عدلًا، وحكمة ورحمة وإحسانًا وفضلًا، له الخلق والأمر، وله النعمة والفضل، وله الملك والحمد، وله الثناء والمجد، أول ليس قبله شيء، آخر ليس بعده شيء، ظاهر ليس فوقه شيء، باطن ليس دونه شيء، أسمَاؤه كلها أسمَاء مدح وحمد وثناء وتمجيد، ولذلك كانت حسنى، وصفاته كلها صفات كمَال، ونعوته كلها نعوت جلال، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل، كل شيء من مخلوقاته دال عليه، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه، لم يخلق السموات والأرض ومَا بينهمَا باطلًا، ولا ترك الإنسان سدى عاطلًا، بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبغ عليهم نعمه ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته، تعرف إلى عباده بأنواع التعرفات، وصرف لهم الآيات، ونوع لهم الدلالات، ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب، ومدّ بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب، فأتم عليهم نعمه السابغة، وأقام عليهم حجته البالغة، أفاض عليهم النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضَمَّن الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه»[(١)].

فمن كانت معرفته لله كذلك، وتفقه في هذه البصيرة، كان من أقوى الناس إيمَانًا، وأحسنهم إجلالًا وتعظيمًا ومراقبة لله ﷻ، وأكثرهم طاعة وتقربًا إليه، والناس في ذلك متفاوتون فمقل ومستكثر»[(٢)].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٤، ١٢٥)، وانظر أيضًا «مدارج السالكين» (٣/ ٢٥٢، ٢٥٣)، و«الوابل الصيب» لابن القيم (ص١٢٥- ١٢٩).

(٢) «أسباب زيادة الإيمَان» (ص٣٠).

(٣) معرفة سيرة الرسول الحبيب ﷺ والتأسِّي به:

فإن من أسباب زيادة الإيمان النظر في سيرة النبي ﷺ ودراستها وتأمل مَا ذكر فيها من نعوته الطيبة، وخصاله الكريمة، وشمَائله الحميدة، فهو أمين الله على وحيه، وخيرته من خلقه، وسفيره بينه وبين عباده، المبعوث بالدين القويم، والمنهج المستقيم، أرسله الله رحمة للعالمين، وإمَامًا للمتقين، وحجة على الخلائق أجمعين، أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد طاعته وتعزيره، وتوقيره ومحبته، والقيام بحقوقه، وسد دون الجنة الطرق فلن تفتح لأحد إلَّا من طريقه، فشرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره بل ولا سبيل لأحد جاء بعده في نيل السعادة في الدنيا والآخرة إلَّا باتباعه وطاعته والسير على نهجه.

□ قال ابن القيم رحمه الله: «ومن ها هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول ومَا جاء به، وتصديقه فيمَا أخبر به، وطاعته فيمَا أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح في الدنيا ولا في الآخرة إلَّا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلَّا من جهتهم، ولا ينال رضى الله البتة إلَّا على أيديهم، فالطيب من الأعمَال والأقوال والأخلاق ليس إلَّا هديهم ومَا جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمَالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمَال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل

فوقها بكثير.

ومَا ظنك بمن إذا غاب عنك هديه ومَا جاء به طرفة عين، فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق المَاء، ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لمَا جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا إلَّا قلب حي، ومَا لجرح بميت إيلام.

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه مَا يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل، ومستكثر، ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[١].

ولهذا فإن من درس السيرة وتأمل في نعوت وصفات النبي ﷺ التي جاء ذكرها في الكتاب والسُّنَّة وكتب السِّيَر، فقد استكثر لنفسه من الخير، وازداد حبه للنبي ﷺ، وأورثته هذه المحبة المتابعة له في القول والعمل، «وأصل الأصول العلم، وأنفع العلوم النظر في سيرة الرسول وأصحابه»[٢].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله، أن للهداية أسبابًا متعددة، وطرقًا متنوعة، وهذا من لطف الله بعباده، لتفاوت عقولهم وأذهانهم وبصائرهم،وذكر من هذه الأسباب تأمل حال وأوصاف النبي ﷺ، وأن هذا سبب لهداية بعض الناس.

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٦٩، ٧٠).

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٦٦).

□ قال رحمه الله: «.. ومنهم من يهتدي بمعرفته بحاله ﷺ ومَا فطر عليه من كمَال الأخلاق والأوصاف والأفعال، وأن عادة الله أن لا يخزي من قامت به تلك الأوصاف والأفعال، لعلمه بالله ومعرفته به، وأنه لا يخزي من كان بهذه المثابة، كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها له ﷺ: «أبشر فوالله لن يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»(١)، (٢).

□ وقال ابن سعدي رحمه الله: «ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه معرفة النبي ﷺ، ومعرفة مَا هو عليه من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة فإن من عرفه حق المعرفة لم يَرْتَبْ في صدقه وصدق مَا جاء به من الكتاب والسنة، والدين الحق، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون]. أي: فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة للإيمَان ممن لم يؤمن، وزيادة الإيمان ممن آمن به.

* وقال تعالى حاثًّا لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمَان: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾[سبأ].

* وأقسم تعالى بكمَال هذا الرسول وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق بقوله: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

* فهو ﷺ أكبر داع للإيمَان في أوصافه الحميدة وشمَائله الجميلة،

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٣) «فتح»، ومسلم (١/ ١٤١) وهو جزء من حديث طويل.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (ص٣٢٣، ٣٤٠).

وأقواله الصادقة، وأفعاله الرشيدة، فهو الإمَام الأعظم والقدوة الأكمل ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾

[الحشر: ٧].

* وقد ذكر الله عن أولي الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ [آل عمران]، وهو هذا الرسول الكريم ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ بقوله وخُلُقه، وعمله ودينه، وجميع أحواله ﴿فَآمَنَّا﴾ أي: إيمَانًا لا يدخله ريب..».

إلى أن قال: «ولهذا كان الرجل المنصف الذي ليس له إرادة إلَّا اتباع الحق، مجرد مَا يراه ويسمع كلامه يبادر إلى الإيمان به ﷺ، ولا يرتاب في رسالته، بل كثير منهم مجرد مَا يرى وجهه الكريم يعرف أنه ليس بوجه كذَّاب..»[(١)]. كما حدث مع عبد الله بن سلام رضي الله عنه حين رأى وجه النبي الكريم ساعة دخوله المدينة مهاجرًا.

(٤) تأمُّل محاسن الدين الإسلامي:

- رحم الله إبراهيم بن أدهم إذ يقول: «يا له من دينٍ لو أنَّ له رجالًا».
- قال ابن القيم رحمه الله: «وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والملة الحنيفية والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة كمَالها ولا يدرك الوصف حسنها ولا تقترح عقول العقلاء - ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم- فوقها، وحسب العقول الكاملة

(١) «التوضيح والبيان لشجرة الإيمَان» لابن سعدي (ص٣٢، ٣٣).

الفاضلة أن أدركت حسنها وشهدت بفضلها، وأنه مَا طرق العالَمَ شريعةٌ أكمل ولا أجل ولا أعظم منها، فهي نفسها الشاهد والمشهود له، والحجة والمحتج له، والدعوى والبرهان ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهانًا وآية وشاهدًا على أنها من عند الله»(١).

□ ولهذا فإن تأمل محاسن هذا الدين، والنظر فيمَا جاء فيه من أوامرَ ونواهِيَ، وشرائع وأحكام، وأخلاق وآداب، لمن أعظم الدواعي والدوافع للدخول فيه لمن لم يؤمن، وللازدياد منه لمن آمن، بل إن من قوي تأمله لمحاسن هذا الدين، ورسخت قدمه في معرفته ومعرفة حسنه وكمَاله، وقبح مَا خالفه، كان من أقوى الناس إيمَانًا، وأحسنهم ثباتًا عليه، وتمسكًا به.

□ ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله: «والمقصود أن خواص الأمة، ولبابها، لمَا شهدت عقولهم حسن هذا الدين وجلالته وكمَاله، وشهدت قبح مَا خالفه ونقصه ورداءته خالط الإيمان به ومحبته بشاشة القلوب، فلو خير بين أن يلقى في النار وبين أن يختار دينًا غيره، لاختار أن يقذف في النار وتقطع أعضاؤه ولا يختار دينًا غيره، وهذا الضرب من الناس هم الذين استقرت أقدامهم في الإيمان، وهم أبعد الناس عن الارتداد عنه وأحقهم بالثبات عليه إلى يوم لقاء الله»(٢).

□ قلت: ويشهد لمَا قاله ابن القيم هنا، حديث أنس بن مَالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان:أن**

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص٣٢٤، ص٣٢٨) ومَا بعدها.

(٢) المصدر السابق (ص٣٤٠، ٣٤١).

يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلَّا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»(١).

فهذا الذي ذاق حلاوة الإيمان وخالطت بشاشته سويداء قلبه، وأضاء قلبه نورًا به، واطمَان بذلك أشد الاطمئنان، لا يكاد بعد ذلك أن يرجع إلى الكفر والضلال، واتباع الأهواء والظنون الكاذبة، بل إنه يكون من أرسخ الناس إيمَانًا، وأشدهم تمسكًا وثباتًا، وأقواهم تعلقًا بربه وخالقه؛ لأنه دخل الإسلام عن علم وقناعة ومعرفة، فعرف حسن الإسلام وبهاءه، وجودته ونقاءه، وتميزه عن غيره من الأديان، فرضيه دينًا لنفسه، وأنس به أشد الأنس، فكيف يبغي بعد ذلك غيره بدلًا، أو يطلب عنه مصرفًا، أو يروم عنه انتقالًا أو تحويلًا.

ولهذا فإن من الفوائد الجليلة المستنبطة من هذا الحديث أنه يعد دليلًا من أدلة أهل السنة والجمَاعة الكثيرة على زيادة الإيمان ونقصانه، وتفاضل أهله فيه. كما قال الوالد حفظه الله: «ومن فقه الحديث ومَا يستنبط منه.. فذكر أمورًا منها: أن في الحديث دليلًا على تفاضل الناس في الإيمان، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وذلك أن من وجدت فيه الخصال الثلاث وجد حلاوة الإيمان بخلاف غيره»(٢).

(٥) قراءة سيرة سلف هذه الأمة:

فإن سلف هذه الأمة أصحاب النبي ﷺ وتابعيهم بإحسان، أهل

---

(١) رواه البخاري (١/ ٦٠) «فتح»، ومسلم (١/ ٦٦).

(٢) عشرون حديثًا من «صحيح البخاري» دراسة أسانيدها وشرح متونها للشيخ عبد المحسن العباد (ص١٦٨)، وانظر: «أسباب زيادة الإيمان ونقصانه» (ص٣٥-٣٧).

الصدر الأول من الإسلام، هم خير القرون، وحماة الإسلام، وهداة الأنام، وليوث الصدام، وأهل المشاهد والمواقف العظام، وهم حملة هذا الدين ونقلته لمن جاء بعدهم من العالمين، أقوى الناس إيمانًا وأرسخهم علمًا، وأبرهم قلوبًا وأزكاهم نفوسًا، وخص منهم أصحاب النبي ﷺ الذين خصّهم الله برؤية نبيه ﷺ ومتعهم بالنظر إلى طلعته، وأكرمهم بسماع صوته والأنس بحديثه، فأخذوا الدين منه غضًّا طريًّا، فاستحكمت به قلوبهم، واطمأنت به نفوسهم، وثبتوا عليه ثبوت الجبال.

* ويكفي في بيان فضلهم أن الله خاطبهم بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣٧]، والمعنى: أنهم خير الأمم، وأنفع الناس للناس..

كرِّرْ عليّ حديثهم يا حادي فحديثُهم يُجلي الفؤاد الصادي

□ قال ابن تيمية: «ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل»[(١)].

(٦) التأمل في آيات الله الكونيّة، والتفكُّر في مخلوقاته:

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات].

□ عن عبد الله بن سلام مرفوعًا: «لا تفكروا في الله وتفكروا في خلق الله، فإن ربنا خلق مَلَكًا قدمَاه في الأرض السابعة السفلى ورأسه قد جاوز

(١) «العبودية» (ص٩٤)، «أسباب زيادة الإيمان» (ص٣٧، ٣٨).

السمَاء العليا، مَا بين قدميه إلى ركبتيه مسيرة ستمئة عام، ومَا بين كعبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ستمئة عام، والخالق أعظم من المخلوق»[١].

□ قال عثمَان بن مرزوق القرشي: «فجميع المخلوقات من الذرة إلى العرش سبل متصلة إلى معرفته -تعالى- وحجج بالغة على أزليته، والكون جميعه ألسنٌ ناطقةٌ بوحدانيته، والعالم كله كتاب يَقرأ حروفَ أشخاصِهِ المتبصرون على قدر بصائرهم»[٢].

فتأملُ هذه الآيات وغيرها ممَا خلق الله في السموات والأرض وتدبرُها وإمعان النظر وإجالة الفكر فيها من أعظم مَا يعود على الإنسان بالنفع في تقوية إيمَانه وتثبيته؛ لأنه يعرف من خلالها وحدانية خالقه ومليكه، وكمَاله سبحانه وتعالى، فيزداد حبه وتعظيمه وإجلاله له، وتزداد طاعته وانقياده وخضوعه له، وهذه من أعظم ثمرات هذا النظر.

□ قال ابن القيم رحمه الله: «وإذا تأملت مَا دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى، وبوحدانيته، وصفات كمَاله، ونعوت جلاله، من عموم قدرته وعلمه، وكمَال حكمته ورحمته، وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فبهذا تَعَرَّفَ

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٦٦- ٦٧) من طريق عبد الجليل بن عطية عن شهر قال الألباني: وهذا إسناد حسن في الشواهد عبد الجليل وشهر وهو ابن حوشب صدوقان سيِّئا الحفظ، وبقية الرجال ثقات- انظر «الصحيحة» رقم (١٧٨٨).

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (١/ ٣٠٧).

إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته»[١].

□ وقال ابن سعدي رحمه الله: «ومن أسباب الإيمان ودواعيه، التفكر في الكون في خلق السموات والأرض ومَا فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر في نفس الإنسان ومَا هو عليه من الصفات فإن ذلك داع قوي للإيمَان، لمَا في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدالة على قدرة خالقها وعظمته، ومَا فيها من الحسن والانتظام والإحكام الذي يحير الألباب، الدالة على سعة علم الله وشمول حكمته ومَا فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله وجوده وبره، وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره واللهج بذكره وإخلاص الدين له وهذا هو روح الإيمان وسره»[٢].

(٧، ٨) الاجتهاد في الطاعات والعبادات وذكر الله والقربات والنوافل تقرُّبًا إلى الله عز وجل وإرادةً لوجهه الكريم:

• كما جاء في الحديث القدسي: «.. **ومَا تقرّبَ إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ ممّا افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه**»[٣].

* وكثرة النوافل هي استجابة لله وللرسول ﷺ وقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فمهمَا استجاب العبد لله عز وجل ولرسوله ﷺ، وتقرّب إلى الله عز وجل بمَا

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص٢٠٤).
(٢) «التوضيح والبيان» (ص٣١).
(٣) رواه البخاري (١١/ ٣٤٨، ٣٤٩) الرقاق، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤).

يقرّبه إليه أحيا الله ﷻ شجرة الإيمان في قلبه»[١].

عبودية اللسان وأعمَاله والذكر وأعمَال الجوارح والإكثار منها تزيد من إيمَان العبد[٢]:

أمَا أعمَال اللسان: كذكر الله ﷻ وحمده والثناء عليه وقراءة كتابه والصلاة والسلام على رسول الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتسبيح والاستغفار والدعاء وغير ذلك من الأعمَال التي تكون باللسان، فلا شك أن القيام بها والمداومة عليها والإكثار منها من أعظم أسباب زيادة الإيمان.

▢ قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله: «ومن أسباب دواعي الإيمان الإكثار من ذكر الله كل وقت، ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة. فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها، وكلمَا ازداد العبد ذكرًا لله قوي إيمَانه، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر، فمن أحب الله أكثر من ذكره، ومحبة الله هي الإيمان بل هي روحه»[٣].

▢ وقد ذكر ابن القيم في كتابه «الوابل الصيب»: «أن للذكر مئة فائدة، عدد منها ثلاثًا وسبعين فائدة[٤]: منها أنه يطرد الشيطان، ويرضي الرحمن، ويزيل الهم والغم، ويجلب الفرح والسرور، ويقوي القلب والبدن، وينور الوجه والقلب، ويجلب الرزق، وغير ذلك ممَا ذكره رحمه الله

---

(١) «شجرة الإيمَان» للشيخ أحمد فريد (ص٤٩، ٥٠).
(٢) انظر: «أسباب زيادة الإيمَان» (ص٥١- ٥٦).
(٣) «التوضيح والبيان» (ص٣٢).
(٤) انظر: «الوابل الصيب» (ص٨٤) ومَا بعدها.

من الفوائد العظيمة التي تنال بذكر الله ﷻ ولا شك أن أعظم فوائد ذكر الله وأنفعها أنه يزيد في الإيمان ويقويه ويثبته؛ ولهذا فقد ورد في الكتاب والسنة نصوص كثيرة في الأمر به والحث على الإكثار منه، وبيان فضله وأهميته، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة].

* وقال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

* وقال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

• وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ؓ قال: كان رسول الله يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له: جُمدان، فقال: **«سيروا، هذا جمدان، سبق المُفَرِّدون»**، قيل: ومَا المفردون يا رسول الله؟ قال: **«الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»**(١).

• وعن أبي الدرداء ؓ أن النبي ﷺ قال: **«ألا أنبئكم بخير أعمَالكم، وأرضاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، ومن أن تَلْقَوْا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟»**. قالوا: ومَا ذاك يا رسول الله؟ قال: **«ذكر الله»**(٢).

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٦٢).

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٩٥)، وابن مَاجه (٢/ ١٢٤٥)، والترمذي (٥/ ٤٥٩)، والطبراني في «الدعاء» (٣/ ١٦٣٦)، والحاكم (٤٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٢)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٥)، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٩٥) من طرق عن زياد بن أبي زياد عن أبي بحرية عن أبي =

• وذكر عبد الله بن بُسر أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإيمان قد كثرت علي، فأخبرني بشيءٍ أتشبث به، قال: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله تعالى**»(١).

فإن أعرض الإنسان عن هذا كله ولم يشغل لسانه بذكر الله عَزَّلَجَلَّ اشتغل لسانه بغير ذلك من الغِيبة والنميمة والسخرية والكذب والفحش؛ لأن العبد لا بد له أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره تكلم بهذه الأمور.

▫ قال ابن القيم: «فإن اللسان لا يسكت البتة، فإمَا لسان ذاكر، وإمَا لسان لاغٍ، ولا بد من أحدهمَا، فهي النفس إن لم تشغلها بالحق، شغلتك بالباطل، وهو القلب، إن لم تسكنه محبة الله عَزَّلَجَلَّ، سكنته محبة المخلوقين ولا بد، وهو اللسان، إن لم تشغله بالذكر، شغلك باللغو، وهو عليك ولا بد، فاختر لنفسك إحدى الخطتين، وأنزلها في إحدى المنزلتين»(٢).

وأمَا أعمَـال الجوارح: من صلاة وصيام وحج وصدقة وجهاد وغير ذلك من الطاعات، فهي كذلك من أسباب زيادة الإيمان، فالاجتهاد في

الدرداء مرفوعًا وقال الحاكم: «وهذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وقال ابن عبد البر: «وهذا يروىٰ مسندًا من طرق جيدة» «التمهيد» (٦/ ٥٧) وحسن إسناده البغوي والمنذري.

(١) رواه ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٠١)، و(١٣/ ٤٥٧)، والترمذي (٥/ ٤٥٨)، وابن مَاجه (٢/ ١٢٤٦)، والحاكم (١/ ٤٩٥)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وقال الحاكم: «وهذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «تخريج الكلم الطيب» (ص٢٥): «صحيح الإسناد».

(٢) «الوابل الصيِّب» (ص١٦٦، ١٦٧).

القيام بالطاعات التي افترضها الله على عباده، وبالقربات التي ندب عباده إليها، والإتيان بها على أحسن الوجوه وأكملها من أعظم أسباب قوة الإيمان وزيادته.

* قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون].

«فهذه الصفات الثمان، كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنميه، كما أنها من صفات الإيمان وداخلة في تفسيره».

فحضور القلب في الصلاة، وكون المصلي يجاهد نفسه على استحضار ما يقوله وما يفعله من القراءة والذكر والدعاء فيها، ومن القيام والقعود، والركوع والسجود من أسباب زيادة الإيمان ونموه.

* وقد سمى الله الصلاة إيمانًا بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

* وقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فهي أكبر ناهٍ عن كل فحشاء ومنكر ينافي الإيمان، كما أنها تحتوي على ذكر الله الذي يغذي الإيمان وينميه؛ لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

والزكاة كذلك تنمي الإيمان وتزيده، وهي فرضها ونفلها، كما قال

النبي ﷺ: «**والصدقة برهان**»[١] أي: على إيمَان صاحبها، فهي دليل الإيمان، وتغذيه وتنميه.

والإعراض عن اللغو الذي هو كل كلام لا خير فيه، وكل فعل لا خير فيه، بل يقولون الخير ويفعلونه، ويتركون الشر قولًا وفعلًا، لا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان، ويثمر الإيمان.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم إذا وجدوا غفلة أو تشعث إيمَانهم، يقول بعضهم لبعض: «اجلس بنا نؤمن ساعة»، فيذكرون الله، ويذكرون نعمه الدينية والدنيوية، فيتجدد بذلك إيمَانهم.

وكذلك العفة عن الفواحش خصوصًا فاحشة الزنا، لا ريب أن هذا من أكبر علامَات الإيمان ومنمياته، فالمؤمن لخوفه مقامه بين يدي ربه نهى النفس عن الهوى إجابة لداعي الإيمان وتغذية لمَا معه من الإيمان.

ورعاية الأمَانات والعهود وحفظها من علائم الإيمان، وفي الحديث: «**ولا إيمـان لمن لا أمَانة له**»[٢]، وإذا أردت أن تعرف إيمَان العبد ودينه، فانظر حاله هل يرعى الأمَانات كلها مَالية أو قولية، أو أمَانات الحقوق؟ وهل يرعى الحقوق والعهود والعقود التي بينه وبين الله والتي بينه وبين العباد؟ فإن كان كذلك فهو صاحب دين وإيمَان، وإن لم يكن كذلك نقص من دينه وإيمَانه بمقدار مَا انتقص من ذلك.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١/ ٢٠٣) من حديث أبي مَالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١١/ ١١)، وفي «الإيمان» (ص٥)، وابن حبان في «صحيحه» (١/ ٢٠٨) «الإحسان»، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٧٥)، وقال البغوي: «هذا حديث حسن» وصححه الألباني في تحقيقه للإيمَان لابن أبي شيبة.

وختمها بالمحافظة على الصلوات على حدودها وحقوقها، وأوقاتها؛ لأن المحافظة على ذلك بمنزلة المَاء الذي يجري على بستان الإيمان، فيسقيه وينميه، ويؤتي أكله كل حين.

وشجرة الإيمان محتاجة إلى تعاهدها كل وقت بالسقي وهو المحافظة على أعمَال اليوم والليلة من الطاعات والعبادات، وإلى إزالة مَا يضرها من الصخور والنوابت الغريبة الضارة، وهو العفة عن المحرمَات قولًا وفعلًا فمتى تمت هذه الأمور حَيِيَ هذا البستان وزها، وأخرج الثمَار المتنوعة»[١].

وبهذا البيان يتضح لنا شدة أثر الأعمَال الصالحة في زيادة الإيمان، وأن القيام بها والإكثار منها سبب عظيم من أسباب زيادته.

◻ قال شيخ الإسلام: «وكمَال الإيمان هو فعل مَا أمر الله به ورسوله، وترك مَا نهى الله عنه ورسوله، فإذا ترك بعض المَامور وعوض عنه ببعض المحظور كان في ذلك من نقص الإيمان بقدر ذلك»[٢].

فالصلاة إيمَان، والحج إيمَان، والصدقة إيمَان، والجهاد إيمَان وجميع الطاعات التي أمر الله بها عباده إيمَان، فإذا فعلها العبد ازداد عنده الإيمان، وكان فعله لها سببًا في زيادة إيمَانه، بشرط الإخلاص والمتابعة.

◻ قال الشيخ محمد العثيمين رحمه الله: «ولزيادة الإيمان أسباب منها: فعل الطاعة، فإن الإيمان يزداد به بحسب حسن العمل، وجنسه، وكثرته، فكلمَا كان العمل أحسن كانت زيادة الإيمان به أعظم، وحسن العمل

(١) «التوضيح والبيان» لابن سعدي (٣٤- ٣٦) بتصرف يسير.
(٢) «الفتاوىٰ» لابن تيمية (٢٧/ ١٧٢).

يكون بحسب الإخلاص والمتابعة، وأمَا جنس العمل فإن الواجب أفضل من المسنون وبعض الطاعات أوكد وأفضل من البعض الآخر، وكلمَا كانت الطاعة أفضل كانت زيادة الإيمان بها أعظم، وأمَا كثرة العمل فإن الإيمان يزداد بها؛ لأن العمل من الإيمان فلا جرم أن يزيد بزيادته»(١).

عبودية القلب (٢) أوْلى وأعظم من عبودية الجوارح، وصلاح القلب ورعاية أعمَاله يزيدان في إيمَان العبد:

أعمَال القلب هي في الحقيقة أصل الدين ورأس الأمر وأهم المطالب، بل إن الأعمَال الظاهرة لا تقبل إن خلت من الأعمَال القلبية؛ لأن الأعمَال كلها يشترط في قبولها الإخلاص لله ﷿، والإخلاص عمل قلبي؛ ولهذا كانت الأعمَال القلبية واجبة على كل أحد ولا يكون تركها محمودًا في حال من الأحوال والناس في القيام بها على ثلاث درجات كما هم في أعمَال البدن على ثلاث درجات: منهم الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات(٣).

ولذا لزم كل مسلم أن يبدأ بتطهير قلبه وإصلاحه والعناية به، قبل أن يعتني بإصلاح ظاهره، إذ لا عبرة بصلاح الظاهر مع فساد الباطن ومتى مَا أصلح المسلم قلبه بالأعمَال الزاكية والإخلاص والصدق والمحبة لله تعالى ولرسوله ﷺ استقامت جوارحه وصلح ظاهره، كما في

---

(١) «فتح رب البريّة» (ص٦٥).
(٢) انظر: «أسباب زيادة الإيمَان» (ص٤٦- ٥٠).
(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٦).

«الصحيحين» من حديث النعمَان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «.. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(١).

فهذا الحديث فيه أعظم إشارة إلى أن صلاح حركات العبد الظاهرة بحسب صلاح حركة قلبه وباطنه، فإن كان قلبه سليمًا ليس فيه إلَّا محبة الله ومحبة مَا يحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيمَا يكرهه صلحت حركات جوارحه كلها، بخلاف مَا إذا كان قلبه فاسدًا قد استولى عليه حب الهوى واتباع الشهوات وتقديم حظوظ النفس، فإن من كان كذلك فسدت حركات جوارحه كلها.

ولهذا يقال: القلب مَلك الأعضاء وبقية الأعضاء جنوده، وهم مع هذا جنود طائعون له منبعثون في طاعته وتنفيذ أوامره لا يخالفونه في شيء من ذلك، فإن كان الملك صالحًا كانت هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسدًا كانت جنوده بهذه المشابهة فاسدة، ولا ينفع عند الله إلَّا القلب السليم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

والقلب السليم هو: السالم من الآفات والمكروهات كلها وهو القلب الذي ليس فيه سوى محبة الله وخشيته وخشية مَا يباعد منه(٢).

□ قال شيخ الإسلام: «ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عمَا

---

(١) البخاري (١/ ١٢٦) «فتح»، ومسلم (٣/ ٢٢٠).

(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص٧١).

يريده القلب.. فإذا كان القلب صالحًا بمَا فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًّا، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق»(١).

ولهذا فإن من أعظم مَا يزيد في إيمَان الشخص الظاهر والباطن أن يجاهد نفسه مجاهدة تامة على إصلاح قلبه وعمَارته بمحبة الله ﷻ ومحبة مَا يحبه الله من الأقوال والأعمَال.

◘ قال ابن رجب: «.. فلا صلاح للقلوب حتى تستقر فيها معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه ويمتلئ من ذلك، وهذا هو حقيقة التوحيد وهو معنى لا إله إلَّا الله، فلا صلاح للقلوب حتى يكون إلهها الذي تألهه وتعرفه وتحبه وتخشاه هو إله واحد لا شريك له، ولو كان في السموات والأرض إله يؤله سوى الله لفسدت بذلك السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] فعلم بذلك أنه لا صلاح للعالم العلوي والسفلي معًا حتى تكون حركات أهلها كلها لله، وحركات الجسد تابعة لحركة القلب وإرادته، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله، وإن كانت حركة القلب وإرادته لغير الله فسد، وفسدت حركات الجسد بحسب فساد حركة القلب»(٢).

• وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى

(١) «الفتاوىٰ» (٧/ ١٨٧).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٧١)، وانظر «الوابل الصيب» لابن القيم (ص١٢).

لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»(١).

«ومعنى هذا أن كل حركات القلب والجوارح إذا كانت كلها لله فقد كمل إيمَان العبد بذلك باطنًا وظاهرًا، ويلزم من صلاح حركات القلب صلاح حركات الجوارح، فإذا كان القلب صالحًا ليس فيه إلَّا إرادة الله وإرادة مَا يريده لم تنبعث الجوارح إلَّا فيمَا يريده، فسارعت إلى مَا فيه رضاه، وكفت عمَا يكرهه وعمَا يخشى أن يكون ممَا يكره وإن لم يتيقن ذلك»(٢).

فمتى مَا صلحت القلوب بالإيمان والصدق والإخلاص والمحبة ولم يبق فيها إرادة لغير الله، صلحت جميع الجوارح فلم تتحرك إلَّا لله عَجَّلَ وبمَا فيه مرضاته.

والقلب لا يخلو بحال من الفكر إمَا في واجب آخرته ومصالحها، وإمَا في مصالح دنياه ومعاشه، وإمَا في الوساوس والأمَاني الباطلة والمقدرات المفروضة، وجمَاع إصلاح القلب أن تشغله بالفكر بمَا فيه صلاحه وفلاحه المحقق، ففي باب العلوم والتصورات تشغله بمعرفة مَا يلزمك من التوحيد وحقوقه. وفي الموت ومَا بعده إلى دخول الجنة والنار، وفي آفات الأعمَال وطرق التحرز منها، وفي باب الإرادات والعزوم تشغله بإرادة مَا ينفعك إرادته، وطرح إرادة مَا يضرك إرادته(٣).

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٢٠)، والطبراني في «الكبير» برقم (٧٧٣٧) وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٦٥٨)، وغيرهم وصححه الألباني، انظر: «السلسلة الصحيحة» (١/ ٦٥٧).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٧٢).

(٣) «الفوائد» لابن القيم (ص٣١٠، ٣١١).

تكثير الشواهد النافعة في القلب لزيادة الإيمان:

وإن أعظم عون للعبد على ذلك هو تكثير الشواهد النافعة في القلب؛ لتقوى صلته بالله؛ ولأن الأعمال الصالحة إنمَا تكون بحسب قيام هذه الشواهد في القلب وكثرتها.

□ قال ابن القيم رحمه الله: «ونحن نشير بعون الله وتوفيقه إلى الشواهد إشارة يعلم بها حقيقة الأمر: «فأول شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة، أن يقوم به شاهد من الدنيا وحقارتها، وقلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها، وسرعة انقضائها.. فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها، ترحل قلبه عنها، وسافر في طلب الدار الآخرة، وحينئذٍ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وأنها هي الحيوان حقًّا، فأهلها لا يرتحلون منها، ولا يظعنون عنها بل هي دار القرار، ومحط الرحال ومنتهى السير.. ثم يقوم بقلبه شاهد من النار، وتوقدها واضطرامها، وبعد قعرها، وشدة حرها وعظيم عذاب أهلها، فيشاهدهم وقد سِيقوا إليها سُود الوجوه، زرق العيون، والسلاسل والأغلال في أعناقهم، فلمَا انتهوا إليها فتحت في وجوههم أبوابها فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفًا.. فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد انخلع من الذنوب والمعاصي واتباع الشهوات، ولَبِسَ ثياب الخوف والحذر.. وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بعده من المعاصي والمخالفات، فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات والمواد المهلكة، وينضجها ثم يخرجها، فيجد القلب لذة العافية وسرورها.

فيقوم به بعد ذلك شاهد الجنة، ومَا أعد الله لأهلها فيها، ممَا لا عين

رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فضلًا عمَا وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم المفصل، الكفيل بأعلى أنواع اللذة، من المطاعم والمشارب والملابس والصور، والبهجة والسرور.

فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم بحذافيره فيها، تربتها المسك، وحصباؤها الدر، وبناؤها لبن الذهب الفضة، وقصب كاللؤلؤ، وشرابها أحلى من العسل وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور وألذ من الزنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهن في هذه الدنيا لغلب على ضوء الشمس، ولباسهم الحرير من السندس والاستبرق، وخدمهم ولدان كاللؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، وغذاؤهم لحم طير ممَا يشتهون، وشرابهم عليه خمرة لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وخضرتهم فاكهة ممَا يتخيرون، وشاهدهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يحبرون، وفيها مَا تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

فإذا انضم إلى هذا الشاهد: شاهد يوم المزيد، والنظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسمَاع كلامه منه بلا واسطة.. فإذا انضم هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهابها فلا يلتفت في طريقه يمينًا ولا شمَالًا..»[(١)].

فإذا قامت مثل هذه الشواهد في قلب العبد وأعمل فكره فيها، كانت أعظم عون له على تطهير قلبه وتنزيهه من الأوصاف المذمومة

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٥٠- ٢٥٢).

والإرادات السافلة، وعلى تخليته وتفريغه من التعلق بغير الله سبحانه، وكانت أعظم باعث له على العبادة والمحبة والخشية والإنابة والافتقار إلى الله تعالى.

والمقصود أن أعظم باعث للإيمَان، وأنفع مقوياته وأهم أسباب زيادته ونمَائه هو إصلاح القلب بالإيمان وبالحب لله ورسوله ولمَا يحبه الله ورسوله ﷺ، وتطهيره ممَا يخالف هذا ويناقضه، والله الموفق.

(٩) الدعوة إلى الله تعالى:

أمَا الدعوة إلى الله تعالى وإلى دينه، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح للمسلمين فإن ذلكم من دواعي الإيمان وأسبابه، وبه يكمل العبد نفسه، ويكمل غيره، كما أقسم تعالى بالعصر أن جنس الإنسان لفي خسر، إلَّا من اتصف بصفات أربع: الإيمان والعمل الصالح اللذَيْن بهمَا تكميل النفس، والتواصي بالحق الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والدين الحق، والصبر على ذلك كله، وبهمَا يكمل غيره.

وذلك أن نفس الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده، من أكبر مقويات الإيمان، وصاحب الدعوة لا بد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهين على تحقيقها، ويأتي الأمور من أبوابها، ويتوسل إلى الأمور من طرقها، وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه.

□ قال شيخ الإسلام: «وسبب الإيمان وشعبه يكون تارة من العبد، وتارة من غيره، مثل من يقيض له من يدعوه إلى الإيمان، ومن يأمره

بالخير، وينهاه عن الشر، ويبين له علامَات الدين وحججه وبراهينه ومَا يعتبره وينزل به ويتعظ به، وغير ذلك من الأسباب»(١).

وأيضًا فإن الجزاء من جنس العمل، فكمَا سعى إلى تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق، وصبر على ذلك لا بد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيده بنور منه وروح وقوة إيمَان، وقوة التوكل فإن الإيمان وقوة التوكل على الله يحصل به النصر على الأعداء من شياطين الإنس وشياطين الجن، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [النحل].

وأيضًا فإنه متصد لنصر الحق، ومن تصدى لشيءٍ فلا بد أن يفتح عليه فيه من الفتوحات العلمية والإيمانية بمقدار صدقه وإخلاصه»(٢).

• قال النبي ﷺ: **«نَضَّرَ الله امرءًا سمع منا حديثًا فبلغه إلى من لم يسمعه، فرب حامل فقه ليس بفقيه، رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»**(٣). وأن يشارك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«فإذا سعى العبد في إحياء الشريعة وجعلها غضة طرية أحيا الله ﷻ له شجرة الإيمان في قلبه، والكتاب والسنة همَا الروح فلا حياة بدونهمَا، وهمَا النور فلا هداية في غيرهمَا»(٤).

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٦٥٠).

(٢) «التوضيح والبيان» لابن سعدي (ص٣٦، ٣٧).

(٣) رواه أحمد (٥/ ١٨٣)، والترمذي (١٠/ ١٢٥، ١٢٦) أبواب العلم، وابن مَاجه (٢٣١) المقدمة، وابن حبان رقم (٦٧)، رقم (٦٨٠) من الإحسان، والدارمي (١/ ٧٥) وللحديث طرق وروايات كثيرة وصححه الألباني وأورده السيوطي في «الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة» رقم (٢٥).

(٤) «شجرة الإيمَان» للشيخ أحمد فريد (ص٥٤).

(١٠) مجالسة أهل الخير وملازمتهم:

أمَّا مجالسة أهل الخير وملازمتهم ومرافقتهم والحرص على الاستفادة منهم، فهو سبب عظيم من أسباب زيادة الإيمان، لمَّا يكون في تلك المجالس من التذكير بالله والتخويف منه سبحانه ومن عذابه والترغيب والترهيب وغير ذلك من الأمور التي هي من أعظم أسباب زيادة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)﴾ [الذاريات].

* وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١)﴾ [الأعلى].

فهذا يدل على أن أصحاب القلوب المؤمنة تستفيد من التذكير وتستفيد من مجالس الذكر أعظم الاستفادة، ويحدث لهم ذلك نشاطًا وهمة، ويوجب لهم الانتفاع والارتفاع، بخلاف مجالس اللهو والغفلة فإنها من أعظم أسباب نقص الإيمان واضمحلاله.

□ قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «من فقه الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه»، ثم قال أبو قلابة بعد أن روى هذا الأثر عن أبي الدرداء: «قاتل الله الشاعر حين يقول:

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه ... فإن القرين بالمقارن يقتدي [(١)]

□ وقال الأصمعي عن هذا البيت: «لم أر بيتًا أشبه بالسنة منه» [(٢)].

□ وجاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «اعتبروا الناس

(١) «العزلة» للخطابي (ص٥٩)، و«الإبانة» لابن بطة (٢/ ٤٣٩).

(٢) «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٤٤٠).

بأخدانهم، فإن المرء لا يخادن إلَّا من يعجبه».

□ وعن الأعمش قال: «كانوا لا يسألون عن الرجل بعد ثلاث: ممشاه ومدخله وإلفه من الناس».

□ وقال سفيان: «ليس شيء أبلغ في فساد رجل وصلاحه من صاحب».

□ وقال قتادة: «إنا والله مَا رأينا الرجل يصاحب من الناس إلَّا مثله وشكله فصاحبوا الصالحين من عباد الله لعلكم أن تكونوا معهم أو مثلهم».

□ وقال الفضيل: «ليس للمؤمن أن يقعد مع كل من شاء..»[(١)].

(١١) تطهير العبد قلبه من الأخلاق الدنيئة والصفات المذمومة، وتطهير جوارحه ممَا ينافي الإيمَان ويضاده:

□ قال الأستاذ سليم الهلالي: «إن الشجرة الطيبة لا بد أن يخالطها نبت غريب ليس من جنسها، فإن تعاهدها صاحبها ونقاها وقلعه كمل الغرس والزرع واستغلظ واستوى على سوقه وكان أوفر لثمره وأطيب وأزكى، وإن تركه أوشك أن يغلب على الغراس والزرع ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة لا طعم لها بحسب كثرته وقلته، ولذلك فالمؤمن دائمَا سعيه في أمرين:

الأول: سقي هذه الشجرة لتبقى وتدوم.

الآخر: تنقية هذه الشجرة لتكتمل وتتم.

وحينئذٍ يجد حلاوة الإيمان، ودونك البيان.

---

(١) «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٤٣٩، ٤٥٢، ٤٦٧، ٤٨٠، ٤٨١).

• قال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا».

• وقال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلَّا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[1] اهـ.

فعلى العبد أن يتباعد عن الشبهات والشهوات المحرمة، وأن يطهر قلبه وجوارحه ممَا ينافي الإيمان، وذلك بتطييب قلبه وجوارحه حتى تترعرع شجرة الإيمان في قلبه، ولا يشاركها في أرض قلبه من الدغل مَا يضعفها. فعلى المرء أن يُعوّد نفسه ويوطنها على مقاومة جميع مَا من شأنه إنقاص الإيمان، فإنه كمَا أنه لا بد في الإيمَان من فعل جميع الأسباب المقوية المنمية له فلا بد مع ذلك من دفع الموانع والعوائق، وهي الإقلاع عن المعاصي والتوبة ممَا يقع منها، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمَات، ومقاومة فتن الشبهات المضعفة لإرادات الإيمان التي أصلها الرغبة في الخير ومحبته، والسعي فيه لا تتم إلَّا بترك إرادات مَا ينافيها من رغبة النفس في الشر ومقاومة النفس الأمَارة بالسوء، فمتى حفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات، وفتن الشهوات تم إيمَانه وقوي يقينه»[2].

---

(١) «حلاوة الإيمَان» لسليم الهلالي (ص١٠، ١١)- دار ابن الجوزي.

(٢) «التوضيح والبيان» لابن سعدي (ص٣٧).

عالي الهمة يضع نُصبَ عينيْه ويُصغي سمعه لنداءات الرحمن لأهل الإيمَان:

نداء الله لك بإيمَانك شرفٌ لك وأي شرف، وإلَّا فمن أنت حتى يناديك رب العالمين؟»(١).

* قال الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ خير وصية من رب البرية لعباده المؤمنين، المؤمن الناصح لنفسه يضع نصب عينيه ويُصغي سمعه لهذه النداية (٢) فهي خير يُؤمر به أو شر يُنهى عنه، وهي خير وسيلة لاستكمَال العبد للإيمَان، فمتى حرص على العمل بأوامرها والبعد عن منهياتها كان من الإيمان في الذروة السامقة، والمكانة العالية التي ترنو إليها أعين السبَّاقين إلى الفوز برضى رب العالمين.. ونحن نذكرها هنا لأنها من صميم علو الهمة، وهي تسعون نداءً وردت في كتاب الله تعالى، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأعرها سمعك؛ فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه، أو بشرى يزفها أو خطر يحذر منه».

النداء الأول:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة].

---

(١) «نداءات الرحمن لأهل الإيمَان» للشيخ أبي بكر جابر الجزائري (ص٩)- الناشر مكتبة العلوم والحكم.

(٢) النادية: الدعوة الواحدة والنداء الواحد «لسان العرب» (١٥/ ٣١٣).

النداء الثاني:

* وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة].

النداء الثالث:

* وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة].

النداء الرابع:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة].

النداء الخامس:

* وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة].

النداء السادس:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة].

النداء السابع:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة].

النداء الثامن:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة].

النداء التاسع:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) ﴾ [البقرة].

النداء العاشر:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٢٧٨) ﴾ [البقرة].

النداء الحادي عشر:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ

تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة].

النداء الثاني عشر:

* قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [آل عمران].

النداء الثالث عشر:

* قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران].

النداء الرابع عشر:

* قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [آل عمران].

النداء الخامس عشر:

* قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [آل عمران].

النداء السادس عشر:

* قال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾: [آل عمران].

النداء السابع عشر:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [آل عمران].

وفيه حرمه التشبه بالكافرين والمنافقين في عقائدهم وسلوكهم.

النداء الثامن عشر:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران].

وفيه الأمر بالصبر والمصابرة والرباط والتقوى رجاء الفلاح.

النداء التاسع عشر:

وفيه تحريم إرث النساء ومنعهن حتى يُسَلِّمْنَ مَا أخذنَ من المهور.

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء].

النداء العشرون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء].

وفيه حرمة أكل أموال المؤمنين بالباطل، وحرمة قتل النفس بغير حق.

النداء الحادي والعشرون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء].

وفيه: حرمة الصلاة حالَ السُّكر، وحُرْمة الصلاة والمكث في المسجد حال الجنابة، ومشروعية التيمّم.

النداء الثاني والعشرون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء].

وفيه وجوب طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ، وأولي الأمر من المؤمنين، وردّ المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

النداء الثالث والعشرون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ ﴾ [النساء].

وفيه وجوبُ أخذ الحذر من العدوّ، والتصرُّفُ بحكمةٍ حالَ الحرب واشتداد القتال.

النداء الرابع والعشرون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ

ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ [النساء].

وفيه وجوب التثبُّت والتبيُّن في الأمور التي يترتب على الخطأ فيها ضررٌ بالغ وعظيم.

النداء الخامس والعشرون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ [النساء].

وفيه وجوب العدل في الشهادة وحرمة اتباع الهوى المَانع من العدل فيها.

النداء السادس والعشرون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ [النساء].

وفيه وجوب الثبات على الإيمان وتقويته، والتحذير من ضده وهو الكفر.

النداء السابع والعشرون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ [النساء].

وفيه حرمة موالاة الكافرين من دون المؤمنين

النداء الثامن والعشرون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ① ﴾ [المَائدة].

وفيه: وجوب الوفاء بالعهود، والمِنَّة بِحِلِّيَّةِ بهيمة الأنعام إلَّا ما استثنى منها.

النداء التاسع والعشرون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ② ﴾ [المَائدة].

وفيه: تحريم استحلال شعائر الله إلَّا ما نُسِخ منها، وإباحة الصيد بعد التحلّل، ووجوب التعاون على البر والتقوى، وحرمة التعاون على الإثم والعدوان.

النداء الثلاثون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ

﴿لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المَائدة].

وفيه: وجوب الوضوء وبيان كيفيته، ووجوب الغسل من الجنابة، وبيان نواقض الوضوء، وكيفيّة التيمم.

النداء الحادي والثلاثون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [المَائدة].

وفيه: وجوب العدل في الحكم والشهادة، وحرمة ترْكِ العدل من أجل البُغْضِ، والأمر بتقوى الله ﷻ.

النداء الثاني والثلاثون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾ [المَائدة].

وفيه: الأمر بذكر النِّعَم لِشُكرِها، وتقوى الله ﷻ، والتوكل عليه سبحانه وتعالى.

النداء الثالث والثلاثون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣٥﴾ [المَائدة].

وفيه الأمر بتقوى الله ﷻ، وطلبِ الوسيلة إلى الله تعالى، والجهاد في سبيله ﷻ.

النداء الرابع والثلاثون:

* قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ ﴾ [المائدة].

وفيه حرمةُ اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، والتحذير من ذلك.

النداء الخامس والثلاثون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ ﴾ [المائدة].

وفيه: التحذير من الردَّةِ عن الإسلامِ، وبيانُ صفاتِ المؤمنين الصادقين.

النداء السادس والثلاثون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾ [المائدة].

وفيه: حُرْمةُ ولاية من يتخذ دين الله هزوًا ولعبًا من أهل الكتاب وغيرهم.

النداء السابع والثلاثون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨ ﴾ [المائدة].

وفيه: حرمةُ تحريم مَا أحلَّ الله من الطيِّبات، وحرمة الاعتداء في الدين.

النداء الثامن والثلاثون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المَائدة].

وفيه: تحريمُ الخمرِ والميسرِ والأنصابِ والأزلامِ.

النداء التاسع والثلاثون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المَائدة].

وفيه ابتلاء الله تعالى عباده المُحْرِمين بالحج والعمرة بظهور الصيد وسهولة صَيْدِه.

النداء الأربعون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المَائدة].

وفيه حرمة الصيد حال الإحرام وبيان جزاء من قتل الصيد عامِدًا وهو مُحْرِم.

النداء الحادي والأربعون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [المَائدة].

وفيه النهي عن السؤال عمّا لا فائدة فيه ولا حاجة تدعو إليه، والتحذير من ذلك.

النداء الثاني والأربعون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [المَائدة].

وفيه: الأمر بإصلاح النفس وتطهيرها بالإيمان والعمل الصالح، وإعلام من فعل ذلك بأنه لا يضره من ضلَّ من الناس.

النداء الثالث والأربعون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦﴾ [المَائدة].

وفيه: وجوبُ الإشهادِ على الوصيّة.

النداء الرابع والأربعون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦﴾ [الأنفال].

وفيه: حُرْمةُ الفرار من صفوف القتال في سبيل الله وأنه من الكبائر الموجبة لغضب الله وعذابه.

النداء الخامس والأربعون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال].

وفيه: وجوب طاعة الله والرسول ﷺ، وحرمة معصية الله ورسوله، وحرمة التشبه بالمنافقين.

النداء السادس والأربعون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال].

وفيه: وجوبُ الاستجابةِ لنداء الله والرسولِ إذا أمرَا أو نَهَيَا أو بشَّرَا أَوْ أنذرا، ووجوب اتقاء الفِتنِ بمَا تُتَّقى به.

النداء السابع والأربعون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال].

وفيه: حُرْمةُ خيانة الله والرسول ﷺ، وخيانة الأمانات، والتحذير من فتنة المَال والولد.

النداء الثامن والأربعون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال].

وفيه: الترغيبُ في تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وبيان ثمارها العاجلة والآجلة.

النداء التاسع والأربعون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال].

وفيه: عواملُ النصر في الجهاد وهي طاعة الله والرسول، وعدم النزاع، ولزوم الصبر، والإخلاص لله.

النداء الخمسون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة].

وفيه: حُرْمةُ اتخاذ الأقارب أولياء إن هم استحبوا الكفر على الإيمان.

النداء الحادي والخمسون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ

بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة].

وفيه: حُرْمةُ دُخولِ المشركين الحَرَمَيْن الشريفَيْن، ووجوب منعهم من ذلك، ووجوبُ قتالِ أهل الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية.

النداء الثاني والخمسون:

* قال تعالى: ﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة].

وفيه: حرمةُ أكْل أموال الناس بالباطل والوعيد الشديد لمن يكنز الذهب والفضة ولا يُخرِج زكاتهما.

النداء الثالث والخمسون:

* قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة].

وفيه: وجوبُ الخروج إلى الجهاد إذا دعا الإمَام إلى ذلك، وحرمةُ القعود عنه.

النداء الرابع والخمسون:

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾ [التوبة].

وفيه: الأمرُ بتقوى الله ﷻ والصدق في النيّة والقول والعمل.

النداء الخامس والخمسون:

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)﴾ [التوبة].

وفيه: وجوبُ قتالِ الكفار لإدخالهم في الإسلام ليسلموا ويسعدوا.

النداء السادس والخمسون:

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾ [التوبة].

وفيه: الأمرُ بإقامِ الصلاةِ وإيتاء الزكاة والجهاد ولزوم الإسلام والاعتصام به.

النداء السابع والخمسون:

* قال تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)﴾ [النور].

وفيه: النهي عن اتباع خُطواتِ الشيطان، وبيان حال المتَّبع لها، وامتنان الله على المؤمنين بوقايتهم من الشيطان.

النداء الثامن والخمسون:

* قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النور].

وفيه: وجوب الاستئذان على مَن يُراد الدخولُ عليه في بيته.

النداء التاسع والخمسون:

* قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النور].

وفيه: مشروعية استئذان الخدم والأطفال على أهل البيت ثلاثة أوقات، ووجوبُ استئذان الطفل إذا بلغ الحُلُم.

النداء الستون:

* قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزب].

وفيه: وجوبُ ذِكرِ النعم وشكرها وبيان موجِب الذكر والشكر.

النداء الحادي والستون:

* قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزب].

وفيه: الأمر بكثرة ذكر الله، وتسبيحه بكرة وعشيًّا، وبيان ثواب ذلك من الله عَزَّ وَجَلَّ.

النداء الثاني والستون:

* قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزب].

وفيه: سقوطُ العِدَّة عن المطلَّقة قبل المسيس، ووجوب المتعة لها إنْ لم يُسَمَّ لها مهر.

النداء الثالث والستون:

* قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزب].

وفيه: وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ، وحرمةُ أذيَّته بأدنى أذى،

وحرمة نكاحِ نسائه من بعده ﷺ.

النداء الرابع والستون:

*قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزب].

وفيه: وجوب الصلاة والسلام على النبي ﷺ.

النداء الخامس والستون:

*قال تعالى: ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزب].

وفيه: حُرمة أذيّة رسول الله ﷺ وحرمة التشبه باليهود في أذية موسى عليه السلام.

النداء السادس والستون:

*قال تعالى: ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأحزب].

وفيه: وجوب تقوى الله عز وجل، ووجوب القول السَّديد.

النداء السابع والستون:

*قال تعالى: ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد].

وفيه: وجوبُ نُصْرَةِ الله ومَا تُثمِرُه من نَصْرِهِ لعباده المؤمنين.

النداء الثامن والستون:

* قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [محمد].

وفيه: وجوب طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، والتحذيرُ من إبطال الأعمال الصالحة.

النداء التاسع والستون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾ [الحجرات].

وفيه: حُرمَة تقديم الرأي على الكتاب والسُّنَّة، ووجوبُ تقوى الله عَزَّوَجَلَّ.

النداء السَّبعون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحجرات].

وفيه: وجوبُ الأدب مع رسول الله ﷺ حتى لا يبطل العمل فيهلك.

النداء الحادي والسَّبعون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات].

وفيه: وجوب التثبُّتِ في الحكم قولًا أوْ فعلًا، وبيان أفضلية الصحابة رضي الله عنهم.

النداء الثاني والسَّبعون:

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ

﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات].

وفيه: حُرْمة السُّخرية من المؤمن، وحُرمةُ التنابز بالألقاب السيئة.

النداء الثالث والسَّبعون:

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

وفيه: وجوبُ اجتناب كثير من الظن، وحرمة التجسُّس والغيبة، ووجوب تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

النداء الرابع والسَّبعون:

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

[الحديد].

وفيه: وجوبُ تقوى الله والإيمان برسول الله ﷺ، وبيان الجزاء على ذلك.

النداء الخامس والسَّبعون:

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المجادلة].

وفيه: حُرْمَةُ التناجي بالإثم والعُدوانِ ومعصية الرسول، والإذن في التناجي بالبرِّ والتقوى.

النداء السادس والسَّبعون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾ [المجادلة].

وفيها: وجوبُ التَّفَسُّحِ في المجالسِ إذا أُمِرَ المؤمن بذلك، ووجوبُ القيام من المجلسِ إذا أُمِر كذلك، وذلك لصالح الدعوة.

النداء السابع والسَّبعون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣ ﴾ [المجادلة].

وفيه: بيان حكم مناجاة الرسول ﷺ وتقديم صدقة قبلها ونسخ ذلك تخفيفًا، ووجوب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ﷺ.

النداء الثامن والسَّبعون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ ﴾ [الحشر].

وفيه: وجوبُ تقوى الله ﷻ والتزود للآخرة، ووجوب ذكر الله، وحرمة نسيانه لمَّا يُفضي إليه من الخسران والحرمَان.

النداء التاسع والسَّبعون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم

بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الممتحنة].

وفيه: حُرمةُ اتخاذ الكافرين أولياء يوادون وينصرون، وأنَّ منْ يفعل ذلك فقد ضلّ طريق الرشاد والكمال.

النداء الثمانون:

* قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الممتحنة].

وفيه: بيان حكم المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإيمان، وكيفيّة معاملتهن مع أزواجهن.

النداء الحادي والثمانون:

* قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الممتحنة].

وفيه: حُرْمَةُ موالاة اليهود الضالّين.

النداء الثاني والثمانون:

* قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصف].

وفيه: لومُ الله لمن يقول ولا يفعل وأن ذلك من موجبات المقت من الله للعبد، وفيه بيانُ حُبِّ الله تعالى للمجاهدين في سبيله الثابتين في ميدان الجهاد.

النداء الثالث والثمانون:

* قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف].

وفيه: عرض سلعة الرحمن والتجارة مع الله وبيان ثمنها وهو الإيمان والجهاد في سبيل الله.

النداء الرابع والثمانون:

* قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف].

وفيه: وجوبُ نُصْرَةِ دين الله وأهله تأسيًا بمن دعُوا إلى ذلك فأجابوا، ففازوا بالنصر والغلبة.

النداء الخامس والثمانون:

* قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة].

وفيه: وجوب صلاة الجمعة إذا نُودي لها، وحرمة البيع والشراء وسائر الأعمَال بعد النداء.

النداء السادس والثمَانون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المنافقون].

وفيه: حُرمةُ الانشغال بالمَال والولد عن عبادة الله تعالى، ووجوب الزكاة والترغيب في الصدقات، والتحذير من فجاءة الموت قبل التوبة.

النداء السابع والثمَانون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن].

وفيه: التحذير من فتنة المَال والزوجة والولد، وبيان فضل العفو والصفح والغفران.

النداء الثامن والثمَانون:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ

بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾ [الطلاق].

وهذا «وإن كان موجَّها للنبي ﷺ فهو لأمَّته ﷺ، وإنما بُدِئ برسول الله ﷺ لشرفه وعلو مقامه، حتى يسهل على المؤمنين تطبيق الأحكام التي تضمّنها النداء»[1] .

النداء التاسع والثمانون:

* قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم].

وفيه وجوب وقاية النفس والأهل من النار بالإيمان بالله والعلم والأدب. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «علمِّوهم وأدِّبوهم».

النداء التسعون:

* قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم].

وفيه: وجوب التوبة النصوح من كل ذنب على الفور رجاء مغفرة الذنوب ودخول الجنة دار الطيبين وجائزة رب العالمين لعباده الصالحين المؤمنين.

الصحابة رضي الله عنهم أوتوا الإيمان قبل القرآن:

□ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لقد لَبِثْنا بُرْهةً من دَهْرٍ وأحدُنا لَيُؤْتى

(١) «نداءات الرحمن لأهل الإيمان» (ص٢٤٠).

الإيمان قبل القرآنِ تنزلُ السورةُ على محمَّدٍ ﷺ فنتعلَّمُ حلالها وحرامها وآمِرَها وزَاجِرهَا ومَا يَنْبغي أنْ يوقفَ عنده منها، كما يتعلَّمُ أحدكمْ السُّورةَ. ولقدْ رأيتُ رجالًا يُؤْتَى أحدهم القرآنَ قبل الإيمان يقْرَأُ مَا بين فاتحته إلى خاتمتِهِ مَا يعرِفُ حلالَهُ ولا حَرامَهُ ولا آمِرَهُ ولا زَاجِرَهُ، ولا مَا ينْبَغِي أنْ يُوقفَ عنْده مِنْهُ ويَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ[(١)]»[(٢)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

«لأن الله سبحانه يعلم أثر نداء الإيمان في القلوب الصافية المؤمنة، والفطر السليمة المستقيمة، والنفوس المطمئنة البصيرة، كان ينادي المؤمنين بنداء الإيمان، ويصفهم بصفة الإيمان.. ولهذا كان غالب أسلوب القرآن في مخاطبة المؤمنين أن يخاطبهم من خلال الإيمان، بحيث يستجيش الإيمان في قلوبهم، ويطلق أشواقه من حولهم، ويلقي ظلاله عليهم.. وكان غالبًا مَا يمهد للأوامر والتكاليف والتشريعات بهذا التمهيد الإيماني، ويجعلهم يعيشون هذه المعاني والإيحاءات والظلال، ثم يُلقي إليهم بالتكاليف، فيكونون مهيئين تمَامًا لها، ومستعدين للالتزام بها..

وقد بلغت النداءات بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في القرآن الكريم تسعة وثمَانون نداء، وكلها أعقبها أوامر أو منهيات، أو إرشادات وتوجيهات..

---

(١) نثر الدقل: هو رديء التمر ويابسه ومَا ليس له اسم خاص، فتراه ليُبسه ورداءته لا يجتمع ويكون منثورًا.

(٢) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٥) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وابن منده في كتاب «الإيمَان» (١/ ٣٦٩) واللفظ له.

والملفت للنظر أن هذا النداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لم يرد في أية سورة مكية، بل اقتصر وروده على سور مدنية -هي البقرة وآل عمران والنساء والمَائدة والأنفال والتوبة والحج والنور والأحزاب ومحمد والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والتحريم.

وهذا الأمر له أبعاد تربوية وتوجيهية، ويشير إلى طريقة القرآن الفريدة في التربية والتشريع وإعطاء الأوامر والتكاليف.. إنه يبدأ بالإيمان حتى إذا نمَا في القلوب وأنار للكيان.. وعاش صاحبه في ظلاله، نادى هذا المؤمن بنداء الإيمان الحبيب المجاب، ثم أصدر الأمر وأعطى التوجيه، وعندها يكون المؤمن مستجيبًا ملبيًا منفذًا مطيعًا..

إن نداء الإيمان في القرآن -بعد غرس شجرة الإيمان في قلوب المؤمنين وقطفهم من ثمَارها وتذوقهم لحلاوتها -هو السر في نجاح القرآن في تشريعاته وتكاليفه، وفي إضفاء الصبغة الإيمانية عليها، وفي إكسابها تقديرًا واحترامًا والتزامًا وطاعة في نفوس المؤمنين..

فمَا هي إلَّا لحظة يصدر فيها الأمر الرباني للمؤمنين -بآية من القرآن، أو كلام لرسوله عليه الصلاة والسلام- حتى يكونوا منفذين ملتزمين..

* مَا إن سمع المؤمنون قول الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المَائدة]. مَا إن سمع المؤمنون نداء الإيمان في

هذا النص حتى التزموه وتركوا الخمر فورًا ونطقوا بألسنتهم وكل كيانهم: «انتهينا ربنا انتهينا».

* يخاطب الله المؤمنين بأعذب خطاب، ويصفهم بأحب صفة، ويناديهم بأندى نداء، إنه خطاب الإيمان ووصف الإيمان ونداء الإيمان؛ لأن الله يعلم الارتباط الوثيق بين الفطرة المؤمنة السوية وبين الإيمان، يعلم أنها لا تسمع إلَّا لندائه، ولا تستجيب إلَّا لصوته، ولا تتأثر إلَّا به! وسبحان الله العالم بالنفوس والقلوب الخبير بخفاياها.. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتفاعلون ويتجاوبون مع نداء الإيمان ويلتزمون بمَا يعقبه من توجيهات وتشريعات، ويتلقونها للتنفيذ والتطبيق العملي الحي..

وهكذا كان الصالحون مع القرآن، ونداء الإيمان في القرآن، يقفون طويلًا أمَام الآيات التي تتضمن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يتلونها ليس بألسنتهم لكن بكل كيانهم، ويسمعونها ليس بآذانهم لكن بكل كيانهم، ويتلقونها بكل شعورهم، وانفعالهم، ويلتزمون بمَا توحي به وتشير إليه.. كان شعارهم مع نداء الإيمان في القرآن مَا بينه موجهوهم: «إذا سمعت: يا أيها الذين آمنوا فأرْعِها، سمعك وافتح لها قلبك؛ لأن مَا بعدها إمَا أمر تلتزمه، وإمَا نهي تتركه، وإمَا توجيه تأخذ به..».

* إن المنادي بنداء الإيمان هو الداعية إلى الخير والنور والحياة، هو الذي يبشر بالحياة الكريمة اللائقة المتمثلة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وإن المنادي بنداء الكفر هو الداعية إلى الشر والفساد والنار والعذاب، وهو الحري ألا تسمعه الآذان ولا تستجيب له القلوب ولا تتقرب منه النفوس كان الناس يعون ويدركون هذه الحقيقة، ويا ويح الساذجين المغفلين الذين يصدون عن نداء الإيمان ويستجيبون لنداء الشيطان..

والقرآن الكريم يبين الفرق الواضح بين النداءين، والبوْن الشاسع بين الدعوتين، والمصير المختلف لكل من الرايتين.. يبين هذا من خلال قصة مؤمن آل فرعون رضي الله عنه..

* دعا فرعونُ قومَه لاتباعه، وقال لهم: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر].

* ودعا هذا الرجلُ المؤمنُ الناسَ لاتباعه هو: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [غافر].

* ووقف هذا المؤمن الداعية المنادي بنداء الإيمان يبين للمخدوعين والسذج الفرق بين ندائه ونداء فرعون، ودعوته ودعوة فرعون، ومصير من استجاب له ومصير من استجاب لفرعون.. ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر].

نداء الإيمان:

نداء الإيمان نداء محبب إلى قلوب المؤمنين، يسمعونه بكل كيانهم

ويستجيبون له في حياتهم.. والمنادي للإيمَان يحمل أعظم رسالة، ويؤدي أفضل وظيفة، ويرسل أطيب نداء..

* ولهذا ورد في القرآن آية عجيبة تبين فضيلة نداء الإيمان، وفضل من ينادي به وله، وفضل من يستجيب له، وثمرة هذه الاستجابة ونتيجة هذه الطاعة. قال تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران].

المؤمن كم يأنس بمن يناديه للإيمَان، وكم يسر بمن يدعوه للإيمَان، وكم يحب من يرغِّبه في الإيمان.. وتتمثل هذه الأمور عنده في الاستجابة الفورية لهذا المنادي، مع الدعاء له بخير الدعاء..

إن المنادي للإيمَان حري بأن يُسمع لندائه، وأن يُستجاب له، وأن يُحَب ويُطاع، لا لذاته ولا لشخصه ولا لثقافته.. بل لمَّا يدعو له ويؤمن به ويؤديه.. إنه داع يدعو إلى الله، ويدل الناس على طريق الله، ويقودهم إلى جنة الله، ومن الذي يرفض هذا العطاء الجزيل؟.

* إن الجن المؤمنين توجهوا لقومهم ينادونهم بنداء الإيمان، ويدعونهم إلى الله، وقد سجل القرآن الكريم دعوتهم بقوله: ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف].

نداء الإيمان هو الأثير لدى القلوب والمتجاوب مع النفوس، المتفاعل مع الفطرة.. إن الله يعلم أن المسلمين لن يسمعوا إلَّا لنداء

الإيمان، ولن ينقادوا إلّا إليه، ولن يصلحوا إلّا به.. وهذا مَا حدث في التاريخ الإسلامي عمليًّا، نودي المؤمنون بنداء الإيمان فآمنوا واستجابوا وصلحوا وأصلحوا، وغيروا التاريخ والعالم.. ثم استحوذت على المسلمين الشياطين واجتالتهم إلى الفساد والضلال والضياع.. فذلوا وهانوا وتقهقروا..

* وإن المتحقق البصير في كثير من النداءات المتكررة الكثيرة المرتفعة في سمَاء الأمة في هذا العصر، يراها نداءات للضلال والضياع والنار، ويرى أصحابها «**دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**»، كما وصفهم رسول الله ﷺ لحذيفة بن اليمَان رضي الله عنه، كما روى ذلك البخاري ومسلم - ويرى هؤلاء جنودًا للشياطين، تحولوا بتلك النداءات إلى أئمة يدعون إلى النار ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص].

إننا على يقين جازم أن المسلمين في هذا الزمَان لن يستجيبوا إلّا لنداء الإيمان، ولن يصلحوا إلّا به، ولن يتفاعلوا إلّا معه.. وعلى يقين أن كل النداءات والدعوات الجاهلية الشيطانية ستختفي وتتلاشى وتزول، وأن نداء الإيمان سيعلو ويرتفع ويقوى ويشتد..

* ألا بارك الله في الحناجر المؤمنة التي تطلق نداء الإيمان، والأصوات المباركة التي ترتفع بنداء الإيمان، والآذان الواعية التي تسمع نداء الإيمان، والقلوب الحية التي تتفاعل بنداء الإيمان، والحياة الكريمة التي تزكو وتطهر بنداء الإيمان.. وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت].

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران][1].

عالي الهمة له النصيب الوافر من «نور الإيمان»:

الإيمان نور مشرق مضيء، وللإيمَان نور منير بديع، يشرق هذا النور في قلب المؤمن أولًا فيضيء جوانحه ويزينها، ثم يشرق هذا النور على حياة المؤمن فتكون هادية سعيدة هانئة ميسرة..

يشرق هذا النور الإيماني على الدنيا فيضيئها، وعلى الحياة فيصلحها، وعلى الظلام فيبدده، وعلى الشياطين فيكشفهم، وعلى الأعداء فيفضحهم.. وهذا النور ينير للمؤمن حياته، وينير له قبره، وينير له طريقه إلى يوم القيامة، ويسعى بين يديه عند مروره على الصراط، فيجتازه بتوفيق من الله ورحمته..

وقد تضافرت الآيات على إقرار هذه الحقيقة، وقررتها بجلاء وصفاء، ليدركها المؤمن ويتعامل معها ويعيها.. الإيمان نور، والإسلام نور، والقرآن نور، والهدى نور، والعمل الصالح نور، والطاعة نور، والطمَانينة نور.. وكل هذه الأمور المباركة نور على نور.. فالمؤمن يعيش في النور، ويتقلب في النور، ويسعى ويتحرك في النور، ويواجه ويجاهد في النور.. ويكون في قبره في النور، ويوم القيامة في النور..

---

(١) انظر: «في ظلال الإيمَان» (ص١٨٨ - ١٩٣).

وفي المقابل الكافر والمنافق والظالم والفاسق والعاصي يعيشون في الظلمَات، ويتحركون من خلالها، وتحيط بهم من كل جانب، وتلفهم في كل لحظة من حياتهم، قلوبهم ظلام، وكيانهم ظلام، وحياتهم ظلام، ودنياهم ظلام، وموتهم ظلام، وقبرهم ظلام، وآخرتهم ظلام، ووجوههم هناك مسودة كأنما أغشيت قطعًا من الليل مظلمًا..

* قال تعالى في بيان الفريقين: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة].

* وقال الله عن هذا النور في سورة النور: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور].

فهذا هو مثل نور الله، وهذه هي القلوب التي استنارت بنور الله، وهذه هي البقاع التي أضاءت بنور الله، وهذه هي الآثار العملية السلوكية لمن عاش في نور الله..

* أمَا ظلمَات الكافر في حياته ونفسه وعلمه فيقدمها القرآن في هذه الصورة العجيبة ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ

نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور].

إنها صورة تعرض حقيقة، لا تَخرج حياة الكافرين عنها، إنهم يعيشون في ظلمَات بعضها فوق بعض، عمي لا يرون حياتهم ولا طريقهم ولا غايتهم.. شتان بين من يعيش في النور الإيماني ومن يضيع وسط ظلمَات الكفر والضلال.. وهذه الآية العجيبة أيضًا تعرض صورتين: صورة المؤمن أحياه الله بالإيمان، وأنار له حياته بنور الإيمان فعاش حياة إيمَانية مباركة، تقابلها صورة الكافر الميت في قلبه وروحه ومشاعره.. الذي أظلم عليه الكفر حياته، فعاش في ظلمَات ليس بخارج منها.. هل يستوي النموذجان وهل تتساوى الصورتان؟ شتان شتان.. قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام].

الإيمان حياة ونور، والكفر ظلام وموت.. الإيمان اتصال واستمداد واستجابة، والكفر حجاب وختم وتيه وضلال.. الإيمان تفتح ورؤية وإدراك واستقامة، والكفر انكمَاش وتحجر وضيق، قلق وشرود..

نور الإيمان يضيء للمؤمن طريقه، فتتكشف له حقائق الدين ومنهجه في العمل والحركة تكشفًا عجيبًا.. تتكشف له حقائق الوجود، وحقائق الحياة وحقائق الناس، وحقائق الأحداث الجارية في عالم الكون وعالم الإنسان تكشفًا عجيبًا..

بنور الإيمان يجد المؤمن الوضوح واليسر في كل شأن وكل أمر وكل حدث، ويجد الوضاءة والراحة في نفسه وحياته، ويجد الطمَانينة والأمَان

والأمن في عمره وحركاته وصلاته، ويجد نورًا يمشي به في الناس..

نور الإيمان يضيء للمؤمن الوجود والحياة، فيكشف له الطريق ومطباته ومنحنياته وعوائقه، والمَاكرين الشياطين وأساليبهم ومكرهم وكيدهم وحربهم له.. بنور الإيمان يعيش المؤمن بين الناس، ويتعامل مع الناس، ويمشي في الناس.. ألا أنعم بهذا النور [1].

* ويدعو القرآن الكريم المؤمنين إلى تذوق هذه الحقيقة والعيش بها، يدعوهم إلى أن يتعرضوا لنور الإيمان ليسعدوا به ويعيشوا في ضيائه.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ [الحديد].

إن هذه الآية نص في نور الإيمان، ودليل للحصول على نور الإيمان: الإيمان بالله ورسوله، وتقوى الله وطاعته وإخلاص العبودية له.. يتعاملون بذلك مع نور الإيمان، وينالون رضى ورحمة ومغفرة الرحمن..

* الإيمان ينير للمؤمن طريقه إلى الجنة يوم القيامة، ولا يفارقه في موطنٍ من مواطن اليوم الآخر، ويكون معه في أشد هذه المواطن والمشاهد عنفًا ورهبة، ألا وهو المرور على الصراط.. وإنها لنعمة كبرى ومنحة عظمى أن يكون مع أصحابه في ذلك المشهد.. ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾ [الحديد].. ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ

---

(١) انظر: التفسير اللطيف لهذه الآية في «الظلال» (٣/ ١٢٠٠ - ١٢٠١).

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم][1].

أعلى وأوفر الناس نصيبًا من نور الإيمان رسولنا ﷺ:

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

□ وهو ﷺ نبعٌ في الأرض لمعاني النور بإزاء الشمس نبْع النور في السمَاء.

□ كما تطلع الشمس بأنوارها فتُفجِّرُ يُنبوع الضوء -المُسَمَّى بالنهار، بُعِث محمد رسول الله ﷺ فُوجِد في الإنسانية ينبوع النور وهو الإسلام.

* قال تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ ﴾ [المَائدة].

□ قال الطبري: «قد جاءكم يا أهل التوارة والإنجيل ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ ﴾ يعني بالنور محمدًا ﷺ الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك»[2].

□ عن أنس بن مَالك ؓ قال: «لمَا كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة، أضاء منها كل شيء، فلمَا كان اليوم الذي مَات فيه أظلم منها كل شيء، ومَا نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي -وإنا لفي دفنه- حتى أنكرنا قلوبنا»[3].

---

(١) انظر في: «ظلال الإيمَان» (ص٢١٧- ٢٢٠).

(٢) «تفسير الطبري» (٨/ ٢٦٤)- طبع دار هجر.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وقال: حسن صحيح، وكذا رواه ابن مَاجه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»..

• وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خَلَق خَلْقَه في ظُلْمِة، ثم ألْقى عليهم مِن نُورِه، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضَلَّ، فلذلك أقولُ: جَفَّ القلمُ على عِلْم الله»(١).

* قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. ﴾ [النور: ٣٥].

حين يفيضُ النورُ الهادئُ الوضيء، فيغمُرُ الكونَ كلَّه، ويفيضُ على المشاعر والجوارح، وينسكبُ في الحنايا والجوانح، حتى يَسبَحَ الكونُ كلُّه في فيض النور الباهر، وحتى تُعانِقَه وترشُفَهُ العيونُ والبصائر، حين تنزاحُ الحُجُب، وتشفُّ القلوب، وترفُّ الأرواح، ويَسبحُ كل شيء في الفيض الغامر، ويتطهَّر كل شيء في بحر النور ويتجرّد كل شيء من كثافته وثقله، فإذا هو انطلاق ورفرفة..

فيض غامر من النور.. وأفق وضيء يدركه القلب كلمَا شفَّ ورفّ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾.

□ قال ابن تيمية: «إن الله ضرب مَثَلَ نوره في قلوب المؤمنين بالنور الذي في المصباح وهو في نفسه نور، وهو مُنوِّر لغيره»(٢).

□ وقال ابن القيم: «والمعنى: مثل نور الله سبحانه وتعالى في قلب

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١٠/ ١٢٧)، والترمذي (٥/ ٢٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٩٣- ١٩٤): «رواه أحمد بإسنادَيْن، والبزار، والطبراني، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات»، وحسّنه الترمذي، وصحّح إسناده الشيخ أحمد شاكر، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٦٤) رقم (١٠٧٦).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٢٣٦).

عبده.. وأعظم عباده نصيبًا من هذا النور رسوله ﷺ».

كـأنَّ الثُرَيَّـا عُلِّقـتْ بجبينـه ... وفي جيده الشِّعْرَي وفي وجهِهِ القَمَرُ

عليه جلالُ المَجْـدِ لـو أن وَجْهَـهُ ... أضاءَ بليلِ هلَّـل البـدوُ والحَـضَرُ

□ عن كعب بن مَالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «كان إذا سُرَّ استنار وجهُهُ كأنَّهُ قطعةُ قَمَرٍ»(١).

□ قال ابن القيم:«ولمَا كان «النور» من أسمَائه الحسنى وصفاته، كان دينه نورًا ورسوله نورًا، وكلامُه نورًا، ودارُه نورًا يتلألأ، والنورُ يتوقَّدُ في قلوب عباده المؤمنين، ويجري على ألسنتهم، ويظهر في وجوههم».

• وانظر إلى دعاء من أرسله الله سراجًا منيرًا – وقد استجاب الله لدعائه-: «اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سَمْعِي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، ومن أمَامي نورًا، ومن خلفي نورًا، واجعل لي في نفسي نورًا، وأعظم لي نورًا»(٢).

• «اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، واجعل في سمعي نورًا، واجعل في بصري نورًا، واجعل من خَلْفِي نورًا، ومن أمَامي نورًا، واجعل من فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، اللهم أعطني نورًا»(٣).

فيا لها من أنوارٍ كانت لرسول الله ﷺ!! فإنَّ نورَ الإيمان يملأ قلبَه، ومُدْخَلُهُ نورٌ، ومُخرَجُه نورٌ، وعِلْمُه نور، ومِشيتُه في الناس نورٌ، وكلامُهُ

(١) رواه البخاري، ومسلم.

(٢) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي عن ابن عباس.

(٣) رواه مسلم وأبو داود –واللفظ له- عن ابن عباس.

نور، ومصيره إلى النور، وللمؤمن نصيبٌ من هذا..

قَمــرٌ تَفَــرَّدَ بالكَمَـــالِ كمَـــالُهُ وحَوَى المحاسِـنَ حـسنُه وجمالُـه

وتنــاول الكــرمَ العــريضَ نَوَالُــه وحَوى المفـاخِرَ فخـرُه المتقـدِّمُ

فبربِّه صَلُّوا عليه وسَلِّمُوا

والله مَـــا ذَرَأ الإلـــهُ ولا بَـــرَا بشرًا ولا مَلَكًـا كأحمـدَ في الـورَى

فعليـه صـلَّى الله مَـا قلـمٌ جَـرى وجَـلا الـدَّيَاجي نـورُه المتبَـسِّمُ

فبربِّه صَلُّوا عليه وسَلِّمُوا

□ يقول ابن القيم: «وتتزايد مَادة النور حتى تظهر على وجوه المؤمنين وجوارحهم، بل وثيابهم، ودُورهم، يُبْصِرُهُ مَن هو من جِنْسِهم، فإذا كان يوم القيامة برزَ ذلك النورُ يَسْعَى بين أيديهم وبأيمَانهم، منهم مَن نورُه كالشمس، وآخر كالقمر، وآخر كالنجوم».

□ كان الصحابة رضي الله عنهم يمرُّون بدار خطيب الأنصار ثابت بن قيس رضي الله عنه.. وهو قائم يصلي فيقولون: أمَا تنظرون إلى دار ثابت بن قيس إنها لتُزهر بمصابيح منذ الليلة: .. ليس نور الإيمان في قلوبهم فحسب، وإنمَا في وجوههم وعلى دورهم قيل للحسن البصري: مَا بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجوها؟ قال: لأنهم خَلَوْا بالرحمن فألبسهم من نوره.

□ قال سعيد بن المسيب: «إن الرجل ليصلي بالليل، فيجعل الله في وجهه نورًا يحبه عليه كل مسلم، فيراه من لم يره قط فيقول: «إني لأُحبُّ

هذا الرجُلُ»(١).

□ كان الناس إذا رأوْا وجه محمد بن سيرين سبَّحُوا الله لمخايل النور التي عليه.

* وكان الناس إذا رأوا النور الذي يَعْلو وجه وكيع بن الجرّاح قالوا: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف].

□ قال أشهب بن عبد العزيز: «خرجت ذات ليلة بعد مَا رقد الناس، فمررت بمنزل مَالك بن أنس، فإذا هو قائم يصلي، فلمَا فرغ من قراءة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ ابتدأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ حتى بلغ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر] فبكى بكاءً طويلًا، ثم جعل يردِّدها ويبكي، وشغلني مَا أسمع من كثرة بكائه عن التوجُّهِ إلى حاجتي التي خرجت إليها، ولم أزل قائمَا وهو يرددها ويبكي حتى طلع الفجر، فلمَا تبيَّن له الفجر ركع فانصرفت إلى منزلي فتوضَّأت ثم أتيت المسجد، فإذا به في مجلسه والناسُ حوله، فلمَا أصبح نظرت إلى وجهه وقد علاه نور»(٢).

أبو جعفر القاري يزيد بن القعقاع أحد الأئمة العشرة في القراءات والنور الذي بدا عليه عند الموت:

□ عن نافع قال: «لَـمَا غُسِّل أبو جعفر، نظروا مَا بين نحره إلى فؤاده كورقة المصحف، فمَا شكَّ من حَضَره أنه نور القرآن»(٣).

---

(١) «كتاب الصلاة والتهجُّد» لابن الخرَّاط.

(٢) المصدر السابق.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٨٥- ٢٨٦).

أولئـــك أوّابـــون لله نـــورهم ... لآلـئ مــن صـفو الوفـاء جـواهرُ

علاة الهمم لهم من «زينةِ الإيمان» أوفر نصيب:

الإيمان زينة نفْسِيَّةٌ جميلة حبيبة لطيفة، يهبها الله سبحانه لعباده المؤمنين، ويضيفها عليهم ويسدلها على كيانهم ويقذفها في قلوبهم، وما أجمل مِن الإيمان؟ وما أحلى وأطيب من الإيمان؟

* قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)﴾ [الحجرات].

الإيمان زينة في ذاته، فهو جميل حبيب، وهو يمنح هذه الزينة لصاحبه ويضفيها عليه، فيبدو المؤمن جميلًا بديعًا لطيفًا مقبولًا عند المؤمنين مرغوبًا فيه بسبب جَماله الإيماني وحُسْنِه الأخلاقيّ، ولطفِه الاجتمَاعي، وبمعنى آخر اكتسب هذا الجمَال والزينة والقبول عند الناس من الإيمان الجميل الذي زيّنه الله في قلبه فانعكس على جوارحه وحياته.

إن القرآن لطيف حبيب معجز، متجدد في مذاقاته ولطائفه، مبدع في أساليبه وعباراته.. إنه هنا «يُلَوِّن» هذا الإيمان بالألوان المَانوسة اللطيفة، إنه «يُجَمِّل» هذا الإيمان في عيون وأذواق المؤمنين، إنه «يُزيِّن» هذا الإيمان أمَام المؤمنين.. ليُقبلوا عليه بلذة وانشراح.. إن القرآن هنا يخاطب الحاسة الفنية الجمَالية عند المؤمنين – وهي أصيلة بارزة عند كل بني البشر – يخاطبها بلغة الجمَال الفنية المحببة عن طريق التصوير الفني البديعة.

وهذه الآية فيها صدق جَمَالي ملحوظ – من خلال تلوين الإيمان وتجميله وتزيينه- وفيها صدق واقعي موجود، حيث يلحظ المؤمن البعد الواقعي العملي لزينة الإيمان المنعكسة على أخلاق المؤمن وحياته، إن كل مَا في المؤمن جميل؛ لأنه ثمرة لزينة الإيمان التي استقرت في قلبه: عبادته ومعاملاته، طعامه وشرابه، لباسه وهندامه، منطقه وكلامه، جوارحه ولسانه، تصوراته وأفكاره، حركاته وسكناته، ليله ونهاره.. كلها ثمَار جميلة لطيفة مطلوبة محبوبة لزينة الإيمان الحقيقية البديعة.

إن الإيمان زينة، زينة لصاحبه، لن يبدو جميلًا بدونه، ولن يكون مقبولًا عند المؤمنين إذا تخلى عنه.. وهذه الزينة في القلب، وكونها في القلب – مركز القيادة والتأثر والانفعال والصلاح- دليل على ثباتها وأصالتها، وعلى تأثيرها وحيويتها، وعلى انعكاسها على الجوارح والحياة الخارجية.. إن القرآن يعيد تأصيل مصطلح «الزينة» ويصحح النظر إليه، والتعامل معه، ويعطيه «بُعْدًا» إيمَانيًّا ربانيًّا قرآنيًّا، وندرك أهمية هذا التصحيح والتعريف والاعتبار القرآني عندمَا نلتفت إلى نظرة الجاهلين المعاصرين لمصطلح «الزينة» وممَارستهم له.. إذ يقصرونه على الزينة الخارجية الخاصة بالمظهر والشكل والهندام والأزياء والتقاليع و«الموضات».. وتَسْفُل أذواقهم في هذا، ويجعلونها إغراء وشهوات وإباحية ومجونًا وفتنة وتعريًا، ويزعمون هذا أناقة وزينة وجمَالًا.

إن الزينة مَا استقر في القلب صدقًا وحقًّا وأصالة، وعاشه الإنسان خلقًا وفضيلة، وانعكس على حياته خيرًا وطهرًا.. ولن يكون هذا إلَّا للإيمَان وآثاره على السلوك والحياة..

• وقد كان الرسول ﷺ يسأل الله أن يزيِّنَه بزينة الإيمان ويدعو بهذا الدعاء: «.. وأسألك بردَ العيش بعد الموتِ، وأسألكَ لذَّة النظر إلى وجهكَ، والشوق إلى لقائك، في غير ضرّاء مُضِرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضِلَّة. اللهم زيِّنَّا بزينةِ الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين»[١].

• وكان من دعائه: «اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنْهُ في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكُفر والفسوق والعِصيان، واجعلنا من الراشدين».

مولى بني الأود محمد بن جحادة الأولى وزينته التي لا تساويها زينة الدنيا:

□ عن سفيان الثوري: «كان محمد بن جحادة من العابدين، وكان يُقال: إنه لا ينام من الليل إلّا أيسره. قال: فرأت امرأة من جيرانه كأن حُللًا فُرِّقت على أهل مسجدهم، فلمَا انتهى الذي يُفرِّقها إلى محمد بن جحادة دعا بسفط مختوم فأخرج منه حُلَّة صفراء، قالت: فلم يقم لها بصري فكساه إيّاها وقال له: هذه لك بطول السهر. قالت تلك المرأة: فوالله لقد كنت أراه بعد ذلك فإخالها عليه»[٢].

المؤمنة عالية الهمّة عندها من لآلئ الإيمَان، ولمعان الجمَال، وسناء الحق مَا هو أغلى من زينة الأرض:

نعم أيتها المؤمنة التقيّة عالية الهمّة: عندك من بريق الحُسن، ولمعان

---

(١) صحيح: جزء من حديث عمَار بن ياسر الذي رواه النسائي، والحاكم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٠١) وأوّلُه: «اللهم بعلمك الغيب..» الحديث.

(٢) «صفة الصفوة» (٣/ ١١١).

الجمَال، وسناء الحق، وزينة الإيمان مَا يفوقُ وميضَ الذَّهبِ، وإغراء الفضة، وكل زينة الأرض من سبائك، وعقود وفرائد، ومرجان، وجمَان، وجواهر، وألمَاس، وخواتم، وزبرجد، وياقوت، ودُرَرٍ، ولآلئ، وزُمُرُّد وعسجد. وكل زخرف دنيويّ، وزينة جوْفاء، ومظاهر زائفة، وموضات تافهة، فتحلَّىْ بها في دنياك، أمَا في الآخرة فأدنى لؤلؤة في تاجك خير من الدنيا ومَا فيها..

يا أزْيَـنَ النـاس في ديـنٍ وفي أدبٍ ... بـلا جُمَـانٍ ولا عِقْـدٍ ولا ذَهَـبِ
بـل بالتـسابيح كالبـشرى مُرَتلَـةً ... كالغيث كالفجر كالإشراقِ كالَسُّحُبِ
في سَـجْدَةٍ، في دُعـاءٍ، في مُرَاقَبَـةٍ ... في فِكْرَةٍ بين نـورِ اللَّـوح والكُتُـبِ
في وَمْضَةٍ مِن سناءِ الغارِ جـادَ بهـا ... رسـولُ ربِّـكِ للرومَـان والعَـرَبِ
فأنـتِ أزْيَـنُ كُـلِّ العـالَمِين بهـا ... في قلبِكِ الطاهِرِ المعمـورِ بـالقُرَبِ

□ كل خُلُق حسن فيكِ، كلُّ شعبة من شعب الإيمان تتحلَّيْن بها أغلى من فَصٍّ؛ لأن الجوهر يفنى، والإيمان يبقَى، فآثري مَا يبْقى على مَا يفنى.

أحسن الحُلي أن تكوني مُوحِّدة لا مُلْحِدَة:

إن التي عَصَت ربها وعقّت قيمها ودينها رخيصة مبتذلة تافهةٌ دميمة لا جمَال فيها وإن كانت أجمل النساء، ولو طرَّقت عنقها بنجوم السمَاء، ولبست على رأسها الجوْزاء، وأشرقت من جبينها الشمس، فلا قيمة لها وقد خلعت جلباب الحياء، وتاج الحشمة، ورداء الفضيلة وثوب العفاف.

(١) انظر: «أسعد امرأة في العالم» للدكتور عائض القرني - مكتبة العبيكان.

أول وأغلى زينة للمرأة أن تكون مؤمنة مُوحِّدة وإمَامها في حياتها محمد ﷺ تُحِبُّه، تتَّبعه، تعمل بأوامره، تجتنب نواهيه، تتمثَّل بسُنَّته.

□ ومن كفرت بأنْعم الله، تعيش الضَّنْك والشقاء، والبؤس والتعاسة والعناء، ولو سَكَنَتِ الأبراجَ المُشَيَّدة، وعاشت في الحرير، وتقلَّبت في الديباج، وتزيَّنت بكُلِّ حُليِّ الأرض.. إذْ لا وميض لنور الإيمان في قلبها.

غصونُ الذهب كل الذهب: لآسية امرأة فرعون الرافضة لجوار فرعون والقصور والجاه، الراغبة في بيت في الجنة عند الله.

وسيدة نساء العالمين خديجة رضي الله عنها يبشِّرها ربها ببيت في الجنة من قصب(١)، لا صَخَبَ فيها ولا نَصَب.

السبائك جميلة، يتجمَّل بها الجسم، لكنَّ أجمل منها الحكمة الربَّانية التي أنزلها الله على رسوله ﷺ وصِيغت منها تيجان الإيمان على جبين القانتات العابدات السائحات الخاشعات الزاهدات.

العقود غالية وثمينة، ولكن أغلى من العقود، وأثمن العهود كل عهد بين العبد وربِّه، فاحرصي على الوفاء بالعهود لتلبسي في الجنة أغلى وأجمل العقود.

حتى تكوني أبهى إنسانة في الكون:

أنتِ بإيمَانك أبهى من الشمس، وبأخلاقكِ أزكى من المسك، وبتواضعك أرفع من البدر، وبحنانك أهنأ من الغيث، فحافظي على الجمَال بالإيمان، وعلى الرضا بالقناعة، وعلى العفاف بالحِجاب،

---

(١) أي عيدان اللؤلؤ المستوية.

واعلمي أن حُلِيَّكِ ليس الذهب والفضة ولا المَاس، بل ركعتان في السحر، وظمَا الهواجر صيامًا لله، وصدقةٌ خَفِيّة لا يدري بها إلَّا الله، ودمعةٌ حَارَّةٌ تَغْسل الخطيئة، وسجدة طويلة طويلة على بساط العبودية، وحياءٌ من الله عند نوازع الشَّرِّ وداعي الشيطان، فالبسي لباس التقوى، فإنك أجمل امرأة في العالم، ولو كانت ثيابك ممزَّقة، وارتدي عباءة الحِشمة فإنك أبهى إنسانة في الكونِ ولو كنتِ حافية القدمين.. ودعي عنك التبرُّج والتزين والتعطر في الأسواق وحياة الفاجرات الكافِرات الساحرات العاهرات السافرات، فإنهن وقود جهنم التي لا يصلاها إلَّا الأشقى.

العسجد: اعلمي يا عالية الهِمَّة أن رَكْعَتيْن في المسجد أنفعُ وأفيَدُ من كل عسجد [١].

كوني مُشرِقة النَّفس بالإيمَان يُضئْ منكِ الكون:

فصفاءُ توحيدك أنقى من الصباح بإشراقه وبسمته الرائعة.

وطهْرُ أخلاقك أطيب من النهار بسنائه وضيائه.

ووقارك وصمتك معتبرة أعلى من وقار الليل وصمتِه، احرصي على زيادة إيمَانك بتفكُّرِك في آيات ربك في الكون في باقة الزهر، في طلْعةِ الورد، في هَبَّة النسيم، في نفحة الروض، في نور الشمس، في ضياء القمر، في جمَال السمَاء، وبركة الأرض.

(١) عسجد: ذهب.

اللآلئ:

في مقدور المرأة أن تذهب إلى الصاغة لتشتري اللالئ الثمينة، لكنّه يصعب على الكثيرات شراء اللآلئ الثمينة الغالية من الحكمة وشعب الإيمان والموعظة الحسنة؛ لأن ثمنها نفْسٌ توّاقة، وقلبٌ محب، وهِمّة صادقة، ونيّةٌ حسنة، وسدادٌ في القول والعمل.

□ إن المؤمنة العابدة الزاهدة التي تعيش في بيوت الأكواخ والطين بينها وبين صاحبات الترف والبذخ والإسراف والتبرج اللائي ينمن على ريش النَّعَام، وعلى الدِّيباج والحرير، في القصور المخمليَّة أبعد ممَا بين الثرى والثرياء، فأين كنز المؤمنة من كير وعفن المتبرِّجة الفاجرة.

الدُّرر: هناك «درر» من المجوهرات معروفات مشهورات، تُشتَرى بالمَال، وتُعلَّق على الصدور، وأعلى منها وأَقْيَمُ وأغلى الدرر التي تُرصَّع في تاج مجد المرأة، وهي درر المعاني الجليلة، والأهداف النبيلة، وخصالُ الإيمان الجميلة.

الزَّبَرْجَد والياقوت:

أنفس من الزبرجد قيامُ الليل والتهجد، وأعلى من الياقوتِ المناجاةُ وطولُ القنوت.

الجواهر: أيتها المؤمنة عالية الهمة اتَّخذي جواهر لا تنالها الأيدي، تكونُ وديعة عند الله، من صلاةٍ خاشعةٍ، وعينٍ دامعةٍ، وصدقة مُتَقَبَّلَة، وتلاوة متدبِّرَة.

الخواتم: يا مَن حرصتْ على جَمَال الخاتم لتضعه في أصبعها متزينة به، تختَّمي بعفاف صادِقٍ، وحشمةٍ إيمَانية، وعمل بارٍّ راشد لتكوني أجمل

فتاةٍ في العالم.

الفرائد:

تذكَّري بالفرائد التفرُّد في طريق التوحيد والالتزام بأمر الله، والتفرّد في درجات الكمَال والسمْتِ الحسن، والتفرد في سُلَّمِ المجد، والخُلُق النبيل، ليس هناك فرائد أغلى ولا أبهى من الفرائد التي أتى بها جبريل عليه السلام على محمد ﷺ، وهي الأدلَّة القاطعة، والبراهين الساطعة والحجج اللامعة.

المرجانُ:

يُستخرَجُ المَرجانُ من قاع البحور، ليوضعَ على النُّحُورِ، لكن المرجان الذي نزل من عند سدرة المنتهى، أعظم نفعًا وأجلّ فائدة لأولي النُّهَى؛ لأن مَرجان الأرض قد تلبسه الكافرة السافرة الفاجرة، أمَا مرجان السمَاء فلا تلبسة إلَّا التقيّة النقيّة الرضيّة صاحبة الإيمان والنقاء.

الألَماس:

لو لبست المرأة ألمَاسًا من مشاش رأسها إلى أخمص قدميْها، مَا نفعها ذلك حتى ترتدي لباس التقوى، فالحُلِيُّ لا يُجَمِّلُ روحًا قبيحة، ولا يُزيِّنُ نفسًا مشوَّهة، ولا يُغلي همة رخيصة، فاحرصي على حلية الديانة والصيانة والرزانة، فهي أغلى من حُليٍّ وحلل الدنيا.

الجمَان:

من تفاهة الدنيا أن جواريَ اشتُرِينَ من الأسواقِ في عصر التَّرَف والبذخ والإسراف، فأُعطِيَتْ كلُّ جاريةٍ قنطارًا من الجُمَان، والصحابيّات الخيِّرات عشن في غرفٍ من طين، على حصير من سَعَفِ

النَّخْل، لا يجِدْن إلَّا كُسَيْرات وتمرات!! أفٍّ لدنيا لا تُقَدِّس القيم، ولا تميِّزُ بين النفيس والرخيص، وخيبة لنفس لا تميِّزُ بين الحق والباطل.

ومضة: أبهى الثياب لباس المُحْرِمين وأزين الأشياء كفن وحنوط تحنَّط بهمَا خطيب الأنصار ثابت بن قيس الذي قال فيه الرسول ﷺ: «**نعم الرجل ثابت بن قيس بن شمَاس**»[١]، وسالم مولى أبي حُذيفة الذي قال فيه ﷺ: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك**»[٢]. فاستشهدا ولقيا ربهمَا، فرضيا عنه، ورضي عنهمَا».

عُلاة الهمم الأنصار الذين تَبوَّءوا الدار والإيمَان:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**آيةُ الإيمان حُبُّ الأنصارِ، وآيةُ النِّفاقِ بُغْضُ الأنصارِ**»[٣].

آية عجيبة في كتاب الله تحدثت عن الإيمان حديثًا عجيبًا، وصوَّرته تصويرًا لطيفًا، وجسَّمته تجسيمَا جميلًا، وكان حديثها عن الإيمان في معرض ثنائها على الأنصار -العنصر الأساسي في القاعدة الإسلامية الصلبة، التي أقامها رسول الله ﷺ في المدينة.

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

(١) صحيح: جزء من حديث رواه البخاري في «التاريخ»، والترمذي، والحاكم في «المستدرك عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٧٥).

(٢) صحيح: أخرجه ابن المبارك في «الجهاد»، وأحمد عن حنظلة، وابن مَاجه والحاكم، وله شاهد يقويه عند البزار ورجاله ثقات.

(٣) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي.

خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ [الحشر].

لقد استقبل الأنصار في المدينة إخوانهم المهاجرين من مكة استقبالًا خاصًّا، استقبالًا إيمانيًّا فريدًا، عاملوهم بالمحبة والإيمان والإخاء وقدموا لهم مَا يملكون، وآثروهم على أنفسهم مع حاجتهم لتلك الأشياء.. أنزلوهم قلوبهم قبل أن ينزلوهم بيوتهم، فوسعتهم قلوبهم الفسيحة قبل أن تسعهم بيوتهم المتواضعة..

وهذه الآية تريد أن تعلل لهذه الظاهرة الفريدة التي لم تتكرر بهذه الصورة الجمَاعية حتى بين المسلمين -وإن وجدت نمَاذج مسلمة مؤمنة اقتربت من هذه الصورة للأنصار، لكنها كانت نمَاذج فردية لم تتحول إلى ظاهرة اجتمَاعية- تريد هذه الآية أن تضع بين أيدي المسلمين المفتاح الذي يمكنهم استعمَاله ليكونوا قريبين من الأنصار في تلك الصورة، تريد أن تطلعهم على السر ليحاولوه، وتريد أن تقدم لهم الصفات ليتصفوا بها.. والأحرى: تريد أن تقدم لهم الإيمان الذي دفع الأنصار إلى ذلك ليحققوه في قلوبهم، ويتبوَّءُوه في قلوبهم وواقعهم.

صفات الأنصار العظيمة في هذه الآية، أنهم تبوءوا الدار قبل المهاجرين فأسكنوهم قلوبهم، وصفت صدورهم من الأمراض فعاملوا المهاجرين بهذا الصفاء، وتمكن الإيثار منهم فقدموه للمهاجرين، وانتصروا على نفوسهم فوقوها الشح والبخل والمرض، وكانوا بكل مَا فعلوه صادقين في إيمَانهم وأخلاقهم وسلوكهم وحياتهم..

إنها صفات الإيمان والخير: تبوؤُ الإيمان، والمحبة، وسلامة الصدر، والأخوة، والإيثار، والتزكية، والصدق. إنها عوامل الانتصار عند

الأنصار، فأين الراغبون في الانتصار؟

ويلفتنا في الآية تعبيرها عن إيمَان الأنصار بقولها: ﴿ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أمَا تَبَوُّؤُ الدار فهو معروف، لكن هل الإيمان يُتبوَّأ؟ هل يمكن أن يكون دارًا ومنزلًا لصاحبه؟

مَادة «بوَّأ» في القرآن الكريم وردت عشر مرات، وكلها في سياق المدح والثناء والخير، كلها في معرض بيان نعم الله على الناس مؤمنين وكافرين في الدنيا، ونعمه على المؤمنين في الجنة يوم القيامة، فهذه الكلمة لم ترد في سياق الذم ولا الإنكار، وهذا له دلالته لمن يتذوق أسلوب القرآن، ويتابع الرحلة مع الاستعمَال القرآني للمصطلح الواحد وتصريفاته واشتقاقاته..

* قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس].

* وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [يونس].

* وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ

نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحج].

* وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [العنكبوت].

* وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الزمر].

□ والآية العاشرة التي تتحدث عن تبوء الأنصار للدار والإيمان، وعن تبوء المؤمنين للإيمان.

«وألحظ في هذه المواضع كلها أن التبوُّء نعمة من الله على الناس.. وأن المؤمنين يدركون هذه النعمة، ويتفاعلون معها، ويتذوقونها ويعيشون في ظلالها.. وإنك لتلمح ملامح السعادة على وجوههم بهذه النعمة، وتلحظ علامَات الرضى على محياهم وتسمع ألسنتهم تلهج بالحمد والثناء على الله على مَا أنعم به عليهم.

لكن الأمر الملفت للنظر في المرات التسع التي ورد فيها التبوؤ أنه كان تبوءًا حسيًّا مَاديًّا في صورة منازل وأمَاكن في الدنيا، وفي صورة غرف ونعيم في الجنة»[١].

---

(١) «في ظلال الإيمَان» (ص١٥٦) ومَا بعدها.

أمَا تبوؤُ الإيمان فإنه تبوؤٌ معنوي، وليس حسيًّا، وهذا المعنى تحول إلى محسوس مجسم يدركه الإنسان ويلمحه!!

كيف يكون تبوؤُ الإيمان؟ هل هو من باب المجاز والتشبيه؟ لقد وقف بعض المفسرين السابقين أمَام الآية وأثاروا إشكالات حول تبوءِ الإيمان، وردوا عليها، وبحثوها بحثًا نظريًّا، أفقدها الكثير من ظلالها وإيحاءاتها، ومن حياتها وحيويتها، ومن قوتها وتأثيرها.

□ وهذا مثال لإشكالاتهم ونظراتهم. قال الإمَام القمي النيسابوري:

«وها هنا سؤالان:

أحدهمَا: إنه لا يقال: تَبَوَّأَ الدارَ. **والثاني**: بتقدير التسليم، أن الأنصار مَا تبوءوا الإيمان قبل المهاجرين؟.

والجواب عن الأول: أن المراد تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان كقوله: «علفتها تبنًا ومَاءً باردًا..» أو هو مجاز من تمكنهم واستقامتهم على الإيمان، كأنهم جعلوه مستقرًّا لهم كالمدينة. أو هو مجاز بالنقصان، والمعنى تبوءوا دار الهجرة ودار الإيمان، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من الثاني.

أو سمى المدينة بالإيمان؛ لأنه مكان ظهور الإيمان. وهذا يئول بالحقيقة إلى الوجه الذي تقدمه.

وعن الثاني: أن المراد من قبل هجرتهم، أو هو من تمَام تبوءِ الدار. ولا شك أن الأنصار سبقوهم في ذلك، وإن لم يسبقوهم في الإيمان»[(١)].

(١) «غرائب القرآن» للقمي (٢٨/ ٤٠ - ٤١).

ولا أجد ضرورة لهذه الأسئلة ولا لهذه الإجابات عليها، ولا مَا يدعو إلى حمل تَبَوُّءِ الإيمان على المجاز الكامل أو الناقص -كمَا قالوا- ولا مَا يدعو إلى صرفه عن حقيقته.

□ قال الإمَام الراغب في مفرداته عن التبوءِ: «أصل البَواء مساواة الأجزاء في المكان، خلاف النَّبْوَة الذي هو منافاة الأجزاء.. يقال مكان بواء إذا لم يكن نابيًا بنازله: وبوأت له مكانًا سويته فتبوأ»[١].

وحكى عن خلف الأحمر أنه قال في قولهم: «حياك الله وبياك أن أصله: بوأك منزلًا. فغُيِّر لازدواج الكلمة، كما غُيِّر في قولهم أتيته الغدايا والعشايا»[٢].

فيكون معنى التبوُّءِ: هو تجهيز المكان وتهيئته وتسويته لصاحبه ليقيم فيه.

وتَبَوُّؤُ الإيمان لا يعدو أن يكون كذلك، فإن الله يهيىء هذا الإيمان لصاحبه ويجهزه له ويسويه ويمهده ليقيم فيه، ويحتمي داخله..

إن الآية تستخدم طريقة التصوير الفني - تلك الطريقة القرآنية المفضلة في التعبير عن أغراضه- في التعبير عن الإيمان وتأثيره في صاحبه وتمكنه منه وآثاره عليه، وتستخدم هذه الطريقة وهي تعلل سر عمل الأنصار وتصرفهم مع إخوانهم المهاجرين..

إنها تستخدم طريقة التجسيم الفني والتخييل الحسي -وهمَا قاعدتان أساسيتان من قواعد التصوير الفني في القرآن - في الحديث عن الإيمان

---

(١) «المفردات» للراغب الأصفهاني (ص٦٩).

(٢) «المفردات» للراغب (ص٧٠).

وتصويره للمؤمنين.

إن الإيمان أمر معنوي وليس مَاديًّا محسوسًا ملموسًا، ولكن الآية جسَّمت لنا هذا الإيمان المعنوي في صورة مَادية محسوسة ملموسة - من باب التصوير الحي المؤثر وليس من قبيل المجاز الكامل أو الناقص كما قال السابقون- إن هذا الإيمان تحول في الآية إلى بيت متناسق بديع جميل، مهيأ للسكنى، ومجهز ومعد لاستقبال ساكنيه، الذين سيجدون فيه طيب الإقامة والسعادة الراحة.

وبعدمَا جُسم الإيمان في هذه الصورة خَيلت لنا الآية حركة القادمين إليه بتخيل حسي بديع.. ها هم قادمون إليه.. ها هم قد تبوءوه.. وهو لهم نعم الإقامة والمُبوّأ..

هذه الصورة اللطيفة التي تعرضها الآية لتَبَوُّءِ الإيمان، توفر لها جمَال فني ساحر، وصدق فني ملحوظ، وليس هذا فقط، ولكنها توفر لها صدق واقعي، ووجود عملي، وبُعد حياتي.. لقد انطبقت على أناس في عالم الواقع. كل من نظر إليهم وإلى أعمَالهم وإلى أخلاقهم يخرج بهذه النتيجة: إنهم تبوءوا الإيمان، إن الإيمان أصبح لهم دارًا ومنزلًا، إنهم أقاموا فيه فسعدوا وصلحوا وأصلحوا. وأين ستقيم قلوبهم إن لم تقم في بيت الإيمان؟ وأين سيعيشون إن لم يعيشوا في ظلال الإيمان؟

□ قال صاحب «الظلال»: «﴿تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي دار الهجرة، يثرب مدينة الرسول ﷺ وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين، كما تبوءوا فيها الإيمان، وكأنه منزل لهم ودار. وهو تعبير ذو ظلال، وهو أقرب مَا يصور موقف الأنصار من الإيمان. لقد كان دارهم ونزلهم

ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم، وتسكن إليه أرواحهم، ويثوبون إليه ويطمئنون له، كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار..»[(١)].

مواقف إيمانية رائعة للأنصار رضي الله عنهم:

• عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الحاج في منازلهم في الموسم وبمجنة وبعكاظ وبمنازلهم بمنى: «**من يؤويني، ومن ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي عز وجل وله الجنة**». فلا يجد أحدًا ينصره ويؤويه حتى إن الرجل يرحل من مضر أو من اليمن أو زور صمد فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك. ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله عز وجل يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله عز وجل له من يثرب فيأتيه الرجل فيؤمن به فيقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لا يبقى دار من دور يثرب إلَّا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم بعثنا الله عز وجل فائتمرنا واجتمعنا سبعون رجلًا منا، فقلنا حتى متى نذر رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة ويخاف؟ فدخلنا حتى قدمنا عليه في الموسم فواعدناه شعب العقبة فقال عمه العباس: يا ابن أخي إني لا أدري مَا هؤلاء القوم الذين جاءوك؟ إني ذو معرفة بأهل يثرب فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين فلمَّا نظر العباس رضي الله عنه في وجوهنا قال: هؤلاء قوم لا أعرفهم، هؤلاء أحداث فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال: «**تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت**

(١) «الظلال» (٦/ ٣٥٢٦).

يثرب فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة».

فقمنا نبايعه فأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين فقال: رويدًا يا أهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلَّا ونحن نعلم أنه رسول الله، إن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف، فإمَّا أنتم قوم تصبرون على السيوف إذا مستكم وعلى قتل خياركم وعلى مفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله ﷻ، وإمَّا أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة، فذروه فهو أعذر عند الله قالوا: يا أسعد بن زرارة أمط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها. فقمنا إليه رجلًا رجلًا يأخذ علينا بشرطه العباس ويعطينا على ذلك الجنة»(١).

□ وعن أنس ﵁ قال: لمَّا سارَ رسولُ الله ﷺ إلى بدرٍ خرَجَ فاستشار الناسَ فأشار عليه أبو بكر ﵁، ثم استشارهم فأشار عليه عمرُ ﵁ فسكت فقال رجلٌ من الأنصار: إنمَا يُريدكم رسولُ الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله والله لا نكون كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﵇: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن لو ضربت أكبادَ الإبل حتى تَبْلُغَ بَرْكَ الغمَادِ لكنا معك»(٢).

• وعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: اجتمع ناس من الأنصار فقالوا: آثَرَ علينا غيرنا. فبلغ ذلك النبي ﷺ فجمعهم ثم خطبهم فقال: **«يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله؟»** قالوا: صدق الله ورسوله.

---

(١) حسن: رواه أحمد (٣/ ٣٣٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٠٥)، (٣/ ١٨٨)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (٢٤٣).

قال: «ألم تكونوا ضلالًا فهداكم الله؟». قالوا: صدق الله ورسوله قال: «ألم تكونوا فقراء فأغناكم الله؟»، قالوا: صدق الله ورسوله، ثم قال: «ألا تجيبوني؟ ألا تقولون: أتيتنا طريدًا فآويناك وأتيتنا خائفًا فأمناك؟ ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبقران – يعني: البقر- وتذهبون برسول الله ﷺ فتدخلونه بيوتكم؟ لو أن الناس سلكوا واديًا أو شعبة سلكت واديكم أو شعبتكم، لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، وإنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»[(١)].

□ وعند ابن إسحاق: «ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا وسلكت الأنصار شِعبًا لسلكت شِعب الأنصار.. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم، حتى أَخْضَلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحَظًّا»[(٢)].

• وعن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: «لمَا أفاء الله على رسوله يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئًا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم مَا أصاب الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وكنتم مفترقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟» كلمَا قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمنُّ قال: «مَا يمنعكم

(١) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٥٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٩١٣).
(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٤٣).

أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟» قال: كلمَا قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمنُّ. قال: «لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا. ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها. الأنصار شِعار والناس دِثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»(١).

نهدي هذه الحادثة ونسوق هذا المشهد، للمؤمنين ليعرفوا فضل الأنصار وعلمهم وفقههم وقوة إيمَانهم، وتذوقهم لنعمة الإيمان واعترافهم بهذه النعمة والمنة لله ولرسوله.. ليحاولوا الاقتداء بهم في هذا التذوق والاعتراف والشعور.

إننا ندعو المؤمنين إلى أن يقفوا طويلًا أمَام الصورة العجيبة التي ترسمها هذه الآية وتعرضها لتبوُّءِ الإيمان، ندعوهم أن يقفوا أمَامها، وأن يسعوا جاهدين للتحقق بها.

إن هذا الزمن الذي نعيش فيه لا ننجو فيه من مكائد الأعداء ومصايد الشيطان إلَّا بتبوُّء الإيمان، ولا ننجح في تربية نفوسنا وتزكية أخلاقنا واستقامة حياتنا إلَّا بتبوُّءِ الإيمان، ولا نستعلي فيه على الباطل ولا نثبت فيه على الحق ولا نصدع فيه بالأوامر إلَّا بتبوُّءِ الإيمان، ولا تستقيم حياتنا، ولا تثبت على طريق الله أقدامنا ولا ننتصر على أعدائنا ولا نحقق الوجود الحي المؤثر لإيمَاننا وإسلامنا وديننا إلَّا بأن نتبوأ الإيمان.. وفي النهاية لن ننال رضوان الله ورحمته، ولن ندخل جنته ونتلذذ بنعيمها إلَّا

---

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠)، وأحمد (٤/ ٤٢)، ومسلم (١٠٦١).

بأن نتبوأ الإيمان في دنيانا.

لا بد أن نجعل الإيمان لنا دارًا ومنزلًا، لا بد أن نحوله من معانٍ نظرية مجردة باردة إلى بيت للإقامة السعيدة، ومكان للحياة الهانئة، ومصدر للظلال الوريفة، لا بد أن نجعل الإيمان سكنًا سكنًا تسكن إليه أرواحنا، وتقيم فيه قلوبنا، وتهدأ فيه نفوسنا، وتطمئن فيه مشاعرنا، ويثوب إليه كياننا..

لا بد أن نجعل الإيمان بيتًا نتبوَّءه ونأوي إليه.. وخيمة نستصحبها في حياتنا وحركاتنا وتنقلاتنا، ولباسًا نرتديه ولا نتخلى عنه في لحظة من لحظات حياتنا، ونورًا يكون معنا دائمًا ليضيء لنا الطريق ويبدد لنا الظلام فيها، ويبصرنا بدروبها ومنحنياتها، ويحذرنا من مطباتها وأخطارها ومفاجآتها، ويكشف لنا شياطين الإنس والجن الكامنين فيها لاصطيادنا، ويرينا شباكهم ومصائدهم فيها..

لا بد أن نجعل الإيمان ظلالًا نعيش فيها في كل لحظة من حياتنا، نفيء إليها في صحراء الجاهلية الحارقة، لنجد عندها الأمن والراحة والطمَانينة والانشراح.

وطالمَا أقمنا في بيت الإيمان فإننا من الشياطين في أمَان، وطالمَا تبوأنا هذا الإيمان في حياتنا فإن الباطل والمنكر في معزل عنا، وطالمَا عشنا في ظلال الإيمان فلن تضيرنا الجاهلية ونارها وحرها وسمومها.

إن شياطين الإنس والجن عاجزة عن الاقتراب منا ونحن في دار الإيمان؛ لأن دار الإيمان التي نقيم يها أضاءتها أنوار الإيمان والهدى، والشياطين لا يجرءون على الحياة في النور؛ لأنه يحرقهم ويؤذيهم

ويكشفهم.

إنهم لا يتقنون الشيطنة والمكر والوسوسة إلَّا في الظلام، ولا يدْعون الناس إلَّا من خلال الظلمَات، ولا يوقعون بهم إلَّا وسط الظلمَات.. ولذلك يهربون من النور والضياء.. إننا لن ننجو من الشياطين إلَّا إذا آوينا إلى بيت الإيمان، ولن نكشفهم إلَّا إذا سلطنا عليهم من داخل هذا البيت أنوار الإيمان.

إن هذه الآية العجيبة تريد أن تدعونا إلى صمَام الأمَان في مواجهتنا لشياطين الإنس والجن، ألا وهو الإقامة في بيت الإيمان، وتبوء دار الإيمان.. فهذه الدار مقامة فأين الساكنون فيها؟ وهذا البيت جاهز فأين القاطنون فيه؟ وهذا المنزل قد أُعد وجُهز وهُيِّيء فأين الذين يتبوءونه؟

هذا: وإن الشياطين عندما يعجزون عن ولوج بيت الإيمان، ويفشلون في الإيقاع بالمؤمن طالما هو فيه، يقفون كالكلاب الضالة على باب البيت، يقفون باستمرار لا يملون الوقوف ولا يقصرون في المراقبة.. إنهم يراقبون ساكن البيت، ويتحينون فرصة خروجه منه، وإذا خرج المؤمن من بيت الإيمان، وغادر حصن الأمان فإن الشيطان بانتظاره، إنه يأخذ بيده ورجله لحظة خروجه فيزله عن طريق الهدى إلى هاوية المعصية، ويفقده نور الهداية ليغرقه في ظلام الخطيئة، ويحرمه ظلال الإيمان ليلقيه في صحراء المنكر وسراب الأوهام..

فلمَاذا نغادر هذا المنزل المبارك؟ ولمَاذا نخرج من هذا الحمى الآمن؟

* وصدق الله العظيم الذي يقول: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا

فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

*والذي يقول: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام].

صفات عُلاة الهمم من المؤمنين كما جاءت في القرآن الكريم:

من أصدق من الله قيلًا، ومن أصدق من الله حديثًا.. عرض القرآن الكريم كلام الله – وكلام الملوك ملوك الكلام - كثيرًا من هذه الصفات ليتحلّى بها أهل الإيمان على أكمل وجه لتبقى قلوبهم وأنفسهم وحياتهم في ظلال الإيمان حتى لا يحجبوا عن الرحمن، بل ليتنافسوا في السباق إلى الجنة والرِّضوان.

وتأكيد القرآن على صفات المؤمنين واستمرار عرضها في سور مكية وسور مدنية، يدل على أهمية اتصاف المؤمنين بها وتحققها فيهم، وأهمية التذكير المستمر بها حتى لا تُنسى ولا تُهمل، تذكير المؤمنين الذين حققوها حتى يستمروا في الاتصاف بها، وأن يكونوا انعكاسًا لها وترجمة حية لها. وهذه دلالة تربوية هادفة تنفع أهل التربية والتوجيه، وتريهم كيفية غرس الصفات الإيجابية والفضائل الأخلاقية في نفوس وقلوب الناس، واستمرار مراقبتها ومتابعتها.

□ وفيما يلي نقدم طائفة من الآيات التي تضمنت مجموعة من الصفات اللازمة لأهل الإيمان:

* قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة].

صفات أهل الإيمان في هذه المجموعة ست. وبينها تناسق واتصال وترابط وانسجام: التقوى والإيمان بالغيب وإقامة الصلاة، والإنفاق في سبيل الله، والإيمان بالكتب السماوية، واليقين بالآخرة..

إن الذي يجمع بين هذه الصفات هو الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة، والتكامل المتناسق للعقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية والشخصية الإسلامية.

«وهناك تساوق وتناسق بين هذه الصفات جميعًا، هو الذي يؤلف منها وحدة متناسقة متكاملة، فالتقوى شعور في الضمير وحالة في الوجدان، تنبثق منها اتجاهات وأعمال، وتتوحد بها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة، وتصل الإنسان بالله في سره وجهره، وتشف معها الروح، فتقل الحجب بينها وبين الكلي الذي يشمل عالمي الغيب والشهادة، ويلتقي فيه المعلوم والمجهول. ومتى شفت الروح وانزاحت الحجب بين الظاهر والباطن، فإن الإيمان بالغيب عندئذٍ يكون هو الثمرة الطبيعية لإزالة الحجب الساترة واتصال الروح بالغيب والاطمئنان إليه. ومع التقوى والإيمان بالغيب عبادة الله في الصورة التي اختارها، وجعلها صلة بين العبد والرب.. ثم السخاء بجزء من الرزق اعترافًا بجميل

العطاء، وشعورًا بالإخاء.. ثم سعة الضمير لموكب الإيمان العريق، والشعور بآصرة القربى لكل مؤمن ولكل نبي ولكل رسالة.. ثم اليقين بالآخرة بلا تردد ولا تأرجح في هذا اليقين.. هذه كانت صورة الجماعة المسلمة التي قامت في المدينة يومذاك مؤلفة من السابقين من المهاجرين والأنصار»(١).

* ومن الآيات التي تعرض بعض صفات المؤمنين قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾[البقرة].

هذه الآية هي آية البر وقف أمامها المفسرون طويلًا، بل إن أحد الكاتبين أفرد لها كتابًا خاصًا – هو عباس الجمل في كتابه «آية البر في القرآن الكريم»- وقد عرضت لنا هذه الآية طائفة من صفات المؤمنين، واعتبرت توفرها عند المؤمنين دليل الإيمان والصدق والتقوى: إنها الإيمان –بمفهومه القرآني- وإنفاق المال في سبيل الله على أصناف حددتها الآية. والوفاء بالعهد. والصبر في مواطن القلق والاضطراب. والصدق في الالتزام بتلك الصفات. والتقوى باعتبارها ثمرة تلك الصفات.

* ومنها قوله تعالى عن المؤمنين العابدين لله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ

(١) «الظلال» (١/ ١٤١).

وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ [آل عمران].

إنهم يعلنون إيمانهم بالله ويرجون منه المغفرة ويستعيذون به من النار. إنهم يتصفون بالصبر والصدق والقنوت والإنفاق في سبيل الله والاستغفار وقت السحر. خمس صفات متناسقة متماسكة. والملاحظ أنه عرض هذه الصفات بصيغة اسم الفاعل، وهذا يوحي بأمرين:

الأول: أن هذه الصفات لا تتحقق فيهم إلّا بالفعل والعمل والسعي والجهد والحركة والمجاهدة، إنهم يبذلون جهدهم الشاق في التحلي بها والحياة معها، ولا تأتي بمجرد الآمال والأمنيات والمشاعر.

والثاني: أنهم يعتادون هذه الصفات، ويمارسونها باستمرار حتى تكون حالة دائمة لهم لا ينفكون عنها، وسمة واضحة عليهم يُعرفون من خلالها، إنه لا يُتَصور أن يوجَدوا بدونها، ولا أن يعيشوا حياة سعيدة وهم فاقدون لها. إن اسم الفاعل في لغة العرب يفيد الثبات على الأمر، والاستقرار على الحالة، والبقاء على الشيء والاستمرار عليه..

* ومنها هذه الآيات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران].

وفيها تعبير عن صفات المؤمنين بصيغة اسم الفاعل أربع مرات: المتقين، الكاظمين الغيظ، العافين عن الناس، المحسنين.

* ومنها هذه الآيات: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [آل عمران].

والمؤمنون الموصوفون في هذه الآيات هم أولو العقول وأصحاب الألباب، وهم الذين يذكرون الله ذكرًا شاملًا بألسنتهم وبكيانهم وقلوبهم وعقولهم ونظرهم، وهذا الذكر مستمر دائم مستغرق لكل حياتهم: قيامًا وقعودًا، وعلى جنوبهم. وهذا الذكر يقود إلى التفكر في مخلوقات الله، فهو إذن ذكر وفكر ونظر.

وهم الذين يتوجهون إلى الله أن يقيهم عذاب النار، فإن هذا خزي ما بعده خزي.

* ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

[المائدة].

* ومنها قوله تعالى: ﴿ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

* ومنها قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال].

وكلمة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ تدل على بلوغهم كمال الإيمان ووصولهم إلى ذروته.

* وكما بدأت سورة الأنفال بعرض مجموعة من صفات المؤمنين، ختمت كذلك بعرض مجموعة أخرى من صفات المؤمنين، ركزت فيها على أهم الصفات الجهادية لهم وهي: الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، ونصرة الله ورسوله والمؤمنين، والهجرة إلى الله ورسوله والمؤمنين، واعتبار من قاموا بهذه الخصال هم المؤمنون حقًّا، الذي يستحقون النصرة والحرب والجهاد من أجلهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)﴾ [الأنفال].

* ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾ [التوبة].

إنها تعرض صفات الأولياء، ولوازم الولاية بين المؤمنين والمؤمنات التي لن تتحقق إلّا بها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله.. وهم بهذه الصفات وهذه

الولاية ينالون رحمة الله ويعيشون في أفيائها، ورحمة الله تعوضهم عن ما دفعوه من ثمن باهظ نتيجة لالتزامهم بالولاية، ودفعهم راضين لتكاليفها..

* ومنها قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

[التوبة].

* ومنها هذه الآيات: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرعد].

* ومن هذه الآيات التي فيها صفات المؤمنين ما ورد في سورة «المؤمنون»، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون].

وهذه صفات أخرى للمؤمنين:

* قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

[المؤمنون].

إن المؤمنين يسارعون في الخيرات، ويسابقون إليها فيسبقون، ويكونون متفردين متميزين في طليعة الواصلين، إنهم مشفقون في خشية ربهم لأنهم يعلمون مقام الله العظيم، ويشعرون بالتقصير في حقه مهما عبدوه، ويخشون الزلل والعذاب يوم القيامة، وهم يقدمون لله عباداتهم وطاعاتهم وحسناتهم، ويخشون ألا يتقبلها الله منهم..

والمؤمنون هم عباد الرحمن، وهذا وصفهم:

* قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟

بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾

[الفرقان].

* وهذه مجموعة أخرى من سورة القصص: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص].

* ومن صفات أهل الإيمان ما ورد في سورة السجدة: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة].

ومن صفات المؤمنين والمؤمنات:

* قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب].

* وفي سورة الشورى صفات عظيمة للمؤمنين. قال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى].

ولله ما أحلى وصفهم الطيب العظيم المؤثر في سورة «الفتح»:

* قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح].

وهذا وصفُ المؤمنين كاملي الإيمان:

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات].

* والمؤمنون في سورة الذاريات هم المتقون المحسنون، وقد عُرضوا لنا من خلال صفات التقوى والإحسان: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات].

* وهذه صفات للمؤمنين بأصنافهم الثلاثة: المهاجرون والأنصار

والخلف اللاحقون: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

* أما سورة التحريم فقد عرضت لنا مواصفات الزوجة المؤمنة الصالحة، التي لا بد من توافرها فيها: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾

[التحريم].

* وسورة المعارج تقدم لنا المؤمنين من خلال هذه الصفات: ﴿۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج].

* وها هي صفاتهم في سورة الإنسان: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا

نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ [الإنسان].

هذه صفات المؤمنين عُلاة الهمم لمن أراد المآثر والمفاخر نقِّدمها مثلًا رائعًا يتنافس في بلوغ الكمال في كل صفة من صفاتهم من كانت له همّة عَلِيّة ونفس نقيّة تقيّة.

وهذه «مجالس الإيمان» لمن أراد السباق إلى الجنان والفوز بجوار الرحمن:

روى الإمام البخاري: «قال معاذ: اجلس بنا نؤمن ساعة».

□ وقال ابن حجر: «عن الأسود بن هلال قال: قال لي معاذ بن جبل: اجلس بنا نؤمن ساعة. وفي رواية: «كان معاذ بن جبل يقول للرجل من إخوانه: اجلس بنا نؤمن ساعة، فيجلسان فيذكران الله عَزَّ وَجَلَّ ويحمدانه».

وكلام معاذ لا يحمل على أصل الإيمان لكونه كان مؤمنًا، وأيَّ مؤمن، وإنمَا يحمل على إرادة أنه يزداد بذكر الله.

□ وقال القاضي أبو بكر بن العربي: «إنمَا أراد تجديدَ الإيمان، وتجديدُ الإيمان إيمَان»[(١)].

□ يقول الأستاذ عبد المنعم صالح العلي «محمد أحمد الراشد».

«لن ينفك الداعية المؤمن بين جذبين:

جذب إيمَانه ونيته، وهمته، ووعيه، وشعوره بمسؤوليته، فهو من ذلك في عمل صالح، أو عزمة خير..

وجذب الشيطان من جهة أخرى وتزيينه الفتور، وحب الدنيا، فهو من ذلك في غفلة وكسل، وطول أمل، وتراخ عن تعلم ما يجهل..

(١) «فتح الباري» (١/ ٤٥).

وهذا التردد بين الجذبين أزلي قديم لا ينقطع، وبسببه أوجب المؤمنون على أنفسهم جلسات تفكر، وتأمل، وتناصح، يتفقدون فيها النفسَ أن يطرأ عليها كبر أو بطر، والقلبَ أن يعتوره ميل، والعلم والإيمان أن يتلبسا بإفراط يزيد بدعة، أو تفريط يهمل أمرًا أو إرشادًا.

وقد ترجم معاذ بن جبل ﷺ هذا الإحساس بكلمة غدت مادة في دستور أجيال المؤمنين، فقال لصاحبه وهو يذكره: «اجلس بنا نؤمن ساعة».

□ فأخذها ابن رواحة، فقال لأبي الدرداء ﷺ، وهو آخذ بيده: «تعال نؤمن ساعة، إن القلب أسرع تقلبًا من القِدْرِ إذا استجمعت غليانًا»(١).

ومجالس الإيمان هي مجالس تلاوة القرآن وتدارسه وتدبُّرِه، وهي مجالس الذكر والفقه وعلم الحلال والحرام.

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمع قوم في بيتٍ من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلَّا نزلت عليهم السكينة، وغشّيتهم الرحمة، وحَفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**»(٢).

إن هذه الأمور الثلاثة العظيمة هي من مكاسب مجالس الإيمان وثمراتها، وإنها مكاسب لا تعادلها مكاسب في هذه الدنيا: نزول السكينة عليهم، أن يسكنوا ويطمئنوا، وأن تغشاهم رحمة الله فيعيشوا في ظلالها ويسعدوا فيها، وأن تحفهم الملائكة وتصحبهم – وأنعم بها من صحبة

---

(١) «المنطلق» (٥/ ٦).

(٢) رواه أبو داود واللفظ له، وكذا رواه مسلم، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه.

طاهرة- والأهم من هذا كله أن يذكرهم الله في الملأ الأعلى [(١)].

وهذا حديث حبيب لطيف عجيب ممتع في «مجالس الإيمان»:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر.. فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله عز وجل تنادوا: هلموا إلى حاجتكم.. فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا.. فيسألهم ربهم -وهو أعلم- ما يقول عبادي: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك. فيقول: كيف لو رأوني! يقولون: لو رأوك لكانوا أشد لك عبادةً، وأشد لك تمجيدًا، وأشد لك تسبيحًا.. فيقول: فماذا يسألون؟ يقولون: يسألونك الجنة. يقول: وهل رأوها؟ يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. يقول: كيف لو رأوها؟ يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا وأعظم فيها رغبة. قال: فمم يتعوذون؟ يقولون: يتعوذون من النار. فيقول: وهل رأوها؟ يقولون: لا والله ما رأوها. فيقول: كيف لو رأوها؟ يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافة. فيقول: فأُشهدكم أني قد غفرتُ لهم. فيقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم، إنمَا جاء لحاجة: فيقولُ: هُمُ القوم لا يشقى بهم جليسهم» [(٢)].

قوم كرامُ السَّجَايا أينما جلسوا   يبقَى المكان على آثارِهم عَطِرَا

(١) «في ظلال الإيمان» (ص١٩٧).

(٢) رواه أحمد، ومسلم.

□ ولله درُّ القائل في أهل هذه المجالس:

تشتاقكُم كـلُّ أرض تنزلـون بهـا ... كـأنكم في بقـاع الأرض أمطـار
وتشتهي العينُ فيكم منظرًا حسنًا ... كـأنكم في عيـون النـاس أقمـار
لا أوحشَ الله رَبْعًا مِـن زيـارتكم ... يا مَنْ لَهُم في الحشا والقلبِ تذكارُ

يا لله.. ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾:

أهل مجالس الإيمان يذكرهم الرحمن.. يا غفول يا جهول لو سمعت صرير الأقلام في الملأ الأعلى وهي تكتب اسمك عند ذكرك لمولاك لمتَّ شوقًا إلى مولاك.. ليس العجب من فقير يلجأ إلى غني، ليس العجب من ضعيف يلجأ على قويّ، ليس العجب من قوله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ ﴾ إنمَّا العجب من قوله تعالى: ﴿ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ وصدق الله العظيم حيثي قول: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾ [الكهف].

عُلاة الهمم يضمُّهم «موكب الإيمان»:

موكب الإيمان كريم طيب طاهر، يمثل صفوة الناس وخير البشر، إن الإيمان هو أكرم وأثمن وأهم شيءٍ في هذا الوجود، وإن الاستجابة له والعيش به دليل تأصل الخير في صاحبه، وعلامة صفاء معدنه وحسن توجهه وحياة قلبه، بل إن هذا علامة حياته واستقامته وفطنته.. إنه لا يُقبل على الحق إلَّا الطيب صاحب الخير والفضيلة، وإنه لا يرفض الإيمانَ والحقَّ إلَّا الفاسد المريض الشرير..

* إن من يُعرض عن الإيمان فإنه ظالم لنفسه ولغيره، معتدٍ على نفسه

وعلى غيره، موقع للضر في نفسه وفي غيره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة].

وهذا الذي يُعرض عن الإيمان يقع في الكفر والضلال والضياع، ويختار الظلمات والتيه والموت.. إن البشرية قد انقسمت منذ قديم الزمان إلى فريقين لا ثالث لهمَا:

فريق المؤمنين وفريق الكافرين، أهل الحق وأهل الباطل، وسار هؤلاء في أحد طريقين: طريق الإيمان وطريق الكفر.

كن على الجَادّة وإنْ أبطأ بك السَّيْر، فإنَّ أمير القوم يرعَى القافلة:

موكب الإيمان سار فيه المؤمنون منذ آدم وحتى قيام الساعة، كل منهم يهتدي للإيمَان، ويلتحق بركب أهل الإيمان، ويسعد بالسير في موكب الإيمان، ويحدو فيه بحداء الإيمان، ويهتف بهتاف الإيمان، ويحيا في ظلال الإيمان..

موكب الإيمان موكب طاهر مبارك، موكب نظيف مهتد، طريقه سهلة ميسرة، انتشرت أنوار الإيمان فيها وانتشرت ظلالها عليها فسعد المؤمنون بسلوكها..

موكب الإيمان أصيل في هذا الوجود، وقديم وثابت وراسخ فيه، فهو ليس حادثًا عارضًا، ولا فلتة عابرة ولا حماسة فاترة.. لقد سار فيه أبو البشر آدم عليه السلام - في أول من سار - وسار فيه أبناؤه المؤمنون.. وسيبقى المؤمنون ينضمون إليه ويسيرون فيه حتى يأتي أمر الله..

موكب الإيمان يستعلي على التلاشي والانقراض.. فرغم عنف المعركة بينه وبين ركب الباطل وجند الشيطان.. إلَّا أن موكب الإيمان

يقابل هذا بالاستعلاء والثبات واليقين والثقة ويجاهد فيها جهاد المؤمنين، وعلى صخرة جهد وجهاد هذا الموكب تتحطم أسلحة الباطل ويرتد كيدهم إلى نحورهم..

موكب الإيمان يقدم للحياة طعمها اللذيذ، ويعطي للإنسانية قيمها الإيمانية، ويفسر للناس الوظيفة والرسالة والغاية والأمل، ويرسخ الفضيلة والخير والحق في الوجود، ويحارب الشيطان وجنوده وأسلحته ومكره.. ويهدي للبشرية نماذج إيمَانية رفيعة لتكون قدوتها، وقممًا إيمَانية رائدة لتحاول السير إليها.. وينشر نوره وظلاله وطيبه على الوجود فيحلو ويزكو..

موكب الإيمان حبيب، لمَّا يقوم به ويحققه، يحبه أهل الحق ويرغبون فيه ويطلبونه..

موكب الإيمان يقود المؤمنين فيه الأنبياءُ.. يكونون في مقدمته، يَعبرونه طلائع لهم فيه، يحثون المؤمنين على السير، ويحدون لهم ليأنسوا.. ويَسَعونهم بصدورهم وقلوبهم ليتموا الطريق، كما يقود هذا الموكب طلائع الحق من العلمَاء والدعاة والمجاهدين والمصلحين الرواد.. ويبقى الموكب الطاهر المبارك يسير، وتبقى الطريق سالكة، ويبقى المؤمنون ينضمون له ويسعدون فيه..

* وقد أشار القرآن إشارات إلى موكب الإيمان، وإلى طلائعه الرواد من الأنبياء.. ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ

ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة].

* هذا الموكب رواده قليل عددهم – بالقياس إلى عدد البشرية – لأن أهل الحق دائمًا قليلون.. كما قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ].

* وكما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦].

* السابقون الأولون في هذا الموكب هم: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة].

* أما أصحاب اليمين في هذا الموكب فهم: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الواقعة] (١).

أمة رسول الله ﷺ لها النصيب الأوفر في موكب الإيمان من سكّان الجنان:

وقد بيَّن رسول الله ﷺ مصير موكب الإيمان وركب الشيطان، وقلة عدد أهل الإيمان بالقياس إلى الكافرين في حديث له عجيب:

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجل: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك! قال: يقول: أخرج بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعين. قال: فعندها يشيب الصغير** ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

(١) «في ظلال الإيمان» (ص ٢٠٠- ٢٠٢).

[الحج]. قالوا: يا رسول الله! وأيُّنا ذلك الواحد؟ قال: «**أبشروا، فإنَّ منكم رجلًا، ومن يأجوجَ ومأجوج ألفٌ، والذي نفسي بيده أرجو أن تكونوا ربعَ أهل الجنة، أرجو أن تكونوا ثلثَ أهل الجنة، أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، ما أنتم في الناس إلَّا كالشعرة السَّوْداء في جِلْدِ ثورٍ أبيض، أو كشعْرةٍ بيضاء في جِلْد ثورٍ أَسْوَد، أو كالرَّقمة في ذراع الحمار**»[١].

ومن كرامة الرسول ﷺ على ربه زاده سُدُسًا آخر، فأمة محمد ﷺ هم ثلثا أهل الجنة».

• قال رسول الله ﷺ: «**أهلُ الجنَّة، عشرون ومئة صفٍّ، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم**»[٢].

السبَّاقون في الإيمان[٣]:

الإيمان كنز ثمين ومكسب عظيم لا يقدره إلَّا من عرفه، ولقد عرف فضلَه وقيمته ومنزلته الصالحون المبصرون فتسابقوا في الوصول إليه، وتنافسوا في الحصول عليه، وكل منهم كان يحرص على أن يكون أول الواصلين، وطليعة المتسابقين..

وجهل منزلةَ الإيمان وفضلَه أناسٌ مطموسون ساذجون، عمي لا

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٢- ٣٣)، (٤/ ٤٣٢، ٤٣٥) ومسلم، والنسائي، والترمذي، وانظر البخاري (٤/ ٢٣٧).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم في «المستدرك» عن بريدة، ورواه الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس، وعن ابن مسعود، وعن أبي موسى. وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٥٦٤٤)، و«الروض النضير» (٦٠٨)، و«صحيح الجامع» (٢٥٦٦).

(٣) انظر: «فصل التسابق في الإيمان» من «في ظلال الإيمان» (ص٢٠٣) وما بعدها.

يسمعون ولا يعقلون، فتركوه إلى الكفر والضلال، وهجروه إلى العذاب والنار، خسروا أنفسهم وحياتهم فاشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة.. تسابقوا في المنكرات، وتنافسوا في المعاصي والذنوب، وتسارعوا في السير إلى النار والوقوع فيها والسقوط في دركاتها..

زهد هؤلاء في الإيمان فرفضوه، وجهلوا طريق الإيمان فتركوه للمؤمنين المتسابقين.. وجاءهم الهدى والنور والإيمان فكانوا أول كافر به، بدل أن يكونوا أول المؤمنين..

* ولقد ذم الله في القرآن هؤلاء في قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة].

لا يوجد إنسان يتمتع بعقل وفطنة، ويملك قلبًا وروحًا وشعورًا، يرضى أن يكون أول كافر بالإيمان، وأن يشتري الكفر بالإيمان والنار بالجنة والعذاب بالمغفرة.. أي عاقل يختار هذا؟ لولا أن القرآن أخبرنا عن جاهلين سابقين ذلك لمَّا صدَّقنا، ولولا أننا رأينا في واقعنا نماذج شائهة ممسوخة فعلت هذا لمَّا صدقنا.. لكن كَثُرَ هؤلاء المطموسون في زماننا الذين انطبق عليهم قول الله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة].

المؤمنون عرفوا قيمة الإيمان فأسرعوا إليه متسابقين متنافسين، وكلهم يريد شرف الوصول، ووسام السبق، وجائزة الأولية، وثواب المجاهدة، ودرجات الجنة.

موسى عليه السلام أول المؤمنين في زمانه:

* موسى عليه السلام - وهو النبي الكريم - أراد أن يكون له فضل ومنزلة الأولية في الإيمان، والمسابقة والمسارعة إليه.. ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف].

لمَا أعلن موسى عليه السلام استسلامه لله وإيمانه به، وكان أول أهل زمانه في ذلك أكرمه الله بالاصطفاء بالرسالة والتكليم، وكانت له جائزة الأولية والسبق..

وسيد ولد آدم ﷺ أول المؤمنين:

ورسولنا محمد ﷺ كان في طليعة المتسابقين إلى الإيمان، وكان أول المسلمين المؤمنين جاءه التكليف من الله بذلك فنفذ والتزم.. وأعلن هذا للمسلمين:

*بلَّغهم قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنعام].

*وبلَّغهم قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزمر].

*ولقد تفاعلت نفس رسول الله ﷺ مع هذه الأوامر والتكاليف

الربانية، ووعى ما توحي به إليه، وهو التسابق في الإسلام والأولية في الإيمان.. فكان كذلك ونفذ أمر الله له في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام].

كان الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام متسابقين إلى الإيمان، يسابقون قومهم إليه، وكانوا أول الواصلين إليه الحاصلين عليه..

وقد وعى أتباع الأنبياء المؤمنون الصالحون هذه الحقيقة، وعرفوا فضل التسابق إلى الإيمان ومنزلة السابقين الأولين إليه، فبذلوا جهدهم في أن يكونوا من هؤلاء..

نستمع إلى قول السحرة الذين كانوا أول من آمنوا بموسى عليه السلام، بعد أن جيء بهم لتكذيبه وهزيمته، ولكن قلوبهم تشربت الإيمان وذاقت حلاوته، ولذلك أجابوا فرعون في سؤاله عن سر اتباعهم لموسى، واستعلوا على تهديده لهم بما ورد في القرآن الكريم: ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف].

لقد كان إيمانهم فوريًا، واستجابتهم سريعة، بدون تأخير أو تلكؤ..

وكلمة «لمَّا» تفيد هذا المعنى وتلقي هذا الظل.. إنها توحي بالتسابق في الإيمان والاستجابة الفورية لمن ينادي بنداء الإيمان..

* ولقد صرح هؤلاء المؤمنون الأبرار بحرصهم على التسابق في الإيمان، ورغبتهم في أن يكونوا أول المؤمنين. عرفوا فضل السابقين الأولين عند الله؛ ولذلك هانت عليهم الصعاب وسهلت الطريق: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء].

فرعون – والطغاة من أمثاله– لا يريد أن يرى مؤمنًا بالله.. إن الطغاة يخشون أن يُفتح باب الإيمان، ويبدأ التسابق إلى الإيمان، وإذا ما بدأت طلائع الموكب الإيماني في السير فإن الآخرين سيلحقون بهم ويكونون مؤمنين.. إن الطغاة يدركون هذا، ولهذا يَحْذَرونه، فيسلكون سبيلًا شيطانيًّا لإغلاق هذا الباب الخيِّر، وقطع هذا الطريق المنير، وأول ما يفعلونه هو أن يصبوا العذاب على السابقين الأولين طليعة السائرين حتى يُرهبوا بذلك الآخرين..

لكن السبق الإيماني عند المؤمنين الأبرار فجَّر في نفوسهم المواهب والطاقات والإبداع، فأنار لهم الإيمان أنوار الفطنة والذكاء.. لقد عرفوا مغالطات فرعون في اتهامهم، كما وقفوا على طبيعة معركته معهم، والسبب الأساسي في حربه واضطهاده لهم.. ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ . هذا هو السبب في حقيقته ووضوحه.. إنهم مؤمنون وهو كافر.. ذنبهم الوحيد هو إيمَانهم بالله، وجريمتهم الكبرى أنهم كانوا السابقين للإيمَان بعدما وضح لهم الطريق.. فلمَاذا يُخْفي فرعون – والفراعين من بعده– هذا السبب؟ ويموه على الجماهير

بافتراض أسباب أخرى، واختلاق جرائم وهمية خيالية..

ولقد كانوا فطنين أذكياء عندما عبروا – أو عبر القرآن عن كلامهم – بكلمة ﴿نَنقِمُ﴾ دون غيرها، إن هذا الفعل المضارع له إيحاءات عجيبة، من ظلاله التي يلقيها في خيال السامع: إن الكافرين يحاربون المؤمنين حربًا لا إنسانية.. يستخدمون فيها كل الأسلحة والأساليب، ولا يرقبون فيهم إلًّا ولا ذمة، ولا عهدًا ولا قرابة، ولا شفقة ولا رحمة، ولا عرفًا ولا قانونًا.. إنها حرب انتقامية، و﴿نَنقِمُ﴾ معناه أنهم يريدون في هذه الحرب أن ينفِّسوا عن حقدهم الأسود في النفوس تجاه الإيمان، ونقمتهم العمياء ضد السابقين للإيمَان، واستخدامهم الوسائل المَادية والعلمية والنفسية في إشباع رغبتهم الانتقامية ضد أهل الإيمان.

لكن هؤلاء المؤمنين أدركوا جزالة العطاء، وارتفاع الثمن، وحسن الجزاء، وعظم الثواب لمن كان سابقًا في الإيمان، ولهذا تحمَّلوا كل شيء في سبيل الحصول عليه وتحقيقه ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء].

الصحابة الأوائل المجاهدون سبّاقون إلى الإيمان:

عرف صحابة رسول الله ﷺ فضل التسابق في الإيمان، ومنزلة الأولين فيه، فكانوا يتنافسون على المراتب الأولى ويتسابقون في الوصول إليها..

* تعاملوا مع قول الله سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا

﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [النساء].

إن المجاهدين هم سابقون إلى الإيمان، متسابقون في الخيرات والأعمال التي ترضي رب العالمين.. فكيف يستوي هؤلاء مع القاعدين عن العمل والجهاد، مع الذين قعدت هممهم وعزائمهم، وماتت في نفوسهم الرغبة في السبق والأولية والفوز.. إن المجاهدين فضِّلوا على القاعدين درجة.. والدرجة درجات من الله.. والدرجات أجر عظيم عظيم، ومغفرة ورحمة، ورضوان من الله الكريم الرحيم..

• ويقرب هذه الدرجة التي للمجاهدين على القاعدين ما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين الدرجتيْن كما بين السماء والأرض**»[1].

لم يكن كل صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام على منزلة واحدة، فرغم أنهم كلهم صحابة، إلَّا أن منازلهم عند رسول الله ﷺ كانت على حسب سبقهم في الإيمان..

كان المجتمع الإسلامي في المدينة مصنفًا إلى فئات – أو قل مقسمًا إلى طبقات إيمَانية- فهناك فئة – أو طبقة- المهاجرين، وفئة الأنصار، وفئة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وفئة البدريين أهل بدر، وفئة أصحاب بيعة الرضوان – يوم الحديبية- وفئة مَن أسلم من قبل الفتح وقاتل، وفئة مُسلمة الفتح الطلقاء الذين أسلموا من بعد وقاتلوا..

«نعم إنه كانت في هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأتها

(١) رواه أحمد والبخاري عن أبي هريرة.

الحركة العقيدية ذاتها.. فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها - على قدر بلائها في الإسلام وسبقها وثباتها-.. تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وتميز أهل بدر، وتميز أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية، ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا.. وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، والأوضاع العملية في المجتمع المسلم تؤكد هذه الأقدار التي أنشأتها الحركة بالعقيدة، وتنص عليها..»[١].

ولقد وردت آيات كريمة تثبت للمتسابقين في الإيمان من الصحابة فضلهم ومنزلتهم، وتسجل لهم سبقهم وأوليتهم، وتقرر عدم مساواتهم بمن جاء بعدهم من المؤمنين..

* من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

تتحدث هذه الآية عن ثلاث فئات تكوِّن بمجموعها طبقة إيمَانية هي طبقة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ وهذه الفئات هي: المهاجرون، والأنصار، والذين اتبعوا هؤلاء بإحسان..

وقد اختلف المفسرون واللغويون في بيان المقصود بهؤلاء السابقين الأوَّلين [٢].

□ ونميل إلى أن أرجح الأقوال في السابقين الأولين: هو ما مال إليه

---

(١) «الظلال» (٣/ ١٥٧٥).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٥٣٥- ٥٤٠).

إمام المفسِّرين الإمام الطبري (١) وجماعة من المفسرين أنهم هم الذين هاجروا قبل بدر، وكذلك السابقون من الأنصار، أما الذين اتَّبعوهم بإحسان – الذين يعنيهم النص وهو يتحدث عما كان واقعًا إبان غزوة تبوك – فهم الذين اتبعوا طريقهم وآمنوا إيمانهم، وأبلوا بلاءهم بعد ذلك، وارتفعوا إلى مستواهم الإيماني – وإن بقيت للسابقين سابقتهم في فترة الشدة قبل بدر، وهي أشد الفترات طبعًا..

وقد وردت أقوال متعددة في اعتبار من هم السابقون من المهاجرين والأنصار، فقيل: هم الذين هاجروا ونصروا قبل بدر، وقيل: هم الذين صلوا للقبلتين، وقيل: هم أهل بدر، وقيل: هم الذين هاجروا ونصروا قبل الحديبية، وقيل: هم أهل بيعة الرضوان.. ونحن نرى من تتبعنا لمراحل بناء المجتمع المسلم وتكوُّن طبقاته الإيمانية، أن الاعتبار الذي اعتبرناه أرجح.. والله أعلم»(٢).

وقد أورد الإمام الطبري حادثة طريفة تدل على فهم الصحابة الكرام للتسابق في الإيمان، وحسن تدبرهم للقرآن الكريم وتذوقهم لآياته وحياتهم بها..

قال: «مر عمر بن الخطاب برجل وهو يقرأ هذه الآية: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ قال: من أقرأك هذه الآية؟ قال: أقرأنيها أُبيّ بن كعب. قال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه! فأتاه فقال: أنت أقرأت هذا هذه الآية؟ قال: نعم،

(١) «تفسير الطبري» (١٤/ ٤٣٤).
(٢) انظر: «الظلال» (٣/ ١٧٠٢ - ١٧٠٣).

قال: وسمعتَها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: لقد كنت أرانا رفعنا رفعةً لا يبلغها أحد بعدنا! فقال أُبيّ: تصديق ذلك في أول الآية التي في أول الجمعة، وأوسط الحشر، وآخر الأنفال: أما أول الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣]. وأوسط الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]. وأما آخر الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥][(١)].

إن عمر رضي الله عنه -من خلال هذه الحادثة- يعرف قيمة السابقين في الإيمان ومنزلتهم، وأنه لا يقاربهم من جاء بعدهم، استمع إليه يقول: «لقد كنت أرانا رفعنا رفعةً لا يبلغها أحد بعدنا»، وهذا فقه عمري عجيب وفطنة عمرية رائدة.. ولقد وافقه أبي بن كعب على هذا الفهم، ودعمه واحتج له بثلاث آيات من القرآن.. وإيرادها في هذا المقام واستخراج هذه الدلالة منها مجتمعة يدل على فطنة وموهبة وعلم أُبيّ رضي الله عنه، وتخصصه في فهم القرآن وتفسيره..

* ونحن نعتمد هذه الآيات الثلاث في بيان منزلة المتسابقين للإيمان وفضل التسابق فيه، ونضيفها للآيتين اللتين أوردناهما - آية الجهاد في النساء وآية السبق في التوبة - ونختم هذه الآيات بآية أخرى -سادسة- تقرر هذا وتوضحه.. وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

---

(١) «تفسير الطبري» (١٤/ ٤٣٧- ٤٣٨).

﴿١٠﴾ [الحديد].

إنهمَا طبقتان لا تستويان وتصنيفهمَا على أساس التسابق في الإيمان: المؤمنون المنفقون المجاهدون قبل فتح مكة.. والمؤمنون المنفقون المقاتلون بعد الفتح.. وبينهمَا من المنازل والدرجات ما الله به عليم..

«إن الذي ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة، والأنصار قلة، وليس في الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء، غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة، والأنصار كثرة، والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال. ذلك متعلق مباشرة بالله، متجرد تجردًا كاملًا لا شبهة فيه، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده، بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب، لا يجد على الخير عونًا إلَّا ما يستمده مباشرة من عقيدته.. وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين»[1].

ولقد كان رسول الله ﷺ -حريصًا على ترسيخ هذا المعنى في نفوس الصحابة- وبخاصة المسلمون الجدد منهم - حتى لا تُهمل أقدار السابقين الأولين إلى الإيمان.. وحتى لا يطمع اللاحقون في أن ينالوا منزلة السابقين أو أن يساووهم..

• روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث جيشًا من المسلمين بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه - الذي أسلم بين صلح الحديبية وفتح مكة- إلى بني جذيمة فهزمهم فصار القوم يقولون: صبأنا، ولم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، وأمر خالد بقتلهم باجتهاد منه على اعتبار أنهم ليسوا مسلمين، وخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر

---

(١) «الظلال» (٦/ ٣٤٨٤).

وغيرهما.. ووقع كلام بين خالد وعبد الرحمن. فقال له خالد: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ - فقال: «**دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بلغتم أعمالهم**»(١).

• وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف شيء، فسبه خالد، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لوْ أنَّ أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم، ولا نَصيفه**»(٢).

□ وقوله عليه السلام: «دعوا لي أصحابي» «ولا تسبوا أصحابي» يوجه فيه الخطاب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه، وخالد أحد أصحابه بالإجماع؛ ولذلك نجزم بأنه يقصد مجموعة خاصة من الصحابة، مجموعة مميزة يمكن أن نسميها «خاصة الصحابة» وهم الذين سبقوا إلى الإيمان..

فإن كان هذا هو الفارق العظيم بين السبَّاقين إلى الإيمان من الصحابة وبين الذين أسلموا قبل الفتح، فما ظنك بالفرق بين الصحابة ومن بعدهم كالتابعين!! أو بين الصحابة وتابعي التابعين!! وهم القرون الخيريّة.

إن السبَّاقين إلى الإيمان من الصحابة الأوائل لهم فضل وشرف وأولوية لا يدانيهم فيها غيرهم، فأفضل الصحابة أبو بكر الصديق رضي الله عنه،

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، ورواه البزار عن ابن أبي أوفى، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٩٢٣)، «صحيح الجامع» (٣٣٨٦).

(٢) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي عن أبي سعيد، ورواه مسلم، وابن ماجه عن أبي هريرة.

ثم عمر الفاروق رضي الله عنه، ثم عثمان ذو النورين رضي الله عنه ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم باقي العشرة رضي الله عنهم، ثم أهل بدر رضوان الله عليهم، ثم أهل أحد، ثم أصحاب بيعة الرضوان رضي الله عنهم، ثم من أسلمُوا قبل الفتح رضي الله عنهم، ثم مُسْلِمة الفتح وبعده.

«وقد وعى الصحابة الكرام رضي الله عنهم هذا الدَّرْس فكانوا يُصنِّفون الصحابة على أساس سبقهم في الإيمان.. وقف بباب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب، وجماعة من كبار قريش الطلقاء فأذن قبلهم لبلال وصهيب لأنهما كانا من السابقين للإسلام، فتورم أنف أبي سفيان، وقال بانفعال جاهلي: «لم أر كاليوم قط، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه، فيقول سهيل بن عمرو: أيها القوم، إني والله أرى الذي في وجوهكم، إن كنتم غضابًا فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القوم إلى الإسلام ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دُعوا يوم القيامة وتُركتم؟»».

وكان منهج عمر في العطاء «الرجل وسبقه في الإسلام، والرجل وبلاؤه في الإسلام».. ولمَّا طلبوا منه أن يسوي بين المسلمين في العطاء رفض، واعتبر أن هذا يتناقض مع التسابق في الإيمان، وأعلنها صريحة «والله لا أساوي بين من حارب مع رسول الله ﷺ ومن حارب ضد رسول الله ﷺ».

* والمؤمنون الصالحون يعترفون لإخوانهم السابقين للإيمَان بفضلهم ومنزلتهم، ويسجلون لهم سبقهم لهم وتقدمهم عليهم.. ولهذا يتوجهون إلى الله بالدعاء الخاشع لهم ولهؤلاء السابقين ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو

مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر].

إن التسابق في الإيمان يهذب أخلاق المتسابقين ويصلح نفوسهم، ويستل أمراض قلوبهم، ويجعلها صافية مشرقة، ممتلئة إيمَانًا ومحبة وأخوة.. وإن التسابق في الإيمان لهو أفضل وسيلة لتوثيق أواصر الأخوة بين المؤمنين المتسابقين، ونزع الغل والحقد من هذه القلوب.. وإن التسابق في الإيمان يصلح الحياة الدنيا ويعمرها، ويصلح المجتمع بأعرافه وتقاليده ونظمه وصلاته وارتباطاته.. بينمَا التسابق في الدنيا ومتعها وشهواتها يفسد أخلاق المتسابقين، ويملأ قلوبهم حقدًا وحسدًا وبغضًا وغلًّا، وتكون علاقتهم مبنية على «التلاوم» أولًا ثم «التلاعن» بعد ذلك.. كل جيل يلوم السابق ويتهمه، ثم يلعنه.. ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ..﴾ [الأعراف: ٣٨].

هذا وإن التسابق للإيمَان له ثمن رفيع في الدنيا وهو الريادة والسبق، والسبق للإيمَان له لذة لا يعرفها إلَّا من ذاقها، وإن الفوز بالأولية يملأ النفس والقلب بلذته ونشوته وشكره لله سبحانه.. إن لذة الريادة والتفرد من أمتع اللذات للنفس المؤمنة:

عجبًا بأنك سالم من وحشة ... في غاية ما زلت فيها مُفْردًا

□ ولله در القائل:

وإذا كانت النفوس عظامًا ... تعبت في مرادها الأجسام

هذا عن الثمن والجائزة في الدنيا، أما يوم القيامة فإن السابقين الأولين لهم درجات عالية رفيعة في الجنة، لا يبلغها المؤمنون الآخرون

المسبوقون..

لكن السبق للإيمَان له ضريبة لا بد أن يدفعها هذا السابق راضيًا.. إنه سابق للانتمَاء والالتزام ولهذا ينقم منه الكفار، وإنه الرافع لراية الإيمان ولواء الإسلام ولهذا توجه السهام إليه لإسقاط الراية، وإنه الذي يفتح الباب في طريق الإيمان والجنة، ويعلن بدء السباق، ويريد الآخرون إغلاق الباب وسد الطريق ولهذا يهاجمونه ويكيدون له.. إنه سيواجَه بأشرس وأعتى معركة وقتال وإيذاء من أعداء الحق.. ولكن تمتعه بلذة السباق، وتذوقه لحلاوة الإيمان، وتوكله على الله، ونظره للدرجات الرفيعة في الجنة، واستعلاءه بالإيمان، واستهانته بالدنيا، كل هذا زاد له للمجاهدة والثبات والانتصار، واستمرار السير صعدًا نحو الجنة..

هذه طريق الإيمان فأين السائرون؟ وهذا ميدان السباق فأين المتسابقون؟ وها هم قد بدأوا السباق فأين المفردون؟؟

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**سيروا، هذا جَمَدَان، سبق المفردون**». قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «**الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات..**»[(١)، (٢)]

استعلاء الإيمان[(٣)] وعلو همة المؤمنين الكرام:

الإيمان حقيقة يقينية قاطعة، وقوة مؤثرة عجيبة، وهو أساس الخير، ومنبع العزة، ومصدر الكرامة، لا توجد العزة إلَّا معه، ولا تتولد الكرامة

(١) رواه أحمد، ومسلم.

(٢) «في ظلال الإيمان» (٢١٤- ٢١٦).

(٣) انظر: «في ظلال الإيمان» (ص٢٢٧- ٢٣٢).

إلَّا منه، ولا تعيش الأنفة والجرأة والشجاعة إلَّا في ظلاله..

الإيمان الرباني القرآني، الفاعل الحي المؤثر، يمنح صاحبه الكثير، ويقدم له الكثير، ويكسبه ويضفي عليه الكثير من الصفات الحية، والسمَات الطيبة، والمعاني الإيجابية..

الإيمان يمنح صاحبه شعورًا غامرًا بالعزة والكرامة، والأنفة والشجاعة، والجرأة والإقدام، والحرية والإباء والاستعلاء.

واستعلاء الإيمان عظيم، يعيش به صاحبه حياته على منهج الله، وينطلق به في حياته، ويواجه به أعداءه، ويثبت به على طريق الله.. إنه باستعلاء الإيمان يعيش، وبه يتحرك، وبه يحيا، وبه يجاهد، وبه يفاصل، وبه يثبت، وبه ينتصر، وبه يستشهد، وبه يغادر هذه الحياة، وبه يلقى الله.. إن استعلاء الإيمان هو السر في حياة المؤمنين، وفي جهاد المجاهدين، وفي ثبات الثابتين، وفي حرية الأحرار، وكرامة الكرماء، وعزة الأعزاء.. وفي دعوة الدعاة، وفي مفاصلة الجاهليين، وفي السير مع المؤمنين، وفي انتصار المنتصرين..

* وقد دعانا الله في كتابه الكريم إلى أن نعيش استعلاء الإيمان في كل لحظة من حياتنا حتى نحقق ما يريده بنا ومنا وفينا.. قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران].

وقد نزلت هذه الآيات التي تشير إلى حقيقة استعلاء الإيمان في

مناسبة الحرب والجهاد ومواجهة الكفار الجاهليين، نزلت في التعقيب على أحداث غزوة أحد.. ومعروف أن المسلمين قد أصابهم القرح في هذه الغزوة ودفعوا ثمنًا غاليًا شهداء وجرحى ودماءً وآلامًا، وأوشك الوهن والحزن أن يدب إليهم، وأن يتدسس على قلوبهم، فجاء القرآن يقضي عليه ويغلق الطريق في وجهه، ويجعل القلوب في حصانة ومناعة وثبات، فأشار إلى حقيقة الإيمان في هذه القلوب المؤمنة، وأثر هذا في شعور صاحبه في الاستعلاء وحياته بهذا الاستعلاء..

إن استعلاء الإيمان هو زاد للسير في الطريق إلى الله، وهو عدة أساسية للجهاد في سبيل الله، وهو معلم بارز واضح في الطريق إلى الله إن استعلاء الإيمان يمثِّل الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها شعور المؤمن، وتصوره وتقديره للأشياء والأحداث والقيم والأشخاص سواء..

إنه يمثل حالة الاستعلاء الذي يجب أن تستقر عليه نفس المؤمن إزاء كل شيءٍ، وكل وضع وكل قيمة، وكل أحد. الاستعلاء بالإيمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان.

الاستعلاء على قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان، وعلى قيم الأرض التي لم تنبثق من أصل الإيمان، وعلى تقاليد الأرض التي لم يصغها الإيمان، وعلى قوانين الأرض التي لم يشرعها الإيمان.. وعلى أوضاع الأرض التي لم ينشئها الإيمان..

الاستعلاء مع ضعف القوة وقلة العدد وفقر المَال، كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء.

الاستعلاء الذي لا يتهاوى أمام قوة باغية، ولا عرف اجتمَاعي، ولا

تشريع باطل، ولا وضع مقبول عند الناس [(١)].

إن استعلاء الإيمان هو صمام الأمان لدى المؤمن، وهو أساس الثبات والانتصار؛ لأنه يواجه وضعًا جاهليًّا ومجتمعًا جاهليًّا وعرفًا جاهليًّا، يضغط عليه بعنف ليتنازل أو يضعف، وقد يضعف ويشعر بالوهن والحزن إذا لم يعش حقيقة الإيمان، ولم يتذوق استعلاء الإيمان، ولم يواجه الجاهلية من حوله، وهو مستعل بالإيمان.

لماذا يعيش المؤمن استعلاء الإيمان؟ وما هي مظاهر استعلاء الإيمان.

إن المؤمن هو الأعلى في كل شيء وإن الكافر هو دونه في كل شيء، فماذا يطلب الأعلى ممن هو دونه؟ ولماذا يضعف ويحزن ويتهاوى أمام من هو دونه؟..

إن المؤمن هو الأعلى سندًا ومصدرًا. إنه يتلقى عن الله، ويستند إلى الله، ويتوكل على الله، والله يكفيه وينصره ويؤيده..

إنه الأعلى إدارِكًا وتصورًا لحقيقة الوجود، وسر الحياة، ودوره فيها ووظيفته ورسالته من خلالها..

إنه الأعلى تصورًا للقيم والموازين التي توزن بها الحياة والأحداث والأشياء والأشخاص..

إنه الأعلى ضميرًا وشعورًا وخلقًا وسلوكًا، وطهرًا وعفافًا، وخيرًا ونورًا، وإيمَانًا ويقينًا..

---

(١) «المعالم» (ص٢١٩- ٢٢٠).

إنه الأعلى شريعة ونظامًا، وتشريعًا ومنهاجًا [١]..

ولا يعني استعلاء الإيمان أن يتيه المؤمن على من حوله، وأن يتجبَّر عليهم ويتكبر، وأن ينتفش أمامهم وينتفخ.. إن هذه أخلاق جاهلية وليست أخلاقًا إيمَانية، ولا يمكن أن تصدر عن إنسان امتلأ إيمَانًا ويقينًا وطاعةً وتقوى..

إن المؤمن وهو يعيش استعلاء الإيمان يكون مع الناس، ويعيش معهم، يعاملهم ويجاملهم ويواسيهم ويساعدهم. إنه يسعهم بقلبه الكبير، ويرحمهم بنفسه الكبيرة، ويحتمل أخطاءهم بصدره الرحب، ويمنحهم – بصدق وإخاء وإخلاص وتواضع – حبه ورحمته وبره وعطفه..

ورحم الله من قال حول هذا المعنى: «حين نعتزل الناس لأننا نحس أننا أطهر منهم روحًا، أو أطيب منهم قلبًا، أو أرحب منهم نفسًا، أو أذكى منهم عقلًا، لا نكون قد فعلنا شيئًا كبيرًا.. لقد اخترنا لأنفسنا أيسر السبل وأقلها مؤونة..

إن العظمة الحقيقية أن نخالط هؤلاء الناس، مشبعين بروح السمَاحة والعطف على ضعفهم ونقصهم وخطئهم، وروح الرغبة الحقيقية في تطهيرهم وتثقيفهم..» [٢].

المؤمن لا يترك لحظةً استعلاءَه بالإيمان واعتزازه به وحركته من خلاله، سواء كان غالبًا أو مغلوبًا، منتصرًا أو مهزومًا، طليقًا أو سجينًا،

---

(١) المصدر السابق (ص٢٢١- ٢٢٣).

(٢) «أفراح الروح» (ص١٠) لسيد قطب.

مكرمًا أو مضطهدًا معذبًا. الناس معه أو ضده، يحالفونه أو يحاربونه.. لأنه يعيش باستعلاء الإيمان: «وتتبدل الأحوال ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المَادية فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى، وينظر إلى غالبه من علٍ ما دام مؤمنًا، ويستيقن أنها فترة وتمضي، وأن للإيمَان كرة لا مفر منها.. وهبها كانت القاضية فإنه لا يحني لها رأسًا. إن الناس كلهم يموتون أما هو فيُسْتَشْهد، وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة وغالبُه يغادرها إلى النار، وشتان شتان..»[(١)].

لا يفارقه استعلاء الإيمان عندما يفسد المجتمع ويعيش حياة جاهلية، فيبقى المؤمن مصرًّا على دعوة هذا المجتمع إلى الله..

ولا يفارقه استعلاء الإيمان عندما يفسد الناس، ويتلوثون بالمعاصي ويغرقون في الوحل والطين، فيبقى مع الإيمان والفضيلة والطهارة والصفاء والنقاء.

ولا يفارقه استعلاء الإيمان والجاهلون يسخرون منه ويستهزئون به ويضحكون عليه، فيبقى قابضًا على دينه رافعًا رايته داعيًا إليه[(٢)].

باستعلاء الإيمان عاش رسول الله ﷺ وثبت ودعا إلى الله وواجه الكفار فانتصر.. وباستعلاء الإيمان تعامل الصحابة مع الأعداء فسعدوا وثبتوا وسادوا.. وباستعلاء الإيمان واجه الدعاة والصالحون والمربون الظالمين والفاسدين والطغاة والجبابرة فجاهدوا وأنكروا وأصلحوا وثبتوا..

---

(١) «المعالم» (ص٢٢٦).
(٢) «المعالم» (ص٢٢٦ - ٢٣٠).

● كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يعيش استعلاء الإيمان عندما قال لعمه أبي طالب: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، لن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

قمم عالية في استعلاء الإيمان:

* وكان نوح عليه السلام يعيش استعلاء الإيمان عندما خاطب قومه الكفار: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس].

* وكان هود عليه السلام يعيش استعلاء الإيمان عندما خاطب قومه الكفار: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

[هود].

* وكان موسى عليه السلام يعيش استعلاء الإيمان عندما واجه فرعون الطاغية بقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء].

قصة غلام الراهب والراهب وجليس الملك وأصحاب الأخدود:

هذه القصة قصة أصحاب الأخدود التي قص الله عز وجل علينا خاتمتها في سورة البروج، وبين لنا النبي ﷺ بدايتها كما في «صحيح مسلم»، قصة من قصص الإيمان، مليئة بالمواقف الإيمانية الكريمة، التي يظهر فيها بجلاء قيمة الإيمان، واستعلاء أهله علي التخويف والتعذيب.

• عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبرت فابعث لي غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه السحر، فكان في طريقه إذا سلك راهبٌ، فقعد إليه، وسمع كلامه فأعجبه.

فكان إذا أتى الساحر مَرَّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابةٍ عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس.

فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليَّ، وكان الغلام يبرئ الأكمة والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدًا إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله.

فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رَدَّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك ربٌّ غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، قال: إني

لا أشفي أحدًا إنمَـا يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه.

ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه الملك إلى نفرٍ من أصحابه، فقال لهم: اذهبوا به إلى جبل كذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلّا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفينهم بمَا شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك.

فقال له الملك: ما فَعَل أصحابك؟ قال كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبو به فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البَحر، فإن رجع عن دينه وإلّا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفينهم بمـا شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله ﷻ، فقال للمَلك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟

قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًـا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه

فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمَـات.

فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنّا برب الغلام، فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخاديد في أفواه السكك فخدت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها، أو قيل له: اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّه اصبري فإنك على الحق»[(١)].

هذه القصة التي سلّى الله ﷻ بها نبيه ﷺ والصحابة الكرام وهم يعانون أشد ألوان العذاب بمكة، مليئة بالمواقف الإيمانية، وما أحوج الدعاة وعموم الناس إلى معرفة هذه المواقف، حتى يزدادوا تمسكًا بدين الله ﷻ، وصبرًا على الدعوة إليه، وهي تبين قيمة الإيمان وحرص المؤمن على دينه، ومحافظته على يقينه، إنه يتمسك بالإيمَان، ولو وضع المنشار في مفرق رأسه، كما كان من الراهب وجليس الملك، ويرضى أن يُلقى في نيران الدنيا، إذا كان يفدي بذلك دينَهُ، ويحافظ على يقينه.

وانظر إلى الغلام الذي يضحي بنفسه حتى تنتشر دعوته، وتعلو رايته، إنها مواقف إيمَانية عظيمة متتابعة يستأنس بها المؤمن في سيره إلى الله ﷻ، وما أحوجنا في مثل تلك الأزمنة الغابرة إلى هذه المواقف الإيمانية، والقصة تبين بجلاء انتصار الإيمان، واستعلاء أهله عن كل ما يراد بهم حتى لو طرحوا في النار.

---

(١) رواه مسلم (١٨/ ١٣٠- ١٣١)- الزهد، وابن حبان (٣/ ١٥٤- ١٥٧) رقم (٨٧٣) «الإحسان».

أي استعلاء لغلام الراهب بإيمَانه حتى يقول للمَلِك: «إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به».

□ قال صاحب «الظلال» رحمه الله: «كذلك تنتهي رواية الحادث، وقد ملأت القلب بالروعة، روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم، وجاذبية الأرض، فقد كان في مُكْنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة، وكم كانت البشرية كلها تخسر! كما كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد، إنه معنى كريم جدًّا، ومعنى كبير جدًّا، هذا الذي ربحوه وهم بَعْدُ في الأرض، ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكبير الذي تزكيه النار، وبعد ذلك لهم عند ربهم حسابٌ ولأعدائهم الطاغين حساب»[(١)].

ماشطة ابنة فرعون:

• عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا كانت الليلة التي أسري بي فيها، أتت عَلَيَّ رائحة طيبة، فقلت: يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، قال: قلت: وما شأنُها؟ قال: بينمَا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذ سقط المِدْري من يدها فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا

(١) «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٨٧٤).

ولكن ربي ورب أبيك الله، قالت: أخبره بذلك؟ قالت: نعم، فأخبرته، فدعاها، فقال: يا فلانة، وإن لك ربًّا غيري؟ قالت: نعم ربي وربك الله، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إنَّ لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا.

قال: ذلك لكِ علينا من الحق.

قال: فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحدًا واحدًا، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مُرْضَع، وكأنها تقاعست من أجله، قال: يا أُمّه اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: تكلم أربعةٌ صغار، عيسى ابن مريم عليه السلام، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابنة فرعون[(١)].

□ قال الدكتور عمر الأشقر حفظه الله: «كانت هذه المرأة تعيش في قصر الملك، وكانت تعنى بابنته فتمشط شعرها، وتقوم على أمرها، ومن كان هذا عمله لا بد أن يكون مُكرَّمًا معزَزًا مرفهًا، ولكن الإيمان غزا قلبها، وملك عليها أمرها، كما غزا قلب الملكة زوجة فرعون، فالإيمَان يجد له طريقًا إلى قلوب الأغنياء، كما يجده إلى قلوب الفقراء، عندما

---

(١) حسن: رواه أحمد (٣/ ٣٠٩) وحسَّنه محققوا «المسند»، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٦٥): رواه أحمد والبزّار والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، وفيه عطاء بن السائب، وهو ثقة ولكنه اختلط. ومال الألباني إلى تحسينه في «الإسراء والمعراج» والمِدْري: أداة يُسَرَّح بها الشعرة. بقرة من نحاس: الظاهر أنها إناء كبير من نحاس على هيئة البقرة كانوا يوقدون تحته نارًا حتى يحترق ثم يلقوا فيه من أرداوا.

يريد الله بعبده خيرًا.

وقد كتمت هذه المرأة إيمَانها كما كتمته زوجة فرعون، وكتمه مؤمن آل فرعون ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥ ﴾ [غافر: ٢٨].ولكن مهما حاول المرء أن يكتم ما يجري في أعماق نفسه، فلا بد أن تدل عليه تصرفاته وسمته، وحركاته وأقواله، ففي بعض الأوقات يغفل الإنسان عن نفسه فيتصرف على سجيته(١).

□ ثم ذكر حفظه الله في عِبَرِ الحديث وفوائده ما ملخصه:

- بيان ما فعله الإيمان بالنفوس، ففي سبيل الله يستروح المؤمنون العذاب، ويواجهون الطغاة، ولا ينفع في مواجهة المؤمن أشد ألوان الظلم، وأقسى أنواع التعذيب.
- إكرام الله لأوليائه الذين بذلوا أنفسهم رخيصة في سبيله، فقد أعلى الله مقام هذه المرأة، وأكرمها إكرامًا عظيمًا هي وأولادها.
- عظم كراهية الكفرة أمثال فرعون للمؤمنين، وخلو قلوبهم من الرحمة عندما يواجهون المؤمنين.
- لم تكن هذه المرأة منتحرةً عندما اقتحمت النار، فقد أرادت أن تَغُمَّ فرعون وزبانيته، فبدل أن ترضي غرورهم بتمنعها وصياحها ورفضها الإلقاء في النار، اقتحمتها بنفسها غير هيابة ولا وجلة، فزاد ذلك في غيظهم وقهرهم، وأبانت لهم حقارة أنفسهم، ففي الدنيا من لا يقبل المذلة، ويأبى أن يطأطئ رأسه

(١) «صحيح القصص النبوي» للدكتور عمر الأشقر (٢٨٩).

للظلم والظالمين.

- الجزاء من جنس العمل، فهذه المرأة لمَّا انبعثت روائح احتراق جسدها وجسد أولادها جعل الله لها رائحةً طيبة عطرة تفوح منها ومن أولادها في السموات العُلى.

- يُثبت الله عباده الذين شاء لهم الكرامة في المواقف الصعبة، فقد أنطق الله الطفل الرضيع فأمر أمه بالثبات، وبذلك قطع ما دار في خلدها من وساوس الشيطان التي كادت تهلكها[1].

□ وانظر إلى ربعي بن عامر رضي الله عنه يقول لرستم: «إن الله ابتعثنا لنُخرجَ من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظُلْم الكُهَّان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».

□ وقالها خالد بن الوليد لقائد الروم يوم اليرموك لمَّا قال: «نحن نعلم أنه ما أخرجكم من بلادكم إلَّا الجوع وشظف العيش، فقال له خالد رضي الله عنه: «نحن قوم نُحب شرب الدماء، وقد بلغنا أن دماء الروم من أحلى الدماء مذاقًا».

استعلاء الإيمان عند الإمام قاضي القضاة أبي صالح نصر بن عبد الرزّاق ابن شيخ الإسلام عبد القادر:

□ قال عنه الذهبي في «سير أعلام النبلاء» قال ابن النجار: «كان مقدامًا رجلًا من الرجال سمعته يقول: كنت في دار الوزير القُمِّي، وهناك جماعة، إذ دخل رجل ذو هيئة، فقاموا له وخدموه، فقمتُ وظننتُه بعض

(١) باختصار من «صحيح القصص النبوي» (٢٩٣- ٢٩٤) وانظر: «مواقف إيمانية» للشيخ الدكتور أحمد فريد (ص٢٤١- ٢٤٣).

الفقهاء، فقيل: هذا ابن كرم اليهوديُّ عاملُ دار الضَّرب، فقلت له: تعالَ إلى هنا، فجاء، ووقف فقلتُ: ويلَك توهَّمتُك فقيهًا فقمت إكرامًا لكَ، ولستَ -ويلك- عندي بهذه الصِّفة، ثم كرَّرتُ ذلك عليه، وهو قائم يقول: الله يحفظك! الله يبقيك! ثم قلتُ له: اخْسأ هناك بعيدًا عنّا، فذهب. قال: وحدَّثني أبو صالح أنه رُسِمَ له برزق مِن عند الخليفة، وأنه زار يومئذٍ قبرَ الإمام أحمد، فقيل لي: دُفِع رَسْمُك إلى ابن توما النصراني فامض إليه فخذه، فقلت: والله لا أمضي ولا أطلبه. فبقي ذلك الذهب عنده إلى أن قُتِل إلى لعنة الله في السَّنَة الأخرى، وأُخِذَ الذهب من داره، فَنُفِّذَ إليَّ»(١).

استعلاء الأستاذ سيد قطب بإعدامه على قاتليه، والله الموعد بينه وبينهم:

لمَّا سمع رحمه الله الحكم بإعدامه قال: «الحمدُ لله، لقد عملت خمسة عشر عامًا لنيْل الشهادة.

وعِندما طُلِب منه الاعتذار مقابِلَ إطلاقِ سَرَاحه قال: لن أعتذر عن العَمَلِ مع الله.

وعندما طُلِب منه كتابة كلمات يسترحم عبد الناصر قال: إن أصبع السبَّابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ليرفضُ أن يكتبَ حَرْفًا يُقرُّ به حكم طاغية.

وقال ردًّا على ذلك الطَّلَب: «لمَاذا أسترحِم؟ إن سُجِنتُ بحقٍّ، فأنا أقبل حُكْمَ الحق، وإن سُجِنتُ بباطل فأنا أكبرُ من أن أسترحِمَ

(١) انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٣٩٦- ٣٩٩).

الباطِلَ»[١].

□ ويرحمُ الله مَن قال في استعلائه على المساوَمات؛ وثباته على الحق:

كَمْ ساوموهُ لكن يحِيدَ عن العهودِ بأسْرِها
ولِكيْ يخونَ كتائبًا باعُوا النفوسَ لربِّها
ولِكَنْ يُشوِّهَ ما أضاءَ الكونَ من صفحاتِها
ولكي يكونَ صنيعةَ الشيطانِ بين صُفوفِها
وأَبى الكريمُ مباهجَ الدنيا وطَلَّق أمْرَها
ورَأى السجونَ معاقلَ الأحرارِ رَغْم قيودِها
وأصَرَّ أنْ يُعْلي نِداءَ الحقِّ في جَنَبَاتِها
فَقَضى السِّنينَ العَشْرَ عِمْلاقًا كَشُمِّ جبالها
وطَوَتْهُ جدرانُ السجون لكي يَرَى أهوالَها
كمْ مَزَّقَتْهُ سياطُهم وتَلَقَّفَتْهُ كلابُها
حتى ارْتَقَتْهُ شَهَادَةٌ[٢] ليكونَ من أبرارِها
وهناكَ يَلْقَى رَبَّهُ ويُطلُّ من عليائِها[٣]

---

(١) «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» للدكتور صلاح الخالدي (ص٤٧١- ٤٧٤) بتصرُّف واختصار - طبع القلم دمشق. وانظر «مواقف إيمانية» (ص٢٦١- ٢٦٢) للدكتور أحمد فريد.

(٢) نرجو له ذلك إن شاء الله، ولا نقطع لأحدٍ من أهل القبلة بجنة ولا نار إلا ما نصّ عليه النبي ﷺ فضلاً أن نحكم له بالشهادة.

(٣) ديوان: «الصبر والثبات» لجمال فوزي (ص٣٤- ٣٦).

والشاعر محمد عوّاد يتحدّى زبانية السجن الحربي أن يأخذوا منه حَرْفًا حتى الممات فصبر واستعلى بإيمانه ووَفَّى:

تحدَّى محمد عوّاد زبانية السجن الحربِّي أن يأخذوا منه حَرْفًا واحدًا ففعلوا به الأفاعيل التي لا يطيقها أحد فاستعلى بإيمَانه عليهم يقول الأستاذ سليم العفيفي – في حديثه الذي أدْلَى به إلى الأستاذ جابر رزق: «بعد إلقاء القبض عَلَيَّ صحبوني إلى السجن الحربي، وساقوني مع غيري إلى ساحة التعذيب أمام مكتب العقيد شمس بدران وزبانية السجن الحربي، وبدأ الجلّادون يمزِّقون أجسادَنا بالسِّياط، وكان الوقتُ ليلًا، وفجأة رأينا صفوت الرُّوبي جَلّاد السجن الحربي يسوق أمامه شابًّا عرفنا أن اسمه محمد عَوّاد، يعمل مدرسًا بوزارة التربية والتعليم، ومن قرية الزوامل محافظة الشرقية، تقدّم الجلاد صفوت الرُّوبي من قائد الشرطة العسكرية العميد سعد زغلول عبد الكريم قائلًا في زهو: هذا هو المجرم محمد عوّاد.. يا أفندم.

وسلك الجلّادون مع عوّاد أبشع صور التعذيب التي تفوق كُلَّ تَصَوُّرٍ ولم تزد هذه الأساليب الوحشية البطل عوّادًا إلَّا صلابة، وظهر منْه الثبات والمصابرة وقوة الإرادة، وما كان البطل يزيد على قوله –وهو يُعَذَّب–: يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي.. أعِنِّي.. لا تفتِنِّي، وما إن سمعَه كبير الجلَّادين حتى رَكَلَهُ بقدمِه، وأخذَ سوطًا أهوى به عليه، وانهال عليه ضَرْبًا، وبعد أن أعياهُ التعذيب أمرَهُ الجَلَّاد أن ينهَضَ فحاوَلَ ولكن لم يَقْوَ.. خانته قواه، وحاولَ مِرَارًا فلم يستطع.

ونادى الجلَّاد زبانيته وأمرَهم أن يوثقوه بالحِبال، ثم سأله: تكلَّمْ،

اعترَف. قال: بِمَ أتكَلَّمُ؟ وعلى أيِّ شيء أعترف؟ أنا لا أعرِف شيئًا. فَأمرَ الجلَّاد أن تُوضَعَ رأسه في الحوض – به ماء قذر – وأن تُرضَخَ في جدران الحوض، وتكرَّر هذا العمل الإجرامي البشع، حتى اختلط الدم بماء الحوضِ، وتركوهُ في الحوض، وما هي إلَّا لحظات حتى فاضت روحه إلى باريها» (١).

سُحْقًا لجزّارين قد ذبحوا فتى ... مستهترين كأنه ابن لبونِ
وَارَوْه عن عين الأنام وما دَرَوْا ... أن الإله يراهُمُ بعيونِ
الليل يشهدُ والكواكبُ والثَّرَى ... وكفى بهم شهداءَ يوم الدين

□ ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية إذْ يستعلى بالإيمَان حين يقول لسلطان مصر ابن قلاوون: «إن ملكك وملك ملك المُغْل لا يساوي عندي فِلْسًا».

□ وحين يقول: «ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري أينمَا رحت فيه معي إن معي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إن قتلوني فقتلي شهادة، وإن نفوْني عن بلدي فنفيي سياحة،وإن حبسوني فحبسي خُلْوَة».

عالي الهمة وحلاوة الإيمان:

محبة المؤمن للإيمَان وبغضه للكفر:

المؤمن يحب الإيمان حبًّا عميقًا خالصًا؛ لأن الإيمان هو نور مقابل الظلمَات، وطهر مقابل الخبث، وفضيلة مقابل الرذيلة، وصلاح مقابل

(١) باختصار وتصرُّف من «شهداء الدعوة الإسلامية في القرن العشرين» لمحمد الصايم (١٢٤- ١٢٧)- طبع دار الفضيلة.

الفساد، وهدى مقابل الضلال، وحياة مقابل الموت، وبصيرة مقابل العمى، وحق مقابل الباطل..

* إن الودود الكريم هو الذي أراد بنا الخير فحبَّب إلينا الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ [الحجرات: ٧].

إن محبة الإيمان دليل الخير والحياة عند صاحبه وهذا لن يكون إلَّا للمؤمن.

ومحبة الإيمان تكون في القلب فتعمه كله، وتتغلغل فيه، وتذهب إلى كل شغافه وجوانحه.. محبة الإيمان لا تترك في القلب مجالًا لمحبة نقيضه وضده، ولا تستثني منه جانبًا ولو يسيرًا لنقيضه وضده، ولا تسمح للقلب أن يغفل لحظة عنه، وينشغل فيها بنقيضه وضده، ولا أن ينبض لحظة هاتفًا بنقيضه وضده.. إن القلب لا بد أن يصفو كله للإيمَان، وأن يخلص كله للإيمَان، وأن يتجمع كله على الإيمان، وأن يتجرد كله للإيمَان.. وإلَّا فلا إيمَان، ولا محبة للإيمَان، وصدق الله القائل: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾[الأحزاب: ٤].

أيُّ إنسان في قلبه حياة يختار الشر على الخير؟! ويُفضِّل الظلام على النور؟ ويريد العمى بدل البصر؟ والضلالة بدل الهُدَى؟! والعذاب بدل المغفرة؟ والنار بدل الجنة؟ والموت بدل الحياة؟ وهل الكافرون إلَّا هكذا؟ إن محبة الكفر وشهوة الكفر كفر، وإن محبة الإيمان إيمَان.

ذوقُ حلاوة الإيمان، ووَجْد حلاوة الإيمان، وذوقُ طعمِ الإيمان:

□ قال الإمام ابن القيم: «إن للإيمَان طَعْمًا، وإنَّ القلبَ يذوقه كما

يذوق الفم طعم الطعام والشراب».

• وقد عبَّر النبي ﷺ عن إدراك حقيقة الإيمان، والإحسان، وحصوله للقلب ومباشرته له: بالذوق تارة، وبالطعام والشراب تارة، وبوجود الحلاوة تارة، كما قال: «**ذاق طعم الإيمان**»، وقال: «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يحبُّهُ إلّا لله، وأنْ يكرهَ أنْ يعودَ في الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أنقذه الله؛ كما يكرهُ أنْ يُلقَى في النار**»[1].

• ولمَّا نهاهم عن الوصال قالوا: «إنك تواصل، قال: «**إني لست كهيئتكم، إني أُطعَمُ وأُسقَى**»، وفي لفظ: «**إن لي مُطعِمًـا يطعمني، وساقيًا يسقيني**».

وقد غلظ حجاب مَن ظنَّ أنَّ هذا طعامٌ وشراب حِسِّي للفم. ولو كان كما ظنه هذا الظان لمَا كان صائمًا، فضلًا عن أن يكون مواصِلًا. ولمَا صحّ جوابه بقوله: «**إني لست كهيئتكم**» فأجاب بالفرق بينه وبينهم، ولو كان يأكل ويشرب بفيه الكريم حسًّا لكان الجواب أن يقول: وأنا لستُ أواصلُ أيضًا. فلمَّا أقرَّهم على قولهم: «إنك تُواصِل» عُلِم أنه ﷺ كان يُمسِك عن الطعام والشراب، ويكتفي بذاك الطعام والشراب الروحاني، الذي يغني عن الطعام والشراب المشترَك الحِسِّي.

وهذا الذوق هو الذي استدلَّ به هِرَقْل على صحَّة النُبوّة حيث قال: لأبي سفيان: «فهل يرتَدُّ أحدٌ منهم سَخْطَةً لدينه؟ فقال: لا. قال: وكذا

---

(١) رواه أحمد، والبخاري (١/ ٢١)، ومسلم (٤٣)، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن أنس.

الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب».

فاستدلَّ بما يحصل لأتباعه من ذَوْقِ الإيمان الذي إذا خالطت بشاشته القلوب لم يسخطه ذلك القلبُ أبدًا على أنه دعوى نُبُوّة ورسالة، لا دعوى مُلْك ورياسة.

والمقصودُ: أنَّ ذوق حلاوة الإيمان والإحسان، أمرٌ يجده القلب تكون نسبته إليه كنسبة ذوقِ حلاوة الطعام إلى الفم، وذوق حلاوة الجمَاع إلى إلفة النَّفْس، كما قال ﷺ: **«حتى تذوقي عسيلته، ويذوق عسيلتك»**.

فللإيمَان طعمٌ وحلاوةٌ يتعلَّقُ بهمَا ذوقٌ ووَجْد. ولا تزول الشُّبَهُ والشكوكُ عن القلب إلَّا إذا وصل العبدُ إلى هذه الحال. فباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة فيذوق طعمَه ويجد حلاوته. والله الموفّق»[(١)].

□وقال في الذَّوق: «ذاق طعم الإيمان» فَوَجْدُ حلاوة الشيء المذوق أخصُّ من مجرَّد ذوْقه. ولمَّا كانت الحلاوة أخصّ من الطَّعْم قَرَن بها الوجْد الذي هو أخصُّ من الذوْق. فقرن الأخصّ بالأخص، والأعمّ بالأعمِّ.

وليس المراد بوجَدْ حلاوة الإيمان، الوجْدُ الذي هو لهيب القلب، فإن ذلك مصدر وجد بالشيء وَجْدًا، وإنمَا هو من الوجود الذي هو الثبوت. فمصدر هذا الفعل: الوجود والوجدان، فوَجَد الشيء يجده وجدانا: إذا حصل له وثبت. كما يجد الفاقد الشيء الذي بعد منه، ومنه

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٨٧- ٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النور: ٣٩]. وقوله: ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: ٦-٨]. وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] فهذا كلُّه من الوجود والثبوت. وكذلك قوله: «وجد بهن حلاوة الإيمان».

فوجدان الشيء: ثبوته واستقراره، ولا ريب أن ذوق طعم الإيمان وُجدانٌ له. إذ يمتنع حصول هذا الذوق من غير وجدان. ولكن اصطلاح كثير من القوم على أن الذائق أخصُّ من الواجد. فكأنه شارك الواجد في الحصول، وامتاز عنه بالذوق. فإنه قد يجد الشيء ولا يذوقه الذَّوْق التام.

وهذا ليس كما قالوه. بل وجود هذه الحقائق للقلب: ذوْقٌ لها زيادة وثبوت واستقرار. والله سبحانه وتعالى أعلم»[(١)].

وهذا حديث لطيف، يحوي دلالات عديدة، ويصور لنا الإيمان تصويرًا محببًا، ويدلنا على الأسباب التي نتوصل بها إلى هذا الإيمان الحلو اللذيذ الجميل..

◻ قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: «هذا حديث عظيم، أصل من أصول الإسلام، قال العلماء رحمهم الله تعالى: معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات، في رضي الله ﷻ ورسوله ﷺ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا..

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٨٧- ٨٩، ٩٠).

طَعْمُ الإيمان:

كما أنّ للإيمَان حلاوة لذيذة، كذلك الإيمان له طعمٌ لذيذٌ طَيِّب، يجده المؤمن في قلبه.

• عن العبّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ذاقَ طَعْمَ الإيمان مَن رَضِي بالله رَبًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا**»[(١)].

□ قال الدكتور محمد الصبَّاغ: «وفي ذلك تصوير المعاني بأمور مُحَسَّة، فالإيمَان أمرٌ معنوي، ولكنه يبدو هنا في النَّصِّ شيئًا طيِّبًا يذوق طعْمَهُ أناسٌ معيَّنون»[(٢)].

□ قال النووي في شرح الحديث: «معنى الحديث: لم يطلب غير الله تعالى، ولم يسع في غير طريق الإسلام، ولم يسلك إلَّا ما يوافق شريعة محمد ﷺ.. ولا شك في أن مَنْ كانت هذه صفته فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه».

□ وقال القاضي عياض رحمه الله: «معنى الحديث: صح إيمَانه، واطمأنت به نفسه، وخامر باطنه؛ لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ومخالطة بشاشته قلبه؛ لأن من رضي أمرًا سهل عليه، فكذلك المؤمن إذا دخل قلبَه الإيمانُ سهَّلَ عليه طاعات الله تعالى وَلَذَّتْ له..»[(٣)].

• وعن عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه أحمد، ومسلم، والترمذي.
(٢) «التصوير الفني في الحديث النبوي» للدكتور محمد لطفي الصبَّاغ.
(٣) «شرح النووي» (٢/ ٢).

«ثلاثٌ مَن فَعَلهُنَّ فقد طَعِمَ طعْمَ الإيمان: مَن عبد الله وحدهُ وأنَّهُ لا إله إلَّا الله، وأعطى زكاة مالِه طَيِّبَةً بها نفسهُ، وافِدَةً عليه كُلَّ عام، ولا يُعْطِي الهرمة، ولا الدرنة، ولا المريضة، ولا الشَّرَط اللئيمة، ولكن من أوسطِ أموالِكم، فإن الله لم يسألكم خيرَه، ولا يأمركم بِشَرِّه، وزكَّى نفسَه»، فقال رجل: وما تزكيةُ النَّفْس؟ قال: أَن يعلم أن الله عَجَّلَ معه حديث كان»[١].

□ وقال عمار بن ياسر ﷺ: «ثلاثٌ من جَمَعَهُنَّ فقد جمع الإيمان: الإنصافُ مِن نفسِك، وبذْل السلام للعالَمِ، والإنفاقُ مِن الإقتار[٢]»[٣].

أسباب ذوق ووجد حلاوة الإيمان، ولعالي الهمّة منها أوفر نصيب:

(١) **معرفة الله وتوحيده:** كما جاء في حديث عبد الله بن معاوية الغاضري الذي مرّ.

□ قال ابن القيم: «فاللذَّة التامة والفرح والسرور وطيب العيش والنعيم إنما هو في معرفة الله وتوحيده والأنس به والشوق إلى لقائه، واجتماع القلب والهمِّ عليه، فإن أنكدَ العيش عيش مَن قلبه مُشَتَّت وهمَّه مُفرَّق، فليس لقلبه مستَقَرٌّ يستقِرُّ عنده، ولا حبيب يأوي إليه ويسكنُ إليه

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «سننه»، وليس عند أبي داود: «وزكىٰ نفسه..» وإنما هي عند المصدرين الآخريْن، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٠٤٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٠٤١).

(٢) الإقتارُ: القِلَّة، وقيل: الافتقار.

(٣) موقوف صحيح: رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم في «صحيحه»- كتاب الإيمان- باب إفشاءُ السَّلام من الإيمان.. ووصله ابن حجر في «تغليق التعليق» (٨/ ٣٦)- وصحَّح وقفه في «الفتح» (١/ ٨٢).

كما أفصَحَ القائل عن ذلك بقوله:

وما ذاق طعمَ العيش مَـن لم يكُـنْ ... لـه حبيـبٌ إليـه يطمـئِنُّ ويـسكُنُ

فالعيش الطيب والحياة النافعة وقرة العين في السكون والطمَأنينة إلى الحبيب الأول، ولوْ تنقَّل القلبُ في المحبوباتِ كلِّها لم يسكن ولم يطمئن إلى شيء منها ولم تقرّ به عينه حتى يطمئن إلى إلهه وربّه ووليِّه الذي ليس له من دونه وليٌّ ولا شفيعٌ، ولا غنى له عنه طرفة عين كما قال القائل:

نَقِّلْ فؤادك حيثُ شِئْتَ من الهوى ... مـا الحُـبُّ إلَّا للحبيـب الأوَّلِ

كَمْ منزلٍ في الأرض يألفه الفتـى ... وحنينُـه أبـدًا لأوَّلِ منـزِلِ

□ فاحرص أن يكون همك واحدًا، وأن يكون هو الله وحده فهذا غايةُ سعادة العبد، وصاحبُ هذه الحال في جنّةٍ مُعَجَّلةٍ قبل جنَّةِ الآخرة، وفي نعيم عاجل، كما قال بعض الواجدين: إنه ليمرُّ بالقلب أوقاتٌ أقول: إن كان أهل الجنَّة في مثل هذا إنهم لفي عيشٍ طيِّب، وقال آخر: إنه ليمرُّ بالقلبِ أوقاتٌ يرقصُ فيها طربًا. وقال آخر: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها، وما ذاقوا أطيب ما فيها. قيل: وما أطيب ما فيها قال: معرفة الله ومحبته والأنس بقربه والشوق إلى لقائه.

وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم أهل الجنة إلَّا هذا»[(١)].

(٢) أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما:

فيكون الله ورسوله أحبّ إليه وأعظم عنده وأولى لديه مِن كُلِّ ما سواهما.

---

(١) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» لابن القيم (ص٣٠- ٣٢)- طبع دار بلال.

وتقديمُ محابِّ الله ورسولِه على محابِّ النفوس.

«هذه أعظم أسباب زيادة الإيمان واستشعار حلاوته أن تَعْظُمَ محبة الله ومحبة رسوله ﷺ في القلوب.

واعلم أن المحبة ليست ادِّعاءً، ولكنها عمل من أعظم أعمال القلوب، وأنها إذا ما استقرَّت في القلب خالطته بشاشة الإيمان، فيهفو القلب إلى محبة الرحمن، وتتبعه الجوارح كلها منقادة ذليلة، فتسعى الأقدام إلى الطاعات، وتُمَدُّ الأيدي بالإحسان، ويسبِّحُ اللسان والجنان، ويُغَضُّ الطَّرْف، وتخشع النَّفْس، ويَرِقُّ القلب وتدمعُ العين.

وذلك أن المحبة أصلها في القلب، فإذا أحبَّ القلبُ فاطِرَه ومولاه لان ومال إلى طاعته، والجوارح له تبع، وإذا خلا من المحبة نفر عن الطاعة، والجوارح له تبع.

والمحب لله تعالى لذاته وصفاته وأفعاله يجد السعادة العظمى واللذة الكبرى، والحلاوة التي ليس بعدها لذة ولا حلاوة، فهي لذة المحبة وحلاوتها، حينما تمتلك محبة الله تعالى على المرء قلبه وجوارحه فلا يرى إلَّا الكريم الرحيم الحليم المنّان واسع الفضل ذا الطَّوْل والإحسان، العفوّ الغفور الشكور، الغفار الوهاب الرزّاق الفتاح الودود المجيد فيرى واسع رحمته وفضله ومَنِّه وَجُودِهِ وكرمه فيمتلئ قلبه محبَّةً وشكرًا، فتتحرّك الجوارح كلها بشكره سبحانه تَبَعًا لمحبة القلب وشكره»[(١)].

---

(١) انظر: «حلاوة الإيمان» للدكتور عبد الحميد هنداوي (ص٣٢- ٣٥) بتصرُّف.

(٢، ٣) أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يوالي ويعادي في الله:

محبة المحبوبين لله وفي الله وهي من لوازم محبة الله. وكذا يوالي ويعادي في الله فيحب في الله ويبغض الكافرين في الله، ويُعطي لله ويمنَعُ لله فقد قال رسول الله ﷺ: «**من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[1].

• وعن عمرو بن الجموح رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا يَحقّ العبدُ حَقَّ صريح الإيمان حتى يُحبَّ لله ويبغض لله، فإذا أحب لله تبارك وتعالى وأبغض لله تبارك وتعالى فقد استحق الولاء من الله**»[2].

فالمؤمن يحب كل ما يحبه الله ورسوله، ويبغض كل ما يبغضه الله ورسوله.

(٤) أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار:

فيكره الكفر كراهية تستغرق كل كيانه، وأن يتبرأ منه براءة نافذة دائمة، وأن يجعل الكفر مقترنًا عنده بالإلقاء في النار.

فالكفر جفاف وشقوة وشرود وضلال، وحيرة، وغبش أيُّما غبش، وتخبط في كل الدروب الموحلة المظلمة وهو هجير قائظ وشواظ،

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والضياء عن أبي أمامة، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٨٠)، و«صحيح الجامع» (٥٩٦٥).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٣٠)، واللفظ له، والبغوي في «شرح السُّنَّة» (١/ ٣٩، ٤٠) وتكملة الحديث: «وإن أوليائي من عبادي وأحبائي مِن خَلْقي الذين يُذكرون بذكري، وأُذْكَر بذكرهم» ولأحمد أيضًا (٤/ ٢٨٦) عن البراء: «إن أوسط عرى الإيمان أن تحبَّ في الله وتبغض في الله»..

وطريق بهيم لا معالم فيه، الكفر ظلمة وعرامة شهوة ونزوة وكثافة دم ولحم، الكفر قلق وتخبُّط في أعماق الحياة، الكفر ظلمة شبهات وخرافات وأساطير، ظلمة ونزغات شيطان، واندفاع في التيه، ووحشية وانقطاع عن طريق الله المأنوس، انقطاع عن الله وكفر بالله الخالق الودود، الكفر ضنْك وحياة مقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة..

(٥، ٦، ٧) الرضى بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً:

إنها أسباب ثلاثة لتذوق طعم الإيمان والحياة به: الرضا بالله ربًّا، والرضا بالإسلام دينًا، والرضا بمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا..

ولا بد للمؤمن أن يقف طويلًا أمام هذا الحديث، وأن يردده صباح مساء، وأن يعيشه عمليًا في كل لحظة من حياته.. إن الإيمان والإسلام لا يوجَدان ولا يتحققان ولا يُتَذوقان إلَّا بالرضى، الرضى والقبول والموافقة والقناعة والاكتفاء والغنى..

إن الإنسان لن يدرك حقيقة الشيء إلَّا إذا رضي به، ولن يعرف قيمته ولن يسعد به إلَّا إذا قنع به.. وهذا ينطبق على كل شيء في الحياة..

وهذا الإيمان الحبيب العظيم الغالي، لا بد أن ننظر له بعين الرضى، وأن نتعامل معه من خلال قبوله والقناعة به، وأن نعيش به ومعه بشعور الاكتفاء به والغنى به، وأن نواجه الناس ونحن كلنا استعلاء بالإِيمَان، وقناعة بالإِيمَان، وأُنْس بالإِيمَان، وطمأنينة بالإِيمَان..

ونحن المسلمون في هذا الزمان أحوج ما نكون إلى أن نعيش هذا الحديث، ونحقق في قلوبنا وكياننا ووجودنا وحياتنا هذه الأمور الثلاثة التي نذوق فيها طعم الإيمان.. أحوج ما نكون إلى ذلك لأن هذا عصر

التزوير والافتراء، وعصر التمويه والزخرفة، وعصر التضليل والشيطنة، وعصر الشبهات والدعاية.. إن شياطين الإنس أعداء الحق يقدمون الله ورسوله إلى الناس تقديمًا منفرًا، ويقدمون رجاله وأهله وجنوده تقديمًا مرذولًا في صورة مزرية منفرة بشعة ممقوتة، ويعرضون الإسلام وقيمه ومبادئه أمام عيونهم عرضًا بغيضًا مقيتًا. إنهم يوجدون في نفوس الناس كل عوامل البغض والكراهية والنفور من الله ورسوله ودينه.. الله سبحانه في تقديم الشياطين يريد الشر بالناس ويحقد عليهم وينتقم منهم، ويوقعهم في المصائب والآلام، ويُكرههم على المعاصي والذنوب ويحرقهم بالنار، وليس عنده إلَّا النار.. والرسول ﷺ في تقديم هؤلاء ظالم انتهازي أناني شهواني.. وجنود الإسلام ودعاته مدمرون منفرون متشددون إرهابيون، أعداء المعرفة والتقدم والسمَاحة والخير والإنسانية، تمتلئ قلوبهم بالحقد والكره والبغض لبني البشر.. أما الإسلام فإنه دين الجمود والتأخر والرجعية والقيود والأغلال، يضيق بالعلم والمعرفة والفرح والسرور.. والتزامه وتطبيقه يعني الجهل والظلم والخراب والدمار..

وأي إنسان «غِرٍّ» يسمع هذا هل يبقى في قلبه محبة لله ولرسوله ولدينه؟ وأي إنسان خال من الثقافة والعلم والمعرفة يسمع هذا هل يرضى بالله ورسوله ودينه؟

هذا بينمَا يقدِّم هؤلاء الشياطينُ باطلَهم وفكرهم وحياتهم ورجالهم في صورة جذابة مغرية: فكفرهم هو النور، وحياتهم هي السعادة، وفكرهم هو الحق، ومناهجهم هي العلم والمعرفة، وأنظمتهم هي العادلة، وإنسانهم هو الحر، وفلاسفتهم ومفكروهم هم العلماء

والعباقرة، وعقولهم هي الذكاء والمواهب، وحضاراتهم هي القدوة والنموذج، ومجتمعاتهم هي الجنة.. ويُخدع سذج أغرار من بين المسلمين فيصدقون هذا الهراء ويملأون قلوبهم محبة ورضى وقبولًا لهؤلاء وما هم فيه..

من أجل هذا نقول: نحن أحوج ما نكون إلى حديث رسول الله ﷺ، الذي يبصرنا بالأمور التي نذوق فيها طعم الإيمان، إنها الرضى، الرضى بالله وبرسوله وبدينه.. وهناك صلة وثيقة بين الإيمان والرضى. الإيمان هو الأمن والطمأنينة والتصديق والمعرفة، والخضوع والثقة.. وهذه كلها لا تتحقق إلَّا بالرضى والقبول فإذا رضيتَ بالشيء صدقتَ به ووثقت، وإذا رضيت بالشخص أحسنت له وخضعت واطمأننت.. ولهذا فإن الإيمان لا يقوم إلَّا على الرضى، ولا يتحقق إلَّا بالرضى، ولا يُتذوَّق طعمُه إلَّا من خلال الرضى، ولا يملأ القلب وينير الحياة إلَّا عن طريق الرضى، ولا يدخل على صاحبه ويقود خطواته ويوجه له حياته إلَّا من باب الرضى الواسع الجميل..

ولهذا كم نحب رسول الله ﷺ عندما دلنا على طريق تحقيق الإيمان وتذوُّق طعمه، وكم كان صادقًا وفطنًا وعالمًا وموهوبًا عليه الصلاة والسلام عندما قرر الرضى بالأمور الثلاثة طريقًا لذوق الإيمان..

إن من رضي بالله ربًا أحبه وتوكل عليه واستعان به، واكتفى به سبحانه، ولم يطلب غيره لأن الكل غيره عاجزون ضعاف، ومن لم يكفه الله لم يكفه شيء، ومن رضي بالله حاز كل شيء، ومن استغنى بالله لم يكن فقيرًا إلى أي شيء، ومن اعتز بالله لم يذل لأي شيء.. وصدق الله العظيم

القائل: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر].

ومن رضي برسول الله ﷺ رسولًا، اكتفى به قدوة ونموذجًا، واكتفى به قائدًا، وزعيمًا وموجهًا، وأقبل على سيرته دارسًا مستفيدًا، وعلى سنته راضيًا مطبقًا، وعلى شخصيته ﷺ محبًّا ومصليًّا.

ومن رضي بالإسلام دينًا قنع به، وطبق ما فيه من واجبات، وترك ما نهى عنه من محظورات.. واعتقد أن كل ما فيه خير وحق وهدى وعدل.. وآمن بأن الحياة الراضية الكريمة لن تكون إلَّا به ومن خلاله.

وأن الناس لن يسعدوا إلَّا إذا طبقوه وعاشوا في ظلاله.. ولذلك يلتزمه عن رضى وقناعة، ويدعو إليه على هدى وبصيرة، ويواجه الجاهليين الشياطين به ويجاهدهم من خلاله.. ويعيش حياته به حرًّا أبيًّا، وعزيزًا كريمًا، وغنيًّا مستعليًا.

إن الرضى بالإسلام دينًا هو سر الثبات على الحق، والجهر بالحق، والصدع بالأمر، والنهوض بالدعوة، ومجاهدة الباطل واستعلاء الإيمان..

«إن الإسلام أعجوبة الدهر الباقية.. معجزة كل عصر.. إن الإسلام نفذ من الحجب ولبث يتقدّم، إن المبشِّرين ينفقون كل سنة القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ثم لا يأخذون واحدًا، حتى يأخذ الإسلام بغير مال ولا عمل تسعة وتسعين.. الإسلام ينتشر اليوم بنفسه في أرقى ممَالك أوروبا، وأحط بقاع أفريقيا»[(١)].

(١) «قصص من التاريخ» للشيخ علي الطنطاوي (ص١٧ - ٢٣).

* لماذا لا يرضى المؤمن بالله ربًّا وهو رب كل شيء؟ ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] والله الغني ونحن إليه فقراء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر].

* ولماذا لا يرضى بمحمد ﷺ رسولًا وهو البار الرحيم بالمؤمنين؟ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[التوبة].

* ولماذا لا يرضى بالإسلام دينًا وهو دين المخلوقات كلها؟ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران].

* ولماذا لا يرضى بالإسلام دينًا وهو الطريق الوحيد الموصل إلى رضى الله وجنته؟ إن الدين عند الله الإسلام، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

* ولماذا لا يرضى بالإسلام دينًا وهو الذي رضيه الله لنا دينًا؟ ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].

ومن هو العاقل الذي لا يرضى ما رضيه الله له؟ ولا يختار ما اختاره الله له؟ وهل هو أعلم من الله؟ وأي عاقل من بني البشر يدعي هذا؟.

والمؤمن إذا عاش هذا الحديث، ورضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، سيذوق طعم الإيمان عمليًّا في حياته وهو طعم لذيذ، ويسعد بالإيمان عمليًّا سعادة غامرة، ويطمئن بالإيمان اطمئنانًا راضيًا..ونتيجة لهذا سينشط لأداء الطاعات وتنفيذ الواجبات

وترك المنهيات.. ستكون الطاعة والعبادة عليه يسيرة بفضل الرضى وطعم الإيمان، وسيبقى يطلبها ويستلذها ويشتاق إليها؛ لأن الرضى هو الذي يحدوه إليها، وطعم الإيمان هو الذي يرغبه فيها..

• ولهذا كم كان رسول الله ﷺ مربيًا حكيمًا عندما وجه أحد أصحابه إلى ذكر الله بكيانه، بمعنى أن يرضى بالله ربًا ويرضى به رسولًا، وبالإسلام دينًا.. جاءه رجل فقال: يا رسول الله، إن تكاليف الإسلام قد ثقلت علي. فقال: **«لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله..»**.

إننا لن نذوق طعمًا للإيمَان إلَّا بما بينه رسول الله ﷺ، وإننا لن نكشف زيف الباطل إلَّا بذلك، ولن نستعلي بالحق إلَّا بذلك، ولن نثبت على طريق الله إلَّا بذلك، ولن ننشط للعبادات ونترك المحرمات إلَّا بذلك، ولن نسعد في حياتنا إلَّا بذلك. فليكن هذا الحديْث العجيب شعارًا لنا نردده صباح مساء - كما كان يفعل رسول الله ﷺ يوميًّا- ولْنقل باستمرار: «رضيا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا» ولنحوِّلْه من كلام ذهني نظري لساني إلى حقائق واقعية ووجود خارجي مُعاش، فنعيش في ظلاله حياة إيمانية سعيدة غامرة، نذوق فيها طعم الإيمان، ونجد فيها حلاوة الإيمان»[1].

(٨) الإقبال على القرآن وتلاوته وتدبره والعمل به:

* قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]، فرحمة الله هنا هي القرآن - فهذا فرح بالإسلام والقرآن.

□ قال ابن تيمية: «أنا جنتي وبستاني في صدري أينما رُحْتُ فهي معي

(١) انظر: «في ظلال الإيمان» (١٧٩ - ١٨٣).

إن معي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ».

□ وقال ابن أبي الحواري: «إني لأعجب لقرّاء القرآن كيف يهنيهم النوم ومعهم القرآن، أما والله لوْ علموا ما حملوا لطار عنهم النوم فرحًا بما رُزِقوا».

(٩) الصلاة على وقتها وقيام الليل:

• قال ﷺ: **«أفضل الأعمَال الصلاة لوقتها، وبر الوالدين»**(١).

• وقال ﷺ: **«أفضل الأعمَال الصلاة في أول وقتها»**(٢).

• وقال ﷺ: **«أحب الأعمَال إلى الله الصلاة لوقتها، ثم برُّ الوالدَيْن، ثم الجهاد في سبيل الله»**(٣).

• وقال رسول الله ﷺ: **«حُبِّبت إليّ مِن دنياكم: النساء والطِّيب، وجُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة»**(٤).

□ قال ابن القيم: «أخبر أنه حُبِّب إليه من الدنيا شيئان: النساء والطيب ثم قال: «**وجُعِلتْ قرَّةْ عيني في الصلاة**»، وقُرَّة العين فوق المحبَّة، فإنه ليس كل محبوب تقرّ به العين، وإنما تقرُّ العين بأعلى

(١) رواه مسلم عن ابن مسعود.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم في «المستدرك» عن أم فروة، ورواه ابن حبان، والحاكم عن ابن مسعود، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٥٢)، و«صحيح الجامع» (١٠٩٣).

(٣) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن ابن مسعود.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، والحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في سننه عن أنس، وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٥٢٦١)، و«صحيح الجامع» (٣١٢٤).

المحبوبات الذي يُحبُّ لذاته، وليس ذلك إلَّا الله الذي لا إله إلَّا هو، وكل ما سواه فإنما يُحَبُّ تبعًا لمحبَّته، فيُحَبُّ لأجله ولا يُحبُّ معه، فإن الحب معه شرك، والحب لأجله توحيد.

فالصلاة قرة عيون المحبين في هذا الدنيا لما فيها من مناجاة من لا تقرُّ العيون ولا تطمئن القلوب ولا تسكن النفوس إلَّا إليه والتنّعم بذكره والتذلُّل والخضوع له والقرب منه، ولا سيمَا في حال السجود، وتلك الحال أقرب ما يكون العبد من ربه فيها، ومن هذا قول النبي ﷺ: «**يا بلال أرحنا بالصلاة**»[(١)]. فأعلم بذلك أن راحته في الصلاة، كما أخبر أن قرّة عينه فيها»[(٢)].

(١٠) ذكر الله عز وجل:

● عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أحبُّ الأعمال إلى الله أن تموتَ ولسانُك رطبٌ مِن ذكر الله**»[(٣)].

□ قال ابن القيم في «الوابل الصيب»: «من أراد أن ينال محبة الله عز وجل فَلْيَلْهَج بذكره، فالذكر باب المحبة وشارعها الأعظم وصراطها

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٧٦٩)، و«المشكاة» (١٢٥٣).

(٢) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص٣٢، ٣٣).

(٣) حسن: رواه ابن حبان، وابن السني في «عمل اليوم والليلة»، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وحَسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٦٥).

الأقوم»[١].

▫ وقال ابن القيم: «إنه يورثة المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين»[٢].

والذكر يورث العبد المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه.

▫ قال مالك بن دينار: «ما تنعّم المتنعِّمون بمثل ذكر الله».

▫ وقال ابن القيم: «وذكره وفرحه بربه سبحانه أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه».

وقال: «الإقبال على الله تعالى، والإنابة إليه، والرضاء به وامتلاء القلب من محبته واللهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته ثواب معجل وجنَّة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه ألبتة»[٣].

ويقول: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة»[٤].

قال: «فسبحان من أشهد عباده جنّته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها».

وقال: «فمحبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه

---

(١) «الوابل الصيب» (ص٦٢) ط- الريان.
(٢) «الوابل الصيب» (ص٦٢).
(٣) «الوابل الصيب» (ص٦٩).
(٤) المصدر السابق (ص٦٩).

والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جَنّة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين، وحياة العارفين»[(١)].

(١١) الصدقة وحب إيتاء الزكاة:

* قال تعالى في وصف كاملي الإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال].

كما مرّ في حديث عبد الله بن معاوية الغاضري.

(١٢) تزكية النفس والمراد بها هنا المراقبة لله عَزَّ وَجَلَّ:

ولقد جعل النبي ﷺ تزكية النفس إحدى الخصال الموجبة لذوق طعم الإيمان، وفسَّر التزكية بإحدى مراتب الإحسان «أن يعلم أن الله عَزَّ وَجَلَّ معه حيث كان» وهو أعلى مقامات الدين.

(١٣، ١٤) اليقين والجهاد في سبيل الله:

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات].

□ قال ابن مسعود رضي الله عنه: «اليقين الإيمان كله، والصبر نصفُ الإيمان»[(٢)].

---

(١) «الوابل الصيب» (ص٧٠).

(٢) قال الحافظ في «الفتح» (١/ ٤٨): ذكره الطبراني بسند صحيح، وأبو نعيم في =

□ وقال سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه: «ما من ليلة يُهدَى إليّ فيها عروس أنا لها مُحِبٌّ أحبُّ إليَّ من ليلة شديدة البرد، كثيرة الجليد في سَرِيَّةٍ أُصبِّحُ فيها العدو»[1].

□ قال رضي الله عنه لما حضرته الوفاة: «لقد طلبتُ القتل مظانَّهُ فلم يُقدَّرْ لي إلَّا أن أموت على فراشي، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد التوحيد من ليلة بتُّها وأنا متترِّسٌ، والسماء تهلني ننتظر الصبح حتى نغير على الكفار. ثم قال: «إذا متُّ، فانظروا إلى سلاحي وفرسي فاجعلوه عدّة في سبيل الله»[2].

□ وقال شقيق البلخي رحمه الله بين الصَّفين لرجل: هذه الليلة أحبُّ إليك أم الليلة التي زُفَّت إليك عروسك؟ قال: بل الليلة التي زفت إليّ فيها إمرأتي.. إني أرى رءوسًا تندر. فقال شقيق: بل هذا الموقف أحبُّ إليّ. ورزقه الله الشهادة في سبيله»[3].

(١٥، ١٦) الصبر والسماحة:

• قال رسول الله ﷺ: «أفضل الإيمان الصبرُ والسمـاحةُ»[4].

«الحلية»، والبيهقي في «الزهد» مرفوعًا ولا يثبت رفعه.

(١) «سير إعلام النبلاء» (١/ ١٣٧٥).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٨١).

(٣) انظر: «حلية الأولياء» ترجمة شقيق البلخي.

(٤) صحيح: رواه الديلمي في «مسند الفردوس» عن معقل بن يسار، ورواه البخاري في «التاريخ» عن عمير الليثي، ورواه أحمد، والبيهقي في «سننه» عن عمرو بن عبسة، وأحمد عن عبادة، والحاكم في «المستدرك» عن عمير الليثي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٩٧).

• وقال ﷺ: «أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهو وهواه»(١).

• وقال رسول الله ﷺ: «أحبّ عباد الله إلى الله أحسنُهم خُلُقًا»(٢).

ومن كان أحب العباد إلى الله رزقه من حلاوة الطاعة والعبادة ما هو فوق الوصف.

□ قال شقيق البلخي: «من شكا مصيبة إلى غير الله لم يجد حلاوة الطاعة»(٣).

أما من صبر على البلاء فإنه يجد لذّة الطاعة.

وبالصبر عن الشهوات تجد حلاوة العبادة.

□ قال بشر بن الحارث الحافي: «لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعلَ بينك وبين الشهوات سدًّا»(٤).

لله در أبي حُذافة عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه:

□ عن أبي رافع، قال: «وجّه عمرُ جيشًا إلى الروم، فأسروا عبد الله بن حُذافة، فذهبوا به إلى ملكهم، فقالوا: إن هذا من اصحاب محمد. فقال: هل لك أن تتنصَّرَ وأُعطيكَ نصف ملكِي؟ قال: لو أعطيتني جميع ما تَملكُ، وجميع ملك العرب، ما رجعتُ عن دين محمد طرفة عين. قال:

---

(١) صحيح: رواه ابن النجّار، وأبو نعيم، والديلمي عن أبي ذر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٩٦)، و«صحيح الجامع» (١٠٩٩).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن أسامة بن شريك، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٣٣)، و«صحيح الجامع» (١٧٩).

(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣١٦).

(٤) انظر: «سير أعلام النبلاء» ترجمة بشر (١٠/ ٤٦٩- ٤٧٧).

إذًا أقتلك. قال: أنت وذاك، فأُمِر به فَصُلِب. وقال للرُّمَاة: ارموه قريبًا من بدنه، وهو يَعْرِض عليه ويأبى، فأنزله. ودَعَا بِقِدْر، فصُبَّ فيها ماء حتى احترقَتْ، ودَعَا بأسَيرَيْن من المسلمين. فأمر بأحدهما، فأُلْقِي فيها، وهو يعرض عليه النصرانية، وهو يأبَى. ثم بكى، فقيل للمَلِك: إنه بَكَى، فظنّ أنه قد جزع، فقال: رُدُّوه. ما أبكاك؟ قال: قلتُ: هي نفْسٌ واحدةٌ تُلْقَى الساعةَ فتذهبُ، فكنتُ أشتهي أن يكونَ بعددِ شَعْرِي أنفسٌ تُلْقَى في النار.

فقال له الطاغية: هَلْ لك أَنْ تُقَبِّلَ رأسي وأُخَلِّيَ عنك؟

فقال له عبد الله: وعن جميع الأسارى؟ قال: نعم. فقبَّل رأسه.

قَدِم بالأسارى على عُمر، فأخبره خبره. فقال عمر: حقٌّ على كل مسلم أن يقبِّلَ رأسَ ابن حذافة، وأنا أبدأ، فقبَّلَ رأسه»[١].

لله در ابن حذافة كم ذاق وذاق وطعم وطعم من حلاوة الإيمان!!!

(١٧) الزهد في الدنيا:

• كما مرّ في الحديث: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس**»[٢].

◻ قال إبراهيم بن أدهم: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من سعادة لجالدونا عليها بالسيوف».

---

(١) «تاريخ الإسلام» للذهبي (٢/ ٨٨)، و«سير أعلام النبلاء» و«الإصابة» (٢/ ٢٩٦).

(٢) سبق تخريجه.

(١٨) أن تحب لأخيك المسلم ما تحبُّه لنفسك:

• قال رسول الله ﷺ: «أَحِبَّ للناسِ ما تُحبُّ لنفسِك»[١].

□ قال النووي: «قال العلماء رحمهم الله: معناه لا يؤمن الإيمان التام، وإلَّا فأصل الإيمان يحصل لمن لم يكن بهذه الصفة، والمراد يحب لأخيه من الطاعات والأشياء المباحات، ويدل عليه ما جاء في رواية النسائي في هذا الحديث: «حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه».

قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح: «وهذا قد يُعَدُّ من الصعب الممتنع وليس كذلك، إذ معناه لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه في الإسلام ما يحب لنفسه، والقيام بذلك يحصل بأن يحب له حصول مثل ذلك من جهة لا يزاحمه فيها بحيث لا تنقص النعمة على أخيه شيئًا من النعمة عليه، وذلك سهل على القلب السليم، وإنما يعسر على القلب الدغل، عافانا الله وإخواننا أجمعين»[٢].

□ وقال الحافظ: «قال الكرماني: ومن الإيمان أيضًا أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر، ولم يذكره لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه، فترك التنصيص عليه اكتفاءً»[٣].

---

(١) صحيح: رواه البخاري في «التاريخ»، وأبو يعلىٰ، والطبران في «الكبير» والحاكم في «المستدرك» وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن يزيد بن أُسيد، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧٢)، و«صحيح الجامع» (١٨٠).

(٢) «شرح النووي علىٰ صحيح مسلم» هامش (١/ ١٦، ١٧).

(٣) «فتح الباري» (١/ ٧٤).

(١٩، ٢٠، ٢١) الإنصاف من نفسِك، وبذْلُ السلام للعَالِم، والإنفاقُ من الإقتار:

كمَا جاء من قول عمَّار بن ياسر رضي الله عنه.

(٢٢) الرضا بقضاء الله وقدره:

• عن عُبَادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه: «يا بُنَيَّ إنك لن تَجِدَ طَعْمَ حقيقة الإيمان حتى تَعْلَمَ أَنَّ ما أصابَكَ لم يكُنْ ليُخطِئَكَ وما أخطأك لم يكن ليُصيبَك. سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أوَّلَ ما خَلَقَ الله القَلَمُ. فقال له: اكتُبْ قال: رَبِّ وماذا أكتُب؟ قال: اكتب مقاديرَ كُلِّ شيءٍ حتى تقومَ الساعةُ**» يا بني إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَن مات على غير هذا فليسَ مني**».

□ كان فتحي الموصلي إذا دخل البيت ولم يجد طعامًا ولا شرابًا ولم يجد سراجًا، ووجد السقف قد وكف من شدة المطر يرفع يده إلى السمَاء ويقول: إلهي أجعتني وأجعتَ أولادي وأعريتني وأعريتَ أولادي وقديمًا كنت تفعل هذا بأنبيائك وأوليائك وعبادك الصالحين، فبأي خصلة من خصال الخير تقرّبت بها إليك يا مولاي فقبلتها مني حتى أدوام عليها؟

وقُطع إصبعُ امرأتِه فضحكت فقال لها رجل: يُقطَع أصبعك وتضحكين؟ قالت: أُحَدِّثُك على قَدْرِ عقلِك. حلاوة أجرها أنستني مرارة قطعها!!!

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أشَدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الصالحون، لقد كان أحدهم يُبتَلى بالفقر حتى ما يجدُ إلَّا**

العباءة يجوبُها فيلبسها [(١)]، ويُبتلى بالقملِ حتَّى يقتُلَه، ولأحدهم كان أشدَّ فرحًا بالبلاءِ من أحدكم بالعطاء» [(٢)].

□ ولله در القائل:

عذابُــهُ فيــك عــذبُ ... وبُعْــدُهُ فيــكَ قُــرْبُ

وأنت عنـدي كروحـي ... بـل أنــت منهــا أحــبُّ

حسبي مِن الحُبِّ أنِّـي ... لِمَــا تُحِــبُّ أُحِــبُّ

أحلى ثمرات الإيمان [(٣)] لذوي الهمم العالية عباد الرحمن:

من بلغ المقامات العُلَى من الإيمان استحق – فضلًا من الله ومِنَّة- أحلى ثمرات شجرة الإيمان ويا لحلاوتها وطيبها وعِظَمها وإليك نَزُفُّها، كل ثمرة منها خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت:

١- معية الله عَزَّ وَجَلَّ للمؤمنين:

* قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾ [الأنفال].

وهي المعية الخاصة معية التأييد والتسديد والنصرة.

* كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠].

---

(١) يجوبها: يقطع وسطها ليلبسها.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، وأبو يعلىٰ، والحاكم في «المستدرك» وصححه، ورواه ابن سعد، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٤)، و«صحيح الجامع» (١٤٤).

(٣) مُستقاة ومُلَخَّصَة من كتاب شيخي الدكتور أحمد فريد مع زيادة عليها.

* وقال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦].

وهذه المعية تستوجب من العبد التقوِّي بالله ﷻ، والتعزز به، والاعتمَاد عليه، والأنسَ به والرضا به ﷻ.

أرسل أحد السلف إلى أخيه يقول له: أما بعد فإن كان الله معك فمن تخاف، وإذا كان عليك فمَن ترجو.

ومن كان الله معه فمعه الحارس الذي لا ينام، والقوى الذي لا يهزم، والقاهر الذي لا يغلب،والجزاء من جنس العمل، فلمَّا كان المؤمن مع ربه ﷻ بالطاعة والالتزام، والعمل بشرعه، كان الله معه يؤيده وينصره، ويجيب دعوته، ويفرج كربته»(١).

٢- محبة الله للمؤمنين، ومحبة الناس لهم:

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا أحبَّ الله العبد قال لجبريل: قد أحببت فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل عليه السلام ثم ينادي في أهل السمـاء: إن الله قد أحبَّ فلانًا فأحبوه فيحبه، أهل السمَـاء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»(٢).

٣- الحياة الطيبة للمؤمنين: وقد مرَّ الكلام عليها.

---

(١) «شجرة الإيمان» للشيخ أحمد فريد (ص٩١).

(٢) رواه مسلم (١٦/ ١٨٣، ١٨٤)، والبخاري (١٠/ ٤٦١) «الأدب» ومالك في «الموطأ» (٢/ ٩٥٣).

٤- ومن ثمرات الإيمان دفاع الله عَزَّ وَجَلَّ عن المؤمنين:

* قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

□ قال الرازي: «ذكر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ولم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم، وإن كان في الحقيقة أنه يدفع بأس المشركين، فلذلك قال بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته.

وقال كذلك: هذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكف بوائقهم عنهم، هي كقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗى﴾ [آل عمران: ١١١]، وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢﴾ [الصافات]، ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ [الصف][1].

٥- ومن ثمرات الإيمان البُشْرَى في الدنيا والآخرة:

* قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس].

* وقال تعالى في أربع آيات من كتابه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ١٣]، [التوبة: ١١٢]، [يونس: ٨٧]، [الصف: ١٣].

• وأطلق البشرى في هذه الآيات الكريمات للإخبار بأنهم يُبشَّرون بكل خير في الدنيا والآخرة، كما دلت الأدلة الأخرى على أنهم يبشرون

(١) «التفسير الكبير» للرازي (٢٣/ ٣٤).

في الدنيا، وعند خروج أرواحهم، ويبشرون وهم في قبورهم، ويبشرون في عَرَصات القيامة، عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلَّا المبشِّرات»، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»(١).

• وقال ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس] «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له»(٢).

فمن مبشرات المؤمنين في الدنيا الرؤيا الصالحة، ومن مبشراتهم في الدنيا كذلك ثناء الخلق ومحبة الخلق، كما قيل للنبي ﷺ: الرجل يعمل العمل لا يريد به إلَّا وجه الله فيحبه الخلق – أو فيثني عليه الخلق – قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»(٣) ولذلك كان علماء أهل السنة هم أوفر الناس نصيبًا من هذه البشرى، وهذا يدل على أنهم أسعد الناس حالًا في الآخرة.

* والمؤمن يُبشَّر أحوج ما يكون إلى البشرى يبشر وهو مفارق دار

---

(١) رواه البخاري (١٢/ ٣٧٥) «التعبير»، والترمذي (٩/ ١٢٦) أبواب الرؤيا عن أنس.

(٢) رواه الترمذي (٩/ ١٢٧- ١٢٨) أبواب الرؤيا، وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه (٣٨٩٨) تعبير الرؤيا، ورواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٥٨) الرؤيا، والحاكم (٤/ ٣٩١) الرؤيا، وصححه ووافقه الذهبي والألباني.

(٣) رواه مسلم (١٦/ ١٨٩) البر والصلة عن أبي ذر، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال: «تلك عاجل بشرىٰ المؤمن». وفي رواية عند مسلم كذلك: «ويحبه الناس».

العمل ولا حساب إلى دار الحساب ولا عمل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت].

• ومن ذلك تبشير الملائكة له في قبره: «نَمْ كنومة العروس الذي لا يوقظه إلَّا أحبُّ أهله إليه»(١).

* ومن ذلك تبشير الملائكة لهم، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد].

* وقال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء].

فإذا دخلوا الجنة دخلت الملائكة عليهم من كل باب تبشرهم بالخلود في الجنة؛ لأنهم لا يتحملون أن يفارقوا النعيم الذي وصلوا إليه برحمة الله وكرامته ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد](٢).

٦- ولاية الله للمؤمنين وما أعظمها من ثمرة:

* كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

(١) رواه الترمذي (٣/ ٣٨٣) وابن حبان (٧/ ٣٨٦) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٦) وغيرهم، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» وصححه في «الصحيحة».

(٢) «شجرة الإيمان» (ص٨٣- ٨٥).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فأصحاب هذه الشجرة الله ناصرهم ومعينهم، هو الذي يخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الريب والشكوك إلى نور اليقين، ومن ظلمات الرياء إلى نور الإخلاص، ومن ظلمات البدع والضلالات إلى نور الحق والسنة.

* وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)﴾ [يونس].

* وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾ [آل عمران].

فالمؤمنون تولوا ربهم بالمحبة والنصرة، والله ﷻ تولاهم بالتأييد والتسديد، وإجابة دعوتهم، وتفريج كربتهم، ونصره لهم على عدوه وعدوهم»[1].

٧- ومن ثمرات الإيمان: النور والفرقان الذي يجعله الله للمؤمنين فيفرّقون به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والبدعة والسُّنَّة:

* قال الله ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

* وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨)﴾ [الحديد].

---

(١) «شجرة الإيمان» (ص٧٨).

* وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال].

وقد فسر العلماء هذا الفرقان بالنور الذي يجعله الله عز وجل في قلب المؤمن يفرق به بين الحق والباطل والبدعة والسنة والهدى والضلال، فالمؤمن حي القلب مستنيره، والكافر ميت القلب مظلمه، وذلك لأن المؤمن آمن بالشرع، والشرع هو الروح وهو النور، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى].

فمن استجاب للشرع أحيا الله قلبه وأضاءه بنور الإيمان، وهذا النور يضيء للمؤمن الطريق، ومن المؤمنين من يحسن حمل هذا النور فيضيء لغيره ويهديه هداية الإرشاد والبيان، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى].

والذين استضاءوا بنور الوحي في الدنيا يصير هذا النور يوم القيامة نورًا حسيًّا ظاهرًا يراه المؤمن والمنافق، كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ.. ﴾ [الحديد].

٨- ومن ثمرات الإيمان: العزة التي جعلها الله عز وجل لعباده المؤمنين:

* كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون].

* وقال عَجَلَّ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠].

◻ وكان الإمام أحمد يدعو: «اللهم أعزنا بطاعتك ولا تذلنا بمعصيتك». فليس هناك مصدر للعزة إلّا الله عَجَلَّ، وليس هناك سبيل إلى حصولها غير الإيمان والعمل الصالح.

واجعل بربك كلَّ عِزِّك يستِقرُّ ويَثْبُتُ ... فإنِ اعتزرتَ بمن يموتُ فإنَّ عِزَّكَ مَيِّتُ

◻ ورحم الله الحسن البصري حيث يقول: «إنهم وإن طَقْطَقَتْ بهم البغال، وهَمْلَجَتْ بهم البراذين فإنَّ ذل المعصية لا يفارق قلوبهم أبَى الله إلّا أن يذل من عصاه».

* قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المجادلة].

٩- ومن ثمرات الإيمان: رفعة الله عَجَلَّ لأهله درجات في الدنيا والآخرة:

* قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة].

◻ وقال يحيى بن يحيى عن مالك: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ الصحابة ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ يرفع بها العالم والطالب للحق.

والعموم أوقع في المسألة، وأولى بمعنى الآية، فيرفع المؤمن بإيمانه أولًا، ثم بعلمه ثانيًا.

* وقال تعالى إشارة إلى رفعة الآخرة: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

* وقال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال].

□ انظر كيف رفع الله المَوَالِيَ بالإيمان.. انظر كيف رفع الله قدر بلال رضي الله عنه حتى يقول عنه الفاروق عمر رضي الله عنه: «أبو بكر سيدنا وأعتق بلالًا سيدَنا».

• ورفع الله عمار بن ياسر رضي الله عنهما، وخباب بن الأرت رضي الله عنه وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما حتى يقول الرسول ﷺ: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك**». انظر كيف رفع الله قدر أبي العالية والحسن البصري وأويس القرني وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح رحمهم الله جميعًا.

١٠- استغفار حملة العرش من الملائكة للمؤمنين:

ويا لها من ثمرة تقصر عن كُنهها الكلمات.. هي والله خير من الدنيا وما فيها.. وقد تحدثنا عنها.

١١- استغفار النبيين عليهم السلام لك قبل وجودك فأنت بغيتهم وطلبتهم:

* قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح].

* وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم].

* وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾ [محمد: ١٩].

١٢- وَعْدُ الله للمؤمنين بالجنّات والمساكن الطيبة والغرفات، ورضوان الله ورؤيته، فيا لها من ثمرة تفوق كل الثمرات!!!

* قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة].

والنظر إلى الله عَزَّ وَجَلَّ هو الرضوان الذي يشرف به أهل الجنة، وهو أعلى النعيم في الآخرة.

• وقد روى الإمام أحمد والشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحدًا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»(١).

١٣- ومن ثمار الإيمان: الأمن والطمأنينة:

* قال تعالى حاكيًا عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٤٢٣) الرقاق: صفة الجنة والنار، ومسلم (١٨/ ١٦٨) الجنة وصفة نعيمها، والترمذي (١٠/ ٢١) أبواب صفة الجنة.

وهذا ما يشهد به الواقع الماثل، وما أيده التاريخ الحافل، وما يلمسه كل إنسان بصير منصف، في نفسه وفيمن حوله.

لقد علمتنا الحياة أن أكثر الناس قلقًا وضيقًا واضطرابًا، وشعورًا بالتفاهة والضياع هم المحرومون من نعمة الإيمان، وبرد اليقين.

إن حياتهم لا طعم لها ولا مذاق، وإن حفلت باللذائذ والمرفهات؛ لأنهم لا يدركون لها معنى، ولا يعرفون لها هدفًا، ولا يفقهون لها سرًّا، فكيف يظفرون مع هذا بسكينة نفس، أو انشراح صدر؟

إن هذه السكينة ثمرة من ثمار دوحة الإيمان، وشجرة التوحيد الطيبة، التي تُؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

فهي نفحة من السماء ينزلها الله على قلوب المؤمنين من أهل الأرض، ليثبتوا إذا اضطرب الناس، ويرضوا إذا سخط الناس، ويُوقنوا إذا شك الناس، ويصبروا إذا جزع الناس، ويحلموا إذا طاش الناس.

* هذه السكينة هي التي عمرت قلب رسول الله يوم الهجرة، فلم يعتره هَمٌّ ولا حزن، ولم يستبد به خوف ولا وجل، ولم يخالج صدره شك ولا قلق ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

• لقد غلبت على صاحبه الصدِّيق مشاعر الحزن والإشفاق، لا على نفسه وحياته، بل على الرسول ﷺ، وعلى مصير الرسالة، حتى قال والأعداء مُحدقون بالغار: «يا رسول الله؛ لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا! فيقول الرسول ﷺ مُثبِّتًا فؤاده: «**يا أبا بكر؛ ما ظنك باثنين الله**

ثالثهما؟!»[١].

هذه السكينة روح من الله، ونور، يسكن إليه الخائف، ويطمئن عنده القلق، ويتسلى به الحزين، ويستروح به المُتعَب، ويقوى به الضعيف، ويهتدي به الحيران.

هذه السكينة نافذة إلى الجنة يفتحها الله للمؤمنين من عباده، منها تهب عليهم نسماتها، وتشرق عليهم أنوارها، ويفوح شذاها وعطرها، ليُذيقهم بعض ما قدَّموا من خير، ويُريهم نموذجًا صغيرًا لما ينتظرهم من نعيم، فينعموا من هذه النسمات بالروح والريحان، والسلام والأمان.

ستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والوجع والظمأ، حتى تجد الله، وتؤمن به، وتتوجَّه إليه.

هناك تستريح من تعب، وترتوي من ظمأ، وتأمن من خوف. هناك تحس بالهداية بعد الحيرة، والاستقرار بعد التخبط، والاطمئنان بعد القلق، ووجدان المنزل والأهل بعد طول الغُربة، والضرب في أرض التيه..

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قَرَّ عينا بالإياب المسافر

فإذا لم يجد الإنسان ربه — وهو أقرب إليه من حبل الوريد- فما أشقى حياته، وما أتعس حظه، وما أخيب سعيه!

* إنه لن يجد السعادة، ولن يجد السكينة، ولن يجد الحقيقة.. لن يجد نفسه ذاتها ﴿كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

(١) رواه البخاري «الفتح» (٨/ ٤٦٦٣).

فتصوَّر إنسانًا يعيش دون أن يجد نفسه، وهو في رأي نفسه، وفي نظر الناس بشر عاقل، سميع بصير، بل لعله جامعي مثقف، ولعله – فوق ذلك- «دكتور» كبير في العلوم والآداب!

وكيف يجد نفسه مَن لم يعرفها؟ وكيف يعرفها من حُجِبَ عنها بالغرور والكبر؟ أو شُغِل عنها باتباع الشهوات، والإخلاد إلى الأرض، والغرق في لذائذ الحس، ومطالب الجسد والطين؟

إن الإنسان خلق عجيب، جمع بين قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله. فمن عرف جانب الطين، ونسي نفخة الروح، لم يعرف حقيقة الإنسان.

ومن أعطى الجزء الطيني فيه غذاءه وريه مما أنبتت الأرض. ولم يعط الجانب الروحي غذاءه من الإيمان ومعرفة الله، فقد بخس الفطرة الإنسانية حقها، وجهل قدرها، وحرمها ما به حياتها وقوامها.

□ قال ابن القيم رحمه الله[1]: «في القلب شعث لا يُلمه إلَّا الإقبال على الله.

وفيه وحشة لا يُزيلها إلَّا الأنس بالله.

وفيه حزن لا يُذهبه إلَّا السرور بمعرفته، وصدق معاملته.

وفيه قلق لا يسكنه إلَّا الاجتماع عليه، والفرار إليه.

وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلَّا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

---

(١) «مدارج السالكين».

وفيه فاقة لا يسدها إلَّا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تُسَد تلك الفاقة أبدًا».

وهذا ليس كلام عالم فَحسب، بل كلام ذائق مُجرِّب، يقول ما خبره وأحس به في نفسه، وما رآه ولاحظه في الناس من حوله.

إنها الفطرة البشرية الأصيلة التي لا تجد سكينتها إلَّا في الاهتداء إلى الله والإيمان به، والالتجاء إليه»[(١)].

«إني آسى أشد الأسى لأولئك المساكين الذين صادروا فطرتهم وغلظ حجابهم، وأظلمت قلوبهم فلم تنفذ إليها أشعة الإيمان.

أُولئك الأشقياء المطموسين الذين يجادلون في الله بغير علم ولا هُدى ولا كتاب منير.

إني آسى لهؤلاء مرتين..

آسى لهم لأنهم دخلوا الحياة ثم خرجوا منها، ولم ينعموا بأطيب ما فيها وأعظم ما فيها وهو الإيمان.

إنهم بؤساء ومحرومون حقًّا. إن الناس يقولون عن الإنسان إذا فاته شيء مهم من مسرات الدنيا: ضاع نصف عمره. فكيف بمن فاته روح الحياة، وحياة الروح؟ كيف بمن حرم قلبه بشاشة الإيمان؟

لقد خسر المساكين أنفسهم، خسروا وجودهم، خسروا الحياة وما بعد الحياة، خسروا الخلود، خسروا كل شيء؛ لأنهم خسروا الإيمان، وما أصدق ما ورد في بعض الآثار الإلهية عن الله تعالى أنه يقول لعبده:

---

(١) «الإيمان والحياة» (ص٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤).

«عبدي؛ اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدتَ كل شيء، وإن فُتُّك فاتك كل شيء».

ورحم الله العبد الصالح الذي قال: «إلهي؛ ماذا وجد مَنْ فقدك؟! وماذا فقد من وجدك؟! لقد خاب من رَضِيَ دونك بدلًا، وخَسِرَ من بغى عنك حولًا».

ثم آسى لهؤلاء الملاحدة المحرومين مرة أخرى، حين أراهم خلعوا رداء العبودية لله، فوقعوا في العبودية لغير الله.

لقد ظن هؤلاء في أنفسهم، وزعموا لغيرهم، أنهم «تحرروا» من كل عبودية، وأنهم نبذوا الخضوع للإله نبذ النواة، وأطرحوا الإيمان بالرب وراء الظهور.

وكذبوا. فالواقع أنهم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، استبدلوا بالعبودية للخالق، العبودية للمخلوق، واستبدلوا بالإله الواحد آلهة شتَّى واتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله.

فلا واحد منهم إلَّا هو عبد لأكثر من سيد، وخاضع لأكثر من إله، فهمه شعاع، وقلبه أوزاع.

أين هذا من المؤمن الذي رفض كل الآلهة الزائفة من حياته، وحطم كل الأصنام من قلبه، ورضيَ بالله وحده ربًّا، عليه يتوكل، وإليه ينيب، وبه يعتصم، وإليه يحتكم، فلا يبغي غير الله ربًّا ولا يتخذ غير الله وليًّا، ولا يبتغي غير الله حكمًا؟

فليت شعري أي الفريقين خير مقامًا، وأهدى سبيلًا، من عرف الله فلم ينحن لأحد سواه، أم من جحد الله فصار عبدًا لأكثر من إله؟

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف]؟.. ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر].

ليت شعري ماذا وجد من لم يعرف ربه:

* إنه سيضرب في بيداء لا يعرف فيها طريقًا، ولا يجد فيها غير السراب يحسبه ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ويسبح في بحار من الظلمات لا يهتدي فيها إلى بر ولا قرار، كالتي حدثنا الله عنها في كتابه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور].

* إن الذي شرد عن طريق الله ورسالاته هو ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٧١].

بالوحي يبلغ المؤمن درجة علم اليقين، وقد يرتقي روحه ويشف ويرف حتى يشارف عين اليقين أو حق اليقين.

وفي هذا قال بعض السلف: «لو كُشِفِ الغطاء ما ازددتُ يقينًا! ذلك لأنه آمن بما أخبر به الوحي إيمانًا تجلَّت به حقائق الوجود لعين قلبه، وكأنه يراها بعيني رأسه، ويشهدها حاضرة ظاهرة، كالشمس في الضُّحى، ليس دونها سحاب ولا ضباب.

قال بعض السَلَف: «رأيت الجنة والنار حقيقة».

قيل له: وكيف رأيتهما وأنت في الدنيا؟

قال: «رآهما رسول الله ﷺ فرأيتهما بعينه، ورؤيتي لهما بعين رسول الله ﷺ آثر عندي من رؤيتهما بعيني، فإن بصري قد يزيغ عند رؤيتهما أو يطغى، أما بصر الرسول فما زاغ وما طغى».

إيمان وطمأنينة ويقين لرسول الله ﷺ والعُمَرَيْن:

يعني أبا بكر وعُمَر.

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «**بَيْنَمَا رَاعٍ في غَنَمِهِ عدَا عليه الذئْبُ فأخذ منه شاةً، فطلبه الرَّاعي فالْتفَت إليه الذئبُ فقال: من لها يوم السَّبُعْ** (١) **، يوم ليس لها راعٍ غيري؟ وبينَمَا رجُلٌ يسوقُ بقرةً قدْ حمل عليها فالْتفتتْ إليه فكلَّمَتْه فقالَت: إني لم أُخلقَ لهذا ولكني خُلِقْتُ للحرثِ**»، فقال النَّاسُ سُبْحانَ الله. قال النبيُّ ﷺ: «**فَإنِّي أُومِنُ بذلك وأبو بكرٍ وعمرُ بن الخطَّابِ** رضي الله عنهما»(٢).

نجاة المؤمن من عذاب الحيرة والشك:

إن رصيد الإيمان الذي تقوم الأمة المسلمة حارسة عليه في الأرض، ووارثة له منذ أقدم الرسالات، هو أكرم رصيد وأقومه في حياة البشرية. إنه رصيد من الهدى والنور، ومن الثقة والطمأنينة، ومن الرضا والسعادة، ومن المعرفة واليقين..

وما يخلو قلب بشري من هذا الرصيد حتى يجتاحه القلق والظلام، وتعمره الوساوس والشكوك، ويستبد به الأسى والشقاء.. ثم يروح يتخبط في ظلماء طاغية لا يعرف أين يضع قدميه في التيه الكئيب.

(١) يوم السبع: يوم يطردك عنها السَّبُع، وأبقى فيها وحدي لا راعي لها غيري.
(٢) رواه البخاري –«الفتح» (٧/ ٣٦٦٣) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٨).

وصرخات القلوب التي حرمت هذا الزاد، وحرمت هذا الأنس، وحرمت هذا النور، صرخات موجعة في جميع العصور.. هذا إذا كان في هذه القلوب حساسية وحيوية ورغبة في المعرفة، ولهفة على اليقين. فأما القلوب البليدة الميتة الجاسية الغليظة، فقد لا تحس هذه اللهفة ولا يؤرقها الشوق إلى المعرفة.. ومن ثم تمضي في الأرض كالبهيمة تأكل وتستمتع كما تأكل الأنعام وتستمتع، وقد تنطح وترفس كالبهيمة، أو تفترس وتنهش كالوحش، وتزاول الطغيان والجبروت والبغي والبطش، وتنشر الفساد في الأرض.. ثم تمضي ملعونة من الله، ملعونة من الناس..

والمجتمعات المحرومة من تلك النعمة مجتمعات بائسة – ولو غرقت في الرغد المادي – خاوية- ولو تراكم فيها الإنتاج – قلقة- ولو توافرت لها الحريات والأمن والسلام الخارجي – وأمامنا في أمم الأرض شواهد على هذه الظاهرة لا ينكرها إلَّا مراوغ يتنكر للحس والعيان!»[١].

ونحب من باب التحدث بنعمة الله، وإظهار فضله ومنته علينا بالتوفيق والإيمان، والعمل والالتزام أن نورد نموذجًا شعريًّا للضائعين العرب الذين فقدوا الإيمان ونعمته ولذته. نموذجًا لأحد القدماء من هؤلاء، ونموذجًا آخر لأحد المعاصرين.

□ قائد الضائعين السابقين هو عمر الخيام الذي يقول:

لبستُ ثوب العمر لم أستشر ... وحرت فيهِ بين شتى الفِكَر
وسوف أنضو الثوب عني ولم ... أدر لماذا جئت أين المفر؟

(١) «الظلال» (١/ ٣٤٢- ٣٤٣).

□ ويقول:

أحِسُّ في نفسي دبيبَ الفناء ... ولم أُصِبْ في العيش إلّا الشَّقاء
يا حسرتا إن حان حيني ولم ... تُتَح لفكري حل لغز القضاء
تروح أيامي ولا تغتدي ... كما تهبُّ الريحُ في الفَدْفَد
وما طويتُ النفسَ هَمًّا على ... يومين: أمسِ المنقضي والغد
غدٌ يظهر الغيب واليومُ لي ... وكم يخيب الظنُّ في المقبل
ولست بالغافل حتى أرى ... جمالَ دنياي ولا أجتلي
سمعتُ في حلميَ صوتًا أصاب ... ما فتق النومُ كِمام الشباب
أفِقْ فإن النومَ صنوُ الردى ... واشربْ فمثواك فِراش التراب
سأَنتحي الموت حثيثَ الورود ... ويُمْحى اسمي من سجل الوجود
هات اسقنيها يا منى خاطري ... فغايةُ الأيام طولُ الهجود (١)

ضياع إيليا أبي ماضي وحيرته وشكّه:

أما الضائعون العرب المعاصرون فيعبر عن ضياعهم أحدهم – وهو الشاعر النصراني البائس إيليا أبو ماضي، في قصيدته «الطلاسم» - في قصيدة شعرية تسجل أفكار الضائعين وخواطرهم، وتورد نماذج لسؤالاتهم واستفساراتهم، وتُري المؤمنَ حقيقتَهم، وتضع يديه على قلقهم وحيرتهم واضطرابهم.. وتعرض كل هذا في قالب شعري بليغ!! وصورة فنية معبرة. وإننا – وإن أنكرنا معاني القصيدة ومضمونها وما فيها

(١) «الظلال» (١/ ٣٤٢- ٣٤٣).

من كفر وضلال وضياع – نسجل تقديرنا للصورة الشعرية التي عرض بها الشاعر فكره، وثناءنا على أسلوبها الجميل وصياغتها البليغة وموسيقاها الرقيقة وإيقاعها الشجي، ونعترف لصاحبها بشاعرية موحية.

□ يقول في تلك القصيدة:

جئتُ، لا أعلمُ من أينَ، ولكني أتيتُ
ولقد أبصرتُ قُدّامي طريقًا فمضيتُ
وسأبقى سائرًا إن شئتُ هذا أم أبيتُ
كيف جئتُ كيف أبصرتُ طريقي؟
لست أدري!!

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود؟
هل أنا حر طليق أم أسيرٌ في قيود؟
هل أنا قائدُ نفسي في حياتي أم مقود؟
أتمنى أنني أدري.. ولكن:
لست أدري!!

وطريقي ما طريقي؟ أطويل أم قصير؟
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور؟
أأنا السائر في الدرب أم الدرب يسير؟
أم كلانا واقف والدهر يجري؟
لست أدري!!

ليت شعري وأنا في عالم الغيب الأمين
أتُراني كنت أدري أنني فيه دفين
وبأني سوف أبدو وبأني سأكون

أم تُـــراني كنـــت لا أدرك شـــيئًا

لست أدري!!

أتُـراني قبلمـا أصـبحت إنـسانًا سـويًّا

كنت محوًا أو محـالًا أم تـراني كنـت شـيئًا

ألهــذا اللغــز حــل؟ أم ســيبقى أبــديًّا؟

لــست أدري.. ولمــاذا لــست أدري..

لست أدري!!

إن يك الموت قصاصًا! أي ذنـب للطهـارة؟

وإذا كــان ثوابًــا، أي فــضل للــدعارة؟

وإذا كــان ومــا فيــه جــزاء أو خــسارة؟

فَلِــمَ الأســمــاء إثــم وصــلاح؟

لست أدري!!

إن يك الموتُ رُقادًا بعده صـحو طويـل

فلمـاذا ليس يبقى صحونا هذا الجميل؟

ولمـاذا المرء لا يدري متى وقـت الرحيـل؟

ومتـــى ينكـــشف الـــستر فيـــدري؟

لست أدري!!

إن يك الموت هجومًا يملأ النفس سلامًا

وانعتاقًــا لا اعتقــالًا وابتــداءً لا ختامًــا

فلمـاذا لا أعشق النوم ولا أهوى الحِمـاما

ولمــــاذا تجــزع الأرواح منـــه؟

لست أدري!!

أوَراء القبر بعد الموت بعث ونشور
فحياة، فخلود، أم فناء فدثور؟
أكلام الناس صدق؟ أم كلام الناس زور؟
أصحيح أن بعض الناس يدري؟
لست أدري!!
إن أكن أُبعث بعد الموت جثمانًا وعقلًا
أترى أبعث بعضًا أم تُرى أبعث كُلا؟
أتُرى أبعث طفلًا أم ترى أبعث كهلا؟
ثم هل أعرف بعد البعث ذاتي..
لست أدري!!(١)

هو لا يدري ولكننا – والحمد لله وله المِنّة والفضل- بإسلامنا وقرآننا وسنة نبينا ﷺ ندري كل شيء.. لا طلاسم عندنا.

إن هذا الشك والاضطراب والقلق الذي يتقلب على جمره الحائرون والمرتابون في وجود الله وحكمته، وعدله ورحمته، وجزائه في الآخرة، ووحيه إلى رسله – هذا الشك ليس شيئًا هينًا، إنه عذاب أليم، وكوَّة من الجحيم فُتحت على أهله، تلفحهم بنارها، وتشوي قلوبهم بحميمها، وكلمَا خف لهيبها هبت عليهم عواصف الشك من جديد، فاشتعلت النار، ليذوقوا العذاب.

إن هذا القلق أمر لا مناص لهم منه، إنه سيحرمهم سكون النفس، وهدوء الضمير. سيقض عليهم مضاجعهم، ويُنغص عليهم حياتهم،

---

(١) «الجداول» لإيليا أبو ماضي (١٠٨- ١٣١).

ويُؤرق عليهم ليلهم، ويكدِّر عليهم نهارهم، إنهم يعيشون كما قال الله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

□ غير المؤمن يعيش في الدنيا تتوزّعه هموم كثيرة، وتتنازعه غايات شتى، ورَضَي الناس غاية لا تدرك..

إذا رضيت عني كرام عشيرتي ... فلا زال غضبانًا عَلَيَّ لِئَامها

□ ولله در القائل:

ومَن في الناس يُرضي كل نفس ... وبين هوى النفوس مدى بعيد؟

□ وقد استراح المؤمن من هذا كله، وحصر الغايات كلها في غاية واحدة عليها يحرص وإليها يسعى، وهي رضوان الله تعالى، لا يبالي معه برضا الناس أو سخطهم، شعاره ما قال الشاعر:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غِضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالَمين خرابُ

إذا صح منك الود فالكل هَيِّنٌ ... وكل الذي فوق التراب ترابُ

* كما جعل المؤمن همومه همًّا واحدًا، وهو سلوك الطريق الموصل إلى مرضاته تعالى والذي يسأل الله في كل صلاة عدة مرات أن يهديه إليه، ويوفقه لسلوكه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة].. وهو طريق واحد لا عوج فيه ولا الْتواء ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

* وما أعظم الفرق بين رجلين، أحدهما عرف الغاية، وعرف الطريق إليها، فاطمأن واستراح، وآخر ضال، يخبط في عماية، ويمشي إلى غير غاية، لا يدري إلام المسير؟ ولا أين المصير؟ ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ

أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك]..

□ استهان المؤمن في سبيل هذه الغاية بكل صعب، واستعذب كل عذاب، واسترخص كل تضحية، بل قدَّمها راضيًا مستبشرًا، ألا ترى إلى خبيب بن عَدِي وقد صلبه المشركون؟ وأحاطوا به يُظهرون الشماتة فيه، يحسبون أنه ستنهار أعصابه، أو تضطرب نفسه، ولكنه نظر إليهم في يقين ساخر، وأنشد يقول:

ولستُ أُبالي حين أُقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله، وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

ألا ترى إلى الرجل من الصحابة ومن تبعهم بإحسان كيف كان يخوض عباب المعركة، والموت يبرق ويرعد، هو يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه].

ألا تسمع لأحدهم وقد نفذ الرمح في صدره حتى وصل إلى ظهره، فما كان منه إلَّا أن قال: فزتُ ورب الكعبة.

وفي غزوة الأحزاب، وقد ابتُلِيَ المؤمنون، وزُلزلوا زلزالًا شديدًا إذ جاءهم الأعداء من فوقهم ومن أسفل منهم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظن الناس بالله الظنون، وكشف المنافقون النقاب، فقالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلَّا غرورًا.

* في هذا الجو الرهيب كان موقف المؤمنين هو موقف السكينة والطمأنينة الذي عُهِدَ منهم، والذي سجله الله لهم في كتابه: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

* ما الذي وهب هؤلاء المجاهدين السكينة، والقتال مستعر الأوار؟ ومنحهم الطمأنينة والموت فاغر فاه؟ إنه الإيمان وحده، وصدق الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح].. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

* لقد عرف المؤمن الغاية فاستراح إليها، وعرف الطريق فاطمأن به. إنه طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين. إنه ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].. الذي يهدى إليه محمد ﷺ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى].

* وبهذا الصراط المستقيم، كان المؤمن في أخلاقه وسلوكه مطمئنًّا غير قلق، ثابتًا غير متقلب، واضحًا غير متردد، مستقيمًا غير متعرج، بسيطًا غير معقد، لا يحصره تناقض الاتجاهات، ولا يعذبه تنازع الرغبات، ولا يحطم شخصيته الصراع الداخلي في نفسه.. أيفعل أم يترك؟ أيفعل هذا أم ذاك؟ إن له مبادئ واضحة، ومعايير ثابتة، يرجع إليها في كل عمل وكل تصرف، فتعطيه الإشارة، وحسبه كتاب ربه هاديًا، ورسوله معلمًا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].

* المؤمن لأمر ربه مسارع مطواع، مهما يكن في ذلك من خسران منفعة عاجلة، أو قهرٍ لشهوة طاغية، أو مقاومة لعاطفة قوية أو غريزة قاهرة أو عادة غالبة. وفي قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أكبر العظة ويختتم الله قصة الخليل بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات].

الفلاحُ كلُّ الفلاح للمؤمن:

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور].

أجل هم المفلحون: مفلحون في الآخرة بدخول الجنات ورضوان من الله أكبر. ومفلحون في الدنيا بما أنعم الله عليهم من سكينة الأنفس، وطمأنينة القلوب، وانشراح الصدور.

أنس المؤمن بالوجود كله:

والمؤمن يعيش موصولًا بالوجود كله، ويحيا في أنس به، وشعور عميق بالتناسق معه، والارتباط به، فليس هذا الكون عدوًّا له، ولا غريبًا عنه، إنه مجال تفكره واعتباره، ومسرح نظره وتأملاته، ومظهر نِعَم الله وآثار رحمته.

هذا الكون الكبير يخضع لنواميس الله كما يخضع المؤمن، ويُسبِّح بحمد الله كما يُسبِّحُ المؤمن.

والمؤمن ينظر إليه نظرته إلى دليل يهديه إلى ربه، وإلى صديق يؤنسه في وحشته..

وبهذه النظرة الودود الرحبة للوجود، تتسع نفس المؤمن، وتتسع

حياته، وتتسع دائرة الوجود الذي يعيش فيه.

فليس هناك أوسع من صدر المؤمن وقلبه الذي وسع العالمين، المنظور وغير المنظور، عالَم الشهادة وعالَم الغيب، ووسع الحياتين: الدنيا والآخرة.

الإيمان بالله وبالغيب هو الذي يرتفع بالإنسان من الحيوانية إلى الإنسانية، ومن الطفولة إلى الرشد؛ لأنه يرتفع بالإنسان من المحسوس إلى المعقول، ومن المنظور إلى غير المنظور، ومن عالَم الشهادة إلى عالَم الغيب.

إن المؤمن يعيش في سعة من نفسه وقلبه، ولو لم يكن في سعة من عيشه، فطبيعة الإيمان توسع النفس والقلب والحياة؛ لأنه يصل صاحبه بالوجود كله، ظاهره وباطنه، عُلويه وسُفليه، وما يبصر منه وما لا يبصر. ماضيه وحاضره ومستقبله. يصله بالسموات والأرض ومن فيهن. يصله بالملائكة وحملة العرش والقوى الروحية من جنود الله التي لا يعلمها إلَّا هو، يصله بحَمَلة النور الإلهي، وأصحاب الرسالات السماوية من لدن آدم أبي البشر إلى محمد ﷺ، يصله بالصدِّيقين والشهداء والصالحين من كل أمة، ومن كل عصر، يصله بالآخرة والبعث والحساب والجنة والنار، وباختصار: يصله بالوجود ورب الوجود، الأول والآخر، الظاهر والباطن.

النفس المؤمنة نفس رحبة واسعة، وكيف لا وهي تعيش في وجود سعته السموات والأرض، والعرش والكرسي، والدنيا والآخرة، والأزل والأبد؟

والنفس المؤمنة رحبة واسعة؛ لأنها تعيش في نور يهديها سبيلها،

ويكشف لها من حولها، ومن شأن النور أن يوسع الدائرة التي يحيا فيها الإنسان على عكس الظلام، فإن الذي تكتنفه الظُلمة لا يرى ما حوله ولا من حوله. بل لا يرى الشيء وهو بجواره تكاد تلمسه يداه، بل لا يرى نفسه، ولا شيء أقرب إليه من نفسه، فإذا لاح له شعاع خافت بدأ يرى نفسه، أو شيئًا مما حوله. فإذا قوي هذا النور. وانتشرت أشعته العريضة، أضاء له دائرة أوسع، وعلى قدر قوة هذا النور، وقوة البصر عند الإنسان تكون سعة الدائرة التي يدركها البصر.

* فالقلب يتسع وينفسح وينشرح بنور الإيمان واليقين، كما يضيق وينكمش بظُلمة الإلحاد والشك والنفاق: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

المؤمن لا يعيش بين (لو) و(ليت):

وإن من أهم عوامل القلق الذي يُفقد الإنسان سكينة النفس وأمنها ورضاها هو تحسره على الماضي وسخطه على الحاضر، وخوفه من المستقبل.

□ إن بعض الناس تنزل به النازلة من مصائب الدهر، فيظل فيها شهورًا وأعوامًا، يجتر آلامها ويستعيد ذكرياتها القاتمة، متحسرًا تارة، متمنيًا أخرى. شعاره: ليتني فعلت، وليتني تركت، لو أني فعلت كذا لكان كذا، وقديمًا قال الشاعر:

ليت شعري، وأين مني «ليت»؟ إن «ليتا» وإن «لوًّا».. عناء

إن الضعف الإنساني يغلب على الكثيرين، فيجعلهم يطحنون المطحون ويبكون على أمس الذاهب، ويعضون على أيديهم أسفًا على ما

فات، ويُقلِّبون أكفهم حسرة على ما مضى.

□ وأبعد الناس عن الاستسلام لمثل هذه المشاعر الأليمة، والأفكار الداجية هو المؤمن الذي قوي يقينه بربه، وآمن بقضائه وَقَدرِه، فلا يُسلم نفسه فريسة للماضي وأحداثه، بل يعتقد أنه أمرٌ قضاه الله كان لا بد أن ينفذ، وما أصابه من قضاء الله لا يقابل بغير الرضا والتسليم، ثم يقول ما قال الشاعر:

سبقت مقادير الإله وحكمه ... فأرح فؤادك من «لعل» ومن «لو»

□ وقول الآخر:

ولست براجع ما فات مني ... بلهف ولا بليت ولا لو أني

إنه لا يقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن يقول: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان كما علَّمه الرسول ﷺ.

❊ أنه يُوقن أن قَدَرَ الله نافذ لا محالة، فلمَ السخط؟ ولمَ الضيق والتبرم؟ والله تعالى يقول: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

[الحديد].

لا أمن لمجتمع لا إيمان له، والجرائم البشعة وليدة الكفر والقَسْوة:

إن القلوب المؤمنة رحيمة، والكفر بالله يُنبعه قلبٌ غليظٌ قاس، والقلوب القاسية هي التي ترتكب عادة أبشع الجرائم التي تقشعِرُّ لِهَوْلها الأبدان: «نيرون» الذي أحرق روما، و«لينين» الذي قال في بعض رسائله إلى مكسيم جوركي: إنَّ قتْلَ ثلاثة أرباع العالم يهون في سبيل أن يُصبِحَ

الربع الباقي شيوعيًّا.

□ كتب الصحفي «علي أمين»[١] عما يفعله الشيوعيون ويحدث منهم لبعضهم البعض فقال: في كتاب «ماذا يحدث للشيوعيين» الذي ألَّفه الكاتب الرُّوسي «ميشيل باديف» إحصاءٌ غريب عن عدد الذين أعدمهم «ستالين» من أنصاره بعد وفاة «لينين».

□ فقد أعدم «ستالين» جميع أعضاء أول مجلس إدارة للحزب اجتمع بعد وفاة «لينين»، وأجمع على انتخاب «ستالين».

□ وأعدم كل وزراء «لينين» واتَّهمهم بالخيانة.

□ وأعدم ٨٠ بالمئة من سكريتري اتحادات العمّال الذين اجتمعوا وباركوا انتخابه.

□ وأعدم ١٥ عضوًا من الـ ٢٧ عضوًا الذين تألَّفت منهم اللجنة التي وضعت دستور ١٩٣٦.

□ وأعدم ٤٣ سكرتيرًا من ٥٣ سكرتيرًا، الذين يشرفون على تنظيمات الحزب الشيوعي.

□ وأعدم ٧٠ من ٨٠ عضوًا من أعضاء مجلس الدفاع السوفيتي.

□ وأعدم ثلاثة مارشالات من خمسة مارشالات في الجيش الأحمر.

□ وأعدم ٩ وزراء من الـ ١١ وزيرًا الذين كان يتألَّف منهم مجلس وزرائه عام ١٩٣٦.

□وأعدم ٦٠ بالمئة من قُوَّاد الجيش الأحمر، وثلاثين ألف موظف

---

(١) في كتاب «أفكار للبيع» (ص١٤١) تحت عنوان: «أنصار الطغاة» لعلي أمين. انظر «الإيمان والحياة» (ص٢٦٦، ٢٦٧).

من موظَّفي الحكومة.

هذا فعلهم بأنفسهم وأعوانهم فكيف بالمسلمين؟!!

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يحي دينًا

ومن رَضيَ الحياةَ بغير دينٍ ... فقد جعل الفناء لها قرينا

(١٤) الرضا ثمرة مباركة من ثمار الإيمان:

فالمؤمن راض عن ربِّه، وعن الكون والحياة، عميق الإحساس بنعم الله عليه، راضٍ بما قدَّر الله عليه، وبما قسم له من رزق. والله تعالى بقسطه جعل الفرح والرَّوح في الرضا واليقين، وجعل الغمَّ والحُزْن في السخط والشك.

□ قال ابن القيم رحمه الله: «قلَّ أن يسلمَ الساخِطُ من شَكٍّ يُداخِلُ قلبه ويتغلغَلُ فيه، وإن كان لا يشعر به، فلو فتَّش نفسه غاية التفتيش، لوجد يقينه معلولًا مدخولًا، فإن الرِّضا واليقين أخوان مصطحِبَان، والشك والسخط قرينان.

* قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

□ قال بعض السلف: «هي المصيبة تصيب العبد فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسَلِّم. ففي الإيمان أعظم تسلية للمؤمنين عند المصائب».

موقف إيماني لإبراهيم الحربي: رضاه بوفاة ولده:

□ عن محمد بن خلف قال: «كان لإبراهيم الحربي ابن كان له إحدى عشرة سنة، حفظ القرآن، ولقَّنه من الفقه جانبًا كبيرًا، قال: فمات، فجئت أُعَزّيه، فقال: كنت أشتهي موت ابني هذا.

قال: فقلت له: يا أبا إسحاق أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبي

قد أنجب، ولقنته الحديث والفقه؟!

قال: نعم، رأيت في منامي كأن القيامة قد قامت، وكأن صبيانًا بأيديهم قِلال فيها ماء، يستقبلون الناس فيسقونهم، وكان اليوم يومًا حارًا شديدًا حره، قال: فقلت لأحدهم: اسقني من هذا الماء، فنظر إِليَّ وقال: ليس أنت أبي، قلت: فأي شيءٍ أنتم؟ قال لي: نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا، وخَلَّفْنَا أباءنا، فنستقبلهم نسقيهم الماء، قال: فلهذا تمنيت موته»[١].

وموقفٌ لأم عقيل تعجز عنه الكلمات:

□ قال الأصمعي: «خرجت أنا وصديق لي إلى البادية، فضللنا الطريق فإذا نحن بخيمةٍ عن يمين الطريق، فقصدناها، فسلمنا فإذا امرأة ترد علينا السلام، قالت: ما أنتم؟ قلنا: قوم ضلوا عن الطريق أتيناكم فأَنِسْنَا بكم.

فقالت: يا هؤلاء، وَلُّوا وجوهكم عنّي حتى أقضي من حقكم ما أنتم له، ففعلنا، فألقت لنا مِسحًا[٢] فقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني.

ثم جعلت ترفع طرف الخيمة وتردها، إلى أن رفعتها فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أما البعير فبعير ابني، وأما الراكب فليس بابني، فوقف الراكب عليها فقال: يا أم عقيل أعظم الله أجرك في عقيل.

قالت: ويحك! مَات ابني؟ قال: نعم، قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر.

---

(١) «تسلية أهل المصائب» وعنه «مواقف إيمانية» (ص٣١٠).

(٢) المسح: الفراس.

فقالت: انزل فاقض ذمام (١) القوم، ودفعت إليه كبشًا فذبحه وأصلحه وقرب إلينا الطعام، فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها، فلمَّا فرغنا خرجت إلينا وقد تكورت، فقالت: يا هؤلاء، هل فيكم من يحسن من كتاب الله شيئًا؟ قلت: نعم، قالت: اقرأ عَلَيَّ من كتاب الله آيات أتعزى بها.

قلت: يقول الله ﷻ في كتابه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة].

قالت: الله إنها لفي كتاب الله هكذا؟ قلت: الله إنها لفي كتاب الله هكذا، قالت: السلام عليكم، ثم صَفَّتْ قدميها وصلت ركعات، ثم قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، عند الله أحتسب عقيلًا، - تقول ذلك ثلاثًا - اللهم إني فعلت ما أمرتني به فأنجز لي ما وعدتني به» (٢).

وهذا الموقف تعجز عنه الكلمات في كرم الضيافة، والصبر، والرضا.

موقف إيماني لصحابي يقنعُ ويعِفُّ فيموت جميعًا!! :

• انظر كيف يصنع الإيمان بقلوب المؤمنين (٣)، كيف يُحوِّل طموحهم من الدنيا ومُتَعِها إلى الله والدار الآخرة:

---

(١) الذمام: الحُرمة، وإنما تقصد حق ضيافة القوم.

(٢) «عودة الحجاب» للدكتور محمد إسماعيل المقدم (٢/ ٥٤٨- ٥٤٩)، و«المنحة المحمدية» للشيخ محمد عبد السلام الشقيري (ص٢٠٨- ٢٠٩).

(٣) ذكرها ابن القيم في «زاد المعاد» عند ذكر «الوفود».

«قدم وفد تُجيب «وهم من السُّكون باليمن- ثلاثة عشر رَجُلًا مُسْلِمًا - فَسُرَّ بهم النبي ﷺ وأكرَمَ منزلتهم، وأمر بلالًا أن يُحسِنَ ضيافتهم، وجعلوا يسألون النبي ﷺ ويتعلَّمون منه، وأقاموا أيَّامًا ولم يُطيلوا المكث، رغبةً في رجوعهم إلى قومهم، ليُعلِّموهم مما علَّمهم رسول الله ﷺ، ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ يُوَدِّعونَه، فأرسل إليهم بلالًا فأجازهم بأرفع ما كان يُجيز به الوفود، ثم قال: «**هل بقى منكم أحدٌ**» قالوا: نعم – غلامٌ خلَّفناه على رَحْلِنا هو أحدثنا سِنًّا.. قال: «**أرسلوه إلينا**».. فلمَّا رجعوا إلى رحالهم.. قالوا للغلام: انطَلِقْ إلى رسول الله ﷺ فاقض حاجتك منه، فإنا قد. قَضَيْنَا حوائجنا منه وودَّعناه. فأقبل الغلامُ حتى أَتَى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إني امرؤٌ من بني أبذى – يقول – من الرَّهْط الذين أتوْك آنِفًا فقضيتَ حوائِجَهم فاقض حاجتي يا رسول الله قال: «**وما حاجتك؟**».

قال:إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي – وإن كانوا قد قدموا راغبين في الإسلام- وساقوا ما ساقوا من صَدَقاتِهم. إني – والله- ما أقدمني من بلادي إلَّا أن تسأل الله ﷻ أن يغفرَ لي ويرحمني، وأن يجعلَ غنايَ في قلبي.

فقال رسول الله ﷺ وأقبل على الغلامِ: «**اللهم اغفر له وارحمه، واجعل غِناه في قلبه**». ثم أمَرَ له بمثل ما أمر به لرجُل من أصحابه فانطلقوا راجعين إلى أهليهم ثم وافوا رسول الله ﷺ سنة عشر من الهجرة فقالوا: نحن بنو أبذى، فقال رسول الله ﷺ: «**ما فعل الغلامُ الذي أتاني معكم؟**»، قالوا: يا رسول الله؛ ما رأينا مثله قطّ، وما حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله، لو أنَّ الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها، ولا التفت إليها!.

فقال رسول الله ﷺ: «**الحمدُ لله. إني لأرجو أن يموتَ جميعًا**». فقال رجلٌ منهم: أَوَليس يموت الرَّجُل جميعًا يا رسول الله؟

فقال الرسول – مُبيِّنًا لهم أنَّ مِن الناس من يموتُ مُشَتَّتًا مُوَزعًا –: «**تَشَعَّبُ أهواؤه وهمومه في أَوْدِيَةِ الدنيا، فلعَلَّ أجله أن يُدركه في بعض تلك الأودِية، فلا يُبالي الله عَجَّلَ في أيِّها هلك!**».

قالوا: فعاش ذلك الغلام فينا على أفضل حالٍ، وأزهده في الدنيا، وأقنعه بما رزق الله فلمَّا توفِّي الرسول ﷺ، ورَجَع مَن رجع من أهل اليمن عن الإسلام، قام في قومه، فذكَّرهم الله والإسلام، فلم يرجع منهم أحد. وجعل أبو بكر يذكره ويسأل عنه، حتى بلغه حاله وما قام به فكتب إلى زياد بن لبيد يوصيه به خيرًا»[(١)].

✍ الناس يموتون على ما عاشوا عليه، فمن عاش جميعًا مات جميعًا، ومن عاش أوزاعًا شتَّى مات كما عاش. وقليل من الناس، بل أقل من القليل، ذلك الذي يعيش جميعًا ويموت جميعًا، ويجعل غايته الفرار إلى الله، وكل شيءٍ فيه لله وبالله.

(١٥) ومن ثمرات الإيمان فرح المؤمن وسروره بالطاعة وحزنه على المعصية:

• عن أبي أُمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا سرَّتْكَ حَسَنَتُكَ، وساءتْكَ سيئتُكَ، فأنت مؤمن**»[(٢)].

---

(١) «الإيمان والحياة» (ص١٣٠ - ١٣١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، والطبراني في «الكبير»، والحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، والضياء، وصححه الألباني في =

كم يبذل المؤمن جهده في تربية نفسه وأخذها بالجدّ والهمّة والعزيمة، والمجاهدة والمراقبة واليقظة، ثم تصبح الطاعة له خُلقًا دائمًا وحالة مستمرة، وظلالًا مباركة، وبيئة نامية.. تكون مثل الماء للسمك، ومثل الهواء للإنسان.

وفي المقابل ينفر من المعصية ويكرهها، ولا يطيق لها ممارسة ولا سماعًا، إنه يُخْرجها من قلبه وتصوره وفكره وشعوره وخياله وكيانه.. ثم يخرجها من حياته ودنياه وواقعه وممارساته..

هذا المؤمن عندما تثمر فيه شجرة الإيمان ثمرها تسره الطاعة ويفرح بها، وتسؤوه المعصية ويحزن منها، ويحب الطاعة ويستلذها، ويكره المعصية ويستقبحها.. ويشتاق للطاعة ويريدها، ويكره المعصية وينفر منها.. ويصدق عليه قول الله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات]. ويصدق عليه قول الرسول ﷺ: **«إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن»**.

(١٦) ومن ثمرات الإيمان أن المؤمنين يهرعون إلى الإيمان ويلجؤون إليه في كل ما يعتريهم من خير وشر وطاعة ومعصية ويسر وعسر:

فإذا خُوِّفوا لجؤوا إلى الإيمان واعتصموا به.

وإذا فعلوا طاعة لجؤوا إلى الإيمان.

وإذا فعلوا معصية لجؤوا إليه الإيمان.

«الصحيحة» (٥٥٠)، و«صحيح الجامع» (٦٠٠).

وإذا أنعم الله عليهم بالنعم لجؤوا إلى الإيمان.

وإذا نزلت بهم المصائب لجؤوا إلى الإيمان.

إذا خوفوا من كيد أعدائهم لجؤوا إلى إيمانهم واعتصموا به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

وإذا فعلوا طاعة لجؤوا إلى الإيمان فعلموا أن الله عز وجل هو الذي وفقهم إليها، وأعانهم عليها:

إِذَا لَمْ يَكُـنْ عَـوْنٌ مِـنَ اللهِ لِلْفَتَـى ... فَـأَوَّلُ مَـا يَجْنِـي عَلَيْـهِ اجْتِهَـادُهُ

□ فالله عز وجل هو الأول والآخر والظاهر والباطن، فمن أوليته عز وجل أنه يلهم العباد التوبة وييسرها لهم ويتوب عليهم ليتوبوا، ومن أوليته أنه يلهم العبد الدعاء ويفتح عليه باب المسألة حتى يدعو العبد، ومن أوليته أنه يوفقه للعمل الصالح وييسر له أسبابه.

وإذا وقعوا في معصية لجؤوا إلى الإيمان، فعلموا بمقتضى إيمانهم أنهم وقعوا فيما يسخط الله عز وجل، وأن عليهم أن يبادروا بالتوبة، وأن يكثروا من الحسنات الماحية التي تنجيهم من عقاب الله عز وجل.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ

﴿٢٠٢﴾ [الأعراف] [(١)].

(١٧) ومن ثمرات الإيمان الانتفاع بالمواعظ والتذكير والآيات:

* قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات].

* وقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر].

(١٨) ومن ثمرات الإيمان حِفْظ المؤمن من الوقوع في الفواحش:

• فإن من الإيمان محبّة الله عَزَّوَجَلَّ، ومن الإيمان الحياء من الله، ومن الإيمان الخوف من الله، وكل ذلك يحول بين المؤمن وبين الوقوع فيما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ، قال النبي ﷺ: **«لا يَزْنِي الزَّاني حِيْنَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤمِنٌ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»** [(٢)].

فمن وقع في مثل هذه الفواحش والكبائر – والعياذ بالله- لا بد أنه أوتي من قبل إيمانه، ولو كانت شجرة الإيمان ثابتة في قلبه وارفة الظلال كثيرة الثمار لمنعته من الوقوع في هذه الفواحش، فالمؤمن غير معصوم

---

(١) «شجرة الإيمان» (ص٨٦- ٨٧).

(٢) رواه البخاري (١٠/ ٣٣) ك الأشربة، ومسلم (٢/ ٤١) ك الإيمان. وللحديث طرق كثيرة انظر: «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» (١/ رقم ١٨٦). وقال النووي: هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه، فالقول الصحيح الذي قاله المحققون: أن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله ومختاره، كما يقال: لا علم إلَّا ما نفع، ولا مال إلَّا الإبل، ولا عيش إلَّا عيش الآخرة «شرح النووي» هامش (٢/ ٤١).

من المعاصي ولكنه قد يقارف الصغائر ثم يتوب إلى الله ولا يستمر على معصيته ويحول الإيمان بينه وبين الكبائر؛ قال الله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف]، فالله ﷻ يحول بين المؤمن وبين المعصية، ومن أعظم الأسباب لذلك الإخلاص لدين الله ﷻ، فمن علم الله ﷻ منه الإخلاص حفظه من المعاصي والشرور التي توجب دخول النار، كما أن من أعرض عن الإيمان حال الله ﷻ بينه وبينه إذا أراده بعد ذلك عقوبة له على إعراضه، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام].

* وحذرنا الله ﷻ من عدم الاستجابة لله ﷻ وللرسول ﷺ خشية أن يحال بعد ذلك بين العبد وبين إرادة الهداية، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنفال].

(١٩) من ثمرات الإيمان أن أمر المؤمن كله له خير:

• قال النبي ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحدٍ إلّا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر وكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»**(١).

(١) رواه أحمد (٦/ ١٦)، الدارمي (٢/ ٣١٨)، ومسلم (١٨/ ١٢٥).

(٢٠) ومن ثمرات الإيمان أن المؤمن نافع لنفسه متعد نفعه إلى غيره، أو قاصر النفع على نفسه وفي كل خير:

• قال النبي ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها»(١).

□ قال العلامة السعدي: «وهؤلاء القسمان هم خير الخليقة؛ فإن الناس أربعة أقسام:

الأول: خير في نفسه، متعد خيره إلى غيره، وهو خير الأقسام. فهذا المؤمن الذي قرأ القرآن وتعلم علوم الدين، فهو نافع لنفسه متعد نفعه إلى غيره، مبارك أينمَا كان، كما قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١].

والثاني: طيب في نفسه صاحب خير، وهو المؤمن الذي ليس عنده من العلم ما يعود به على غيره.

فهذان القسمان هما خير الخليقة، والخير الذي فيهم عائد إلى ما معهم: من الإيمان القاصر والمتعدي نفعه إلى الغير بحسب أحوال المؤمنين.

فعاد الخير كله إلى الإيمان وتوابعه، وإن تفاوت المؤمن في هذا الخير(٢).

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٦٨٢)، ومسلم –صلاة المسخرين (٦/ ٨٣، ٨٤).

(٢) انظر المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي (٣/ ١٣٧، ١٣٨).

• ومثل هذا قوله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»(١).

(٢١) ومن ثمرات الإيمان إنجاء الله عَزَّ وَجَلَّ للمؤمنين في الدنيا والآخرة:

* قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء].

فبعد أن ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ إنجاءه ليونس عليه السلام من الكرب والغم، أخبر أن هذه عادته عَزَّ وَجَلَّ مع أوليائه المؤمنين، وليست معاملة خاصة لنبيه الكريم.

* وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت].

* وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف].

• والنهي عن المنكر من الإيمان كما قال النبي ﷺ: «**ومن لم يستطيع فبقلبه وذلك أضعف الإيمـان**».

* وأما إنجاء المؤمنين في الآخرة فظاهر لا يحتاج إلى دليل، ويشير إليه قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر]»(٢).

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٣٦٥) وابن ماجه (٤٠٣٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٦٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٣٩).

(٢) «شجرة الإيمان» (ص٩٥- ٩٦).

(٢٢) من الإيمان ينبثق الأمل:

الأمل إكسير الحياة، ودافع نشاطها، ومخفِّفُ وَيْلاتها، وباعث البهجة والسرور فيها..

ما أضيقُ العيشِ لو لا فسحة الأَمَل.

□ أو كما قال الشاعر:

مُنـى إن تكـن أحـسن المُنـى ... وإلّا فقـد عـشنا بهـا زمنًـا رغـدًا

□ وضد الأمل اليأس.. وهو انطفاء جذوة الأمل في الصدر، وانقطاع خيط الرجاء في القلب، وهو العقبة الكئود والمعوِّق القاهر الذي يحطم في النفس بواعث العمل.. ورحم الله من قال:

واليأس يُحدِث في أعضاء صاحبه ... ضعفًا ويُورث أهل العـزم توهينـا

□ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «الهلاك في اثنتيْن: القنوط والعُجْب».

* واليأس والكفر متلازمان، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف].

الإيمان يلد الأمل:

وفي الجانب الآخر نجد الإيمان والأمل متلازمين، فالمؤمن أوسع الناس أملًا، وأكثرهم تفاؤلًا واستبشارًا، وأبعدهم عن التشاؤم والتبرم والضجر، إذ الإيمان معناه الاعتقاد بقوة عُليا تُدَبِّر هذا الكون لا يخفى عليها شيء، ولا تعجز عن شيء، الاعتقاد بقوة غير محصورة، ورحمة غير متناهية، وكرم غير محدود، الاعتقاد بإله قدير رحيم، يُجيب

المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويمنح الجزيل، ويغفر الذنوب، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، إلَهٌ هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأبر بخلقه من أنفسهم.

إلَهٌ يبسط يده باللَّيل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسيء اللَّيل.

إلَهٌ يفرح بتوبة عبده أشد من فرحة الضال إذا وُجِدَ، والغائب إذا وفد، والظمآن إذا ورد.

إلَهٌ يجزي الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعين ضعف أو يزيد، ويجزي السيئة بمثلها أو يعفو.

إلَهٌ يدعو المُعرِض عنه من قريب، ويتلقى المُقْبِلُ عليه من بعيد، ويقول: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرَّب إلي شبرًا تقربتُ إليه ذراعًا، وإن تقرَّب إلي ذِراعًا تقربتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولة**»[(١)].

إلَهٌ يُداول الأيام بين الناس. فيُبدِّل من الخوف أمنًا، ومن بعد الضعف قوة، ويجعل من كل ضيق فرجًا، ومن كل هَمٍّ مخرجًا، ومع كل عُسرٍ يُسرًا.

المؤمن الذي يعتصم بهذا الإله البرِّ الرحيم، العزيز الكريم، الغفور الودود، ذي العرش المجيد، الفعَّال لما يريد – يعيش على أمل لا حد له، ورجاء لا تنفصم عُراه. إنه دائمًا متفائل، ينظر إلى الحياة بوجه ضاحك،

---

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن أبي هريرة.

ويستقبل أحداثها بثغر باسم، لا بوجه عبوس قمطرير.

فهو إذا حارب كان واثقًا من النصر؛ لأنه مع الله فالله معه، ولأنه لله فالله له.

(٢٣) ومن ثمرات الإيمان كل ما جعله الله عز وجل من ثمرات التقوى:

لأن التقوى هي أعلى درجات الإيمان، وهي أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه، فتعلم أن الله يراك.

* فمن ذلك المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا تحتسب، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق].

* ومن ذلك السهولة واليسر في كل أمر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطلاق].

* ومن ذلك تيسر تعلم العلم النافع، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ..﴾ [البقرة: ٢٨٢].

* ومن ذلك إطلاق نور البصيرة، قال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

* ومن ذلك البركات من السماء والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

* ومن ذلك الحفظ من كيد العدو، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ..﴾ [آل عمران: ١٢٠].

* ومن ذلك حفظ الذرية الضعاف بعناية الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

﴿وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء].

* سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة].

* سبب لتكفير السيئات وعظم الأجر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق: ٥].

* تجمع بين المتحابين من أهلها حين تنقلب كل صداقة إلى عداوة، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف].

ومسكُ الختام: أحاديث عطرة في الإيمان عن النبي عليه الصلاة والسلام:

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «انْتدبَ[(١)] الله لِمَنْ خرج في سَبيله لا يُخْرجهُ إلّا إيمانٌ بي وتصديقٌ برسلي أن أُرْجِعهُ بما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ، أو أُدْخلهُ الجنَّة، ولولا أنْ أَشُقَّ على أُمَّتي ما قعدْتُ خلف سريةٍ، ولوددتُ أني أقتَلُ في سبيل الله ثمَّ أحيا، ثمَّ أقْتَلُ ثُمَّ أحيا، ثم أقتلُ»[(٢)].

• عن أبي ذرٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يومًا: «أتدْرُونَ أين تذهبُ هذه الشَّمسُ؟». قالوا: الله ورسوله أعلمُ. قال: «إنَّ هذه تَجْري حتَّى تنتهي إلى مُستقَرِها تحت العرش، فتخِرُّ ساجدةً فلا تزالُ كذلك حتَّى يُقال لها: ارتفعي ارْجعي من حيث جئْتِ فترْجعُ فتُصْبحُ طالعةً من مطلعها، ثمَّ

---

(١) انتدب الله: أي سارع بثوابه وحسن جزائه، وقيل: أجابه إلى المراد أو تكفَّل بمطلوبه.

(٢) البخاري «الفتح» (١/ ٣٦) واللفظ له. ومسلم (١٨٧٦).

تجري حتَّى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخِرُّ ساجدَةً، ولا تزالُ كذلك حتَّى يقال لها: ارْتفِعي ارجِعي من حيثُ جئتِ فترْجِعُ فتُصْبِحُ طالعةً من مطلعها، ثمَّ تَجْري لا يستنكرُ الناس منها شيئًا حتى تنتهي إلى مُسْتقرِّها ذاك تحت العرش. فيُقالُ لها ارتَفِعي، أصبحي طالعةً من مغْربك، فتُصْبح طالعةً من مغرِبها». فقال رسول الله ﷺ: «أتَدْرُونَ متى ذَاكُم؟، ذاك حين لا ينْفعُ نفسًا إيمانُها لم تكنْ آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا»(١).

• عن أسمَاءَ رضي الله عنها قالت: خسفتِ الشمسُ على عهد رسول الله ﷺ. فدخلتُ على عائشة وهي تُصلِّي. فقلت: ما شأنُ الناس يُصَلُّون؟ فأشارتْ برأْسِها إلى السَّمَاءِ. فقلت: آيةٌ؟ قالت: نعم. فأطال رسول الله ﷺ القيام جدًّا. حتى تجلَّاني الغَشْيُ(٢). فأخذت قربةً من ماءٍ إلى جنبي. فجعلتُ أصُبُّ على رأسي أو على وجهي من المَاء. قالت: فانصرفَ رسول الله ﷺ وقد تجلَّتِ الشمسُ. فخطب رسول الله ﷺ الناسَ. فحمِدَ الله وأثنى عليه ثمَّ قال: «أمَّا بعد. ما من شيءٍ لم أكُنْ رأيتُهُ إلَّا قدْ رأيْتُهُ في مقامي هذا. حتَّى الجنَّة والنَّار. وإنَّهُ قدْ أوحيَ إليَّ أنَّكم تُفْتَنُون في القبورِ قريبًا -أو مثل- فتنةِ المسيح الدَّجَّال. -لا أدري أي ذلك قالت أسمَاءُ-. فيُؤتَى أحدكم فيُقالُ: ما علمُك بهذا الرَّجُل؟ فأمَّا المؤمن أو الموقنُ. فيقول: هو محمدٌ، هو رسولُ الله، جاءنَا بالبيِّنات والهُدَى. فأجبْنا

---

(١) البخاري «الفتح» (٦/ ٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

(٢) الغشي: طرف من الإغماء، تجلاني الغشي أي أصابني طرف من الإغماء، وعلاني مرض قريب من الإغماء لطول الوقوف.

وأطعنا. ثلاث مرارٍ. فيقال له: نمْ. قدْ كنَّا نعلم، إنك لتؤمنُ به. فنمْ صالحًا. وأمَّا المُنَافِقُ أو المرتابُ فيقولُ: لا أدري. سَمِعْتُ النَّاس يقولون شيئًا فقلت»[١].

• عن أبي مسعودٍ رضي الله عنه قال: أشارَ النَّبيُّ ﷺ بيده نحو اليمن، فقال: «ألا إنَّ الإيمان هاهُنا وإنَّ القسوةَ وغلظَ القلوب في الفدَّادين[٢] عند أصُولِ أذناب الإبل حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومُضَر»[٣].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خلقًا وخيارُهُمْ خيارُهُمْ لنسائِهِمْ»[٤].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أنْ أقاتلَ النَّاس حتَّى يشهدوا أَنْ لا إله إلَّا الله ويؤمنوا بي وبمَا جئتُ به. فإذا فعلوا ذلك عصمُوا منِّي دماءَهُم وأموالهم إلَّا بحقِّها وحسابُهُمْ على الله»[٥].

• عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أوَّلُ الناس تنشقُّ الأرض عن جمجمتي يوم القيامةِ ولا فخر، وأُعْطى لواءَ الحمد ولا فخر، وأنا سيِّدُ الناس يوم القيامة ولا فخرَ، وأنا أوَّلُ من يدخل الجنَّةَ ولا

(١) البخاري «الفتح» (١/ ٨٦)، ومسلم (٩٠٥).
(٢) في الفدادين: هم الذين تعلو أصواتهم في إبلهم وخيلهم وحروثهم.
(٣) البخاري «الفتح» (٦/ ٣٣٠٢)، ومسلم (٥١) واللفظ له.
(٤) الترمذي (١١٦٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود (٤٦٨٢)، وأحمد (٢/ ٥٢٧)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ٢٦)، وقال مخرجه: إسناده عنده حسن. والحاكم في «مستدركه» (١/ ٣) وسكت عنه وقال الذهبي: صحيح. وذكره الألباني في «الصحيحة» (٢٨٤).
(٥) مسلم (٢٠).

فخْرَ. وأنا آتي باب الجنَّةِ فآخُذُ بحلقتها. فيقولون من هذا؟ فأقولُ: أنا محمَّدٌ. فيفتحون لي. فأجدُ الجبَّارَ - تبارك وتعالى- مستقبلي فأسْجُدُ له فيقولُ: ارْفَعْ رأسك يا محمَّدُ، وقل يُسمع منك وقل يقبل منك واشفع تشفَّعْ، فأرفع رأسي فأقولُ: أمَّتِي أمتي يا رب فيقول: اذهب إلى أُمَّتِكَ فمن وجدْتَ في قلبه مثقال حَبَّةٍ من شعيرٍ من الإيمان فأدخله الجنَّةَ فأقبل فمن وجدْتُ في قلبه ذلك فأدْخِلْهُ الجنَّة فإذا الجبَّارُ مستقبلي فأسْجدُ له فيقول: ارفع رأسك يا محمَّدُ وتكلَّمْ يُسمَعْ منك واشفع تُشفَّعْ. فأرفع رأسي فأقول: أُمَّتِي أمَّتِي أي ربِّ. فيقول: اذهبْ إلى أُمَّتِكَ فمنْ وجدْتَ في قلبه نصْفِ حبَّةٍ من شعيرٍ من الإيمان فأدْخِلْهُمُ الجنَّة، فأذهبُ فمن وجدْتُ في قلبه مثقالَ ذلك أدخلتُهُمُ الجنَّةَ. فأجِدُ الجَبَّارَ ﷻ مستقبلي. فأسجدُ له، فيقولُ: اذهب إلى أمَّتِكَ فمنْ وجدت في قلبه مثقالَ حَبَّةِ خرْدَلٍ من الإيمان فأدخلهُ الجنَّةَ فأذهبُ فمَنْ وجدْتُ في قلبه ذلك أدخلتهم الجنَّةَ، وفرغ الله من حِسَابِ الناسِ. وأُدخلَ من بَقِيَ من أُمَّتي النَّارَ مع أهْلِ النَّارِ. فيقولُ أهلُ النَّارِ: ما أَغْنَى عنكم أنكم كنتم تَعْبُدونَ الله لا تشركون به شيئًا. فيقول الجبَّارُ: فبعزَّتي لأعتقنَّهُمْ من النَّارِ. فيُرْسلُ إليهم فيخرجون من النَّارِ قد امتُحِشُوا [1] فيدخلونَ الجنَّةَ في نهرِ الحياة فيَنْبُتُونَ فيه كما تنبُتُ الحَبَّةُ في غُثَاء السيل، ويكتب بين أعينهم هؤلاء عتقاءُ الله فيذهب بهم فيدخلون الجنَّة فيقول لهم أهل الجنَّة: هؤلاء

(١) امتحشوا: أي، احترقوا، من المحش بمعنى احتراق الجلد وظهور العظم كما في «النهاية» (٤/ ٣٠٢).

الجهنَّمِيُّونَ. فيقول الجبَّارُ بل هؤلاءِ عُتَقاءُ الجبَّار ﷻ»[١].

• عن فضالة بن عُبيدٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حجَّةِ الوداعِ: «سأخبركمْ من المسلمُ. من سلم المسلمونَ من لسانِهِ ويدِهِ، والمؤمنُ من أمنَهُ النَّاسُ على أموالهم وأنفسهم، والمهاجرُ من هجر الخطايا والذُّنوبَ، والمجاهدُ من جاهد نفسه في طاعةِ الله»[٢].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّها النَّاسُ، إن الله طيبٌ لا يقبلُ إلَّا طيبًا، وإنَّ الله أمر المؤمنين بما أمَرَ به المرسلين. فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ [المؤمنون]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكَرَ الرَّجُل يُطيلُ السَّفر أشعث أغْبَر يمُدُّ يديه إلى السماء. يا ربِّ يا ربِّ ومطعمه حرامٌ ومشربُهُ حرامٌ وملبَسُهُ حرامٌ وغُذِّي بالحرامِ، فأنَّى يستجابُ لذلك»[٣].

• عن البراء بن عازِب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أُقعدَ المؤمن في قبره أتي ثمَّ شهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله، فذلك

---

(١) أحمد (٣/ ١٤٤). وله شاهد عند الطبراني في «الكبير» من حديث ابن مسعود وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٦٠): رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح. وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٣٦).

(٢) ابن منده (١/ ٤٥٢) حديث (٣١٥) وقال مخرجه: حسن. وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٣٦٨) واللفظ متفق عليه عندهما، وعزاه للبزار والطبراني في «الكبير».

(٣) مسلم (١٠١٥).

قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ (١).

• عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهل الجنة ليتَرَاءَوْنَ أهل الغُرَفِ من فوقهم كما يتراءَوْنَ الكوكب الدُّرِيَّ (٢) الغابِرَ من الأُفقِ (٣) من المشرق أو المغرب. لتفاضُل ما بينهُمْ. قالوا: يا رسول الله تلك منازِلُ الأنبياءِ لا يبْلُغُها غيرهم. قال: «بلى. والذي نفسي بيدِهِ رجالٌ آمَنُوا باللهِ وصدَّقُوا المرسلين» (٤).

• عن أبي قتادة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: أنَّهُ قامَ فيهم فذكر لهمْ أنَّ الجِهَادَ في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال. فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله أرأيت إن قُتلتُ في سبيل الله تُكَفَّرُ عنِّي خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نَعَمْ إنْ قتلت في سبيل الله وأنت صابرٌ محتسبٌ مقبِلٌ غيرُ مدْبِرٍ». ثمَّ قال رسولُ الله ﷺ: «كيف قلت؟». قال: أرأيْتَ إن قتلتُ في سبيل الله أتُكَفَّرُ عنِّي خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». وأنت صابرٌ مُحْتسبٌ مقْبِلٌ غيرُ مدبرٍ إلَّا الدين فإنَّ جبريل عليه السلام قال لي ذلك» (٥).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله ﷺ، سُئِلَ أيُّ العمل أفضلُ؟ فقال: «إيمانٌ بالله ورسولِهِ». قيل: ثُمَّ ماذا؟ قال: «الجهادُ في

---

(١) البخاري «الفتح» (٣/ ١٣٦٩)، وهو جزء من حديث البراء الطويل في سؤال القبر. وجزء من الآية (٢٧) من سورة إبراهيم.
(٢) الكوكب الدري: الكوكب العظيم المضيء.
(٣) الغابر من الأفق: الذي يميل إلى جهة الغرب.
(٤) مسلم (٢٨٣١).
(٥) رواه مسلم (١٨٨٥).

سبيل الله». قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: «حَجٌّ مبرُورٌ[(١)]»[(٢)].

• عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله ﷺ: مُرَّ عليه بجنازَةٍ، فقال: «مُستريحٌ ومُستراحٌ منه». قالوا: يا رسول الله ما المُسْتَرِيحُ والْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قال: «العبد المؤمنُ مُسْتَرِيحٌ من نصب الدُّنيا وأذاهَا إلى رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ والعبدُ الفاجرُ يسْتَرِيحُ منه العبادُ والبلادُ والشَّجَرُ والدَّواب»[(٣)].

• عن الحارث الأشعريِّ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله أمرَ يحيى بن زكريَّا بخمس كلمـاتٍ أنْ يعمل بها ويأمُرَ بني إسرائيل أنْ يعْملوا بها، وإنَّهُ كاد أَنْ يُبطئ بها، فقال عيسى: إنَّ الله أمرك بخمس كلمـاتٍ لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أنْ يعْمَلُوا بها، فإمَّا أن تأمرَهُمْ، وإمَّا أَنْ آمرهُمْ، فقال يحيى: أخْشَى إنْ سبقتني بها أن يُخْسَفَ بي أو أعذَّبَ، فجمع النَّاسَ في بيت المقدِسِ، فامْتلأَ المسجدُ وقَعَدُّوْا على الشُّرَفِ، فقال: إنَّ الله أمرني بخمْسِ كلمَـاتٍ أن أعمل بهنَّ، وآمُرَكُمْ أنْ تعملُوا بهنَّ: أوَّلُهُنَّ أَنْ تعبدوا الله ولا تشركُوا به شيئًا. وإنَّ مثل منْ أشرك بالله كمثلِ رجُلٍ اشترى عبْدًا من خالِصِ مالِهِ بذهبٍ أو ورِقٍ. فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدِّ إليَّ، فكان يعمل ويؤدِّي إلى غير سيده فأيُّكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإنَّ الله أمركم بالصلاةِ، فإذا صَلَّيْتم فلا تلتفتُوا فإنَّ الله ينصِبُ وجههُ لوجْهِ عبدهِ في صلاته ما لم يلتفتْ. وآمُرُكُمْ بالصِّيام فإنَّ مثل ذلك كمثل رجلٍ في عصابةٍ معه صرَّةٌ فيها مسكٌ، فكلُّهم يعجب أو

(١)الحج المبرور: الذي لا يخالطه شيء من الإثم، وقيل: هو المتقبل.
(٢)البخاري «الفتح» (٢٦١)، ومسلم (١٣٥).
(٣)البخاري «الفتح» (١١/ ٦٥١٢).

يعجبه ريحُها. وإنَّ ريح الصَّائم أطيبُ عند الله من ريح المسك. وآمركُمْ بالصَّدقة؛ فإنَّ مثل ذلك كمثلِ رجُلٍ أسرهُ العدوُّ، فأوثقُوا يده إلى عنقه وقدمُوه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم. وآمركم أنْ تذكُروا الله؛ فإنَّ مثل ذلك كمثلِ رجلٍ خرج العدُوُّ في أثره سراعًا حتى إذا أتى على حصْنٍ حصينٍ فأحرز نفسه منهم، كذلك العبدُ لا يحرزُ نفسه من الشيْطان إلَّا بذكر الله. قال النبيُّ ﷺ: «وأنا آمركم بخمسٍ الله أمرني بهنَّ: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجمـاعةُ. فإنَّهُ من فارق الجمـاعةَ قيد شبرٍ [(١)] فقد خلع ربْقَةَ الإسلام منْ عُنقه إلَّا أنْ يرْجِع، ومن ادَّعى دعْوى الجاهليَّة فإنَّهُ من جُثَا [(٢)] جهنَّم»، فقال رجلٌ: يا رسول الله، وإنْ صلَّى وصامَ؟ قال: «وإنْ صلَّى وصامَ، فادْعُوا بدعْوَى الله الذي سمَّـاكُمُ المسلمينَ المؤمنين عبادَ الله»[(٣)].

• عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا يرْضَى لعبده المؤمن إذا ذُهبَ بصفيِّهِ منْ أهلِ الأرضِ، فصبر واحْتَسَبَ وقال ما أُمِرَ به بثوَابِ دُونَ الجنَّةِ»[(٤)].

• عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا يظْلِمُ مؤْمنًا حسنةً. يُعْطى بها في الدُّنْيا ويجزى بها في الآخرة. وأمَّا الكافرُ فيطعم

---

(١) قيد شبر: أي قدر شبر، ويقال: قيد رمح أي قدر رمح.

(٢) جثا جهنم: يقال: بالحاء المهملة من حثا: إذا عزف وضم، ويقال: بالجيم جثا: جمع جثوة وهي الشيء المجموع. انظر: «النهاية» (١/ ٢٣٩).

(٣) الترمذي (٢٨٦٣) وقال: حديث حسن صحيح. وابن منده في «الإيمان» (١/ ٣٧٦، ٣٧٧) حديث (٢١٢)، وابن خزيمة (٣/ ١٩٥).

(٤) النسائي (٤/ ٢٣) وقال محقق «جامع الأصول» (٤٣٤) إسناده حسن.

بحسناتٍ ما عمل بها لله في الدُّنيا حتَّى إذا أَفْضَى [(١)] إلى الآخرةِ لَمْ يكن له حسنةٌ يجزَى بها» [(٢)].

•عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يبعثُ ريحًا من اليمن أَلْيَنَ من الحرير، فلا تَدَعُ أحدًا في قلبه مثقالُ حبَّةٍ منْ إيمانٍ إلَّا قبضتْه» [(٣)].

•عن أبي سعيد الخدْريِّ رضي الله عنه أنَّ أناسًا في زمنِ رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله ﷺ هلْ نرى ربَّنا يوم القيامةِ؟ قال رسول الله ﷺ: «نعمْ» قال: «هلْ تُضَارُّونَ في رُؤْية الشمس بالظَّهيرة صحوًا ليس معها سحابٌ؟ وهل تضارُّونَ في رؤية القمر ليلة البدر صحْوًا ليس فيها سحابٌ؟» قالوا: لا. يا رسول الله، قال: «ما تُضَارُّونَ في رؤية الله - تبارك وتعالى- يوم القيامة إلَّا كما تُضارُّونَ في رؤية أحدهمَا [(٤)]. إذا كان يومُ القيامةِ أَذَّن مؤذِّنٌ لتتَّبعْ كلُّ أمَّةٍ ما كانت تعبدُ. فلا يبقى أحدٌ، كان يعبد غير الله - سبحانه- من الأصنام والأنصاب، إلَّا يتساقطون في النَّار. حتى إذا لم يبْقَ إلَّا من كان يعبد الله من برٍّ وفاجرٍ. وغُبَّرِ أهل الكتاب [(٥)]. فيُدْعَى اليهود فيُقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنَّا نعبد عُزَيْرَ ابن الله. فيُقالُ: كذبْتُمْ ما اتَّخذَ الله من صاحبَةٍ ولا ولدٍ. فمـاذا تبْغُونَ؟ قالوا: عطشنا يا ربَّنا فاسْقِنَا. فيُشَارُ إليهم:

---

(١)أفضىٰ إلى الآخرة، أي: صار إليها.

(٢)مسلم (٢٨٠٨).

(٣)مسلم (١١٧).

(٤) ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالىٰ يوم القيامة إلاَّ كما تضارون في رؤية أحدهما: معناه لا تضارون أصلاً كما لا تضارون في رؤيتهما أصلاً.

(٥)وغبر أهل الكتاب: معناه بقاياهم. جمع غابر.

أَلَا ترِدُون؟ فيُحْشرون إلى النَّارِ كأنَّها سرَابٌ [(١)] يحْطِمُ بعضها بعضًا. فيتساقطون في النَّارِ. ثُمَّ يُدْعى النَّصارى. فيُقالَ لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كُنَّا نعبد المسيح ابن الله. فيُقال لهم: كذبْتُم. ما اتَّخَذَ الله من صاحبةٍ ولا ولدٍ. فيقالُ لهم: ماذا تبْغُونَ؟ فيقولون: عطشْنَا يا ربَّنا فاسْقِنَا. قال فيُشارُ إليهم: ألا تَرِدُونَ؟ فيُحْشرون إلى جهنَّم كأنَّها سرابٌ يحطم بعضها بعضًا [(٢)] فيتساقطون في النَّار. حتَّى إذا لم يبْقَ إلَّا منْ كان يعبد الله تعالى من برٍّ وفاجرٍ، أتاهم ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- في أدْنى صورةٍ من التي رأوْهُ فيها. قال: فمَا تنتظرون؟ تتبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ ما كانت تعبد. قالوا: يا ربَّنَا فارقْنَا النَّاسَ في الدُّنيا أفْقَرَ ما كُنَّا إليهم [(٣)] ولم نصاحبهم. فيقولُ: أنا ربُّكُم. فيقولون: نعوذُ بـالله منكَ. لا نشرْكُ بالله شيئًا - مرتين أو ثلاثًا- حتَّى إنَّ بعضهم ليكادُ أنْ ينقلِبَ [(٤)]. فيقول: هل بينكم وبينه آيةٌ فتعرفونه

---

(١) كأنها سراب: السراب ما يتراءىٰ للناس في الأرض القفر والقاع المستوي وسط النهار في الحر الشديد لامِعًا مثل الماء يحسبه الظمآن ماء حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئًا.

(٢) يحطم بعضها بعضًا: معناه لشدة اتقادها وتلاطم أمواج لهبها. والحطم الكسر والإهلاك. والحطمة اسم من أسماء النار لكونها تحطم ما يلقىٰ فيها.

(٣) فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم: معنىٰ قولهم: التضرع إلىٰ الله تعالىٰ في كشف هذه الشدة عنهم، وأنهم لزموا طاعته سبحانه وتعالىٰ، وفارقوا في الدنيا الناس الذين زاغوا عن طاعته سبحانه من قراباتهم وغيرهم ممن كانوا يحتاجون في معايشهم ومصالح دنياهم إلىٰ معاشرتهم للارتفاق بهم.

(٤) ليكاد أن ينقلب: هكذا هو في الأصل بإثبات أن: وإثباتها مع كاد لغة. كما أنَّ حذفها مع عسىٰ لغة. ومعنىٰ ينقلب: أي يرجع عن الصواب للامتحان الشديد الذي جرىٰ.

بها؟ فيقولون: نعم. فَيُكْشَفُ عن سَاقٍ [(١)]. فلا يبْقَى من كان يسجد لله من تلْقاءِ نفْسِهِ إلّا أذنَ الله له بالسُّجُودِ. ولا يبْقَى منْ كان يسْجُد اتِّقاءً ورياءً إلّا جعل الله ظهْرَهُ طبقةً واحدةً [(٢)]. كُلَّمَا أراد أنْ يسْجد خرَّ على قفاهُ. ثمَّ يرْفعون رؤوسهم، وقد تحوَّل في صورته التي رأَوْهُ فيها أوَّل مرَّةٍ. فقال: أنا ربُّكم. فيقولون: أنت ربُّنا. ثم يُضْرَبُ الجسر على جهنَّم. وتحلُّ الشَّفاعةُ [(٣)]. ويقولون: اللهمَّ سلِّمْ. قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «دحْضٌ مزِلَّةٌ [(٤)] فيه خطاطيفُ وكلاليبُ وحسكٌ [(٥)]. تكون بنجْدٍ فيها شويكةٌ يقال لها السَّعدانُ. فيمرُّ المؤْمن كطرفِ العين وكالبرقِ وكالرِّيحِ وكالطَّيرِ وكأجاويدِ الخيل والرِّكابِ [(٦)]. فناجٍ مسلمٌ. ومخْدُوشٌ مرْسلٌ.

---

(١) فيكشف عن ساق: ضبط يكشف بفتح الياء وضمها. وهما صحيحان.

(٢) ظهره طبقة واحدة: قال الهروي وغيره: الطبق فقار الظهر، أي صار فقارة واحدة كالصفيحة، فلا يقدر على السجود لله تعالى.

(٣) ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة: الجسر، بفتح الجيم وكسرها، لغتان مشهورتان: وهو الصراط. ومعنى تحل الشفاعة: بكسر الحاء وقيل: بضمها: أي تقع ويؤذن فيها.

(٤) دحض مزلة: الدحض والمزلة بمعنى واحد. وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر. ومنه: دحضت الشمس أي مالت. وحجة داحضة أي لا ثبات لها.

(٥) فيها خطاطيف وكلاليب وحَسَك: أما الخطاطيف فجمع خطاف، بضم الخاء في المفرد. والكلاليب بمعناه. وأما الحسك فهو شوك صلب من حديد.

(٦) وكأجاويد الخيل والركاب: من إضافة الصفة إلى الموصوف. قال في «النهاية»: الأجاويد جمع أجواد، وهو جمع جواد، وهو الجيد الجري من المطي. والركاب أي الإبل، واحدتها راحلة من غير لفظها. فهو عطف على الخيل. والخيل جمع الفرس من غير لفظه.

ومكدوسٌ في نار جهنَّم [١]. حتَّى إذا خلص المؤمنون من النَّار، فوالذي نفسي بيده ما منْكُم منْ أحدٍ بأشدَّ مُنَاشدةً لله، في استقْصَاءِ الحق [٢] مِنَ المؤمنين لله يوم القيامةِ لأخوانهمُ الذين في النَّارِ. يقولون: ربَّنا كانوا يصومونَ معنا ويصلُّون ويحُجُّونَ. فيقال لهم: أخرجُوا منْ عرفتُمْ. فتُحَرَّمُ صورهم على النَّار. فيُخْرجونَ خلقًا كثيرًا قدْ أخذتِ النَّارُ إلى نصف ساقيه وإلى رُكْبتيهِ. ثم يقولون: ربَّنا ما بَقِي فيها أحدٌ مِمَّنْ أمرْتَنا به. فيقولُ: ارجعُوا. فمنْ وجدْتُمْ في قلبه مثقال دينارٍ من خيرٍ [٣] فأخرجوه فيخرجون خلقًا كثيرًا. ثمَّ يقولون: ربَّنَا لم نَذَرْ فيها أحدًا مِمَّنْ أمرْتَنا. ثمَّ يقول: ارجعوا فمنْ وجدْتُم في قلبه مثقال نصفِ دينارٍ من خيرٍ فأخرجوه. فيُخْرِجُونَ خلْقًا كثيرًا. ثُمَّ يقولونَ: ربَّنا لم نذرْ فيها ممن أمرْتنا أحدًا. ثم يقول: ارجعوا. فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرَّةٍ من خيرٍ فأخرجوه.

---

(١) فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم: معناه أنهم ثلاثة أقسام: قسم يسلم فلا يناله شيء أصلاً. وقسم يخدش ثم يرسل فيخلص. وقسم يكدس ويلقىٰ فيسقط في جهنم. قال في «النهاية»: وتكدس الإنسان إذا دُفع من ورائه فسقط. ويروىٰ بالشين المعجمة، من الكدش وهو السوق الشديد. والكدش: الطرد والجرح أيضًا.

(٢) في استقصاء الحق: أي تحصيله من خصمه والمعتدي عليه.

(٣) من خير: قال القاضي عياض رحمه الله: قيل: معنىٰ الخير هنا اليقين. قال: والصحيح أن معناه شيء زائد علىٰ مجرد الإيمان. لأن مجرد الإيمان الذي هو التصديق، لا يتجزأ. وإنما يكون هذا التجزؤ لشيء زائد عليه من عمل صالح أو ذِكْرٍ خفِي، أوْ عَمَلٍ مِنْ أعمال القلب من شفقة علىٰ مسكين أو خوف من الله تعالىٰ، ونية صادقة. وقد قال النووي: إن التصديق يزيد، ووافقه غيره من علماء أهل السنة كما في «شرح النووي» و«شرح الطحاوية».

فيُخرجون خلقًا كثيرًا. ثمَّ يقولون: ربَّنا لْم نذرْ فيها خيرًا»[١].

وكان أبو سعيدٍ الخدري يقول: إنْ لم تصدِّقُوني بهذا الحديث فاقرؤوا إنْ شِئْتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء]. فيقول الله ﷻ: **«شفعت الملائكةُ وشفع النَّبِيُّونَ وشفع المؤمنونَ. ولم يبْقَ إلَّا أرحمِ الرَّاحمين. فيقْبضُ قبضةً من النار**[٢]**، فيخرْجُ منها قومًا لم يعملوا خيرًا قطُّ. قد عادوا حُممًا**[٣]**. فيُلْقيهم في نهرٍ في أفواه الجنَّة**[٤]**، يُقال له نهر الحياة. فيخرجون كما تخرجُ الحِبَّةُ في حميلِ السَّيلِ**[٥]**. ألا ترونَها تكونُ إلى الحجرِ أوْ إلى الشَّجَرِ. ما يكون إلى الشمس أصيْفِرُ وأُخَيْضِرُ. وما يكون منها إلى الظلِّ يكون أبيض**[٦]**؟**

(١) لم نذر فيها خيرًا: هكذا هو خير بإسكان الياء أي صاحب خير.
(٢) فيقبض قبضة من النار: معناه يجمع جمعة.
(٣) قد عادوا حمما: معنىٰ عادوا صاروا. وليس بلازم في عاد أن يصير إلىٰ حالة كان عليها قبل ذلك. بل معناه صاروا. أما الحمم فهو الفحم، واحدته حممة، كحطمة.
(٤) في أفواه الجنة: جمع فوهة. وهو جمع سمع من العرب علىٰ غير قياس. وأفواه الأزقة والأنهار أوائلها. قال صاحب المطالع: كأن المراد في الحديث مفتتح من مسالك قصور الجنة ومنازلها.
(٥) الحبة في حميل السيل: الحبة، بالكسر، بذور البقول وحب الرياحين. وقيل: هو نبت في الحشيش. وحميل السيل هو ما يجيء به السيل من طين أو غثاء وغيره. فعيل بمعنىٰ مفعول. فإذا اتفقت فيه حبة واستقرت علىٰ شط مجرىٰ السيل فإنها تنبت في يوم وليلة. فشبه بها سرعة عود أبدانهم وأجسامهم إليهم بعد إحراق النار لها.
(٦) ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر. وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض: أما يكون في الموضعين الأولين فتامة ليس لها خبر. معناها ما يقع. وأصيفر وأخيضر مرفوعان وأما يكون أبيض، فيكون فيه ناقصة، وأبيض منصوب وهو خبرها.

فقالوا: يا رسول الله كأنَّك كنت ترْعَى بالباديةِ. قال: «فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتِمُ[(١)] يعرفهم أهلُ الجنَّة. هؤلاءُ عُتقاءُ الله[(٢)] الذين أدخلهم الله الجنَّةَ بغير عملٍ عملوهُ ولا خيرٍ قدَّمُوه. ثم يقول: ادخلوا الجنَّة فمَا رأيتمُوه فهو لكم. فيقولون: ربَّنَا أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من العالمين. فيقول: لكم عندي أفضلُ منْ هذا. فيقولونَ: يا ربَّنَا أيُّ شيءٍ أفضلُ منْ هذا؟ فيقولُ: رِضَايَ. فلا أسْخَطُ عليكم بعدهُ أبدًا»[(٣)].

•عن عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ أبا سفيان أخبره من فيه إلى فيه. قال: انطلقْتُ في المُدَّةِ التي كانت بيني وبين رسولِ الله ﷺ قال: فبينا أنا بالشَّامِ إذْ جِيءَ بكتابٍ من رسولِ الله ﷺ إلى هرقْلَ، يعني عظيم الرُّومِ، قال: وكان دِحْيةُ الكلبيُّ جاءَ به فدفعه إلى عظيم بُصْرى، فدفعهُ عظيمُ بصرى إلى هرقلَ. فقال هرقلُ: هل هاهنا أحدٌ منْ قومِ هذا الرَّجُلِ الذي يزْعُمُ أنَّهُ نبيٌّ؟ قالوا: نعمْ. قال: فدُعيتُ في نفرٍ من قريشٍ. فدخلنا على هرقل. فأجْلسنا بين يديه. فقال: أيُّكُمْ أقربُ نسبًا من هذا الرَّجُل الذي يزعم أنَّهُ نبيٌّ؟ فقال أبو سفْيانَ: فقلت: أنا. فأجْلسوني بين يديه. وأجلسوا أصحابي خلْفِي. ثمَّ دعا بترجُمَانهِ[(٤)] فقال له: قل لهم: إنِّي سائِلٌ هذا

---

(١)فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم: الخواتم جمع خاتم، بفتح التاء وكسرها. قال صاحب التحرير: المراد بالخواتم هنا أشياء من ذهب أو غير ذلك تعلق في أعناقهم، علامة يعرفون بها. قال: معناه تشبيه صفائهم وتلألئهم باللؤلؤ.

(٢)هؤلاء عتقاء الله: أي يقولون: هؤلاء عتقاء الله.

(٣)البخاري «الفتح» (١٣/ ٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٢) واللفظ له.

(٤)الترجمان: هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرىٰ.

عن الرَّجُل الذي يزعُمُ أنَّهُ نَبِيٌّ. فإنْ كذبَنِي فكذِّبُوهُ [١]. قال: فقال أبو سفيانَ: وأَيْمُ الله لوْلا مخافةُ أن يُؤْثر عليَّ الكَذِبُ [٢] لكذبتُ. ثمَّ قال لترجُمانه: سلْهُ. كيف حسبه فيكم؟ قال: قلتُ: هو فينا ذو حسبٍ. قال: فهل كان من آبائه ملكٌ؟ قلتُ: لا. قال:فهل كنتم تتَّهمونَهُ بالكذبِ قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: ومن يتَّبعه؟ أشرافُ الناس أمْ ضعفاؤهم؟ قال: قلتُ: بل ضعفاؤهُمْ. قال: أيزيدونَ أم ينْقصونَ؟ قال: قلت: لا. بل يزيدون. قال: هل يرْتَدُّ أحدٌ منهم عن دينه بعد أنْ يدْخُلَ فيه، سخْطَةً له؟ قال: قلتُ: لا. قال: فهل قاتلْتُمُوهُ؟ قلتُ: نعم. قال: كيف كان قتالكم إيَّاه؟ قال: قلتُ: تكون الحرب بيننا وبينه سجالًا [٣] يُصِيبُ منَّا ونصيبُ منه. قال: فهل يغدرُ؟ قلتُ: لا.ونحن منه في مُدَّةٍ لا ندْري ما هو صانعٌ فيها [٤]. قال: فوالله ما أمكنني من كلمةٍ أدخلُ فيها شيئًا غير هذه.

قال: فهلْ قال هذا القول أحدٌ قبله؟ قال: قلت: لا. قال لترجمانِهُ: قل له. إنِّي سألْتُكَ عن حسبِهِ فزعمْتَ أنَّه فيكم ذو حسبٍ، وكذلك الرُّسلُ

---

(١) إنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوه: كذب بمعنى أخطأ والمعنى إن أخطأ في كلامه فقولوا: قد أخطأ.

(٢) أن يؤثر علي الكذب: أي نقل علي الكذب.

(٣) تكون الحرب سجالاً: والسجل هو الدلو ومعنى الحرب سجالاً تشبيهًا لها بالاستقاء فيستقي هذا دلوًا وهذا دلوًا، وقد قال أبو سفيان عن يوم أحد –يوم بيوم بدر- والحرب سجال.

(٤) المدة: هي صلح الحديبية التي عقدها الرسول ﷺ مع مشركي قريش في العام الثالث من الهجرة.

تبْعثُ في أحساب قومها. وسألتُكَ: هل كان في آبائهِ ملكٌ؟ فزعمْتَ أنْ لا، فقلتُ: لو كان من آبائه ملكٌ قلتُ: رجلٌ يطلبُ مُلْكَ آبائِهِ. وسألتُكم عن أتْبَاعه، أضعفاؤُهُم أمْ أشرَافهم؟ فقلتَ: بل ضعفاؤهمْ، وهم أتْبَاعُ الرُّسُل. وسألتُكَ: هل كنتم تتَّهِمونَهُ بالكذب قبْلَ أنْ يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقد عرفتُ أنَّهُ لم يكن ليدع الكذب على النَّاسِ ثمَّ يذهب فيكْذِبَ على الله. وسألتُكَ: هل يرْتَدُّ أحدٌ منهم عن دينه بعد أنْ يدْخلَهُ سخْطَةً له؟ فزعمت أنْ لا، وكذلك الإيمان إذا خالطَ بشاشةَ القلوبِ. وسألتُكَ: هل يزيدون أمْ ينقصونَ؟ فزعمت أنَّهُمْ يزيدون، وكذلك الإيمان حتَّى يتمَّ. وسألتُكَ: هل قاتلتموه؟ فزعمْتَ أنَّكُمْ قد قاتلتموه، فتكون الحربُ بينكم وبينه سجالًا، ينالُ منكم وتنالون منهُ، وكذلك الرُّسلُ تُبْتلى ثمَّ تكون لهم العاقبةُ. وسألتُكَ: هلْ يغْدِرُ؟ فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا يغدرون وسألتك هل قال هذا القولَ أحدٌ قبْلَهُ؟ فزعَمْتَ أنْ لا، فقلتُ: لو قال هذا القول أحدٌ قبله، قلتُ رجلٌ ائتمَّ بقولٍ قيل قبله. قال: ثمَّ قال: بم يأمرُكُمْ؟ قلتُ: يأمرنا بالصَّلاةِ والزَّكاةِ والصِّلة والعفافِ [١]. قال: إنْ يكن ما تقول فيه حقًّا، فإنَّهُ نبيٌّ، وقد كنت أعلمُ أنَّهُ خارجٌ، ولم أكُنْ أظُنُّهُ منكم، ولو أني أعلم أنِّي أخلص إليه، لأحببتُ لقاءَهُ، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدميه، وليبلُغَنَّ ملْكُهُ ما تحت قدمَيَّ قال: ثمَّ دعا بكتابِ رسولِ الله ﷺ فقرأَهُ. فإذا فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم. من محمَّدٍ رسول الله إلى هرقل عظيم الرُّومِ، سلامٌ على من اتَّبَعَ الهدى، أمَّا بعد فإنِّي أدْعُوكَ بدعاية الإسلام أسلمْ تسلَمْ، واسلمْ يُؤتكَ الله**

(١) العفاف: هو طلب العفاف والتعفف هو الكف عن الحرام وسؤال الناس.

أجرك مرَّتين، وإنْ تولَّيْتَ فإنَّ عليك إثمَ الأريسيِّين[(١)] ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران]». فلمَّا فرغَ منْ قراءة الكتاب ارتفعت الأصواتُ عندهُ وكَثُرَ اللَّغَطُ. وأمر بنا فأُخرِجْنا. قال: فقلت لأصحابي حين خرجْنا: لقدْ أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كَبْشَةَ[(٢)] إنَّه ليخافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ»[(٣)].

قال: فمَا زِلْتُ موقنًا بأمر رسولِ الله ﷺ أَنَّهُ سيظْهَرُ، حتَّى أَدْخَلَ اللهُ عليَّ الإسلامَ»[(٤)].

• عن معاويةَ بن الحكم السُّلَميِّ رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلِّي مع رسول الله ﷺ إذْ عطس رجُلٌ من القوم. فقلتُ: يرحَمُكَ الله فرَمَاني القوْمُ بأبْصَارِهم[(٥)]. فقلتُ: واثُكْلَ أُمِّيَاهُ[(٦)]. ما شأنُكُمْ؟ تنْظُرونَ إليَّ. فجعلوا

---

(١) الأريسيين: هو جمع أريس قال ابن سيده: الأريس هو الأُكار أي الفلاحُ عند ثعلبِ، وعند قراءة هو الأمير، وقال الجوهري لغة شامية، وأنكر ابن فارس أن تكون عربية: والمعنىٰ أنهم الزارعون في المملكة وهم الضعفاء المأمورون والأصاغر أتباع الأكابر، ولذا يكون عليه وزرهم إذا لم يسلموا تقليدًا له.

(٢) لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنُ أبي كبشة: أما أمر فبفتح الهمزة وكسر الميم، أي عظم. وأما قوله: ابن أبي كبشة، فقيل: هو رجل من خزاعة كان يعبد الشعرىٰ، ولم يوافقه أحد من العرب في عبادتها. فشبهوا النبي ﷺ به لمخالفته إياهم في دينهم. كما خالفهم أبو كبشة.

(٣) بني الأصفر: بنو الأصفر هم الروم.

(٤) البخاري «الفتح» (١/ ٦)، ومسلم (١٧٧٣) واللفظ له.

(٥) رماني القوم بأبصارهم، أي نظرو إليَّ حديدًا كما يرمي بالسهم، زجرًا بالبصر من غير كلام.

(٦) وا ثكل أمياه: بضم الثاء وإسكان الكاف، ويفتحهما جميعًا، لغتان كالبُخْل =

يضْرِبُونَ بأيْديهمْ على أفخاذهم. فلَمَّا رأيتُهم يُصمِّتُونني. لكنِّي سكتُّ. فلمَّا صلَّى رسول الله ﷺ. فبأبي هو وأمي ما رأيتُ معلِّمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه. فوالله ما كهَرَني[١] ولا ضربني ولا شتمني. قال: «**إنَّ هذه الصَّلاة لا يصلحُ فيها شيءٌ من كلامِ النَّاسِ. إنَّما هو التسبيحُ والتكبيرُ وقراءَةُ القرآن**».

أوْ كما قالَ رسولُ الله ﷺ. قلتُ: يا رسول الله، إنِّي حديثُ عهدٍ بجاهليَّةٍ. وقدْ جاء الله بالإسلامِ. وإنَّ مِنَّا رجالًا يأتُونَ الكُهَّانَ. قال: «**فلا تأتِهِمْ**» قال: ومِنَّا رجالٌ يتطيَّرُون [٢]. قال: «**ذاك شيءٌ يجدُونَهُ في صدروهم. فلا يصدَّنهم**». قال: قلتُ: ومنَّا رجالٌ يخطُّون. قال: «**كان نبيٌّ من الأنبياء يخطُّ. فمنْ وافق خطَّهُ فذاكَ** [٣]» قال: وكانت جاريةٌ تَرْعى غنمًا لي قبل أحدٍ والجوَّانيَّة [٤]. فاطَّلعتُ ذات يوم فإذا الذِّيبُ قد ذهب بشاةٍ من غنمها. وأنا رجُلٌ من بني آدمَ آسَفُ كما يأسَفُونَ لكنِّي

والبَخَل، حكاهما الجوهري وغيره. وهو فقدان المرأة ولدها، أي وافقد أمي إياي فإني هلكت.

(١) كهرني: نهرني.

(٢) يتطيرون: من التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرها، وكان ذلك بغرض التشاؤم والتفاؤل وقد حرمه الإسلام لأنه يَصُدُّ عن المقاصد ولأنه ليس لهُ تأثير في جلب نفع أو دفع ضر «النهاية» (٣/ ١٥٢).

(٣) ظاهر معناه الخط في الرمل وقال النووي في ذلك: الصحيح أن معناه: من وافق خطه فهو مباح، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يباح، والمقصود أنه حرام لا يباح إلا بيقين الموافقة، وليس لنا يقين بها.

(٤) الجوانية: مكان شمال المدينة قرب أحد.

صككتُهَا[١] صَكَّةً. فأتيْتُ رسولَ الله ﷺ فعظَّمَ ذلك عليَّ. قلتُ: يا رسول الله أفلا أعْتِقُها قال: «**ائْتِني بها**» فأتيْتُه بها. فقال لها: «**أين الله؟**» قالت: في السَّماءِ. قال: «**مَنْ أنا؟**» قالت: أنتَ رسول الله. قال: «**اعتِقْها، فإنَّها مؤمنةٌ**»[٢].

• عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: بينمَا نحن جلوسٌ مع النبيِّ ﷺ في المسجدِ. دخل رجلٌ على جملٍ فأنَاخهُ في المسجدِ. ثمَّ عقلهُ ثُمَّ قال لهم: أيُّكُمْ محمَّدٌ؟ والنبيُّ ﷺ متَّكِئٌ بين ظهرانيهم فقلنا: هذا الرَّجُلُ الأبيضُ المُتَّكِئ. فقال له الرَّجُل: يا ابن عبد المطلبِ، فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «**قدْ أجَبْتُكَ**». فقال الرجلُ للنبيِّ ﷺ: إنِّي سَائِلُكَ فمُشدِّدٌ عليك في المسألة فلا تجدْ عليَّ في نفسكَ[٣]. فقال: «**سلْ عَمَّا بدا لك**». فقال: أسألك بربِّكَ وربِّ منْ قبلك، الله أرْسلك إلى النَّاسِ كلهم؟ فقال: «**اللهمَّ نعمْ**». قال: أنشدُكَ بالله، الله أمركَ أن نُصلِّيَ الصَّلواتِ الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «**اللهمَّ نعمْ**». قال: أنشدُكَ بالله، الله أمركَ أنْ نصوم هذا الشهر من السَّنة؟ قال: «**اللهم نعم**». قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تأخذ هذه الصَّدقةَ منْ أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبيُّ ﷺ: «**اللهمَّ نعم**» فقال الرجل: آمَنْتُ بمَا جئْتَ به. وأنا رسولُ من ورائِي منْ قومي. وأنا ضِمَامُ بنُ ثعلبةَ أخو بني سعدِ بن بكر[٤].

---

(١) صككتها: لطمتها.
(٢) مسلم (١/ ٥٣٧).
(٣) فلا تجد علي في نفسك: أي لا تغضب مني أو من سؤالي «النهاية» (٥/ ١٥٥).
(٤) البخاري «الفتح» (١/ ٦٣)، ومسلم (٨٦٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ مختلف.

• عن عمر بن الخطَّابِ رضي الله عنه قال: بينَمَا نحنُ عند رسول الله ﷺ ذاتَ يوم. إذْ طلع علينا رجُلٌ شديدُ بياضِ الثِّياب. شديد سواد الشعْرِ، لا يُرى عليه أثرُ السَّفَرِ. ولا يعرفه منَّا أحدٌ، حتَّى جلس إلى النبيِّ ﷺ، فأسْند رُكْبتيه إلى ركبتَيْهِ، ووضع كفَّيْهِ على فخذيه، وقال: يا محمَّدُ أخبرني عن الإسلامِ. فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أنْ تشهد أنْ لا إله إلَّا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله ﷺ، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُوتي الزَّكاةَ، وتصوم رمضان، وتَحُجَّ البيتَ إن استطعْتَ إليه سبيلًا**». قال: صدقتَ. قال فعجبنا له يسألُهُ ويصَدِّقُه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «**أَنْ تُؤْمنَ بالله وملائكتِهِ، وكُتُبه، ورسُلِهِ، واليومِ الآخرِ، وتُؤْمِنَ بالقدر خيره وشرِّه**»، قال: صدقتَ، قال: فأخبرني عن الإحسانِ. قال: «**أنْ تَعْبُدَ الله كأنَّكَ تراهُ. فإنْ لم تكنْ تراهُ، فإنَّه يراك**». قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «**ما المسؤولُ عنها بأعلم من السَّائل**». قال: فأخبرني عن أماراتها [١]. قال: «**أنْ تلدَ الأمةُ ربَّتَها** [٢]. **وأنْ ترى الحُفَاةَ العُرَاةَ، العالة، رِعَاءَ الشَّاءِ** [٣]، **يتطاوَلُون في البُنْيَانِ**». قال ثُمَّ انطلقَ. فلبثْتُ مَليًّا. ثمَّ قال لي: «**يا عُمَرُ أتدْرِي من السَّائِلُ؟**» قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنَّهُ جبْرِيلُ، أتاكُمْ يعلِّمُكم دينكُمْ**» [٤].

---

(١) أماراتها: الأمارة هي العلامة.

(٢) ربتها: أي سيدتها.

(٣) العالة، رعاء الشاء: العالة من العول وهو الإنفاق أو القيام بما يلزم من نفقة العيال من قوت وكسوة وغيرها وهي من عال الرجل عياله يعولهم إذا قام بما يحتاجون إليه من نفقة أو كسوة «النهاية» (٣/ ٣٢١).

(٤) مسلم (١/ ٨) البخاري «الفتح» (١/ ٤٠) من حديث أبي هريرة وكذا مسلم (٩).

• عن النُّعمَان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تَرَاحُمِهِمْ وتوادِّهم وتعاطفهم كمثلِ الجسدِ إذا اشتكى عضوٌ تداعَى له سائِرُ جسدهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى»(١).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ إذا خرجْنَ لا ينفعُ نفسًا إيمَانُها لم تكنْ آمنتْ من قبل أو كسبتْ في إيمانها خيرًا: طلوعُ الشمسِ من مغْربها، والدَّجَّالُ، ودابَّةُ الأرض»(٢).

• عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لهمْ أجْران: رجلٌ من أهلِ الكتابِ آمَنَ بنَبيهِ وآمنَ بمحمَّدٍ ﷺ، والعبْدُ المملوك إذا أدَّى حقَّ الله وحقَّ مواليهِ، ورجلٌ كانت عندهُ أمةٌ فأدَّبها فأحسنُ تأديبها وعلَّمهَا فأحسن تعليمها ثُمَّ أعْتَقها فتزوَّجها فلهُ أجْرَان»(٣).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاءَ أهلُ اليمنِ. وهم أرقُّ أفئدةً، الإيمان يمَانٍ، والفقهُ يمانٍ، والحكمةُ يمانيةٌ»(٤).

• عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياءُ والإيمانُ قُرنَاءُ جميعًا فإذا رُفعَ أحدهمَا رُفِع الآخرُ»(٥).

---

(١) البخاري «الفتح» (١٠/ ٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) مسلم (١٥٨)، البخاري «الفتح» (٨/ ٤٦٣٥) نحوه مختصرًا.

(٣) البخاري «الفتح» (١/ ٩٧) وهذا لفظ مسلم (١٥٤).

(٤) البخاري «الفتح» (٨/ ٤٣٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه رقم (٤٣٩٠)، مسلم (٥٢) واللفظ له.

(٥) الحاكم (١/ ٢٢) وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم وأقره الذهبي. وذكره الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٤٠٠) وقال: رواه

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحياءُ من الإيمان والإيمَانُ في الجنَّة، والبَذَاءُ**[(١)] **من الجفاءِ والجفاءُ في النَّارِ**»[(٢)].

• عن جابر بن سمُرَةَ ﷺ قال: خطب عمرُ بن الخطَّابِ ﷺ فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قام في مِثْل مقامي هذا فقال: «**أحسِنُوا إلى أصحابي، ثُمَّ الذين يلُونَهُم، ثُمَّ يَفْشُو الكَذب حتَّى يحلف الرجل على اليمين قبل أنْ يستحْلف عليها**[(٣)]**. ويشهد على الشهادة قبل أنْ يستشهدَ عليها**[(٤)]**، فمن أحبَّ منكم أنْ ينال بحبوحَةَ الجنَّةِ فليلزَمِ الجماعةَ؛ فإنَّ الشَّيطان مع الواحِدِ، وهو من الاثنين أبعدُ. ألا لا يخلونَّ رجلٌ بامرأةٍ فإنَّ ثالثهمَا الشيطانُ. ألا ومنْ كان منْكمْ تسوءهُ سيِّئتُه وتسرُّهُ حسنتُهُ فهو مُؤْمِنٌ**»[(٥)].

• عنْ أبي سعيد الخدري ﷺ قال: شهدتُ مع رسول الله ﷺ جنازةً

الطبراني في «الأوسط» من حديث ابن عباس. ورواه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (٨) وقال الألباني: موقوف على ابن عمر وسنده صحيح، وذكره الدمياطي في «المتجر الرابح» (١٦٨١) وعزاه للحاكم.

(١) البذاء: الفحش في الكلام.

(٢) الترمذي (٢٠٠٩) ورواه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٣) وقال على شرط مسلم وأقره الذهبي. ورواه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان وقال الشيخ ناصر الألباني: حسن، وصححه الترمذي (١٤). وذكره الدمياطي في المتجر الرابح وعزه لابن حبان. وقال محقق «جامع الأصول» (٣/ ٦١٧): «إسناده حسن».

(٣) يُستَحْلَف عليها: أي يطلب منه الحلف من قولهم استحلفه أي طلب منه الحلف.

(٤) يُستَشْهَد (مثل يستحلف) أي: تطلب منه الشهادة.

(٥) ابن منده في كتاب «الإيمان» (٣/ ٩٨٣) حديث (١٠٨٧) وقال مخرجه: إسناده صحيح، وعزاه للخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٦/ ٥٧). ورواه ابن حبان في «الإحسان» رقم (٥٥٨٦).

فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أَيُّهَا النَّاس، إنَّ هذه الأُمَّة تبتلى في قبورها، فإذا الإنسان دُفنَ فتفرَّق عنه أصحابه جاءهُ ملكٌ في يده مطْرَاقٌ فأقعده قال: ما تقول في هذا الرَّجُل؟ فإنْ كان مؤْمنًا قال: أَشهدُ أَنْ لا إله إلّا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، فيقول: صدقْتَ ثُمَّ يُفتح له بابٌ إلى النَّار فيقولُ: هذا كان منزلكَ لوْ كفرْتَ بربِّكَ فأما إذ آمنْتَ فهذا منزِلُكَ فيُفْتَح له بابٌ إلى الجنَّة فيُريدُ أَنْ ينْهض إليه فيقول له: اسكُنْ ويُفسح له في قبره، وإنْ كان كافرًا أو منافقًا، يقول له: ما تقول في هذا الرجلِ؟ فيقول: لا أَدْرِي سمعتُ النَّاس يقولون شيئًا. فيقول: لا دَرَيْتَ ولا تليْتَ ولا اهْتديتَ ثم يُفْتَحُ له بابٌ إلى الجنَّةِ فيقول هذا منزلكَ لوْ آمنْتَ بربِّكَ، فأمَّا إذْ كَفَرْتَ فإنَّ الله ﷻ أَبْدلك به هذا ويُفْتَحُ له بابٌ إلى النَّارِ ثُمَّ يَقْمَعُه قمعةً بالمطراقِ يسمعها خلقُ الله كلهم غير الثقلين». فقال بعضُ القوم: يا رسول الله، ما أحدٌ يقومُ عليه ملكٌ في يده مطْرَاقٌ إلَّا هَبِلَ [(١)] عند ذلك. فقال رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾»[(٢)].

• عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: قلت يا رسول الله، إنِّي لأعلمُ أشدَّ آيةٍ في القرآنِ. قال: «أَيَّةُ آيةٍ يا عائشةُ؟» قالت: قولُ الله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]. قال: «أما عَلِمْتِ يا عائشةُ أَنَّ المؤمنَ تصيبه النَّكْبةُ أَوْ الشوكةُ فيُكافأُ بأسوأ عمله، ومن حوسبَ عُذِّبَ» قالت: أليس الله يقول: ﴿ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ ﴾ [الانشقاق] قال: «ذاكم

---

(١) هَبِلَ: فَقَدَ عَقْلَهُ.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤) وقال ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥٥٢): «إسناده حسن لا بأس به».

العرضُ، يا عائشةُ من نوقشَ الحسابَ عُذِّبَ»[(١)].

• عن سفيان بن عبد الله الثَّقفيِّ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله، قلْ لي في الإسلام قولًا لا أسألُ عنه أحدًا بعدك. قال: «قلْ: آمَنْتُ بـالله فاستَقِمْ»[(٢)].

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله أيُّ النَّاسِ أفضلُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «مُؤمنٌ يجاهدُ في سبيل الله بنفسه وماله». قال: ثُمَّ منْ؟ قال: «مؤمنٌ في شِعْبٍ[(٣)] من الشِّعاب يتَّقِي الله ويدعُ النَّاس من شرِّه»[(٤)].

• عن صهيبٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «كان ملكٌ فيمن كان قبلكم. وكان له ساحرٌ. فلمَّـا كبر قال للملكِ، إنِّي قدْ كبرتُ فابعثْ إليَّ غُلامًا أعلِّمْهُ السِّحْرَ. فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان في طريقه، إذا سلك، راهبٌ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبهُ. فكان إذا أتى الساحر مَرَّ بالرَّاهبِ وقعد إليه. فإذا أتى الساحر ضربهُ. فشكا ذلك إلى الراهبِ. فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي. وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر. فبينمَـا هو كذلك إذ أتى على دابَّةٍ عظيمةٍ قدْ حبستِ النَّاسِ.

---

(١) أبو داود (٣٠٩٣)، وروىٰ البخاري بعضه في «الفتح» (٨/ ٤٩٣٩)، ومسلم رقم (٢٨٧٦)، وانظر: «جامع الأصول» (٢/ ١١٢).

(٢) مسلم (٣٨).

(٣) الشعب: الوادي بين الجبلين.

(٤) البخاري «الفتح» (١١/ ٦٤٩٤)، واللفظ لابن منده في «الإيمان» (٢/ ٤٠٣) حديث (٢٤٧).

فقال: اليوم أعلم الساحرُ أفضل أم الراهبُ أفضل؟ فأخذ حجرًا فقال: اللهمَّ إن كان أمر الرَّاهبِ أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدَّابَّةَ، حتى يمْضِيَ الناسُ. فرماها فقتلها، ومضى النَّاسُ. فأتى الرَّاهب فأخبره، فقال له الراهبُ: أي بُنيَّ! أنتَ اليوم أفضلُ منِّي، قد بلغ من أمرك ما أرى. وإنَّكَ ستُبْتَلى، فإنِ ابْتُلِيتَ فلا تَدُلَّ عليَّ. وكان الغلام يبرئُ الأكمه والأبرص ويُداوي النَّاس من سائر الأدواءِ، فسمع جليسٌ للملك كان قد عَمِيَ، فأتاهُ بهدايا كثيرةٍ. فقال: ما ها هنا لك أجمع، إنْ أنت شفيْتَنِي. فقال: إنِّي لا أشْفِي أحدًا، إنَّمـا يشْفِي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك، فآمن بـالله، فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلسُ. فقال له الملكُ: من ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربِّي. قال: ولك ربٌّ غيري؟! قال: ربِّي وربُّك الله. فأخذه فلمْ يزل يُعذِّبُهُ حتَّى دلَّ على الغلام. فجيءَ بالغُلامِ، فقال له الملك: أي بُنَيَّ! قد بلغ من سحركَ ما تُبْرئُ الأكمه[١] والأبرص وتفعل وتفعلُ؟. فقال: إنِّي لا أشفي أحدًا. إنمـا يشفي الله. فأخذهُ فلم يزْل يعذِّبهُ حتَّى دلَّ على الراهب فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى. فدعا بالمئشارِ[٢]، فوضع المئشارَ في مفْرِقِ رأسه، فشقَّه حتى وقع شقَّاهُ. ثمَّ جِيءَ بجليس الملك فقيل له: ارجعْ عن دينكَ. فأبى، فوضع المئشارَ في مفْرِقِ رأسه. فشقَّهُ حتى وقع شِقَّاهُ. ثمَّ جيءَ بالغلام فقيل له: ارجعْ عن دينكَ. فأبى فدفعهُ إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى

(١) الأكمة: الذي خلق أعمى.

(٢) بالمئشار: مهموز في رواية الأكثرين ويجوز تخفيف الهمزة بقلبها ياء وروي بالنون وهما لغتان صحيحتان.

جبل كذا وكذا. فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذرْوَتَهُ (١) فإنْ رجع عن دينه وإلَّا فاطرَحوهُ. فذهبوا به فصعدوا به الجبل. فقال: اللهم! اكْفِنِيهِمْ بما شِئْتَ. فرجف (٢) بهم الجبلُ فسقطوا. وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملكُ: ما فعل أصحابك؟ قال: كَفَانِيهِمُ الله. فدفعَهُ إلى نفرٍ منْ أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرْقُورٍ (٣) فتوسَّطُوا به البحر فإنْ رجع عن دينه وإلَّا فاقْذِفُوه. فذهبوا به. فقال: اللهم اكْفِنِيهِمْ بما شِئْتَ. فانْكَفَأَتْ بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابُكَ؟ قال: كَفانِيهمُ الله. فقال للملكِ: إنَّك لسْتَ بقاتلي حتَّى تفعل ما آمُركَ به. قال: وما هو؟ قال: تجمعُ الناسَ في صعيدٍ (٤) واحدٍ وتصْلُبني على جِذْعٍ ثمَّ خُذْ سهْمًا من كنانتي ثمَّ ضع السَّهْم في كبدِ القوْسِ (٥) ثم قلْ باسمِ الله ربِّ الغلامِ. ثُمَّ ارْمِني فإنَّك إذا فعلت ذلك. قتلتني. فجمعَ النَّاسَ في صعيدٍ واحدٍ وصلَبَهُ على جِذْعٍ ثُمَّ أخذ سهْمًا من كنانَتِه (٦) ثمَّ وضع السَّهْمَ في كبد القوْسِ ثُمَّ قال: باسم الله ربِّ الغُلامِ. ثم رماهُ. فوقع السهمُ في صُدْغِه. فوضع يدهُ في صدْغِه في موضع السَّهم. فمـاتَ. فقال النَّاسُ: آمنَّا بربِّ الغُلامِ. آمنَّا بربِّ الغلامِ. آمنَّا بربِّ الغلامِ. فأُتيَ الملكُ فقيلَ لهُ: أرأيتَ ما كُنْتَ تحْذَرُ؟ قدْ والله نزلَ بك حذرُكَ. قدْ آمنَ النَّاسُ.

---

(١) ذروته: ذروة الجبل أعلاه.

(٢) فرجف بهم الجبل: أي اضطرب وتحرك حركة شديدة.

(٣) قرقور: القرقور السفينة الصغيرة.

(٤) صعيد: الصعيد هنا الأرض البارزة.

(٥) كبد القوس: مقبضها عند الرمي.

(٦) الكنانة: مجمع السهام.

فأمر بالأخدودِ في أفْواهِ السِّكك فخُدَّتْ (١) وأضْرمَ النِّيران. وقال: من لم يرجع عن دينه فأحْمُوه فيها. أو قيل له: اقْتَحِمْ. ففعلوا. حتى جاءتِ امْرأةٌ ومعها صبيٌّ لها. فتقاعستْ أنْ تقع فيها. فقال لها الغلامُ: يا أُمَّه! اصْبري فإنَّكِ على الحقِّ»(٢).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: شهدْنا خيْبر فقال رسول الله ﷺ لرجُل مِمَّنْ معه يدَّعِي الإسلام: هذا من أهلِ النَّارِ، فلمَّا حضرَ القتالُ قاتلَ الرَّجُلُ أشدَّ القتالِ حتى كثُرتْ به الجراحَةُ فكاد بعضُ النَّاسِ يرْتَابُ، فوجد الرَّجُل ألَمَ الجراحةِ، فأهْوَى بيده إلى كنانته فاستخْرَجَ منْها أسهُمًا فنحر بها نفسه، فاشْتدَّ رجالٌ (٣) من المسلمين فقالوا: يا رسول الله صدَّق الله حديثك، انتحر فلانٌ فقتل نفسهُ. فقال:«قُمْ يا فلان فأذِّنْ أنَّهُ لا يدخل الجنَّة إلَّا مؤمنٌ، إن الله يُؤيِّدُ الدِّين بالرَّجل الفاجر»(٤).

• عن زيد بن خالدٍ الجُهنيِّ رضي الله عنه قال: صلَّى بنا رسولُ الله ﷺ بالحديبية في إثْرِ السَّمَاءِ (٥) كانت من الليل. فلمَّا انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربُّكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلمُ. قال: «قال: أصْبح من عبادي مؤْمنٌ بي وكافِرٌ. فأمَّا من قال: مطرْنَا بفضْلِ الله

(١) أمر بالأخدود فُخُدَّت: أي أمر بشق الأخدود فانْشقَّت، والأخدود هو الشق في الأرض وجمعها أخاديد «النهاية» (٢/ ١٣).

(٢) مسلم (٣٠٠٥).

(٣) اشتد رجال: أسرعوا المشي.

(٤) البخاري «الفتح» (٧/ ٤٢٠٣)، ومسلم (١١١).

(٥) السماء من الليل: أي المطَر من الليل وسمي المطرُ سماء لأنه ينزل من السماء. «النهاية» (٢/ ٤٠٦).

ورحْمَتِهِ فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكواكبِ. وأمَّا من قال: مطِرْنَا بنوْءِ كذا وكذا[(١)] فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكواكبِ»[(٢)].

• عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قدم وفدُ عبد القيس على رسول الله ﷺ. فقالوا: يا رسول الله إنَّا هذا الحيَّ منْ ربيعةَ وقدْ حالتْ بيننا وبينك كُفَّارُ مُضَرَ فلا نخْلصُ إليك إلَّا في شهرِ الحرام فمُرْنَا بأمرٍ نعملُ به ونَدْعُو إليه من وراءَنا قال: «آمُرُكُمْ بأرْبعٍ وأنْهَاكُمْ عن أربعٍ. الإيمان بالله – ثمَّ فسَّرها لهم فقال– شهادةِ أنْ لَا إله إلَّا الله وأنَّ مُحمَّدًا رسول الله، وإقام الصلاةِ، وإيتَاءِ الزَّكَاة، وأنْ تُؤَدُّوا خمسَ ما غنِمْتُم وأنهاكم عن: الدُّبَّاءِ[(٣)]، والحَنْتَمِ[(٤)] والنَّقِيرِ[(٥)]، والمُقيَّرِ[(٦)]»[(٧)].

• عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: كان النَّبِيُّ ﷺ يدْعُو من اللَّيْل: «اللهمَّ لك الحمْدُ أنت رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ، لك الحمْدُ أنتَ قيِّمُ[(٨)]

(١) البوء: سقوط نجم من المنازل في المغرب مع القمر وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته في كل ليلة إلى ثلاثة عشر يومًا، وهكذا كل نجم منها إلى انقضاء السنة وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والبرد والحر إلى الساقط منها «الصحاح» (١/ ٧٩).

(٢) البخاري «الفتح» (٧/ ٤١٤٧)، ومسلم (٧١) واللفظ له.

(٣) الدباء: الوعاء من القرع اليابس.

(٤) الحنتم: الجرار الخضر. والجرار جمع جرة نوع من الأوعية.

(٥) النقير: جذع ينقر من وسطه حتى يجوف ويصب فيه النبيذ.

(٦) المقير: المطلي بالزفت.

(٧) البخاري «الفتح» (١٠/ ٦١٧٦)، ومسلم (١٧) واللفظ له.

(٨) القيم في أسماء الله بمعنى القيوم والقيام، ومعناه: الذي لا يزول أو مدبر أمر الخلق.

السَّمـاواتِ والأرضِ ومن فيهِنَّ، لك الحمْدُ أنتَ نورُ السمـاواتِ والأرض، قولُكَ الحقُّ ووعْدُكَ الحقُّ، ولقاؤُكَ حقٌّ، والجنَّةُ حقٌّ، والنارُ حقٌّ والساعةُ حقٌّ، اللهمَّ لك أسلمْتُ وبك آمَنْتُ، وعليك توَكَّلْتُ، وإليك أَنَبْتُ، وبك خاصمْتُ، وإليك حاكَمْتُ، فاغفر لي ما قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ وما أسرَرْتُ وما أعْلَنْتُ؛ أنت إلهي لا إله لي غيرك»(١).

• عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كُنَّا مع رسولِ الله ﷺ في سفرٍ. إذ نَادَى مُنَادِي رسولِ الله ﷺ: الصَّلاةُ جامعةً. فاجتمعْنا إلى رسول الله ﷺ. فقال: «إنَّهُ لَمْ يكُنْ نبيٌّ قبْلِي إلَّا كان حقًّا عليه أنْ يدُلَّ أُمَّتَهُ على خير ما يعلمه لهم وينْذِرَهم شَرَّ ما يعْلَمُهُ لهمْ. وإنَّ أُمَّتَكُمْ هذه جعل عافيتها في أوَّلها، وسيُصيبُ آخِرها بلاءٌ وأمورٌ تنكِرُونها، وتجيءُ فتْنَةٌ فيُرَقِّقُ بعضها بعضًا (٢)، وتجيءُ الفتنة فيقولُ المؤمن: هذه مُهْلِكَتي ثمَّ تنْكشِفُ، وتجيءُ الفتنةُ فيقولُ المؤْمنُ: هذه هذه. فمنْ أحبَّ أنْ يُزَحْزَحَ عن النَّارِ ويدخل الجنَّةَ فليأْتِهِ منيَّتُهُ وهو يؤْمنُ بالله واليوم الآخرِ ولْيَأْتِ إلى النَّاسِ الذي يُحِبُّ أنْ يؤْتَى إليهِ (٣) ومنْ بايعَ إمامًا، فأعْطَاهُ صفْقَةَ يدهِ وثمرةَ قلْبِهِ، فليُطِعْهُ إن استطاعَ. فإنْ جاءَ آخرُ يُنَازِعُهُ فاضربوا عنُقَ الآخرِ»(٤).

---

(١) البخاري «الفتح» (١٣/ ٧٣٨٦) واللفظ له، ومسلم (٧٦٩).
(٢) يرقق بعضها بعضًا: أي يشبه بعضها بعضًا، أو يدور بعضها في بعض.
(٣) يأتي إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، أي: يعاملهم بمثل ما يُحِبُّ أن يعامل به.
(٤) مسلم (١٨٤٤).

• عن النعمانِ بن بشيرٍ ﵄ قال: كنت عند منبرِ رسولِ الله ﷺ فقال رجلٌ: ما أُبالي أنْ لا أعملَ عملًا بعد الإسلام إلَّا أن أسقِيَ الحَاجَّ. وقال آخرُ: ما أُبالي أنْ لا أعمل عملًا بعْدَ الإسلام إلَّا أنْ أعْمُرَ المسجِدَ الحرامَ. وقال آخرُ: الجهادُ في سبيل الله أفضلُ مِمَّا قلتمْ. فزجَرَهُمْ عمرُ وقال: لا ترْفَعُوا أصواتكُم عندَ منبَرِ رسولِ الله ﷺ وهو يومُ الجمعةِ. ولكنْ إذا صَلَّيْتُ الجمعة دخلتُ فاستفْتَيْتُهُ فيمَا اختلفتُمْ فيه. فأنزل الله ﷻ: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٩]»[(١)].

• عن عمر بن الخطَّاب ﵁ قال: لمَّا كان يوم خيبر أقبل نفرٌ من صحابةِ النبيِّ ﷺ فقالوا: فلانٌ شهيدٌ. حتَّى مرُّوا على رجُل فقالوا: فلانٌ شهيدٌ. فقال رسولُ الله ﷺ: «**كَلَّا إنِّي رأيْتهُ في النَّارِ في بُرْدَةٍ غلَّهَا أو عَبَاءَةٍ**[(٢)]»، ثمَّ قال رسولُ الله ﷺ: «**يا ابن الخطَّابِ**: «**اذْهبْ فنادِ في النَّاسِ أنَّهُ لا يَدْخُلُ الجنَّة إلَّا المُؤْمِنُون**». قال: فخرجتُ فناديْتُ: ألا إنَّهُ لا يدخلُ الجنَّةَ إلَّا المؤْمِنُونَ[(٣)].

• عن ابن عباسٍ ﵄ قال: لمَّا نزلتْ هذه الآيةُ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ..﴾ الآية [البقرة: ٢٨٤]. قال: دخل قلوبهم منها شيءٌ لم يدخلْ قلوبهم من قبْلُ. فقال النَّبيُّ ﷺ: «قولوا سمعْنَا

---

(١) مسلم (١٨٧٩).
(٢) بردة غَلَّهَا: أي أخذها غلولاً والغلول هو الخيانة في الغنيمة خاصة أو هي الخيانة في كل شيء.
(٣) مسلم (١١٤).

وأطعْنا وسَلَّمْنا». قال: فألْقَى اللهُ الإيمَانَ في قلوبهم فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (قال: «قد فعلتُ») ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾[1] (قال: «قد فعلتُ») ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ (قال: «قد فعلتُ»)»[2].

• عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: لَمَّا نزلتْ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ الآية. جلس ثابتُ بنُ قيسٍ في بيتهِ وقال: أنا منْ أهْلِ النَّار. واحْتَبسَ عن النبي ﷺ فسأل النَّبيُّ ﷺ سعد بن مُعاذٍ، فقال: يا أبَا عمرٍو، ما شأْنُ ثابتٍ؟ أشْتكَى؟ قال سعدٌ: إنَّه لجارِي وما علِمْتُ له بشكوى. قال: فأتاه سعدٌ فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال ثابتٌ: أنزلتْ هذه الآيةُ ولقدْ علمتُمْ أنِّي من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ فأنا من أهلِ النَّارِ. فذكر ذلك سعدٌ للنَّبيِّ ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «**بل هُوَ من أهْلِ الجنَّةِ**»[3].

• عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: ليلة أُسرِيَ برسول الله ﷺ منْ مسجد الكعبةِ أنَّهُ جاءَهُ ثلاثةُ نفرٍ قبْل أنْ يوحَى إليه وهو نائمٌ في المسجدِ الحرام فقال أوَّلُهم: أيُّهُمْ؟ فقال أوسطهم: هو خيرُهُمْ. فقال أحدهم: خُذوا خيرهم، فكانت تلك الليلةَ فلمْ يرهُمْ حتَّى أتوْهُ ليلةً أخرى فيمَا يرى

---

(١) الإصر: الأمر الشديد الثقيل.

(٢) مسلم (١٢٦)، وروى البخاري نحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما «الفتح» (٨/ ٥٤٥٤).

(٣) البخاري «الفتح» (٨/ ٤٨٤٦)، ومسلم (١١٩) واللفظ له.

قلبه، وتنامُ عينه ولا ينامُ قلبه – وكذلك الأنبياءُ تنامُ أعينهم ولا تنامُ قلوبهم – فلم يكلِّمُوه حتى احتملوه فوضعُوه عند بئْرِ زمْزَمَ فتولَّاهُ منهم جبريل فشقَّ جبريلُ ما بين نحْرِهِ إلى لَبَّتِه حتى فرغَ من صدره وجوفِهِ فَغَسَلَهُ من ماءِ زمْزَمَ بيدهِ حتى أنْقَى جَوْفَهُ، ثُمَّ أتى بطَسْتٍ من ذهبٍ فيه تورٌ من ذهبٍ[١] مَحْشُوًّا إيمَانًا وحكمةً فحشا به صدْرَهُ ولَغَادِيدَهُ – يعني: عُروقَ حلقه –، ثم أطبقَهُ ثمَّ عرج به إلى السماءِ الدُّنْيا.. » الحديث[٢].

• عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس المؤمنُ بالطَّعَّانِ[٣] ولا اللَّعانِ[٤] ولا الفحَّاشِ[٥] ولا البذيءِ[٦]**»[٧].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَفْرَكْ[٨] مؤمنٌ مؤمنةً إنْ كرِهَ منها خُلقًا رَضِيَ منها آخرَ**»[٩].

---

(١) تور من ذهب: أي إناء من ذهب.
(٢) البخاري «الفتح» (١٣/ ٧٥١٧)،ومسلم (١٦٢). ذكر إسناده فقط كأنها إشارة إلى أخطاء شريك القاضي ومنها قوله: «قبل أن يُوحىٰ إليه»، و«وهو نائم»، و«تورٌ من ذهب» انظر «فتح الباري».
(٣) الطعَّان: أي الوقَّاع في أعراض الناس بالذم والغيبة ونحوها.
(٤) اللعَّان: أي الشتَّام وأصل اللعن الطرد والإبعاد من الله.
(٥) الفحَّاش:أي الذي يتفحش في كلامه والفحش هو التعدي في القول والجواب وكل خصلة قبيحة فهي فاحشة من الأقوال أو الأفعال، وقد يراد بالفاحشة الزنا.
(٦) البذيء: من البذاءة وهي المفاحشة.
(٧) الترمذي (١٩٧٧٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب، أحمد (١/ ٤٠٥، ٤٠٦) وقال شاكر: إسناده صحيح (٥/ ٢٢٢)، الحاكم «مستدركه» (١/ ١٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح على شرط الشيخين وسكت عنه الذهبي.
(٨) يفرك: يبغض.
(٩) مسلم (١٤٦٩).

• عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من شيءٍ أثْقَلَ في مِيزَانِ المؤْمنِ يومَ القيامةِ من خُلُقٍ حسنٍ وإنَّ الله تعالى ليُبْغِضُ الفاحِشَ البَذِيءَ»(١).

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «ما منْ شيءٍ يصيبُ المؤمنَ حتَّى الشَّوْكةَ تصيبه إلَّا كتب الله له بها حسنةً أوْ حُطَّتْ عنه بها خطيئَة»(٢).

• عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منْ نبيٍّ بعثهُ الله في أمَّةٍ قبلي، إلَّا كان له من أُمَّتِه حوارِيُّونَ(٣) وأصحابٌ يأخذونَ بسُنَّتِهِ ويقْتَدُونَ بأمره، ثُمَّ إنَّها(٤) تَخْلُفُ من بعدهم خلوفٌ(٥) يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرونَ. فمنْ جاهدهُمْ بيده فهو مؤمنٌ، ومنْ جاهدهُمْ بلسانِهِ فهو مُؤْمنٌ، ومنْ جاهدهمْ بقلْبه فهو مُؤْمنٌ وليس وراءَ ذلك من الإيمان حبَّةُ خرْدلٍ»(٦).

---

(١) الترمذي (٢٠٠٢) واللفظ له، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود (٤٧٩٩)، البخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٣٦٨)، وذكره ابن حجر في جملة أحاديث صحيحة في حسن الخلق «الفتح» (١٠/ ٤٧٣)، وقال محقق «جامع الأصول» (٤/ ٦): «إسناده حسن».

(٢) مسلم (٢٥٧٢) واللفظ له، البخاري «الفتح» (١٠/ ٥٦٤٠) وفيه: المسلم بدلاً من المؤمن.

(٣) الحواريون: وهم الخلصاء والأنصار وأصله من التحوير أي التبييض.

(٤) ثم إنها: الضمير في إنها هو الذي يسميه النحويون ضمير القصة والشأن.

(٥) خلوف: جمع خلف بفتح الخاء وهو القرن من الناس والمعنىٰ تأتي من بعدهم قرون من الناس.

(٦) مسلم (٤٩).

• عن أبي هريرة وأبي سعيدٍ رضي الله عنهما أنهمَا سمعا رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ما يُصِيبُ المؤمنَ منْ وَصَبٍ [(١)] ولا نصب [(٢)] ولا سقمٍ ولا حزَنٍ حتَّى الهَمَّ يَهُمُّه [(٣)] إلَّا كفَّرَ به منْ سيِّئاته» [(٤)].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ المؤْمنِ كمثلِ خَامَةِ [(٥)] الزَّرْعِ يُفيءُ ورَقُهُ منْ حيْثُ أتتْهَا الرِّيحُ تكْفِئُها، فإذا سكنتِ اعتدلتْ، وكذلك المؤمنُ يكفَّأُ بالبلاءِ، ومثلُ الكافرِ كمَثَلِ الأَرْزَةِ [(٦)] صَمَّاءَ مُعْتدِلةً حتَّى يقْصِمَها الله إذا شاءَ» [(٧)].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منِ اتَّبع جنازةَ مسلم إيمانًا واحْتسابًا، وكان معه حتى يُصَلَّى عليها ويُفْرَغَ من دفْنِهَا، فإنَّهُ يَرْجِعُ من الأجْرِ بقيراطينِ كُلُّ قيراطٍ مثلُ أحدٍ، ومنْ صلَّى عليها ثُمَّ رجع قبْل أن تُدْفنَ فإنَّهُ يرْجِعُ بقيراطٍ» [(٨)].

• عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: مرَّ رسول الله ﷺ على رجُلٍ من

---

(١) الوصب: الوجع والألم.

(٢) النصب: التعب.

(٣) هكذا ضبطه القاضي، وغيره ضبطه (يَهُمّه) بفتح الياء وضم الهاء، أي يغمه، وكلاهما في الصحيح.

(٤) البخاري «الفتح» (١٠/ ٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣).

(٥) الخامة: النبات الصغير الضعيف.

(٦) الأرز: شجر معروف قوي يرتفع (من ٧٠- ٨٠ قدما).

(٧) البخاري «الفتح» (١٣/ ٧٤٦٦)، مسلم (٢٨٠٩) وروى مسلم مثله من حديث كعب بن مالك (٢٨١٠).

(٨) البخاري «الفتح» (١/ ٤٧) واللفظ له، ومسلم (٩٤٥).

الأنصارِ وهو يَعِظُ أخاهُ في الحياءِ فقال رسول الله ﷺ: «دَعْهُ فإنَّ الحياءَ من الإيمان»(١).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ آمن بالله وبرسوله وأقامَ الصلاة وصام رمضانَ، كان حقًّا على الله أن يدْخِلَهُ الجنَّة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضِهِ التي ولد فيها». فقالوا: يا رسول الله أفلا نُبشِّرُ الناسَ؟ قال: «إنَّ في الجنَّةِ مئةَ درجةٍ أعدَّها الله للمُجاهدين في سبيل الله ما بين الدَّرجتين كما بين السمَاء والأرضِ. فإذا سألتمُ الله فاسألوه الفرْدوْسَ فإنَّهُ أوسطُ الجنَّةِ وأعلى الجنَّة». أراهُ قال: «وفوْقَهُ عرشُ الرحْمن ومنهُ تفجَّرُ أنْهارُ الجنَّةِ»(٢).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من احْتَبَسَ فرسًا في سبيلِ الله إيمَانًا بالله وتصديقًا بوعدِهِ، فإنَّ شبعه وريَّهُ وروثَهُ وبوْلَهُ في ميزانِهِ يومَ القيامةِ»(٣).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منْ صامَ رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّمَ منْ ذنْبِه، ومنْ قام ليلةَ القدْرِ إيمانًا واحْتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنْبِهِ»(٤).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه عنْ رسولِ الله ﷺ قال: «منْ كان يؤْمنُ بالله واليومِ الآخرِ فليقُلْ خيرًا أو ليصمُتْ، ومن كان يُؤْمنُ بالله واليومِ الآخرِ

---

(١) البخاري «الفتح» (١٠/ ٦١١٨)، ومسلم (٣٥).
(٢) البخاري «الفتح» (٦/ ٢٧٩٠).
(٣) البخاري «الفتح» (٢٨٥٣).
(٤) البخاري «الفتح» (١/ ٣٧، ٣٨)، مسلم (٧٦٠).

فلْيُكْرِمْ جارَهُ، ومنْ كان يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخرِ فلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[١].

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المُؤْمنُ القويُّ خيْرٌ وأحَبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيفِ وفي كُلٍّ خيرٌ، احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ واستعن بـالله ولا تعجزْ. وإنْ أصابكَ شيءٌ فلا تقُلْ: لوْ أنِّي فعلتُ كان كذا وكذا ولكنْ قُلْ قدرُ الله وما شاءَ فعل فإنَّ لو تفْتَحُ عمل الشيطانِ»[٢].

• عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المُؤمنُ للمُؤمنِ كالبُنْيَانِ يشُدُّ بعْضُهُ بعْضًا» وشبَّكَ بينَ أصابعِهِ[٣].

• عن أبي هريرة ﷺ أنَّهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «منْ نفَّسَ عنْ مُؤْمنٍ كُرْبَةً من كُرَبِ الدُّنيا نفَّسَ الله عنه كربَةً من كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومن يسَّرَ على مُعْسِرٍ يسَّرَ الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدُّنيا والآخرةِ، والله في عونِ العبدِ ما كان العبدُ في عوْنِ أخيه؛ ومنْ سلك طريقًا يلْتَمِسُ فيه علْمًا سهَّلَ الله له به طريقًا إلى الجنَّةِ؛ وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوتِ الله يتْلُونَ كتاب الله ويتدارسُونَهُ بينهم، إلَّا نزلت عليهم السَّكِينةُ، وغشِيتْهُم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمنْ عندَهُ ومنْ بطأَ به عَمَلُه لم يُسْرِعْ به نسَبُهُ»[٤].

• عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «نَجِيءُ نحن يوم القيامةِ عن كذا وكذا[٥] انظرْ أيْ ذلك فوْقَ الناس. قال: فتُدعى الأُمم

---

(١) البخاري «الفتح» (١٠/ ٦١٤٦)، ومسلم (٤٧) واللفظ له.
(٢) مسلم (٢٦٦٤).
(٣) البخاري «الفتح» (٥/ ٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥).
(٤) مسلم (٢٦٩٩).
(٥) قوله في أول الحديث: عن كذا وكذا انظر أي ذلك فوق الناس: هذه الجملة

بأوثانها وما كانت تَعبد الأول فالأوَّل، ثمَّ يأتينا بعد ذلك فيقول: من تنظرون؟ فيقولون: ننظرُ ربَّنَا. فيقولُ: أنا رَبُّكُمْ، فيقولون: حتى نَنْظُرَ إليك، فيتجلَّى لهم يضحكُ. قال: فينطلقُ بهم ويتَّبعونَهُ ويُعْطى كلُّ إنسانٍ منهم منافقٍ أو مؤمنٍ نُورًا، ثمَّ يَتَّبِعُونَهُ، وعلى جسرِ جهنَّمَ كلاليبُ وحسكٌ تأخذُ من شاء الله، ثمَّ يطفأُ نورُ المنافقينَ ثُمَّ ينْجُو المؤْمِنُونَ فتنْجُو أولُ زُمْرةٍ وجوههم كالقمرِ ليلة البدْرِ سبعون ألفًا لا يُحَاسَبُونَ، ثمَّ الذين يلُونَهُمْ كأضوأ نجمٍ في السمـاءِ، ثم كذلك، ثم تَحِلُّ الشَّفاعةُ ويشْفَعُونَ حتى يخرجَ من النَّارِ من قال: لا إله إلَّا الله وكان في قَلْبه من الخَيْرِ ما يزنُ شعيرةً فيُجْعَلُون بفناءِ الجنَّةِ، ويجعل أهلُ الجنَّة يرُشُّونَ عليهم المـاءَ حتى ينْبُتوا نبات الشيءِ في السَّيْلِ ويذْهبُ حُرَاقُهُ[١] ثمَّ يسأَلُ حتَّى تُجْعلَ له الدُّنيا وعشرةُ أمثالها معها»[٢].

□ عن عليٍّ بن أبي طالبٍ ﷺ قال: والذي فَلقَ الحبَّةَ وبرأَ النَّسمةَ إنَّهُ لعهدُ النبيِّ الأميِّ ﷺ إليَّ «أنه لا يُحبُّني إلَّا مؤمنٌ ولا يُبغضني إلَّا منافقٌ»[٣].

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلونَ الجنَّة حتى تُؤمنوا ولا تُؤمنوا حتى تَحابُّوا، أو لا أَدُلُّكُمْ على

فيها تصحيف وصوابها: يحشر الناس يوم القيامة على تل وأمتي على تل.

(١) وقوله: فيذهب حراقه: أثر النار.

(٢) مسلم (١٩١).

(٣) مسلم (٧٨).

شيءٍ إذا فعلتُمُوهُ تحاببْتُمْ؟. أفْشُوا السلام بينكُمْ»[١].

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ لا يسمَعُ بي أحدٌ منْ هذه الأُمَّةِ يهودِيٌّ ولا نصرانيٌّ ثُمَّ يموتُ ولم يؤْمنْ بالذي أرْسِلْتُ به إلَّا كان من أصحابِ النَّارِ»[٢].

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجْتمعانِ في النارِ اجتماعًا يضُرُّ أحدهما الآخر». قيل: من همْ يا رسول الله؟ قال: «مُؤمنٌ قتلَ كافرًا ثُمَّ سَدَّدَ[٣]»[٤].

• عن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخلُ الجنَّة من كان في قلْبِهِ مْثقَالُ ذرَّةٍ من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمانٍ». قال: فقال رجلٌ: إنَّهُ يعجبُني أنْ يكونَ ثوْبي حسنًا ونعْلِي حسنَةً. قال: «إنَّ اللهَ يُحِبُّ الجمال ولكنَّ الكبْرَ منْ بَطِرَ[٥] الحَقَّ وغَمَصَ النَّاس[٦]»[٧].

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزالُ الناسُ يتساءلونَ حتَّى يقال: هذا خلقَ اللهُ الخلْقَ فمنْ خلقَ اللهَ؟ فمنْ وجدَ من

(١) مسلم (٥٤).
(٢) مسلم (١٥٣).
(٣) سدد: أي استقام على الطريق المثلى ولم يخلط.
(٤) مسلم (١٨٩١).
(٥) بطر الحق: دفعه وإنكاره ترفعًا.
(٦) الغمص والغمط: الاحتقار.
(٧) مسلم (٩١)، والترمذي (١١٩٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح واللفظ له.

ذلك شيئًا فليَقُلْ: آمَنْتُ بِالله»(١).

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «لا يَزْنِي الزَّانِي حين يزْني وهو مُؤْمنٌ، ولا يشْرَبُ الخمْرَ حين يشربُ وهو مؤمنٌ، ولا يسْرِقُ حين يسرِقُ وهو مُؤْمنٌ، ولا ينْهَبُ نهبةً يرفع الناسُ إليه فيها أبصارهم حين ينتهِبُهَا وهو مُؤْمِنٌ»(٢).

• عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُلْدَغُ المؤمنُ منْ جُحْرٍ واحدٍ مرتين»(٣).

• عن أبي سعيدٍ الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يخْرُجُ الدَّجَّالُ فيتوجَّهُ قبلهُ رجلٌ من المؤمنين فتلْقَاهُ المسالِحُ (٤) مسالحُ الدجالِ فيقولون له: أين تعمِدُ؟ فيقولُ: أعْمِدُ إلى هذا الذي خرج. قال: فيقولون له: أو ما تؤمنُ بربِّنَا. فيقول: ما بربِّنا خفاءٌ. فيقولون: اقتُلوهُ فيقول بعضهم لبعضٍ: أليْسَ قدْ نهاكم ربُّكم أنْ تقْتُلوا أحدًا دُونَهُ. قال: فينْطلقُونَ به إلى الدجال فإذا رآهُ المؤمنُ قال: يا أيها الناس هذا الدجالُ الذي ذكرَ رسول الله ﷺ. قال: فيَأْمُرُ الدجالُ به فيُشَبَّحُ (٥)، فيقول: خذوه وشُجُّوهُ (٦). فيوسع ظهره وبطنه ضربًا قال فيقول: أو ما تُؤْمنُ بي؟ قال:

---

(١) مسلم (١٣٤).

(٢) البخاري «الفتح» (٥/ ٢٤٧٥) واللفظ له، مسلم (١١٠).

(٣) البخاري «الفتح» (١/ ٦١٣٣) واللفظ له، مسلم (٢٩٩٨).

(٤) المسالح: ذوي السلاح. والمَسْلَحة هم القوم الذين يحفظون الثغور من العدو وسموا كذلك لأنهم يكونون ذوي سلاح.

(٥) يُشَبَّح: أي يُمَدُّ علىٰ بطنه.

(٦) يُشَجُّ: من الشجِّ وهو أن يضربه بشيء فيجرحه به ويشقه، والشج في الرأس

فيقول: أنت المسيحُ الكذَّابُ. قال: فيُؤْمَرُ به فيُؤْشَرُ بالمئشارِ من مفرِقِهِ [١] حتى يُفرِّقَ بينَ رجليْهِ. قال: ثُمَّ يمْشِي الدجالُ بين القطعتينِ. ثمَّ يقولُ لهُ: قُمْ: فيستَوي قائمًا. قال ثمَّ يقول له: أتُؤمِنُ بي؟ فيقولُ: ما ازددتُ فيك إلَّا بصيرةً. قال: ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحدٍ من الناسِ. قال فيأخُذُهُ الدجالُ ليذْبَحَهُ. فيُجْعلُ ما بين رقبته إلى تَرْقُوَتِهِ [٢] نُحَاسًا [٣]. فلا يستطيع إليه سبيلًا قال: فيأخذُ بيديْهِ ورجليه فيقْذِفُ به. فيحسبُ الناسُ أنَّما قذفَهُ إلى النَّارِ. وإنما أُلقِيَ في الجنَّةِ». فقال رسول الله ﷺ: «هذا أعظَمُ الناس شهادةً عِنْدَ ربِّ العالمينَ» [٤].

• عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْلُصُ المؤْمنونَ من النَّارِ فيُحْبَسُونَ على قنْطرةٍ بين الجنَّةِ والنَّارِ فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالِمَ كانتْ بينَهُم في الدُّنيا حتَّى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أذِنَ لهمْ في دُخولِ الجنَّةِ. فوالذي نفْسُ محمدٍ بيدِهِ لأحدُهُمْ أهْدَى بمنْزِلهِ في الجنَّةِ مِنْهُ بمنزله كان في الدُّنْيا» [٥].

• عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدْخِلُ اللهُ أهل الجنةِ الجنَّةَ، يُدْخِلُ من يشاءُ برحمته ويُدْخِلُ أهل النَّارِ النَّارَ ثمَّ يقولُ:

خاصة هو الأصل، ثم استعمل لسائر الأعضاء.

(١) مفرقه: مفرق الرأس: وَسَطُهُ.

(٢) الترقوة: العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق.

(٣) هكذا الأصل (نحاسًا) واللغة تقتضي أن يكون (نحاسٌ) لأن الفعل يجعل مبني للمجهول. فهو نائب فاعل.

(٤) مسلم (٢٩٣٨).

(٥) البخاري «الفتح» (١١/ ٦٥٣٥).

انظروا منْ وجدْتُمْ في قلْبه مِثْقالَ حَبَّةٍ من خردَلٍ منْ إيمانٍ فأخْرِجُوه فيُخْرَجُونَ منهَا حُمَمًا [١] قد امْتُحِشُوا [٢] فيلقوْنَ في نهرِ الحياةِ أوْ الحيَا [٣] فينْبُتُونَ فيه كما تنبتُ الحبَّةُ إلى جانبِ السَّيْلِ ألمْ تروْهَا كيف تَخْرُجُ صفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً» [٤].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يدخُلُ الجنَّةَ من لا يأمَنُ جَارُهُ بوائِقَهُ» [٥].

• عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العبْدَ إذا وُضِعَ في قَبْرِهِ وتولَّى عنْهُ أصحابُهُ – وإنَّهُ ليَسْمَعُ قَرْعَ نعَالِهِمْ – أتاهُ ملكانِ فيُقْعِدَانِهِ، فيقولانِ: ما كُنْتَ تقولُ في هذا الرَّجُلِ؟ – لمُحَمدٍ ﷺ – فأمَّا المؤمنُ فيقولُ: أشهدُ أنَّهُ عبْدُ الله ورسُولُهُ. فيُقَالُ لهُ: انْظُرْ إلى مَقْعدكَ من النّارِ، قدْ أبْدَلكَ الله به مَقْعَدًا من الجنَّةِ، فيرَاهُمَا جميعًا». قال قتادة: وذُكِرَ لنا أنَّه يُفْسحُ له في قَبْرِهِ. ثُمَّ رَجَعَ إلى حديث أنسٍ، قال: «وأمَّا المنَافِقُ والكافِرُ فيُقالُ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرَّجُلِ؟ فيقولُ: لا أدْرِي، كُنْتُ أقولُ ما يقولُ النَّاسُ. فيقولُ: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ. ويُضْرَبُ بمَطَارِقَ منْ حديدٍ ضرْبَةً، فيَصِيحُ صَيْحَةً يسْمَعُهَا منْ يَلِيهِ غيرَ الثَّقَلَيْنِ» [٦].

---

(١) حممًا: فحمًا.

(٢) امتحشوا: احترقوا.

(٣) الحيا: المطر.

(٤) البخاري «الفتح» (١١/ ٦٥٦)، ومسلم (١٨٤).

(٥) مسلم (٤٦).

(٦) البخاري «الفتح» (٣/ ١٣٧) واللفظ له، ومسلم (٢٨٧٠).

• عن هانئٍ مولَى عثمانَ بن عفَّان ﷺ قال: كان عثمانُ ﷺ إذا وقف على قبرٍ بكى، حتى يَبُلَّ لحيتَهُ، فقيلَ له: تَذْكُرُ الجنَّة والنَّارَ فلا تبْكِي، وتذكر القبْرَ فتَبْكِي؟ فقال: إنِّي سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «القبْرُ أوَّلُ منْزلٍ من منازلِ الآخرةِ، فإنْ نجا منهُ فمَا بعدَهُ أيْسَرُ منهُ، وإنْ لَمْ يَنْجُ منْهُ فمَا بَعْدَهُ أشدُّ منْهُ» قال: وسَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ما رأَيْتُ منظَرًا قطُّ إلّا القبْرُ أفْظَعُ (١) مِنْهُ» (٢).

• عن البراءِ بن عازبٍ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] قال: نزلتْ في عَذَابِ القبرِ، فيُقَالُ لهُ: من رَبُّكَ؟ فيقُولُ: ربِّيَ الله ونَبيِّي محمدٌ ﷺ فذلك قولُهُ ﷻ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾» (٣).

• عن البراءِ بن عازبٍ ﷺ قال: خرجْنا مع رسولِ الله ﷺ في جنَازَةِ رَجُلٍ من الأنصارِ، فانْتَهيْنَا إلى القبرِ ولمَّا يُلْحدْ بعدُ، فجلس رسولُ الله ﷺ وجلسنا حولَهُ كأنَّمَا على رُءُوسنا الطَّيْرُ، وبيدهِ عُودٌ يَنْكُتُ (٤) به في الأرض، فرفعَ رأسهُ فقالَ: «**اسْتَعيذُوا باللهِ منْ عذابِ القبْرِ مرَّتينِ، أو ثلاثًا**». زادَ في روايةٍ: وقال: «**إنَّ الميِّتَ ليسْمَعُ خَفْقَ نعَالِهِمْ إذا ولَّوا**

(١) أفظع: الفظيع: الشديد الشنيع.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٠٩) قال محقق «جامع الأصول» (١١/ ١٦٥): إسناده حسن. وزاد رزين: قال هانئ: وسمعت عثمان ينشد على قبر:

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذِي عَظيمةٍ ... وإلا فإني لا إخالُكَ ناجِيًا

وهذا من قوة إيمانه ﷺ.
(٣) مسلم (٢٨٧١) واللفظ له، والبخاري «الفتح» (٣/ ١٣٦٩).
(٤) ينكت: نكت في الأرض بيده وبقضيب: إذا أثر فيها بذلك.

مُدْبرِينَ حينَ يُقالُ لهُ: يا هذا، مَنْ ربُّكَ؟ وما دِينُكَ؟ ومَنْ نَبِيُّكَ؟».

وفي روايةٍ: «ويأتيهِ ملكانِ، فَيُجلسانِهِ، فيقولانِ لهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقولُ: ربِّيَ الله، فيقُولانِ له: ما دِينُكَ؟ فيقولُ: دينيَ الإسلامُ، فيقُولانِ لهُ: ما هذا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فيقولُ: هو رسولُ الله، فيقُولانِ لهُ: وما يُدْرِيكَ؟ فيقُولُ: قرأْتُ كتابَ الله، فآمَنْتُ بهِ، وصدَّقْتُ».

زَادَ في روَايَةٍ: فذاكَ قولُهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ ثمَّ اتَّفقَا: فيُنَادي مُنَادٍ من السماءِ: أنْ قدْ صدقَ عبْدِي، فأفرِشُوهُ من الجنَّةِ، وألْبِسُوهُ من الجنَّةِ، وافْتَحُوا لهُ بابًا إلى الجنَّةِ، فَيَأْتِيهِ منْ روْحِها وطِيبِهَا، ويُفْتَحُ له في قَبْرِهِ مَدَّ بصرِهِ، وإنَّ الكافِرَ.. فذكرَ موْتَه، قالَ: وتُعَادُ روحه في جسدِهِ، ويأتِيهِ ملكانِ، فيُجْلِسَانِهِ، فيقُولانِ له: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقولُ: هَاهْ هَاهْ [1]، لا أدْرِي، فيقولانِ: ما دِينُكَ؟ فيقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لا أَدْرِي، فيقُولان له: ما هذا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فيكمْ؟ فيقولُ: هَاهْ هَاهْ، لا أدري، فَيُنَادِي مُنَادٍ من السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فأَفْرِشُوهُ من النَّارِ، وأَلْبِسُوهُ من النَّارِ، وافْتَحُوا لهُ بابًا إلى النَّارِ، فيأْتِيهِ من حرِّهَا وسمُومِهَا، ويُضَيَّقُ عليهِ قَبْرُهُ حتَّى تَخْتَلِفَ فيه أضْلاعُهُ».

وزادَ في روايةٍ: «ثُمَّ يُقيَّضُ له أعْمَى أبْكَمُ [2]، معهُ مِرْزَبَةٌ من حَدِيدٍ لوْ ضُرِبَ بها جَبلٌ لصَارَ تُرابًا، فيَضْرِبُهُ بها ضَرْبَةً يسْمَعُهَا منْ بينَ المَشَرِقِ

---

(١) هاه هاه: عادة المشدوه الحائر إذا خوطب أن يقول: هاه هاه، كأنه يستفهم عما يسأله عنه.

(٢) الأبكم: الأبكم: الذي خلق أخرس.

والمغربِ، إلَّا الثقلينِ، فيصيرُ تُرابًا، ثمَّ تُعَادُ فيه الرُّوحُ»[١].

رعاية القلب وإصلاحه، ومعرفة فقه القلب أهم ما يشغل عُلاة الهمم:

عبودية القلب أعظم وأدوم من عبودية الروح:

✍ طوبى لعبد عرف الطريق إلى الله، ووا أسفاه، وا حسرتاه لعبد انقضى الزمان، ونفد عمره وقلبه محجوب عن تصحيح المعاملة وحسن الصيانة والرعاية لحق مولاه، ما شمّ للإخلاص رائحة. فداو قلبك وأصلحه وأخلص،وصحِّح النيّة وأخلص الطوية، فإن مراد الله من العباد صلاح قلوبهم.

□ سُئِل ذو النون عن السفلة من هو؟ قال: «من لا يعرف الطريق إلى الله ولم يتعرّفه»[٢]. والطريق إلى الله يقطع بذلّ القلوب وإخلاصها لعلّام الغيوب.

□ قال يحيى بن معاذ الرازي: «مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب»[٣]، وأبواب مالك المُلوك لا تقرع بالأظافير وإنما بوجيب القلوب.

• قال رسول الله ﷺ: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**[٤].

---

(١) أبو داود برقم (٣٢١٢)، (٤٧٥٣)، (٤٧٥٤) وقال محقق «الجامع» (١١/ ١٧٩): «إسناده حسن». وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٩٠٢): «صحيح». وأصله عند البخاري ومسلم.

(٢) «حلية الأولياء» لأبي نعيم.

(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم.

(٤) رواه البخاري في «صحيحه» كتاب الإيمان (٥٢)ن ومسلم في «صحيحه» كتاب

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**[(١)].

• وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال كالوِعاء، إذا طاب أسفله طاب أعلاه، وإذا فسد أسفله فسد أعلاه»[(٢)].

□ قال أبو هريرة رضي الله عنه: **«القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث المَلك خبثت جنوده».**

□ وقال الغزالي: «إنمَا الجوارح أتباع وخدم وآلات، يستخدمها القلب ويستعملها استعمَال المَالك للعبد واستخدام الراعي للرعية، والصانع للآلة؛ فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقًا بغير الله، وهو المطالب وهو المخاطَب وهو المعاتَب، وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكّاه، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنّسه ودسّاه؛ وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنمَا الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرد على الله تعالى، وإنمَا الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره؛ وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساوئه، إذ كل إناء

المساقاة (١٥٩٩/ ١٠٧) وأصحاب السنن الأربعة.

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٥٦٤)، وابن ماجه.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه (٤١٩٩)، وأبو يعلى (٤/ ١٧٧٦)، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٩٦)، وعند أحمد (٤/ ٩٤)، والرامهرمزي في «الأمثال» (ص١٠١- هند) بلفظ: «إنَّ ما بقي من الدنيا بلاء وفتنة، وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء، إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله».

ينضح بمَا فيه»(١).

□ قال أبو خزيمة العابد: «القصد إلى الله بالقلوب أبلغ من حركات الأعمَال: الصلاة والصيام ونحوهما»(٢).

□ وقال ابن القيم رحمه الله: «من تأمّل الشريعة، في مصادرها ومواردها، علم ارتباط أعمَال الجوارح بأعمَال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمَال القلوب أفرض على العبد من أعمَال الجوارح، وهل يميّز المؤمن من المنافق إلّا بمَا في قلب كل واحد من الأعمَال التي ميّزت بينهمَا؟ وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح، وأكثر، وأدوم، فهي واجبة في كل وقت»(٣).

□ وقال أيضًا: رحمه الله: «أعمال القلوب هي الأصل، وأعمَال الجوارح تبع ومكمِّلة، وإن النيّة بمنزلة الروح، والعمَل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح فموات، فمعرفة أحكام القلب أهم من معرفة أحكام الجوارح»(٤).

□ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن الأعمَال القلبية: «هي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين لله، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه والرجاء له، وهذه الأعمَال جميعها واجبة على جميع الخلق باتفاق أئمة

---

(١) «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/ ٣).
(٢) «حلية الأولياء».
(٣) «بدائع الفوائد» لابن القيم (٣/ ٣٣٠).
(٤) المصدر السابق (٣/ ٢٢٤).

الدين»[(١)].

وقال: «الأعمَال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلَّا بتوسط عمل القلب، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا خبث الملك خبثت جنوده»[(٢)].

□ وقال ابن تيمية رحمه الله: «إن أصل الدين في الحقيقة هي الأمور الباطنة من العلوم والأعمَال، وإن الأعمَال الظاهرة لا تنفع بدونها»[(٣)].

✍ فيا طيب قلوب امتلأت من توحيد الله والإخلاص له ومحبته وخشيته ومراقبته، قد أنساها إخلاصها لمولاها ذكر غيره، أوحشهم أنسها به ممن سواه، قد فنوْا بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبإفراده بالخوف والرجاء والرغبة إليه والرهبة منه والتوكل عليه والإنابة إليه والسكون إليه والتذلل والانكسار بين يديه عن تعلق ذلك منهم بغيره.

✍ قلوب خرجت إلى فضاء التوحيد والمعرفة، وتخلّصت من مشيمة الطباع وظلمَات النفس والهوى، فقرّت عيونها بالله، وقرّت عيون بها وقلوب، وأنست بقربها الأرواح، وذكّرت رؤيتها بـالله، فاطمأنت بالله وسكنت إليه، وعكفت بهمتها عليه، وسافرت هممها وعزائمها إلى الرفيق الأعلى، لا تقرّ بشيء غير الله، ولا تسكن إلى شيء سواه، ولا تطمئن بغيره، ولا تجد من كل شيء سوى الله عوضًا، ومحبته قوتها،

(١) «مجموع فتاوى» ابن تيمية (١٠/ ٥)، (٢٠/ ٧٠).

(٢) المصدر السابق (١١/ ٢٠٨).

(٣) «التحفة العراقية في الأعمال القلبية» لابن تيمية (ص٣٠٨)- مكتبة الرشد.

ومعرفته أنيسها، عدوّها من جذبها عن الله «وإن كان القريب المصافيا»، ووليّها مَن ردّها على الله وجمع القلوب عليه «وإن كان البعيد المناويا»[(١)].

✍ قلوب انصبغت بالإخلاص لمولاها، آوت إليه فآواها، وسجدت بين يديه وحده خاشعة ذليلة منكسرة من كل جهة من جهاتها، فيا لها من سجدة ما أشرفها، لا ترفع رءوسها منها إلى يوم اللقاء، تقطع في سفرها إليه بيداء الأكوان، وتخرق حُجب الطبيعة، ولا تقف عند رسم، ولا تسكن إلى علم.

✍ تبقى هذه القلوب السليمة الخالصة لله عرشًا للمثل الأعلى – عرشًا لمعرفة محبوبها والإخلاص له، نزّهت سرّها أن يُساكن سواه، أو يطمئن بغيره. قطعت الأكوان وسجدت تحت العرش، فطوباها وطوباها وطوباها.

منزلة القلب:

□ قال ابن القيم رحمه الله: «انفذ من ساحة الصدر إلى مشاهدة القلب، تجد ملكًا عظيمًا جالسًا على سرير مملكته، يأمر، وينهى، ويولي، ويعزل. وقد حف به الأمراء والوزراء والجند، كلهم في خدمته، إن استقام استقاموا وإن زاغ زاغوا، وإن صحَّ صحوا، وإن فسد فسدوا. فعليه المعول، وهو محل نظر الرب تعالى، ومحل معرفته، ومحبته وخشيته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والرضا به، وعنه، والعبودية عليه أولًا وعلى رعيته وجنده تبعًا.

(١) «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص١٦)- المطبعة السلفية.

القلب أشرف ما في الإنسان:

فأشرف ما في الإنسان قلبه، فهو العالم بالله، الساعي إليه، المحب له. وهو محل الإيمان والعرفان، وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل، المخصوص بأشرف العطايا، من الإيمان والعقل.

وإنمَا الجوارح أتباع للقلب يستخدمها استخدام الملوك للعبيد، والراعي للرعية، والذي يسري إلى الجوارح من الطاعات والمعاصي، إنمَا هي آثاره. فإن أظلم أظلمت الجوارح، وإن استنار استنارت، ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عَزَّ وَجَلَّ.

فسبحان مقلب القلوب ومُودِعها ما يشاء من أسرار الغيوب الذي يحول بين المرء وقلبه، ويعلم ما ينطوي عليه من طاعته ودينه، مصرف القلوب كيف أراد وحيث أراد. أوحى إلى قلوب الأولياء أن أقبلي عليَّ، فبادرت وقامت بين يدي رب العالمين، وكره عَزَّ وَجَلَّ انبعاث آخرين فثبطهم، ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة].

- كانت أكثر يمين رسول الله ﷺ: «**لا ومقلب القلوب**»(١).
- وكان من دعائه ﷺ: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك**»(٢).

---

(١) البخاري (٦٦٢٨) في الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ، والترمذي (١٥٤٠) في النذور والأيمان، باب: ما جاء كيف كان يمين النبي ﷺ، وابن ماجه (٢٠٩٢) في الكفارات، باب: يمين رسول الله ﷺ التي كان يحلف بها، وأحمد (٢/ ٢٦).

(٢) الترمذي (٢١٤٠) في القدر، باب: ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، وابن

□ قال بعض السلف: «لَلْقلبُ أشد تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانها».

□ وقال آخر: «القلب أشد تقلبًا من الريشة بأرض فلاة في يوم ريح عاصف».

القلب: هو العَالِم بالله، وهو المتقرِّب إلى الله، وهو العامل لله، وهو الساعي إلى الله وهو بنور الله يستضيء، وإنمَا الجوارح أتباعٌ وخدَمٌ وآلات، يستخدمها القلب ويستعملها استعمَال المَالِكِ للعبد، واستخدام الراعي للرعية، والصانع للآلة، فالقلب هو المقبول عند الله إذا سَلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقًا بغير الله، وهُوَ المُطالَب، وهو المخاطَب، وهو المعاتَب، وهو الذي يَسْعَدُ بالقرب من الله، فيفلح إذا زكَّاه، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دَنَّسه ودسَّاه، وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنمَا الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره. وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه، إذْ كُلُّ إناءٍ ينضح بمَا فيه، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربَّه، وهو الذي إذا جَهِله الإنسان فقد جَهِل نفسه، وإذا جهل نفسه فقد جَهِل ربَّه، ومن جَهِل قلبَه فهو بغيره أجهلُ، إذْ أكثر الناس جاهلون بقلوبهم وأنفسهم. والقلب قد يهوي إلى أسفل سافلين، وينخفض إلى أفق الشياطين، وقد يرتفع إلى أعلى عِلِّيين ويرتقي إلى عالم الملائكة المقرّبين.

ماجه (٣٨٣٤) في الدعاء، باب: دعاء رسول الله ﷺ.

* ومَن لم يعرف قلبه فليراقبه ويراعيه ويترصَّد لمَا يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه فهو ممَّن قال الله فيه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر].

* والإيمان هو إيمان القلب، والتقوى هي تقوى القلوب قال الله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج].

□ فمَحلُّ التقوى هو القلب، والتقوى تشملُ كُلَّ أعمَالِ الخير والبر والصلاح، ولا سيمَا إذا أُفردت.

لا يستقيم حال العبد والأُمّة إلا بصلاح القلوب وتزكيتها وهو أساس دعوة الرسل:

أمر الله ﷻ بتطهير القلب وتزكيته، بل جعل الله ﷻ تزكية الناس من غايات الرسالة المحمدية ومن دعاء إبراهيم لهذه الأمة، وقدّم التزكية على تعليمهم الكتاب والحكمة لأهميتها.

* قال تعالى عن دعاء إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة].

* وقال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدثر].

□ قال ابن القيم: «جمهور المفسِّرين من السلف ومن بعدهم على أن

المراد بالثياب هنا: القلب»(١).

* وقال تعالى عن اليهود والمنافقين: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة].

* وسلامةُ القلب وخلوصُه من كل ما يعيقه عن الله سبب لسعادة العبد في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء].

• «وصلاح العبد في الدنيا واستقامته على طاعة الله لا يكون إلَّا بصلاح قلبه كما قال رسول الله ﷺ: «**لا يستقيمُ إيمانُ عبد حتى يستقيمَ قلبُهُ ولا يستقيمُ قلبه حتى يستقيمَ لسانه، ولا يدخل رجلٌ الجنة لا يَأمَنُ جَارُه بوائِقَهُ**»(٢).

• وقال ﷺ: «**إن في الجسد مضغة إذا سَلِمت وصَحَّت سَلِم سائرُ الجسدِ وصَحَّ، وإذا سَقِمَتْ سَقِمَ سائرُ الجَسَدِ وفَسَدَ ألَا وهي القلبُ**»(٣).

---

(١) «رسالة أمراض القلوب» لابن القيم (ص٥٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد (١٢٦٣٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٨٤١).

(٣) رواه أحمد واللفظ له (١٧٩٤٥)، والبخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

* وقد كان صلاح القلوب واستقامتها سببًا للتمكين للطائفة المؤمنة القليلة المستضعفة قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الفتح].

* وقد بين الله ﷻ أن الهزيمة في أُحد كانت بسبب تسلُّل مرض حبِّ الدنيا إلى قلوب بعض المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران].

* وقد اشترط الله ﷻ للتمكين في الأرض عبادة من العبادات القلبية، قال تعالى: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

* وهكذا جعل الله ﷻ شرط التمكين للمؤمنين عبر العصور: الإيمان والعمل الصالح الذي لا يكون إلّا بسلامة القلب. قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾ [النور: ٥٥][1].

---

(١) «القلب السليم» (ص٦، ٧، ٨).

عالي الهمة يبلغ من أعمال القلوب كمالاتها وأرقى معانيها:

أعمَال القلوب التي يحرص عليها عالي الهمة يفهم فقهها ويعيها جيِّدًا، ويعلم أنها أول الواجبات عليه، وأفرض الفرائض، ويُلزم نفسه في العمل بها، حتى تظهر آثارها وأنوارها عليه وهي:

١- النية. ٢- الإخلاص. ٣- الصدق ٤- التوبة. ٥- الصبر.

٦- الإيمان. ٧- الزهد. ٨- الورع. ٩- التوكل. ١٠- التفويض.

١١- الثقة ١٢- التقوى. ١٣- الرضا. ١٤- الحزن. ١٥-الخوف والخشية.

١٦ الرجاء. ١٧- الذكر. ١٨- الشكر. ١٩- الخشوع. ٢٠- الإنابة.

هذه الأعمَال هي مادة حياته وهي ما يشغله في ليله ونهاره فهي التي تقرِّبه من مولاه.

□ قال أبو سليمَان الداراني – وسأله رجلٌ عن أقرب ما يتقرَّب به العبد إلى الله عَزَّوَجَلَّ؟- فبكى، وقال: «مثلي يُسأَل عن هذا! أفضل ما يتقرَّب به العبد إلى الله أن يطلِّعَ على قلبك، وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة غيره»[(١)].

□ قال الجنيد: «إنَّ الله يخلص إلى القلوب من بره حسبمَا خلصت به إليه من ذكره، فانظر ماذا خالط قلبك؟!».

العرش والقلب:

□ قال الإمام ابن القيم في كتابه القيم «الفوائد»: «أَنزَهُ الموجوداتِ وأَطهرُها وأَنورُها وأَشرفُها وأَعلاها ذاتًا وقَدْرًا وأَوسعُها: عرشُ الرَّحمنِ

(١) «الحلية» (٩/ ٢٥٧).

جَلَّ جلالُه، ولذلك صَلَحَ لاستوائه عليه.

وكلُّ ما كانَ أقربَ إلى العرشِ كانَ أنورَ وأنزهَ وأَشرفَ مِمَّا بَعُدَ عنه، ولهذا كانت جنَّةُ الفِرْدوسِ أعلى الجنانِ وأشرفَها وأَنورَها وأَجلَّها لقربِها من العرشِ؛ إذ هو سقفُها.

وكلُّ ما بَعُدَ عنه كانَ أَظلمَ وأَضيقَ، ولهذا كانَ أَسفلُ سافلينَ شرَّ الأَمكنةِ، وأَضيقَها وأَبعدَها من كلِّ خيرٍ.

* وخَلَقَ الله القلوبَ وجعلَها محلًّا لمعرفتِهِ ومحبّتِهِ وإرادتِهِ، فهي عرشُ المَثَلِ الأَعلى الذي هو معرفتُه ومحبّتُه وإرادتُه، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم].

* وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١].

فهذا من المثل الأَعلى؛ وهو مُسْتَوٍ على قلبِ المؤمنِ؛ فهو عرشُه [(١)].

وإنْ لم يكن أَطهرَ الأَشياءِ وأَنزهها وأَطيبَها وأَبعدَها من كلِّ دنَسٍ وخَبَثٍ؛ لم يصلُحْ لاستواءِ المَثَلِ الأعلى عليه معرفةً ومحبّةً وإرادةً، فاستوى عليه مَثَلُ الدُّنيا الأَسفلُ ومحبّتها وإرادتها والتعلّق بها، فضاقَ وأَظلمَ وبَعُدَ من كمَالِهِ وفلاحِهِ، حتَّى تعوَّدَ القلوبُ على قلبين: قلبٌ هو عرشُ الرَّحمنِ، ففيه النُّورُ والحياةُ والفرحُ والسُّرورُ والبهجةُ وذخائرُ

---

(١) الذي هو «عرش المثل الأعلىٰ»؛ الذي هو معرفته ومحبته وإرادته.

الخيرِ، وقلبٌ هو عرشُ الشيطانِ، فهناكَ الضيقُ والظلمةُ والموتُ والحزنُ والغمُّ والهمُّ، فهو حزينٌ على ما مضى، مهمومٌ بمَا يستقبلُ، مغمومٌ في الحالِ.

والنُّورُ الذي يدخلُ القلبَ إنّمَا هو من آثارِ المثل الأَعلى، فلذلكَ ينفسحُ وينشرحُ، وإذا لم يكنْ فيه معرفةُ الله ومحبتُه فحظُّه الظلمةُ والضيقُ.

شجرة القلب:

☐ قال ابن القيم في «الفوائد»: «السَّنَةُ شجرةٌ، والشُّهورُ فروعُها، والأَيّامُ أَغصانُها، والساعاتُ أَوراقُها، والأَنفاسُ ثمرُها؛ فمن كانتْ أَنفاسُه في طاعةٍ: فثمرةُ شجرتِهِ طيّبةٌ، ومَنْ كانت في معصيةٍ: فثمرتُه حنظلٌ، وإنمَا يكونُ الجَدَادُ[1] يوم المعادِ، فعندَ الجَدادِ يتبيّنُ حلوُ الثمَارِ من مُرِّها.

والإِخلاصُ والتوحيدُ شجرةٌ في القلبِ؛ فُروعُها الأَعمَالُ، وثمرُها طِيبُ الحياةِ في الدنيا والنعيمُ المقيمُ في الآخرةِ.

وكمَا أَنَّ ثمَارَ الجنَّةِ لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ، فثمرةُ التوحيدِ والإِخلاصِ في الدنيا كذلك.

والشركُ والكذبُ والرِّياءُ شجرةٌ في القلبِ؛ ثمرُها في الدُّنيا الخوفُ والهمُّ والغمُّ وضيقُ الصدرِ وظلمةُ القلبِ، وثمرُها في الآخرةِ الزّقّومُ والعذابُ المقيمُ.

---

(١) هو قطف الثمار.

وقد ذكر الله هاتين الشجرتين في سورة إبراهيم:

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم].

□ واعلم يا أخي: أن صلاح القلب موقوف على إخلاصه.

□ قال الجنيد رحمه الله: «إن لله عبادًا عقلوا، فلمَّا عقلوا عملوا، فلمَّا عملوا أخلصوا، فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب الخير أجمع».

□ وقال السوسي رحمه الله: «مُراد الله من عمل الخلائق الإخلاص».

* والإخلاص منّة من الله، يكحل بها عيون قلوب الصادقين، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، قال الجنيد: «سبل الإخلاص».

* وباب الإخلاص مفتوح، فادخل منه تصل إلى رحمة الله وتكن في كنفه وحفظه وستره وأجره ورزقه وكفايته، ادخله ترتفع في رياض المخلصين وتدرك المعنى النفيس في حياتك، وإلَّا ففقدان هذا الشيء الغالي فقدان لحياتك ذاتها فحياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ما أطيب هذه القلوب:

□ قلوب ملؤها الإخلاص والتجرّد لمولاها تناجي مولاها ولسان

حالها يقول له:

من فاته منك وقتٌ حظُّهُ الندمُ ... ومن تكن همَّه تسمو به الهممُ
وناظر في سوى معناك حُقّ له ... يقتصّ من جفنه بالدمع وَهْوَ دَمُ (١)
والسمع إن جال فيه من يحدثه ... سوى حديثك أمسى وقره الصممُ
في كل جارحة عين أراك بها ... مني وفي كل عضو بالثناء فمُ
فإن تكلمت لم أنطق بغيركمُ ... وكل قلبي مشغوف بحبكمُ
أخذتم الروح مني في ملاطفة ... فلست أعرف غيرًا مذ عرفتكمُ
نسيت كل طريق كنت أعرفها ... إلَّا طريقًا تؤديني لبابكمُ
فَسَلِّني كلَّ حالٍ كنت آلفه ... في وصله القطع ما بيني وبينكمُ
ولي بكم عوض عن كل مفتقد ... ولا تساوي الأماني لحظ طيفكمُ

فرار القلوب إلى الله بهجر العوائد، وقطع العوائق، وترك العلائق:

□ قال ابن القيم في كتابه المَاتع «الفوائد»: «الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد، وقطع العوائق.

فالعوائدُ: السكونُ إلى الدَّعَةِ والراحةِ، وما أَلِفَه النَّاسُ واعتادوهُ من الرُّسومِ والأَوضاعِ التي جعلوها بمنزلةِ الشَّرعِ المتَّبَعِ، بلْ هي عندَهم أَعظم مِنَ الشَّرعِ؛ فإنَّهم يُنْكِرونَ على مَنْ خَرجَ عنها وخالَفها ما لا يُنكرونَ على مَنْ خالفَ صريحَ الشَّرعِ! وربَّمَا كفَّروهُ أَو بدَّعوهُ أو ضلَّلوهُ، أَو هجروهُ وعاقبوهُ لمخالفةِ تلك الرُّسومِ، وأَماتوا لها السُّننَ، ونصَّبوها

(١) في ديوان الإمام محمد بن إبراهيم الوزير:

وناظِرٌ في سوىٰ مرآك حُقّ له ... يفيض مدمعه بالدمع وهو دَمُ

أنداداً للرّسولِ يُوالُونَ عليها ويعادونَ، فالمعروفُ عندَهم ما وافقَها، والمنكرُ ما خالفَها.

وهذه الأَوضاعُ والرُّسومُ قد استولَتْ على طوائفِ بني آدمَ من الملوكِ والوُلاةِ، والفُقهاءِ والمتصوِّفةِ، والفقراءِ والمُطَوِّعينَ والعامَّةِ؛ فَرَبى فيها الصَّغيرُ، ونشأَ عليها الكبيرُ، واتُّخِذَتْ سُنناً، بل هي أَعظمُ عندَ أَصحابِها من السننِ[1].

الواقفُ معها محبوسٌ، والمتقيّدُ بها منقطعٌ، عمَّ بها المُصابُ، وهُجِرَ لأجلِها السُّنَّةُ والكتابُ، مَنْ استنصرَ بها فهو عندَ اللهِ مخذولٌ، ومن اقتدى بها دونَ كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ فهو عندَ اللهِ غيرُ مقبولٍ.

وهذه أَعظمُ الحُجُبِ والموانعِ بينَ العبدِ وبينَ النُّفوذِ إلى اللهِ ورسولِهِ.

وأَمَّا العوائقُ؛ فهي: أَنواعُ المخالفاتِ ظاهرِها وباطنِها، فإِنَّها تَعُوقُ القلبَ عن سيرِهِ إلى اللهِ، وتقطعُ عليه طريقَه، وهي ثلاثةُ أُمورٍ: شركٌ، وبدعةٌ، ومعصيةٌ؛ فيزولُ عائقُ الشِّرْكِ بتجريدِ التوحيدِ، وعائقُ البدعةِ بتحقيقِ السنّةِ، وعائقُ المعصيةِ بتصحيحِ التوبة.

وهذه العوائقُ لا تتبيّنُ للعبدِ حتَّى يأخذَ في أُهبةِ السَّفرِ، ويتحقَّق بالسيرِ إلى اللهِ والدارِ الآخرةِ، فحينئذٍ تظهرُ له هذه العوائقُ ويُحِسُّ بتعويقِها له بحسبِ قوّةِ سيرِه وتجرُّدِهِ للسَّفرِ، وإلَّا؛ فمَا دامَ قاعداً لا يظهرُ له كوامنُها وقواطعُها.

(١) ورد نحو هذا اللفظ عن ابن مسعود؛ رواه الدارمي (١/ ٦٤)، والحاكم (٤/ ٥١٤) سنده صحيح.

وللقلب علائق:

وأمَّا العلائقُ؛ فهي: كلُّ ما تعلَّقَ به القلبُ دونَ الله ورسولِهِ؛ من ملاذِّ الدنيا وشهواتِها ورياساتِها وصُحبةِ النَّاسِ والتعلُّقِ بهم، ولا سبيلَ له إلى قطعِ هذه الأُمورِ الثلاثةِ ورفضِها إلَّا بقوّةِ التعلُّقِ بالمطلبِ الأَعلى، وإلَّا فَقَطعُها عليه بدونِ تعلُّقهِ بمطلوبهِ ممتنعٌ؛ فإنَّ النفسَ لا تتركُ مألوفَها ومحبوبَها إلَّا لمحبوبٍ هو أحبُّ إليها منه، وآثَرُ عندَها منه، وكلَّمَا قَوِيَ تعلُّقُه بمطلوبِه ضَعُفَ تعلُّقُه بغيرِهِ، وكذا بالعكسِ.

والتعلُّقُ بالمطلوبِ هو شدّةُ الرَّغبةِ فيه، وذلكَ على قَدْرِ معرفتِهِ به وشرفِهِ وفضلِهِ على ما سواه» اهـ.

جنود القلب وأعوانه:

□ قال ابن القيم: «وللقلب جندان: جند يُرى بالأبصار، وجند يُرى بالبصائر. فأما جنده المشاهد فالأعضاء الظاهرة والباطنة، وقد خلقت خادمة له لا تستطيع له خلافًا. فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت، وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم، وإذا أمر اليد بالبطش بطشت، وإذا أمر الرِّجْل بالسعي سعت، وكذا جميع الأعضاء ذللت له تذليلًا.

ولمَّا خلق القلب للسفر إلى الله والدار الآخرة وحصل في هذا العالم ليتزود منه، افتقر إلى المركب والزاد لسفره الذي خلق لأجله. فأُعين بالأعضاء والقوى، وسخرت له، وأقيمت له في خدمته لتجلب له ما يوافقه من الغذاء والمنافع، ويدفع عنه ما يضره ويهلكه، فافتقر إلى جندين: باطن: وهو الإرادة والشهوة والقوى. وظاهر: وهو الأعضاء.

فخلق في القلب من الإرادات والشهوات ما احتاج إليه، وخلقت له

الأعضاء التي هي آلة الإرادة، واحتاج في دفع المضار إلى جندين: باطن: وهو الغضب الذي يدفع المهلكات، وينتقم به من الأعداء، وظاهر: وهو الأعضاء التي ينفذ بها غضبه، كالأسلحة للقتال. ولا يتم ذلك إلَّا بمعرفة ما يجلب وما يدفع، فأعين الجند من العلم بمَا يكشف له حقائق ما ينفعه وما يضره.

ولمَّا سلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان أعين بجند من الملائكة، وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته، وجعل بإزائه أعداء له ينفذ فيهن غضبه، فمَا ابتلى بصفة من الصفات إلَّا وجعل لها مصرفًا ومحلًا ينفذها فيه، فجعل لقوة الحسد فيه مصرفًا، وهو المنافسة في فعل الخير، والغبطة عليه، والمسابقة إليه، ولقوة الكبر مصرفًا وهو التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم، وقد قال النبي ﷺ لمن رآه يختال بين الصفين في الحرب: «**إنها لمشية يبغضها الله إلَّا في هذا المواطن**»(١) وقد أمر الله – سبحانه– بالغلظة على أعدائه.

• وجعل لقوة الحرص مصرفًا وهو الحرص على ما ينفع، كما قال النبي ﷺ: «**احرص على ما ينفعك**»(٢) ولقوة الشهوة مصرفًا، وهو التزوج بأربع، والتسري بمَا شاء.

ولقوة حب المَال مصرفًا، وهو إنفاقه في مرضاته تعالى، والتزود منه

---

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٢٣٤) «البداية والنهاية» (٤/ ١٦).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٦٦)، ومسلم (٣٤/ ٢٦٦٤) في القدر –بابٌ في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله.. إلخ، وابن ماجه (٧٩) في المقدمة –باب في القدر.

لمعاده، فمحبة المَال على هذا الوجه لا تذم.

ولمحبة الجاه مصرفًا، وهو استعمَاله في تنفيذ أوامره، وإقامة دينه، ونصر المظلوم، وإغاثة الملهوف، وإغاثة الضعيف، وقمع أعداء الله، فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة.

وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفًا، وهو لهوه مع امرأته، أو بقوسه وسهمه، أو تأديبه فرسه وكل ما أعان على الحق.

وجعل لقوة التحيل والمكر فيه مصرفًا، وهو التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل، حتى يراغمه ويرده خاسئًا، ويستعمل معه من أنواع المكر ما يستعمله عدوه معه.

وهكذا جميع القوى التي ركبت فيه جعل لها مصرفًا، وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته، ولا يطلب تعطيلها، وإنمَا تصرف مجاريها من محل إلى محل، ومن موضع إلى موضع، ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه علم شدة الحاجة إليه، وعظم الانتفاع به.

صيانة القلب:

□ قال ابن القيم: «وجماع الطرق والأبواب التي يصان منها القلب وجنوده أربعة، فمن ضبطها وعدلها وأصلح مجاريها وصرفها في محالها اللائقة بها استفاد منها قلبه وجوارحه، ولم يشمت به عدوه، وهي: الحرص، والشهوة، والغضب، والحسد.. فهذه الأربعة هي أصول مجامع طرق الشر والخير، وكما هي طرق إلى العذاب السرمدي، فهي طرق إلى النعيم الأبدي.

فآدم أبو البشر ﷺ أخرج من الجنة بالحرص، ثم أدخل إليها

بالحرص، ولكن فرق بين حرصه الأول وحرصه الثاني.

• وأبو الجن أخرج منها بالحسد، ثم لم يوفق لمنافسة وحسد يعيده إليها، وقد قال النبي ﷺ: **«لا حسد إلّا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار»**.

وأما الغضب فهو غول العقل، يغتاله كما يغتال الذئب الشاة، وأعظم ما يفترسه الشيطان عند غضبه وشهوته، وإذا كان حرصه إنمَا هو على ما ينفعه، وحسده منافسة في الخير، وغضبه لله على أعدائه، وشهوته مستعملة فيمَا أبيح له وعونًا له على ما أمر به، لم تضره هذه الأربعة بل انتفع بها أعظم الانتفاع» اهـ.

القلب بين الملك والشيطان:

□ قال ابن القيم: «وإذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان، رأيت أعجب العجائب، فهذا يلم به مرة، وهذا يلم به مرة، فإذا ألم به الملك حدث من لمته الانفساح، والانشراح، والنور، والرحمة، والإخلاص، والإنابة، ومحبة الله، وإيثاره على ما سواه، وقصر الأمل، والتجافي عن دار البلاء، والامتحان، والغرور، فلو دامت له تلك الحالة لكان في أهنأ عيش وألذه وأطيبه. ولكن تأتيه لمة الشيطان، فتحدث له من الضيق، والظلمة،والهم، والغم، والخوف، والسخط على المقدور، والشك في الحق، والحرص على الدنيا وعاجلها، والغفلة عن الله ما هو من أعظم عذاب القلب.

ثم للناس في هذه المنحة مراتب لا يحصيها إلّا الله: فمنهم من تكون

لمة الملك أغلب من لمة الشيطان وأقوى، فإذا ألم به الشيطان وجد من الألم والضيق والحصر وسوء الحال، بحسب ما عنده من حياة القلب، فيبادر إلى طرد تلك اللمة ولا يدعها تستحكم فيصعب تداركها، فهو دائمًا في حرب بين اللمتين، يدال له مرة، ويدال عليه مرة أخرى، والعاقبة للتقوى.

ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه وأقوى، فلا تزال تغلب لمة الملك حتى تستحكم ويصير الحكم لها، فيموت القلب، ولايحس ما ناله الشيطان به، مع أنه في غاية العذاب والضيق والحصر، ولكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الإحساس بذلك الألم، فإذا كشف أمكنه تداركه بالدواء وحسمه، وإن عاد الغطاء عاد الأمر كما كان، حتى ينكشف عنه وقت المفارقة للدنيا، فتظهر حينئذ تلك الآلام والهموم والغموم والأحزان، وهي لم تتجدد له، وإنمَا كانت كامنة تواريها الشواغل، فلمَّا زالت الشواغل ظهر ما كان كامنًا، وتجدد له أضعافه».

ألمال الشيطان ببعض القلوب:

□ قال ابن القيم: «والشيطان يلم بالقلب لمَّا كان هناك جواذب تجذبه، وهي نوعان: صفات، وإرادات. فإذا كانت الجواذب صفات قوى سلطانه هناك، واستفحل أمره ووجد موطنًا ومقرًا، فتأتى الأذكار والدعوات والتعوذات كحديث النفس، لا تدفع سلطان الشيطان؛ لأن مركبه صفة لازمة.

فإذا قلع العبد تلك الصفات وعمل على التطهير منها والاغتسال، بقى للشيطان بالقلب خطرات ووساوس ولمَات من غير استقرار،

وذلك يضعفه، ويقوى لمة الملك فتأتي الأذكار، والدعوات والتعوذات، فتدفعه بأسهل شيء.

وإذا أردت لذلك مثالًا مطابقًا: فمثله كلب جائع شديد الجوع، وبينك وبينه لحم أو خبز، وهو يتأملك ويراك لا تقاومه وهو أقرب منك. فأنت تزجره، وتصيح عليه، وهو يأبى إلَّا التحوم عليك، والغارة على ما بين يديك. فالأذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له، ولكن معلومه ومراده عندك، وقد قربته عليك، فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له وقد تأملك فرآك أقوى منه فإنك تزجره وتصيح عليه فيذهب، وكذلك القلب الخالي عن قوة الشيطان يزجره بمجرد الذكر.

وأما القلب الذي فيه تلك الصفات التي هي مركبه وموطنه، فيقع الذكر في حواشيه وجوانبه، ولا يقوى على إخراجه العدو منه، ومصداق ذلك تجده في الصلاة، فتأمل في الحال، وانظر: هل تخرج الصلاة بأذكارها وقراءتها الشيطان من قبلك، وتفرغه كله لله تعالى بكليته وتقيمه بين يدي ربه مقبلًا بكليته عليه، يصلي لله تعالى، كأنه يراه قد اجتمع همه كله على الله؟ وصار ذكره ومراقبته ومحبته والأنس به في محل الخواطر والوساوس أم لا؟ والله المستعان.

وها هنا نكتة ينبغي التفطن لها، وهي أن القلوب الممتلئة بالأخلاط الرديئة، فالعبادات، والأذكار، والتعوذات، أدوية لتلك الأخلاط كما يثير الدواء أخلاط البدن، فإن لم يكن قبل الدواء وبعده حمية لم يزد الدواء على إثارته، وإن أزال منه شيئًا ما، فمدار الأمر على شيئين: الحمية، واستعمَال الأدوية».

أحبُّ القلوب إلى الله قلوب عُلاة الهمم:

وهي قلوب حازت قصب السَّبْق في التنافس والفرار إلى الله.

أرق آنية الله في الأرض وأحبّها إليه القلوب الرقيقة الليِّنة:

• عن أبي عنبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى آنيةً من أهلِ الأرض، وآنيةُ ربِّكم قلوبُ عبادِه الصالحين وأحبُّها أَلينُها وأرَقُّها»(١).

خير الناس ذو القلب المحموم.. التقيِّ النقيِّ:

• قال رسول الله ﷺ: «خير الناس ذو القلب المحموم، واللسان الصادق»، قيل: ما القلب المحموم؟ قال: «هو التقي النقيُّ الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد». قيل: فمن على أثره؟ قال: «الذي يشنأ الدنيا، ويحبُّ الآخرة». قيل: فمن على إثرِهَ؟ قال: «مؤمنٌ في خُلُقٍ حسنٍ»(٢).

عالي الهمة قلبه قلب أبيض مُنكِر للفتن يأباها وينفر منها:

• عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تُعرَض الفِتنُ على القلوبِ عَرْضَ الحصير عُودًا عُودا، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتتْ فيه نُكْتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكَرها نُكِتَت فيه نُكْتةٌ بيضاءُ، حتى يصيرَ القلب أبيضَ مثلَ الصَّفَا لا تَضُرُّه فتنة ما دامت السموات والأرضُ، والآخرُ أسودَ

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير»، وحَسَّنه الألباني في «الصحيحة» (١٦٩١)، و«صحيح الجامع» (٢١٦٣).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عمر، وروىٰ الشطر الأول بنحوه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٩١)، و«الصحيحة» رقم (٩٤٨).

مُرْبدا كالكوز مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفًا، ولا يُنكِر مُنكرًا، إلّا ما أُشرِب من هواه»(١).

وقلب أجرد فيه مثل السراج يُزهر:

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوبُ أربعة: قلب أَجْرَد فيه مثل السراجِ يُزهر، وقلبٌ أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلبٌ مصَفَّح، فأما القلب الأجْرَد: فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأمّا القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس: فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأمّا القلب المصفَّح فقلبٌ فيه إيمَان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدُّها الماء الطيب، ومثل النِّفاق فيه كمثل القُرحة يمدُّها القيح والدم، فأيُّ المَادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»(٢).

أيُّ شيطانٍ يجترئُ على هذا القلب وحراسة الله له أتمُّ من حراسة السماء؟!

□ قال ابن قيم الجوزية بعد أن قسّم القلوب إلى ثلاثة، قلب خال من الإيمان وجميع الخير، وقلب قد استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية، فللشيطان هناك إقبال

---

(١) رواه أحمد، ومسلم (١٤٤)- كتاب بالإيمان (١/ ١٢٨)- باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا.

(٢) إسناده جيد حسن: رواه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٧)، وذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [البقرة: ١٩] وقال: إسناده جيِّدٌ حسن (١/ ٥٦)،وضعّفه بعض أهل العلم وروىٰ نحوه أحمد (١٠٧٤٥)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (٥٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٨٢٠)، وقد صحّ موقوفًا.

وإدبار.. ثم قال عن القلب الثالث:

«القلب الثالث: قلبٌ مَحْشُوٌّ بالإيمان قد استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في صدره إشراق، ولذلك الإشراق إيقادٌ لوْ دَنَا منه الوسواس احترق به، فهو كالسماء التي حُرِست بالنجوم فلودنا منها الشيطان يتخطّاها رُجِم فاحترق. وليست السماء بأعظمَ حُرْمةً من المؤمن، وحرَاسة الله تعالى له أتمُّ من حراسة السماء، والسماءُ متَعَبَّد الملائكة ومستقَرُّ الوحي وفيها أنواع الطاعات، وقلبُ المؤمن مُسْتَقَرُّ التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان، وفيه أنوارها، فهو حقيقٌ أن يُحرَس ويُحفَظ من كيدِ العَدُوِّ فلا ينال منها شيئًا إلَّا خَطفه.

وقد مُثِّل ذلك بمثال حسن وهو ثلاثة بيوت: بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره. وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره، وليس جواهر الملك وذخائره. وبيتٌ خالٍ صِفْرٌ لا شيءَ فيه. فجاء اللصُّ يسرق من أحدِ البيوت فمِنْ أيها يسرق؟ فإن قلتَ من البيتَ الخالي كان محالًا؛ لأن البيت الخالي ليس فيه شيءٌ يُسرق، ولهذا قيل لابن عباس رضي الله عنهما: إن اليهودَ تزعم أنها لا توسوس في صلاتها؟ فقال: فقال: وما يصنعُ الشيطان بالقلب الخراب؟

وإنْ قلتَ: يسرقُ من بيت الملك كان ذلك كالمستحيل الممتنِع، فإنَّ عليه من الحرس واليزك [(١)] ما لا يستطيع اللص الدُّنوَّ منه، كيف

(١) اليزك: (بالتركية) بمعنى المنع.

وحارسه الملك بنفسه؟ وكيف يستطيع اللص الدُّنوَّ منه وحوله من الحرس والجند ما حوله؟..

قلب قد امتلأ من جلال الله ﷻ وعظمته ومحبته ومراقبته، والحياء منه، فأيُّ شيطان يجترئ على هذا القلب؟»[(١)].

القلب السليم.. قلبُ عالي الهمّة:

* قال تعالى واصفًا قلب خليله إبراهيم ﷺ: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات].

* وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

□ قال القرطبي: «واختلف في القلب السليم، فقيل: من الشك والشرك، فأمّا الذنوب فليس يسلم منها أحد. قاله قتادة وابن زيد وأكثر المفسِّرين، وقال سعيد بن المسيب: «القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠].

□ وقال أبو عثمان النيسابوري: «هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السُّنَّة».

□ وقال الحسن: «سليمٌ من آفة المال والبنين».

□ وقال الجُنيد: «السليم في اللُّغة: اللديغ،فمعناه أنه قلبٌ كاللديغ من خوف الله».

---

(١) «الوابل الصيب» (ص٤٠، ٤١).

□ وقال الضحَّاك السليم: «الخالص».

قلت: وهذا القول يجمعُ شتات الأقوال بعمومه وهو حسن، أي الخالص من الأوصاف الذميمة، والمتَّصف بالأوصاف الجميلة، والله أعلم.

* وقد روى عن عروة أنه قال: «يا بني لا تكونوا لعَّانين، فإن إبراهيم لم يلعن شيئًا قط، قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾ [الصافات].

□ وقال محمد بن سيرين: «القلب السليم الذي يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور. وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير**»[1]. يريد – والله أعلم- أنها مثلها خالية من كل ذنب، سليمة من كل عيب – لا خبرة لهم بأمور الدنيا». انتهى كلامه رحمه الله.

وقد قيل: «**مثل أفئدة الطير**»: أي في رِقَّتها، أو في توكلها على الله عز وجل.

القلب السليم قلبُ عالي الهمة:

السليم هو السَّالم، فسليمُ القلب الذي قد صارت السَّلامة صِفَةً ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضًا فإنه ضد المريض والسَّقيم والعليل.

□ قال ابن القيم رحمه الله: «وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالِفُ أمر الله ونهيَه، ومن كُلِّ شبهةٍ تعارضُ خبرَه. فسَلِم من عبوديَة مَن سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسَلِم في محبة الله مع تحكيمِه لرسوله ﷺ

(١) رواه أحمد، ومسلم.

في خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق. وهذه هي حقيقة العبودية التي لا تصلحُ إلَّا لله.

فالقلب السليم: هو الذي سَلِم من أن يكون لغير الله فيه شِرْكٌ بوجهٍ ما، بل قد خلصت عبوديّته لله تعالى: إرادة ومحبة، وتوكُّلًا، وإنابة، وإخباتًا وخشية، ورجاءً. وخلص عمله لله، فإن أحبَّ أحبَّ في الله وإن أبغض أبغضَ في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل مَن عَدَا رسوله ﷺ، فيعقد قلبه معه عقْدًا مُحْكَمًا على الائتمام به وحده، دون كل أحدٍ في الأقوال والأعمال، من أقوال القلب وهي العقائد، وأقوال اللسان: وهي الخبر عمَّا في القلب. وأعمال القلب وهي: الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح فيكون الحكم عليه في ذلك كله دقّه وجلّه، هو ماء جاء به الرسول ﷺ، فلا يتقدّم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]. أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر»[(١)].

وقال عنه أيضًا: «القلب الأول: حي مخبت ليِّنٌ واعٍ.

* قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج]. القلب المؤمن المخبت إلى ربه. وهو المطمئن إليه، الخاضع له،

(١) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (ص٧) طبع دار العقيدة.

المستسلم المنقاد»(١).

«فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قبول الحق ومحبَّتِه وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق، تامُّ الانقياد والقبول له»(٢).

وهو القلب الأجرد الذي فيه سراجٌ يزهر:

□ قال ابن القيم: «أي متجرِّدٌ ممَا سوى الله ورسوله، فقد تجرَّد وسلم ممَا سوى الحق. و«فيه سراج يزهر» وهو مصباح الإيمان. فأشار بتجرُّدِه إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغَيِّ، وبحصول السِّراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمَان»(٣).

قلبُ عالي الهمة حيٌّ تمام الحياة مُشرق كل الإشراق:

□ قال ابن القيم رحمه الله: «أصل كل خير وسعادة للعبد، بل لكلِّ حيٍّ ناطق: كمَالُ حياته ونوره. فالحياة والنور مادة الخير كله، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فجمع بين الأصلَيْن: الحياة والنور، فبالحياة تكون قوَّته، وسمعه، وبصره، وحياؤه وعِفَّته، وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته لحسن، وبغضه للقبيح، فكلمَّا قويتْ حياتُه قويت فيه هذه الصفات..

فالقلب الصحيح الحي إذا عُرِضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها».

---

(١) المصدر السابق (ص٩).
(٢) المصدر السابق (ص٩).
(٣) المصدر السابق (ص١١).

وكذلك إذا قوي نوره، وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حسن الحسن بنوره، وآثره بحياته، وكذلك قُبح القبيح، وقد ذكر سبحانه هذين الأصلين في مواضع من كتابه فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى].

ليلـــى بوجهـــك مـــشرقٌ وظلامُـــه في النـــاس ســـاري
النـــاس في سُـــدُفِ الظَّـــلام ونحـــن في ضـــوء النهـــار

والمقصود أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذيْن الأصلين.

* قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧]. فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]

* وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ [الزمر]. فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدر»[(١)].

حياة القلب وصحته لا تحصلُ إلا بأن يكون مُدْرِكًا للحقِّ، مريدًا له، مُؤثِرًا له على غيره:

□قال ابن القيم رحمه الله: «لمَا كان في القلب قوتّان: قوة العلم والتمييز،

(١) «إغاثة اللهفان» (ص١٧، ١٨، ٢٠).

وقوة الإرادة والحب، كان كمَاله وصلاحه باستعمَال هاتيْن القوّتيْن فيمَا ينفعه، ويعود عليه بصلاحه وسعادته. فكمَاله باستعمَال قوة العلم في إدراك الحق، ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمَال قوة الإرادة، والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل. فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيره عليه، فهو مغضوب عليه، ومَن عَرِفه واتبعه فهو منعَم عليه»[١].

سعادة القلب ولذته:

▫ قال ابن القيم: «أنه لا سعادة للقلب، ولا لذة ولا نعيم، ولا صلاح إلَّا بأن يكون الله هو إلهه وفاطره وحده، وهو معبوده، وغاية مطلوبه، وأحبّ إليه من كلِّ ما سواه»[٢].

زكاة قلب عالي الهمة وطهارته في أنقى صورها:

▫ قال ابن القيم: «قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. فجمع بين الأمرين: الطهارة والزكاة لتلازمهما. فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الدَّغَل في الزرع، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد، فكمَا أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلَّصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع، فنمَا البدن، فكذلك القلب إذا تخلّص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من

(١) المصدر السابق (ص٢١).

(٢) «إغاثة اللهفان» (ص٢٣).

تخليطة، فتخلصَّت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة: زكَا ونَمى، وقوى واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيّته، فسمعت له وأطاعت، فلا سبيل له إلى زكاته إلَّا بعد طهارته كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور] فجعل الزكاة بعد غضِّ البصر وحفظ الفرج ولهذا كان غض البصر عن المحارم يُوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر جليلة القدر:

إحداها: حلاوة الإيمان ولذّته، التي هي أحلى وأطيب وألذّ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى، فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله ﷻ خيرًا منه، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب. فيبعث رائده لنظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرّك اشتياقًا إليه.

فإذا كفّ الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كُلْفة الطلب والإرادة.

والفائدة الثانية في غضّ البصر: نور القلب وصحة الفراسة.

وسِرُّ هذا أن الجزاء من جنس العمل: فمنْ غضّ بصره عمَّا حرَّم الله ﷻ عليه، عوّضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكمَّا أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله.

قلوب العارفين لها عيونٌ ترى ما لا يراه الناظرونا

وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه، فإن القلب كالمرآة، والهوى

كالصدأ فيها. فإذا لم تنطبع فيها صور المعلومات، فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون.

والفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله بقوته سلطان النُّصْرَة، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع له بيْن السُّلْطانيْن، ويهرب الشيطان منه كما في الأثر «إن الذي يخالف هواه يَفْرَق الشيطان من ظلِّه» فزكاة القلب موقوفةٌ على طهارته قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور]. ذكر ذلك سبحانه عُقيب تحريم الزنا والقذف، ونكاح الزانية، فدلَّ على أن التزكِّي إنما هو باجتناب ذلك، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ﴾ [النور: ٢٨]، فإنهم إذا أُمِروا بالرجوع لئلا يطلّعوا على عورة لم يحب صاحب المنزل أن يُطلَّع عليها كان ذلك أزكى لهم، كما أن ردّ البصر وغضّه أزكى لصاحبه، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى].

*وقال تعالى عن موسى عليه السلام في خطابه لفرعون: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النازعات].

*وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت].

□قال أكثر المفسِّرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلَّا الله والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمَّن نفي إلهيّة ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، واثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التَّزكِّي – وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة، فإنه إنما يحصل بإزالة الشَّرِ. فلهذا صار التَّزكِّي ينتظم الأمريْن جميعًا.

فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح: هو التوحيد.

ولا يفلح إلَّا من زكّاه الله. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى]. في رواية علي بن أبي طلحة وعطاء عنه: «قد افلح من زكّى الله نفسَه» واختاره ابن جرير [(١)].

أمّا طهارة القلب:

* أما طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه فقد قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدثر].

* وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة].

وجمهور المفسِّرين من السلف ومن بعدهم عن أن المراد بالثياب هاهنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأعمَال والأخلاق.

وبعد أن ذكر الإمام ابن القيم أقوال المفسرين في الآية قال رحمه الله:

«قلت: الآية تعم هذا كله، وتدلُّ عليه عيه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظًا، فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، فإن خُبث الملبس يُكسِب القلب هيئة خبيثة، ولذلك حرَّم لبس جلود النُّمور والسِّباع لما تُكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات، فإن الملابسة الظاهرة تسري إلى الباطن، ولذلك حرّم لبس الحرير والذهب على الذُّكور لما يكتسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفخر والخيلاء.

(١) انظر: «إغاثة اللهفان» (٤٣ - ٤٧) ملخَّصًا.

والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك هو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأمورًا به، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية الأنفس فتبيّن دلالة القرآن على هذا وهذا.

* قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المائدة: ٤١]. عُقَيْب قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾.

مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفًا للحق عن مواضعه.. كما تصنع الجهمية بآيات الصفات وأحاديثها.. فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يُرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق، وتعوضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله، كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لمَّا لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسمَاع الشيطاني عن السمَاع القرآني الإيماني.

□ قال عثمان بن عفّان: «لو طهرت قلوبكم لمَّا شبعت من كلام الله».

فالقلب الطاهر – لكمَال حياته ونوره وتخلّصه من الأدران والخبائث، لا يشبع من القرآن، ولا يتغذّى إلَّا بحقائقه، ولا يتداوى إلَّا بأدويته بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى، فإنه يتغذّى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة، فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح.

ودلَّت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى، وأنه

سبحانه لمَا لم يرد أن يطَهِّر قلوب القائلين بالباطل، المحرِّفين للحقِّ لم يحصل لها طهارة، ودلَّت الآية على أن من لم يُطَهِّر الله قلبه فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة بحسب نجاسة قلبه وخبثه، ولهذا حرم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة، ولا يدخلها إلَّا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيِّبين»، ولهذا يُقال لهم: ﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر]. أي ادخلوها بسبب طيبكم، والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل]. فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخُبث. فمن تطهَّر في الدنيا ولقى الله طاهرًا من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية، كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبيّة عارضة دخلها بعدما يتطهّر في النار من تلك النجاسة..

والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفًا على الطهارة فلا يدخل المصلِّي عليه حتى يتطهَّر، وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفًا على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلَّا طيِّب طاهر، فهمَا طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب، ولهذا شرع للمتوضيء أن يقول عقيب وضوئه «**أشهد أن لا إله إلَّا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. اللهم اجعلني من التوّابين واجعلني من المتطهرين**»[(١)].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٦٩٤٢)، ومسلم (٢٣٤)، وأبو عوانة في «صحيحه» (١/ ٢٢٥) والنسائي (١٤٨)، والترمذي (٥٥)، وابن ماجه (٤٧٠)، والبيهقي (١/ ٧٨) (٢/ ٢٨٠) عن عمر بن الخطاب. ولم يذكر مسلم «اللهم اجعلني من

فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء، فلمَّا اجتمع له الطُّهْران صَلُح للدُّخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته».

وللقلب الصحيح عالي الهمة علامات فالدُّعاوى يُحْتَّج لها ولا يحتجُّ بها:

وحتى لا يدّعي الخَلِيُّ حُرْقة الشَّجِي؛ اعلم يا أخي أن لِصِحَّة القلب علامات:

□ منها: أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة، ويحلَّ فيها حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها، جاء إلى الدنيا غريبًا يأخذ منها حاجته، ثم يعود إلى وطنه..

فحـيِّ علـى جنّـات عـدْنٍ فإنهـا ... منازِلُـكَ الأولـى وفيهـا المخـيَّمُ
ولكننـا سَبْيُ العـدوِّ فهـل تـرى ... نعــودُ إلــى أوطاننــا ونــسلم؟

□ وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إن الدنيا قد ترحَّلت مُدْبَرة، وإن الآخرة قد ترحَّلت مُقبِلة، ولكُلٍّ منهمَا بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا». وكلمَّا صَحَّ القلب من مَرَضه ترحَّل إلى الآخرة وقُرب منها حتى يصيرَ من أهلها.

□ ومنها: أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيبَ إلى الله ويخبت إليه ويتعلّق به تعلُّق المحب المضطر إلى محبوبه الذي لا نجاة له ولا علاج ولا نعيم ولا سرور إلَّا برضاه وقربه والأنس به، فذكره قوته وغذاؤه محبته، والشوق إليه حياته ونعيمه، والرجوع إليه دواءه.

التوابين واجعلني من المتطهرين». وقال الألباني رحمه الله: وأعله الترمذي بالاضطراب. وليس بشيء فإنه اضطراب مرجوح. ولهذه الزيادة شاهد من حديث ثوبان، رواه الطبراني وابن السني في «عمل اليوم والليلة».

إن في القلب فاقة لا يسدُّها شيء سوى الله، وفيه شعث لا يلمَه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده، فهو دائمًا يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده.

□ ومنها: ألا يفتر عن ذكر ربه ولا يسأم من خدمته.

طوباه وطوباه وطوباه:

فطوبى لمن أقبل على الله بكُلِّيته وعكف عليه بقلبه وإرادته ومحبَّته، فإن الله يُقبِل عليه بتولِّيه ومحبته وعطفه ورحمته، وإن الله إذا أقبل على عبدٍ استنارت جهاته وأشرقت ساحاته وتنوّرت ظلمَاتها وظهرت عليه آثار إقباله من بهجة الجلال وآثار الجمَال، وتوجَّه إليه أهل الملأ الأعلى بالمحبة والموالاة لأنهم تبع لمولاهم وناهيك بمن يتوجّه إليه مالك الملك ذو الجلال والإكرام بمحبته ويُقبل عليه بأنواع كرامته، ويلحظه الملأ الأعلى وأهل الأرض بالتبجيل والتكريم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

سجودُ القلب وطيرانُه:

□ قال ابن القيم عن «السابقين المقرّبين»:«نستغفر الله الذي لا إله إلّا هو أوّلًا من وصف حالهم وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا له رائحة، ولكن محبَّة القوم تحمل على تعرُّف منزلتهم والعلم بها، وإن كانت النفوس متخلِّفة منقطعة عن اللِّحاق بهم.

إن هذا العلم [١] هو من أشرف علوم العباد، وليس بعد علم التوحيد

(١) أي معرفة حال السابقين المقرّبين.

أشرف منه، وهو لا يناسب إلَّا النفوس الشريفة، ولا يناسبُ النفوس الدنيئة المهينة..

فنبأ القوم عجيب:

وجملة أمرهم: أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله، وغُمِرت بمحبَّته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فَسَرت المحبّة في أجزائهم فلم يبق فيها عِرْق ولا مفصل إلَّا وقد دخله الحب.

قد أنساهم حبُّه ذِكْرَ غيره، وأوحشهم أُنْسهم به ممن سواه، قد فنوا بحبِّه عن حُبِّ مَن سِواه، وبذكره عن ذِكْر من سواه، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه والتوكُّل عليه والإنابة إليه والسُّكون إليه، والتذلُّل والانكسارُ بَين يديه عن تعلّق ذلك منهم بغيره. فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدتْ أنفاسُه إلى إلهه ومولاه، واجتمع همَّه عليه متذكِّرًا صفاته العُلَى وأسمَاءَه الحسنى مشاهِدًا له في أسمَائه وصفاته، قد تجلَّتْ على قلبه أنوارُها فانصبغ قلبُه بمعرفته ومحبته، فبات جسمه في فراشه يتجافى عن مضجعه، وقلبه قد أوى إلى مولاه وحبيبه فآواه إليه، وأسجده بين يديه خاضعًا خاشِعًا ذليلًا مُنكسِرًا من كل جهةٍ من جهاته.

فيا لها من سجدة ما أشرفَها، لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء.

وقيل لبعض العارفين: أيسجدُ القلبُ بين يديْ ربِّه؟ قال: أيْ والله، بسجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة.

فشتّان بين قلبٍ يبيت عند ربِّه قد قطع في سفره إليه بيداء الأكوان وخرق حجب الطبيعة، ولم يقف عند رسم، ولا سكن إلى علمٍ حتى دخل على ربه في داره فشاهد عزَّ سلطانه وعظمة جلاله وعلو شأنه وبهاء كمَاله.

فإذا صارت صفات ربه وأسمَاؤه مشهدًا لقلبه أنْسَتْهُ ذكرَ غيره وشغلَتْهُ عن حُبِّ مَن سِوَاه، وحديث دواعي قلبه إلى حُبِّه تعالى بكُلِّ جزء من أجزائه قلبه وروحه وجسمه، فحينئذ يكون الرب -سبحانه- سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبه يسمع وبه يبصر، وبه يبطش وبه يمشي. كما أخبر عن نفسه على لسان رسوله [(١)].

□ وَمن غلظ حجابه وكثف طبعه وصلبُ عوده فهو عن فَهْم هذا بمعزل، بل لعلَّه أن يفهم منه ما لا يليق به - تعالى- من حلول أو اتحاد، أو يفهم منه غير المرادِ منه فيُحرِّف معناه، ولفظه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور].

وبالجملة فيبقى قلب العبد - الذي هذا شأنه - عرشًا للمثل الأعلى: أي عرشًا لمعرفة محبوبه ومحبّته وعظمته وجلاله وكبريائه، وناهيك بقلب هذا شأنه، فيا له من قلب من ربِّه ما أدناه!! ومن قربه ما أحظاه!! فهو يُنَزِّه قلبه أن يساكن سواه، أو يطمئن بغيره، فهؤلاء قلوبهم قد قطعت الأكوان وسجدت تحت العرش وأبدانهم في فُرشهم. كما قال أبو الدرداء: «إذا نام العبد المؤمن عُرِج بروحه حتى تسجد تحت العرش، فإن كان طاهرًا أُذِن لها في السجود، وإن كان جنبًا لم يؤذن لها بالسجود» وهذا والله أعلم هو السِّرُّ الذي لأجله أمر النبي ﷺ الجُنُب إذا أراد النوم أن يتوضأ [(٢)]، وهو إما واجب على أحد القولين، أو مُؤكَّد الاستحباب

(١) رواه البخاري في «الرقائق»- باب التواضع (ح٦٥٠٢)، (١١/ ٣٤٨، ٣٤٩).
(٢) رواه البخاري في الغسل -باب نوم الجُنُب (ح٢٨٧- ٢٩٠)، (١/ ٤٦٧، ٤٦٨).

على القول الآخر، فإن الوضوء يُخفِّفُ حدث الجنابة ويجعله طاهرًا من بعض الوجوه»[١].

□ ولله در القائل على لسان حال هذا القلبك

يـا مَـنْ يُـذكِّرُني بعهـدِ أَحَبَّتِـي ... طابَ الحديثُ بـذكرهمْ ويطيـبُ

أَعِدِ الحـديث عَلـيَّ مـن جنباتـهِ ... إنّ الحديث عن الحبيـب حبيـبُ

ملأ الضلوعَ وفاضَ عـن جنباتِهـا ... قلـبٌ إذا ذُكِـر الحبيـب يـذوب

مـا زال يَخفِـق ضـارِبًا بجناحـه ... يا ليت شعري هـل تطيـر قلـوب

نعم تطير هاتيك القلوب وتسجدُ تحت العرش عند مولاها علَّام الغيوب[٢].

---

(١) «طريق الهجرتين» (ص٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٧٠).

(٢) إن شاء الله سنفرد للقلوب مجلَّدين أو أكثر.

علو الهمة

في

الاحتساب والنِيَّة

علو الهمة في الاحتساب والنِيَّة

□ «النِيَّة هي رأس الأمر وعموده، وأساسه وأصله الذي يُبْنَى عليه، فإنها روح العمل، وقائده وسائقه، والعمل تابع لها يُبْنَى عليها، يصحُّ بصحَّتها، ويفسد بفسادها، وبها يُسْتَجلَب التوفيق، وبعدمها يحصل الخذلان، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة»(١).

• عن عمر بن الخطاب ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(٢).

قدِّموا النية، وانووا الخير:

□ قال سفيان الثوري: «ما ضعف بدن قط عن مبلغ نيّته، فقدِّموا النيَّة ثم اتبعوها»(٣).

✍ **أخي:** من خلصت نيّته كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيّن للناس بغير ما يعلم الله من قلبه شانه الله.

---

(١) «إعلام الموقّعين» لابن قيم الجوزيّة (٤/ ١٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٩ و١٣٥)، (٥/ ١٦٠)، (٧/ ٢٢٦)، (٩/ ١١٥)، (١١/ ٥٧٢)، (١٢/ ٣٢٧)، ومسلم (١٩٠٧)، وأبو داود (٢/ ٣٥٢)، والترمذي (١/ ١٩٨)، والنسائي (١/ ٨٥)، (٧/ ١٣)، (٦/ ١٥٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤١/ ٤٢٢٧)، وأحمد (١/ ٢٥، ٤٣)، والحطاوي في «شرح معاني الآثار»، وابن خزيمة، والدارقطني في «سننه».

(٣) «حلية الأولياء» (٧/ ٥٤).

□ قال إبراهيم النخعي: «إن الرجل ليتكلم بالكلام، على كلامه المقت، ينوي فيه الخير، فيُلقي الله ﷻ له العذر في قلوب الناس، حتى يقولوا: ما أراد بكلامه هذا إلَّا الخير، وإن الرجل يتكلم بالكلام الحسن لا يريد به الخير فيُلقي الله ﷻ له في قلوب الناس حتى يقولوا: ما أراد بكلامه هذا الخير»(١).

□ قال الإمام أحمد لابنه: «يا بُنيّ انو الخير، فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير»(٢).

● عن ميمونة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«من ادَّان دَيْنًا ينوي قضاءَه أدَّاه الله عنه يوم القيامة»**(٣).

* النية سبب عظيم للتوفيق قال: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [النساء: ٣٥].

□ قال الإمام النووي: «النيَّة معيار لتصحيح الأعمَال فحيث صلحت النيَّة صلح العمل وحيث فسدت فسد العمل».

□ وقال ابن رجب: «صلاح العمل وفساده، بحسب النيّة المقتضية لإيجاده».

□ وقال داود الطائي: «رأيت الخير كله إنمَا يجمعه حُسن النيَّة وكفاك بها خيرًا».

---

(١) إسناده صحيح.

(٢) «مناقب الإمام أحمد» (ص٢٧٤).

(٣) صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، وكذا رواه أحمد في «مسنده» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٨٦).

□ وقال ابن المبارك: «رب عمل صغير تعظّمه النيِّة، ورب عمل كبير تصغّره النية».

□ وقال الإمام أحمد بن حنبل: «أحب لكل من عمل عملًا من صلاة أو صيام أو صدقة أو نوع من أنواع البر أن تكون النيِّة متقدمة في ذلك قبل الفعل».

□ وقال الفضيل بن عياض: «إنمَا يريد الله عَزَّوَجَلَّ منك نيتك وإرادتك».

□ وقال الشيخ علي سلطان القاري: «اعلم أن عدم وصول المريد إلى النهاية، لعدم تصحيح النيِّة في البداية، فعدم الوصول لفقد الأصول».

فصحِّح النيِّة بالهمة العلية.

□ قيل لحبيب بن أبي ثابت التابعي مفتي أهل الكوفة والمعوّل عليه عندهم: حدّثنا عن أشق شيء؟ قال: مجيء النيِّة.

□ وقال يوسف بن أسباط: «تخليص النيِّة من فسادها أشدَّ على العاملين من طول الاجتهاد».

□ ولله در القائل: «بحسن النية تقهرون الهوى، وبترك الشهوات تصفو أعمَالكم».

تفقّد نيتك وراعِهَا:

□ قال نعيم بن حمّاد: «ضرب السياط أهون علينا من النيِّة الصالحة».

□ وقال المناوي: «قال الغزالي: الشأن في صحّة النيِّة فهي معدم غرور الجُهّال ومَزَلّة أقدام الرجال»[(١)].

(١) «فيض القدير» للمناوي (٦/ ٤٤).

فَضْلُ النِّيَّة:

١- يبعث الناس على نياتهم:

• عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»(١).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبعث الناس على نيّاتهم»(٢).

• وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشَر الناس على نيّاتهم»(٣).

✍ يحشر الناس ويبعثون على نيّاتهم فاحذر أن يفضحك ميراثك: نيتك يوم القدوم على ربك واعلم أن خلوص النيّة لرب البرية هو خلاصة العطية.

٢- من كانت الآخرة همَّهُ:

* قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء].

* وقال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران].

---

(١) أخرجه مسلم، وابن ماجه، والحاكم في «المستدرك»، والطحاوي .

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨٠١٤).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه عن جابر، وكذا رواه الحاكم في «المستدرك»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨٠٤٢).

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٤]. قال قتادة: «على نيته»(١).

• وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة همَّه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومَن كانت الدنيا هَمَّهُ جعل الله فقره بيْن عينيْه، وفَرَّق عليه شملَه، ولم يأته من الدنيا إلّا ما قُدِّر له»(٢).

• وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همّه فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه؛ ولم يأته من الدنيا إلّا ما كُتِب له، ومن كانت الآخرة نيّته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه؛ وأتته الدنيا وهي راغمة»(٣).

• وقال رسول الله ﷺ: «إنه من تكن الدنيا نيّته يجعل الله فقره بين عينيه، ويُشتِّت عليه ضيعته، ولا يأتيه منها إلّا ما كُتب له، ومن تكن الآخرة نيته يجعل الله غناه في قلبه، ويكفيه ضيْعته، وتأتيه الدنيا وهي راغمة»(٤).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٨)- المكتبة القيمة.

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن أنس، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٩٤٩- ٩٥٠)، و«صحيح الجامع» رقم (٦٥١٠).

(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢/ ٥٢٤- ٢٥٢)، وابن حبان (٧٢)، وقال المنذري رواته ثقات، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وقال الألباني: إسناده صحيح انظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٥٠).

(٤) صحيح لغيره: رواه الطبراني في «الأوسط» (٨/ ١٣٣/ ٧٢٦٧) عن زيد بن ثابت. وقال المنذري: إسناده لا بأس به، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (٣/ ٢٣١/ ٣١٦٨): «صحيح لغيره».

٣- الخلود في الجنة أو النار بالنيّات:

□ قال الحسن: «إنمَا خلّد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيّات»(١).

✍ قد يقول قائل: «لِمَ يعذّب الله الكافر بالخلود في النار مددًا لا نهاية لها مع أن العدل يقتضي أن يعذبه بمقدار المدة التي كفرها؟ ولم يخلد المؤمن في الجنة مع أنه لم يؤمن ولم يطع إلَّا مدة محدودة من الزمان، بل قد يسلم لله قبل الغرغرة ويدخل في الإسلام ويموت ولم يسجد لله سجدة واحدة؟

والسبب في ذلك أن المؤمن ينوي أن يطيع الله أبدًا، فجوزي بالخلود جزاء نيته، والكافر كان عازمًا وناويًا الكفر أبدًا فجوزي بنيته (٢)، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام].

٤- حفظ العبد على قدر نيته:

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إنمَا يُحفظ الرجل على قدر نيّته».

□ وكتب سالم بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: «اعلم أن عون الله للعبد على قدر النيّة، فمن تمّت نيته تم عون الله له، وإن نقصت نقص بقدرها»(٣).

٥- يبلغ المرء بنيّته ما لا يبلغه بعمله:

□ قال جعفر بن حيان: «ملاك هذه الأعمَال النيات، فإن الرجل يبلغ

---

(١) «الإحياء» (٤/ ٣١٧).

(٢) انظر: «الأشباه والنظائر» للسيوطي (ص١١)، و«تهذيب اللغة» للأزهري (١/ ٥٥٦).

(٣) «الإحياء» (٤/ ٣١٧).

بنيته ما لا يبلغه بعمله».

□ قال ثابت البناني: «نية المرء أبلغ من عمله، إن المؤمن ينوي أن يقوم من الليل، ويصوم النهار، ويخرج من ماله، فلا تتابعه نفسه على ذلك، فنيته أبلغ من عمله»(١).

من رحمة الله ونعمه على عباده أن جعل من عزم ونوى فعل الخير كمن فعله، ومن نوى الغزو كمن غزا.

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله عز وجل: إذا تحدثَ (٢) عبدي أن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها**».

• وقال رسول الله ﷺ: «**قالت الملائكة: ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جَرَّاي (٣)**»(٤).

* وتخلف رجال من الصحابة في غزوة تبوك لم يكن عندهم زاد ولا راحلة حبسهم العذر، ولم يكن عند النبي ﷺ ما يحملهم عليه، وبكوا بكاء الرجال شوقًا إلى الغزو فعلم الله نيّاتهم، فشاركوا الغزاة في الأجر،

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٢٦).

(٢) أي: «همّ» كما في الرواية الأخرى، وفي رواية ثالثة: «أراد».

(٣) أي: من أجلي.

(٤) رواه مسلم في «الإيمان» باب إذا هم العبد بحسنة (١/ ١١٧، ١١٨)، حديث (١٢٩).

قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة].

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في غزاة، فقال: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلَّا كانوا معكم**»[(١)]. قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة، حبسهم العذر**»[(٢)].

• وقال ﷺ: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم واديًا، إلَّا كانوا معكم فيه وهم بالمدينة، حبسهم العذر**»[(٣)].

• وقال ﷺ: «**إن أقوامًا بالمدينة خلفنا؛ ما سلكنا شِعبًا، ولا واديًا إلَّا وهم معنا، حبسهم العذر**»[(٤)].

فالكريم المنّان المطّلع على خبايا النفوس يرفع الراغب في الجهاد إلى مراتب المجاهدين؛ لأن بُعد هممهم، وشرف نيّاتهم أرجح لديه من عجز

---

(١) في رواية الإسماعيلي كما قال الحافظ في «فتح الباري» (٦/ ٤٧): «إلا وهم معكم فيه بالنية»، وفي حديث جابر عند مسلم (١٩١١): «إلا شركوكم في الأجر» أي أن لهم من الأجر مثل أجر الغازي.

(٢) «صحيح البخاري» كتاب الجهاد- باب من حبسه العذر «فتح الباري» (٦/ ٤٦، ٤٧) (ح٢٨٣٩)، وكتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر (٨/ ١٢٦) (ح٤٤٢٣).

(٣) رواه أحمد، والبخاري، وأبو داود، وابن ماجه عن أنس، ومسلم، وابن ماجه عن جابر.

(٤) رواه البخاري عن أنس.

وسائلهم، ولا يهدر الله يقينهم الراسخ ورغبتهم العميقة في التضحية.

• وعن سهل بن حنيف ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»(١).

• وقال ﷺ: «**من سأل الله القتل في سبيل الله، صادقًا من قلبه، أعطاه الله أجر شهيد، وإن مات على فراشه**»(٢).

✍ والله لو لم يكن من فضيلة للنيات إلَّا هذا الحديث لكفى.

• وعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر؛ كُتِب له مثل ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**»(٣).

• وعن أبي الدرداء ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال: «**من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل، فغلبته عيناه حتى أصبح**(٤)**، كُتِب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه** ﷻ»(٥).

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (١٩٠٩)، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(٢) صحيح: رواه الترمذي وأحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي وابن حبان والحاكم عن معاذ، والحاكم في «المستدرك» عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٧٧).

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» - كتاب الجهاد- باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة «فتح» (٦/ ١٣٦) رقم (٢٩٩٦)، وكذا رواه أبو داود.

(٤) أي: نام وهو عازم على قيام الليل، فلم يقم تلك الليلة من غير تفريط منه، ولكن غلبه النوم فلم يقم –انظر «النية» للدكتور عبد الله بن عبد العزيز الجبرين.

(٥) صحيح: رواه النسائي (١٧٨٧)، وابن ماجه (١٣٤٤)، ورواه النسائي موقوفًا بعد ذلك وله حكم الرفع، ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٢٥٨٨) «الإحسان». وقال المنذري: إسناده جيد، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (ص١٢)، =

□ قال داود الطائي: «البر همته التقوى، فلو تعلّقت جميع جوارحه بالدنيا لردّته نيته يومًا إلى نيّة صالحة، وكذلك الجاهل بعكس ذلك».

□ قال بعض العلماء: «اطلب النيّة للعمل قبل العمل، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير. وكان بعض المريدين يطوف على العلمَاء يقول: من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملًا لله تعالى فإني لا أحب أن يأتي عليَّ ساعة من ليل أو نهار إلَّا وأنا عامل من عمَّال الله؟ فقيل له: قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهمّ بعمله فإن الهام بعمل الخير كعامله»(١).

٦- النية سرّ العبودية وروحها، والعمل بغير نية لا ينفع:

□ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أفضل الأعمَال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عمَّا حرّم الله تعالى، وصدق النيّة فيما عند الله»(٢).

□ وقال بلال بن سعد: «إن العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه، فإن تورّع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى، فإن صلح، نيّته فبالحري أن يصلح ما دون ذلك. فإنَّ عماد الأعمال النيّات، فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرًا، والنيّة في نفسها خير وإن تعذّر العمل بعائق»(٣).

□ وقال الغزالي في «الإحياء» (٤/ ٣٢٠): «لم يكن العمل بغير نية

والشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على الإحسان قال: «إسناده جيد».

(١) «الإحياء» (٤/ ٣١٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

مفيدًا أصلًا؛ لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظانّ أنه يمسح ثوبًا لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة، فكان وجود ذلك كعدمه، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلًا، فيقال: العبادة بغير نيّة باطلة.

* قال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

□ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لا ينفع قول إلَّا بالعمل، ولا ينفع قول وعمل إلَّا بنية، ولا ينفع قول وعمل ونيّة إلَّا بمَا يوافق السنة»[١].

□ وقال مطرّف بن عبد الله: «صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصحة النيّة»[٢].

□ وقال سفيان الثوري: «لا يستقيم قول إلَّا بالعمل، ولا يستقيم قول وعمل إلَّا بنيّة، ولا يستقيم قول وعمل ونيّة إلَّا بموافقة السنة»[٣].

□ وقال يحيى بن معاذ الرازي: «صلاح الأمر أن يكون على نيّة»[٤].

□ وقال ابن حزم: «النيّة هي سرّ العبودية وروحها، ومحلها من العمل محل الروح من الجسد، ومحال أن يُعتبر في العبودية عمل لا روح معه، بل هو بمنزلة الجسد الخراب»[٥].

---

(١) «العُدَّة» (١/ ٨).

(٢) «حلية الأولياء».

(٣) «الحلية».

(٤) «تهذيب الحلية» (٢٦٦).

(٥) «إحكام الأحكام» لابن حزم (٢/ ٧٠٦- ٧٠٧).

٧- نيّة الخير باقية أبدًا لا تتوقف أبدًا إن توقف العمل:

• «قد تتوقف بعض الأعمال البدنية المطلوبة شرعًا كالهجرة، وذلك عندما ينتشر الإسلام وتصبح كلمة الله هي العليا، وكصلة الأرحام إذا لم يكن للمرء رحم يصله، ولكن نيّة العمل الخيِّر باقية دائمة لا تتوقف أبدًا، يقول الرسول ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية**»[(١)]، [(٢)].

٨- قاصد الخير يثاب بنيّته وإن لم يصب المراد:

إذا قصد العبد القيام بفعل خير شرعه الله، إلَّا أن هذا الفعل لم يقع الموقع المناسب فإن صاحبه يثاب بقصده ونيّته.

• يوضح هذا الحديث المبارك الذي قاله النبي ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال رجل لأتصدَّقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصدِّق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على سارق! لأتصدقنَّ الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصدق الليلة على زانية! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدَّقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصدِّق الليلة على غني، فقال: اللهم لك الحمد على سارق، وعلى زانية، وعلى غني! فأُتِي، فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما**

---

(١) «مقاصد المكلفين» (ص٨٨).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» - كتاب جزاء الصيد- باب لا يحل القتال بمكة (٤/ ٤٦) «فتح»، ومسلم في «صحيحه»- كتاب الإمارة (١٣/ ٨)، وأبو داود في «سننه»- كتاب الجهاد- باب الهجرة هل انقطعت؟ (٣/ ٧).

الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله»(١).

٩- النيّات تُمَيِّز الأعمال:

قد تتفق الأعمال في صورها، ويتميّز بعضها عن بعض بالنيّات.

- فالنطق بالشهادتين مخلصًا هذا بأفضل المنازل، فإذا نطق بهمَا نفاقًا يريد إحراز ماله ودمه كان بشرّ المنازل.

والساجد لله فعله من أعظم القربات، والساجد لغير الله فعله من أعظم الذنوب، وذبح البهائم صورته واحدة، فالذي يذبحه لغير الله فقد أذنب وعصى، والذي يذبحه لله فقد برّ وأطاع(٢).

والنيّات تميّز العبادات عن العادات:

- فالنيات تميّز بين ما يفعل لرب السماوات من عبادة وبين العادات.
- فمن الغسل ما يكون من الأحداث، ومنه ما يكون للتَّبرد، والاستحمام والمداواة.
- ودفع المال منه ما يكون هبة، أو هدية، ومنه ما يكون قربة إلى الله، كالزكاة، والصدقات، والكفّارات.
- والإمساك عن المفطرات: منه ما يكون حمية وعلاجًا، ومنه ما يكون قربة إلى الله وهو الصيام والنية هي التي تميّز بينهما.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٢٢، ٣٥٠)، والبخاري، ومسلم (٧/ ١١٠)، وابن ماجه.
(٢) انظر: «مقاصد المكلفين» (ص١٠١).

- والذبائح منها ما يكون لتغذيه الأبدان وضيافة الضيفان، ومنها ما يكونِ تقرّبًا للملك الديان كالهدْي والأضاحي والنيّة تميّز بينهما.

والنيّات تميّز رتب العبادات:

فالنيَّة هي التي تميّز راتبة الفجر عن فرض الفجر إذا صلاهمَا المصلي منفردًا، وبها يتميَّز القضاء عن الأداء، وفي النفل تميّز الراتب عن غيره، وكذلك في الفرض تميّز مثلًا الظهر عن العصر، والمنذورة عن المفروضة بأصل الشرع.

- وفي العبادات المالية: تميِّز الصدقة الواجبة عن النافلة، والزكاة عن المنذورة والنافلة.
- وفي الصوم تميِّز صوم النذر عن صوم النفل، وصوم الكفّارة عنهما، وصوم رمضان عمَّا سواه.
- وفي الحج تميِّز الحج عن العمرة، والحج المفروض عن المنذور والنافلة.
- وكما قلنا فإن النيّة تؤثر في الفعل، فيصير تارة حرامًا، وتارة حلالًا، وصورته واحدة تفرّق بينهما النية فقط.

فالقرض في الذمة، وبيع النقد بمثله إلى أجله، صورتهما واحدة، والأول قربة صحيحة، والثاني معصية باطلة.

□ قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «الروح»: «الشيء الواحد تكون صورته واحدة، وهو ينقسم إلى محمود ومذموم، فمن ذلك التوكل والعجز، والرجاء والتمني، والحب لله، والحب مع الله، والنصح والتأديب، وحب الدعوة إلى الله وحب الرياسة، وعلو أمر الله والعلو في

الأرض، والعفو والذل، والتواضع والمهانة، والمودة والحقد، والاحتراز وسوء الظن، والهدية والرشوة، والإخبار بالحال والشكوى، والتحدّث بالنعم شاكرًا والفخر بها. فإن الأول من كل ما ذُكِر محمود، وقرينه مذموم، والصورة واحدة، ولا فارق بينهما إلَّا القصد»[١].

١٠- النيّات تُحول العادات إلى عبادات:

إن صلاح النية وإخلاص الفؤاد لله رب العالمين، ويرتفعان بمنزلة العمل الدنيوي البحت فيجعلانه عبادة متقبله.

وإن خبث الطويّة، يهبط بالطاعات المحضة فيقلبها معاصي شائنة فلا ينال المرء منها بعد التعب في أدائها إلَّا الفشل والخسار.

والحق أن المرء ما دام قد أسلمّ لله وجهه وأخلص نيِّته، فإن حركاته وسكناته ونومه ويقظاته، تُحتسب خطوات إلى مرضاة الله.

□ قال الغزالي رحمه الله: «ما من شيء من المباحات إلَّا ويحتمل نيّة أو نيّات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة، ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئًا من الخطرات والخطوات واللحظات»[٢].

فالغافل من يغفل عن تحويل المباحات إلى طاعات، فمن أتى شيئًا من مباح الدنيا لم يُعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة بقدره، وناهيك خسرانًا بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى.

---

(١) انظر: «مقاصد المكلفين» (ص٦٩، ٧٠، ٧١).
(٢) «الإحياء» (٤/ ٣٢٣).

فالعاقل من يجمع بين إتيان المباحات ولا يُنقص من الأجر والحسنات بتحسين النيّات، ولهذا قال بعض العارفين من السلف: «إني أستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء» وكل ذلك مما يكون أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى؛ لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين، كمن قصد من الأكل التقوّي على العبادة.

• بل ويقضي شهواته ومع النيّة الصالحة تحوّل إلى طاعة وقربات فمن نوى بالوقاع تحصين دينه، وتطيب قلب أهله، والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد ﷺ كان مطيعًا بأكله ونكاحه. قال ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة**».

وأغلب حظوظ النفس من الأكل والوقاع قصد الخير بها غير ممتنع لمن غلب على قلبه همّ الآخرة.

• عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: عادني النبي ﷺ عام حجة الوداع من مرض أشفيت[١] منه على الموت، فقلت: يا رسول الله! بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ولا يرثني إلَّا ابنة واحدة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «**لا**»، قال: أفأتصدق بشطره؟ قال: «**الثلث يا سعد، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفّفون[٢] الناس، ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلَّا آجرك الله بها،**

(١) أي: أشرفت منه على الموت. انظر: «النهاية» (٢/ ٤٨٩).
(٢) العالة: الفقراء، جمع عائل، و«يتكففون الناس»: أي يمدون أكفهم إليهم ليسألوهم «النهاية» (٣/ ٣٣١)، و(٤/ ١٩٠).

حتى اللقمة تجعلها في فيّ امرأتك»، قلت: يا رسول الله! أخلّف بعد أصحابي[١]؟ قال: «**إنك لن تخلف فتعمل عملًا تبتغي به وجه الله إلّا ازددت به درجة ورفعة، ولعلك تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضرّ بك آخرون..**»[٢].

• وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها، كانت له صدقة**»[٣].

• وعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال: وبعث كل واحد منهمَا على مخْلاف[٤]، قال: واليمن مخلافان، ثم قال: «**يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشرا ولا تنفِّرا**»، فانطلق كل واحد منهمَا إلى عمله، وكان كل واحد منهمَا إذا سار في أرضه كان قريبًا من صاحبه أحدث به عهدًا فسلّم عليه، فسار معاذ في أرضه قريبًا من صاحبه أبي موسى، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه، وإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس، وإذا رجل عنده قد جُمعت يداه

---

(١) قال النووي: «قال القاضي عياض: معناه أخلف بمكة بعد أصحابي، فقاله إما إشفاقًا من موته بمكة لكونه هاجر منها وتركها لله تعالى فخشي أن يقدح ذلك في هجرته أو ثوابه عليها، أو خشي بقاءه بمكة بعد انصراف النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وتخلفه عنهم بسبب المرض، وكانوا يكرهون الرجوع فيما تركوه لله تعالى، ولهذا جاء في رواية أخرى «أخلف عن هجرتي» انظر «شرح النووي على صحيح مسلم» (١١/ ٧٨).

(٢) رواه البخاري حديث رقم (٥٦، ١٢٩٥، ٢٧٤٢، ٢٩٣٦)، ومسلم (١٦٢٨).

(٣) رواه البخاري (٥٥)، ومسلم (١٠٠٢).

(٤) المخلاف: الإقليم.

إلى عنقه [(١)] ، فقال له معاذ: يا عبد الله بن قيس [(٢)] أيّمَ هذا؟ قال: هذا رجل كفر بعد إسلامه، قال: لا أنزل حتى يُقتل، قال: إنمَا جيء به لذلك، فانزِل، قال: ما أنزل حتى يُقتل، فأُمِر به فقُتِل، ثم نزل فقال: يا عبد الله! كيف تقرأ القرآن؟ قال: تفَوّقه تفوقًا [(٣)] قال: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل، فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسِب نومتي، كما أحتسب قومتي»[(٤)].

ومعنى قوله: «فأحتسب نومتي: أي أنه يرجو الأجر في إراحة جسده بالنوم ليكون أنشط له في العبادة بعد قيامه من نومه، يرجو الأجر على ذلك مثلما يرجو الأجر على قيامه وتعبه في عبادة الله، وذلك لأن العمل المباح إذا فعله العبد ونوى بفعله إياه أن يستعين به على طاعة الله كان هذا المباح عبادة يثاب عليها العبد؛ لأنه ابتغى بذلك وجه الله تعالى [(٥)].

١١- شرف النيات بباعثها وهو القلب:

يحق للنيّات أن تشرف بموجدها وباعثها وهو القلب؛ فالقلب سيد الأعضاء ومليكها، وهو الآمر الناهي، والأعضاء تطيعه، لا تعصي له أمرًا

---

(١) أي: شُدَّت يداه ورُبطت مع رقبته.

(٢) هذا اسم أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

(٣) قال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٦٢): «أي ألازم قراءته ليلاً ونهارًا وشيئًا بعد شيء وحينًا بعد حين، مأخوذ من فواق الناقة، وهو أن تحلب ثم تترك ساعة حتىٰ تدر، ثم تحلب، هكذا دائمًا».

(٤) رواه البخاري في كتاب «المغازي»- باب بعث معاذ وأبي موسىٰ إلى اليمن قبل حجة الوداع «فتح الباري» (٨/ ٦٠، ٦٢، ٦٣) حديث رقم (٤٣٤١- ٤٣٤٥).

(٥) «فتح الباري» (٨/ ٦٢)، و(١٢/ ٢٧٥).

ولا تخرج عن حكمه، فهو منها بمنزلة الراعي من الرعية.

فإذا كان هذا شأن القلب فالنيّة وهي عمل قلبي لها فضل على الأعمال الظاهرة، وفضلها عليها كفضل القلب على الأعضاء الظاهرة.

□ يقول علي القاري في هذا: «قال سهل: ما خلق الله تعالى مكانًا أعزّ وأشرف عنده من قلب عبده المؤمن، وما أعطى كرامة للخلق أعزّ عنده من معرفته، فجعل الأعزّ في الأعزّ، فما نشأ في أعزّ الأمكنة يكون أعزّ مما نشأ من غيره..»(١).

١٢- النيّة عمل السر وعمل السر أفضل من عمل العلانية:

النية خفية غير ظاهرة، فلا يستطيع العبد أن يرائي بنيته؛ لأن الناس لا اطلاع لهم على المستتر في القلوب، بخلاف الأعمَال الظاهرة البيّنة فقد يداخلها الرياء، وكثير من الآفات التي تعرض للعمل الظاهر تأتي من هذا الداء الوبيل والآفة الماحقة، فالرياء يبطل الأعمَال ويفسدها، ويخبث النفوس ويدسِّيها: فأما النية إن كانت صالحة فكما يقول ابن الجوزي: «من أصلح سريرته؛ فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه، فالله الله في السرائر؛ فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر»(٢).

١٣- الجمع بين النيّات في العمل الواحد تجارة العلماء الرابحة:

□ يقول أبو طالب المكي: «النية الصالحة هي أول العمل الصالح وأول العطاء من الله تعالى وهو مكان الجزاء، وإنما يكون للعبد من ثواب الأعمَال على حسب ما يهب الله تعالى له من النيّات، فربما اتفق في العمل

(١) «مقاصد المكلّفين» (٩٧، ٩٨).

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٣٥٥).

الواحد نيّات كثيرة على مقدار ما يحتمل العبد من النية، وعلى مقدار علم العامل، فيكون له بكل نية حسنة، ثم يضاعف كل حسنة عشر أمثالها؛ لأنها أعمال تجتمع في عمل»[١].

□ وقال الغزالي في «الإحياء»: «الطاعات مرتبطة بالنيّات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها، أما تضاعف الفضل: فبكثرة النيّات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة ثم تُضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

□ ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيّات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقرّبين.

أولها: أن يعتقد أنه بيت الله وأنه داخله زائرًا لله، فيقصد به زيارة مولاه عَزَّ وَجَلَّ.

ثانيها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَرَابِطُوا﴾.

ثالثهما: الاعتكاف، وكف السمع والبصر والأعضاء.

ورابعها: عكوف الهمّ على الله ولزوم السرّ للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال في المسجد.

وخامسها: التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكر وللتذكر به، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من غدا إلى المسجد لا يريد إلّا أن**

---

(١) «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (٢/ ٣٠٨- ٣٠٩).

يتعلم خيرًا أو يعلِّمه كان له كأجر حاج تامًا حجة»[١].

• وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من غدا إلى المسجد أو راح أعدّ الله له في الجنة نزلًا كلما غدا أو راح».

وسادسها: أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهى عن منكر، إذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين فيكون شريكًا معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته.

وسابعها: أن يستفيد أخًا في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله.

وثامنها: أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة، وقد قال الحسن بن علي ﵄: من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخًا مستفادًا في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علمًا مستطرفًا، أو كلمة تدل على هدى، أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياء».

مثال آخر: استعمال الطيب مباح، ويمكن جمع النيّات الحسنة فيه: مثل أن ينوي به اتباع سنة رسول الله ﷺ، وينوي بذلك أيضًا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائرًا لله إلَّا طيب الرائحة، وأن يقصد به تعظيم وتوقير الملائكة، فإن الملائكة للتأذّى مما يتأذى منه ابن آدم، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند

(١) قال العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٣٢٣): «إسناده جيد».

مجاورته برائحته، وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه، فمن تعرّض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قال:

إذا ترحّلت عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون هم

□ وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمَات دينه بالفكر؛ فقد قال الشافعي رحمه الله: «من طاب ريحه زاد عقله».

فهذا طريق تكثير النيّات، وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلَّا وتحتمل نيّات كثيرة، وإنمَا تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جدّه في طلب الخير وتشمره له وتفكّره فيه، فبهذا تزكو الأعمَال وتكثر الحسنات.

فهذا وأمثاله من النيّات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه [١] فيا لعظم النيات.. ويا لكرم المولى الودود، ويا لعظم هذا الدين.

الاحتساب:

□ قال الكفويُّ: «الاحتسابُ: هو طلبُ الأجْرِ من الله تعالى بالصَّبْر على البلاءِ مطمئنةً نفسُ المُحتَسِب غير كارهةٍ لِمَا نزل بها من البلاءِ» [٢].

□ قال ابن الأثير: «الاحتساب في الأعمَالِ الصالحةِ وعندَ

(١) «الإحياء» (٤/ ٣٢٢- ٣٢٣، ٣٢٤).
(٢) «الكُلّيات» للكفوي (ص٥٧).

المكرُوهَاتِ هو البدارُ إلى طلبِ الأجرِ وتحْصِيله بالتَّسْليم والصَّبْرِ، أو باستعمَالِ أنواع البرِّ والقيام بها على الوجْهِ المرسُوم فيها طلبًا للثَّواب المرْجُوِّ منها»[(١)].

إنَّهُ إذا كان الاحتسابُ بمعناه الذي ذكره الكفويُّ، أو بمعنييه اللذين ذكرهمَا ابنُ الأثيرِ يعني أنْ يعُدَّ الإنسانُ صبْرَهُ في المْكَارِهِ وعملهُ الطاعةَ ضمْنَ ما له عند الله ﷻ، فإنَّ اكتفاءَ الإنسان بـالله تعالى وثقتَهُ به واتِّكالهُ في نُصْرته على عوْنِهِ كَمَا يُفْهم منْ كلام الطَّبرِيِّ[(٢)]، نوعٌ من الاحتسابِ، كَمَا أنَّ رضا العبد بِمَا قُسِمَ له مع الاكتفاءِ به، كَمَا يؤْخَذُ من تفْسِير القرْطُبِيِّ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٥٩] احتسابٌ أيضًا[(٣)]. منْ ثَمَّ يكونُ الاحتسابُ ثلاثة أنواعٍ هي:

١- احتسابُ الأجرِ من الله تعالى عند الصَّبْرِ على المكاره، وخاصَّةً فقدُ الأبناءِ إذا كانوا كبارًا.

٢- احتسابُ الأجر من الله تعالى عند عملِ الطاعاتِ يُبْتغى به وجْهُهُ الكريم كَمَا في صوم رمضان إيمَانًا واحْتسابًا، وكذا في سائرِ الطَّاعات.

٣- احتسابُ المولَى ﷻ ناصرًا ومُعِينًا للعبد عند تعرُّضه لأنواعِ الابتلاء من نحو منع عطاءٍ أو خوفِ وقوع ضررٍ، ومعنى الاحتسابِ في هذا النَّوعِ الثالث الاكتفاءُ بالمولى ﷻ ناصرًا

(١) «النهاية» لابن الأثير (١/ ٣٨٢).
(٢) انظر: «تفسير الطبري» لقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ﴾ الآية [التوبة:١٢٩].
(٣) «تفسير القرطبي» (٨/ ١٦٧).

ومُعِينًا والرِّضا بِمَا قسمَهُ للعبدِ إنْ قليلًا وإنْ كثيرًا.

وسنتكلّم في فصلنا هذا عن النوع الثاني من الاحتساب وهو الاحتساب عند الطاعات.

* قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

* وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء].

* وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ

نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء].

* وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء].

* وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الشعراء].

* وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الشعراء].

* وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الشعراء].

* وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا

تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الشعراء].

* وقال تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان].

* وقال تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل].

• عن أُبيٍّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ فرَضَ صيام رمضانَ، وسَنَنْتُ قيامَهُ. فمنْ صامهُ وقامهُ احتسابًا، خرج من الذُّنوبِ كيوْمِ ولدتْهُ أمُّهُ»(١).

• عن أبي مسعودٍ البدريِّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ المُسْلم إذا أنْفق على أهله نفقةً، وهو يحتسبها(٢)، كانت له صدقةً(٣)»(٤).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنِ اتَّبَعَ جنازةَ مسلم إيمَـانًا واحتسابًا، وكان معه حتَّى يصلَّى عليها ويُفْرِغَ منْ دفْنِها فإنَّه يَرْجِعُ من الأجر بقيراطين، كُلُّ قيراطٍ مثلُ أحدٍ، ومنْ صلَّى عليها ثُمَّ رجع قبل أنْ تُدْفنَ فإنَّهُ يرْجعُ بقيراطٍ»(٥).

---

(١) إسناده صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٦٦٠).
(٢) يحتسبها: أي يقصد بها طلب الثواب.
(٣) صدقة: أي يثابُ عليها كما يُثابُ علىٰ الصدقة.
(٤) رواه مسلم (١٠٠٢).
(٥) رواه البخاري واللفظ له (١/ ٤٧)، ومسلم (٩٤٥).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ صام رمضانَ إيمـانًا واحْتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّمَ منْ ذنْبِه، ومنْ قامَ ليلةَ الْقَدْرِ إيمـانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدّم من ذنبه»(١).

أخي: إن الاحتساب في التروك – ترك المعاصي والمحرمات – طاعة تثبت قلبك وتقوي عزيمتك لأن ترك المعصية – مع قدرتك عليها – لوجه الله يجعلك تتلذّذ وتسعد بتركها لأنك ترجو أجر امتثالك لأمر الله ووقوفك عند حدوده تبتغي بذلك ثواب التقوى والخوف من الله ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن]، و«الذي خاف ربه وقيامه عليه فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمر به، له جنتان من ذهب، آنيتهمَا وحليتهمَا وبنيانهمَا وما فيهمَا، إحدى الجنتين جزاءً على ترك المَنهيات، والأخرى على فعل الطاعات»(٢).

□ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أيها الناس احتسبوا أعمَالكم، فإن من احتسب عمله، كُتِب له أجر عمله، وأجر حسبته»(٣).

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٨)، ومسلم (٧٦٠)، واللفظ له.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (٥).

(٣) «لسان العرب» (١/ ٣١٥).

أمثلة على علو الهمة في الاحتساب[(١)] وجمع النيّات فيه

في الدعوة إلى الله:

• احتساب أجر الدلالة على الخير: فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ دَلَّ على خيرٍ فله مثل أجر فاعله»**[(٢)].

• احتساب أجر الدعوة إلى الهدى: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»**[(٣)].

□ ثواب تعليم الناس الخير، وصلاة الله وملائكته عليه.

□ ثواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي ينطق به الداعي.

• ثواب الكلمة الطيبة كمَا يقول رسول الله ﷺ: **«إن العبد ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالًا يرفعه الله بها درجات»**[(٤)].

• احتساب أجر هداية الناس: كمَا جاء في حديث سهل بن سعد: **«..فوالله لأن يهدي بك الله رَجُلًا واحِدًا خير لك من حُمْر النَّعَم»**[(٥)].

احتساب ثواب جميع حركات الجوارح التي تستخدم في الدعوة.

□ احتساب أجر النَّفْع المتعدي.

---

(١) «كيف تحتسبين الأجر في حياتك اليومية» لهناء بنت عبد العزيز الصنيع -طبع دار الأرقم- مصر.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

(٥) جزء من حديث رواه البخاري -كتاب المغازي- باب غزوة خيبر (٣/ ١٣٤).

□ احتساب زكاة العلم الشرعي، والحفظ له من النسيان.

□ بركة دعاء النبي ﷺ لمن علم مقالته فوعاها وحفظها وبلّغها.

• ثواب امتثال أمر الرسول ﷺ حين قال: «**بَلِّغوا عني ولو آية..**»(١).

* احتساب طاعة أمر الله ﷻ حيث قال: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ .. ﴾ [النحل: ١٢٥]. احتساب أجر التعاون على البر والتقوى. احتساب ثواب لسدّ ثغرة للمسلمين.

• احتساب حمل الدعوة إلى الله ﷻ، واحتساب الصبر على ما يناله العبد من أذى، لقوله ﷺ: «**ما يُصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هَمٍّ ولا حَزَن ولا أذى ولا غَمٍّ حتى الشوكة يُشاكُها – إلَّا كفر الله بها من خطاياه**»(٢).

* احتساب نصرة الإسلام وأهله. ابتغاء أن يهديك الله إلى صراطه المستقيم ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

□ احتساب ثواب قضاء حاجة المسلمين وتفريج كربهم وذلك برفع الجهل عنهم.

□ احتساب ثواب مواجهة الفساد والتصدي له. احتساب إبراء الذِّمَّة أمام الله.

ماذا تحتسِبُ عند استعمالك للهاتف:

والناس فيه بين غالٍ ومُفرِّط، فليتق الله العبد في وقته، فإن من عُبَّاد

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٤٦١).

(٢) رواه البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢).

السلف وعلمائه من كان يَسُفُّ خبزه سَفًّا ويقول: «بين السَّفِّ والمضع خمسون آية — أو خمسون تسبيحة».

فماذا ينوي الحاذق عند استعماله الهاتف جمعًا للنيّات واقتناصًا للحسنات.

١ - ثواب صلة الرحم عند محادثة ذوي الرحم.

٢ - ثواب إدخال السرور على مَن تحادثه عند اتصالك للسلام عليه والسؤال عن أحواله.

٣ - ثواب الكلمة الطيبة في مكالمَات التهنئة أو التعزية أو الوعظ «**الكلمة الطيبة صدقة**»(١).

٤ - احتساب نية العبادة والتقرّب إلى الله.

٥ - احتساب الحفاظ على الوقت باستعمَال الهاتف لعمل أكثر من عبادة في وقت قصير.

٦ - أجر قضاء حوائج المسلمين.. عندما يتصّل بك من يطلب بعض المساعدات أو حل المشاكل.

٧ - احتساب أجر طلب العلم الشرعي.

٨ - احتساب ثواب طلب النصيحة من أهلها، وبذلها لمن يحتاج إليها من خلال الهاتف.

٩ - تحتسب النساء زيادة إلى ما مرّ أجر القرار في البيوت ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فعند استخدامها الهاتف تُقلِّل من

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٩٨٩).

حاجتها إلى الخروج.

١٠- ثواب الدعوة إلى الهدى والدلالة على الخير.

١١- احتساب أجر الإصالحة بين الناس.

أخي: بادر إلى النيّة الصالح.. فمن لك أن تسلم نيَّتك؟

□ عن إسماعيل بن أبي حكيم - وكان كاتب عمر بن عبد العزيز بالمدينة - ولم يزل معه بالشام - قال: دخل عبد الملك على أبيه عمر فقال: أين وقع لك رأيك فيمَا ذكر لك مزاحم من ردّ المظالم؟ قال: عَلَى إنفاذه، فرفع عمر يديه، ثم قال: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني، نعم يا بني، أصلي الظهر إن شاء الله، ثم أصعد المنبر فأردها على رؤوس الناس، فقال عبد الملك: يا أمير المؤمنين، مَن لك بالظهر، ومَنْ لك يا أمير المؤمنين إن بقيت أن تسلم لك نيتك للظهر؟ قال عمر: فقد تفرّق الناس للقائلة، فقال عبد الملك: تأمر مناديك فينادي الصلاة حتى يجتمع الناس، فأمر مناديه فنادى، فاجتمع الناس وقد جيء بسفط أو جونة فيها تلك الكتب وفي يدِ عمر جلم يقصه حتى نودي بالظهر»[١].

✍ فانظر إلى كلام الأكابر وكيف أخلصوا ومحّصوا نيّاتهم.

استسقوا بإصلاح نيّاتكم.. بقلوب سماوية لا بقلوب أرضية:

□ قال أبو محمد الصلحي الكاتب: «نادى منادي المتقي في زمن خلافته في الأسواق: إن أمير المؤمنين يقول لكم معشر رعيته: أن امرأة

---

(١) «تهذيب الحلية» (٢/ ٢٤٤).

صالحة رأت النبي ﷺ في منامها، فشكت احتباس القطر[١]، فقال لها: قولي للناس يخرجون في يوم الثلاثاء الأدنى، ويستسقون ويدعون الله، فإنه يسقيهم في يومهم، وإن أمير المؤمنين يأمركم معاشر المسلمين بالخروج في يوم الثلاثاء، كمَا أمركم رسول الله ﷺ، وأن تدعوا وتستسقوا بإصلاح من نيّاتكم، وإقلاع من ذنوبكم.

قال: فأخبرني الجم الغفير أنهم لمَّا سمعوا النداء ضجّت الأسواق بالبكاء والدعاء. فشقّ ذلك علي، وقلت: منام امرأة لا يُدرى كيف تأويله، وهل يصح أم لا، يُنادي به خليفة في أسواق مدينة السلام؟ فإنْ لم يسقوْا كيف يكون حالنا مع الكفار؟ فليته أمر الناس بالخروج ولم يذكر هذا. ومازلت قلقًا حتى أتى يوم الثلاثاء، فقيل لي: إن الناس قد خرجوا إلى المصلى مع أبي الحسن أحمد بن الفضل بن عبد الملك، إمام الجامع، وخرج أكثر أصحاب السلطان، والفقهاء والأشراف.

فلمَّا كان قبل الظهر، ارتفعت سحابة، ثم طبّقت الآفاق، ثم أسبلت عزاليها[٢] بمطر جود[٣]. فرجع الناس حفاة من الوحل»[٤].

□ وجاء في ترجمة «سعدون المجنون»: «قال عطاء السليمي: احتبس علينا القطر بالبصرة فخرجنا نستسقي، وإذا بسعدون المجنون، فلمَّا أبصرني قال: يا عطاء إلى أين؟ قلت: خرجنا نستسقي. قال: بقلوب

---

(١) القطر: المطر.

(٢) عزاليها: إشارة إلى شِدَّة وقع المطر.

(٣) المطر الجود: المطر العزيز.

(٤) «الكامل» لابن الأثير (٨/ ٣٧٧)، و«المنتظم» لابن الجوزي (٦/ ٣١٩)، و«فوات الوفيّات» لابن شاكر الكتبي (٢/ ٤٨- ٤٩).

سماوية أم بقلوب أرضية؟ قلت: بقلوب سماوية. قال: لا تبهرج فإن الناقد بصير. قلت: ما هو إلَّا ما حكيت لك، فاستسق لنا. فرفع رأسه إلى السماء، وقال: أقسمتُ عليك إلَّا سقيتنا الغيث، ثم أنشأ يقول:

أَيـا مـن كلَّمـا نـودي أجابـا ... ومـن بجلالـه ينـشي الـسحابا
ويـا مَـن كلَّـم الـصدِّيق موسـى ... كلامًـا ثـم ألهمـه الـصوابا
ويـا مَـن رَدَّ يوسـف بعـد ضـر ... علـى مـن كـان ينتحـب انتحابـا
ويـا مـن خـصَّ أحمـد واصطفـاه ... وأعطـاه الرسـالة والكتابـا

اسقنا، فأرسلت السمَاء شآبيب كأفواه القرب»[(١)].

نور الدين زنكي لا يفعل شيئًا إلا بنيَّة صالحة:

□ قال ابن الأثير: «كان رحمه الله لا يفعل فعلًا إلَّا بنيّة حسنة، كان بالجزيرة رجل صالح، كثير العبادة والورع، شديد الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله، ويرجع إلى قوله، فبلغه أن نور الدين يُدمِن اللعب بالكرة، فكتب إليه يقول له: «ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذِّب الخيل لغير فائدة دينية»، فكتب إليه نور الدين رحمه الله بخط يده – يقول: «والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنمَا نحن في ثغر والعدو قريب منا، وبينمَا نحن جلوس، إذ يقع صوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضًا ملازمة الجهاد ليلًا ونهارًا، شتاءً وصيفًا، إذ لا بد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جمَامًا[(٢)] لا قُدرة

---

(١) «فوات الوفيّات» لابن شاكر الكتبي (٢/ ٤٨- ٤٩).
(٢) الجَمام: الراحة. وجمَّ الفرس: إذا تُرِك ولم يُركَب.

لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضًا بسرعة الانعطاف والكرّ والفرّ في المعركة، فنحن نركبها ونروّضها بهذا اللعب، فيذهب جَمَامُها، وتتعوّد سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة».

□ قال ابن الأثير: «فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير، الذي يَقِلُّ في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله، فإن من يجيء إلى اللعب يفعله بنية صالحة، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات - يقلُّ في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئًا إلَّا بنيّة صالحة، وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين».

إيهٍ صلاح الدين.. طوية ما أطهرها، ونفس ما أشجعها وأجسرها!!

□ قال القاضي ابن شداد عن صلاح الدين: «في سنة أربع وثمانين - لمَّا ودّع أخاه وعسكر مصر بعسقلان -، سرنا على الساحل طالبين عكا، وكان الزمان شتاء عظيمًا، والبحر هائجًا هيجانًا عظيمًا، وموجه كالجبال كما قال الله، وكنت حديث عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي، حتى خُيِّل لي أنني لو قال لي قادر: لو جُزْتَ في البحر ميلًا واحدًا ملَّكتك الدنيا لمَا كنتُ أفعل، واستخففتُ رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم، هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموّجه، فبينا أنا في ذلك، إذ التفت إليّ، وقال: في نفسي أنه متى يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسّمت البلاد، وأوصيتُ وودّعت، وركبت هذا البحر إلى جزائره أتبعهم فيها، حتى لا أُبقي على وجه الأرض مَن يكفر بالله، أو أموت. قال: فعظم وقع هذا الكلام عندي، حيث

ناقض ما كان يخطر لي، وقلت له: ليس في الأرض أشجع نفسًا من المولى، ولا أقوى نيّة في نصرة دين الله، وحكيت له ما خطر لي، ثم قلتُ له: ما هذه إلَّا نيّة جميلة، ولكن المولى يسيِّر في البحر العساكر وهو سور الإسلام، ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه. فقال: أنا أستفتيك، ما أشرف الميْتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله. فقال: «غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات».

قال: فانظر إلى هذه الطويّة، ما أطهرها! وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها! اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك، فارحمه»[(١)].

كلام طيب لأديب الإسلام – مصطفى صادق الرافعي -:

□ يقول الرافعي في كتابه «وحي القلم» تحت عنوان «نية المؤمن خير من عمله»: «إن نية المؤمن لا تنطوي إلَّا على الخير الكامل، فهو – ما دامت نيّته على صلاحها وسره على إخلاصه- لا يعد اليسير من الشر يسيرًا، ولا يرى الكثير من الخير كثيرًا؛ فالأصل القائم في تلك النية المؤمنة ألا يبدأ الشر كي لا يوجد، وألا ينتهي الخير كي لا يفنى، فالمؤمن من ذلك على الخير والكمَال أبدًا، في حين أن عمله بطبيعته الإنسانية يتناول الخير والشر جميعًا، ثم لا يكون إلَّا عملًا إنسانيًّا على نقص واضطراب والتواء.

– وقد لا يستطيع المؤمن أن يأتي الخير في بعض أحواله، ولكنه يستطيع دائمًا أن ينويه ويرغب فيه ويعزم عليه، ليحقق ضميره في

(١) «عيون الروضتين» لأبي شامة (٢/ ٣٠٩- ٣١١).

كل ما يَهُمّ به، ويحصر أفكاره في قانون نيّته المؤمنة. وهذا هو الأساس في علم الأخلاق لا أساس من دونه.

- والنية من بعد هي حارس العمل؛ فكل إنسان يستطيع أن يذْعِن وأن يأبى، ومِن ثم تكون هذه النيّة رِدْئًا ومدافعة من ناحية، واستجابة ومطاوعة من الناحية الأخرى، فهي على الحقيقة متى صلحت كانت استقلالًا تامًّا للإرادة، وكانت مع ذلك ضبطًا لهذه الإرادة على حال واحدة هي التي ينتظم بها قانون المبدإ السامي.

- ثم إنه لا ضابط لصحة العمل واستقامته إلَّا النية الصحيحة المستقيمة؛ فالتزوير والتلبيس كلاهما سهل ميسور في الأعمَال، ولكنهمَا مستحيلان في النية إذا خلصت.

- وهي كذلك ضابط للفضائل توجّه القلوب على اختلافها وتفاوتها اتجاهًا واحدًا لا يختلف، فيكون طريق ما بين الإنسان والإنسان، من ناحية الطريق ما بين الإنسان وبين الله.

- وأشواق الروح بطبيعتها لا تنتهي، فيعرضها الجسم بجعل حاجاته غير منتهية؛ يحاول أن يطمس بهذه على تلك، وأن يغلّب الحيوانية على الروحانية، فإذا كانت النية مستيقظة كفّتْه وأماتت أكثر نزعاته، ووضعت لكل حاجة حدًّا ونهاية، وبذلك ترجع النية إلى أن تكون قوة في النفس يخرج بها الإنسان عن كثير مما يحدّه من جسمه، ليخرج بذلك عن كثير مما يحده من معاني الأرض.

- وهي بعد هذا كله تحمل الإنسان أن ينظر إلى واجبه كأنه رقيب حي في قلبه، لا يُرائيه ولا يجامله، ولا يُخدَع من تأويل، ولا يُعَزّ بفلسفة ولا تزيين، ولا يُسكته ما تُسوِّل النفس، ولا يزال دائمًا يقول للإنسان في قلبه: إن أكبر الخطأ أن تُنظِّم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك.
- وجملة القول في معاني النية أنها قوة تجعل باطن الجسم متساوقًا مع ظاهره، فتتعاون الغرائز المختلفة في النفس تعاونًا سهلًا طبيعيًّا مطَّردًا، كمَا تتعاون أعضاء الجسم على اختلافها في اطرادٍ وسهولة وطبيعة»[١].

النية:

□ قال الرافعي: «أول النفس النية العاملة لآخرتها، وآخر النفس ما تؤدي إليه أعمال هذه النية؛ فليس في إنسان الدنيا إلَّا إنسان العالم الآخر؛ وبهذا يقدَّر صمته وكلامه، وحركته وسكونه، وما يأتي وما يَدَع، وما يحب وما يكره، إذ كل شيء منه على ذلك الاعتبار إنما هو صورة الحقيقة العاملة فيه»[٢].

□ قال المناوي في «نية المرء خير من عمله»: «لأن تخليد الله العبد في الجنة ليس بعمله وإنمَا هو لنيّته؛ لأنه لو كان بعمله كان خلوده فيها بقدر مدة عمله أو أضعافه لكنه جازاه بنيَّته؛ لأنه لو كان ناويًا أن يطيع الله

---

(١) «وحي القلم» للرافعي.

(٢) «وحي القلم» للرافعي.

أبدًا فلمَّا اخترمته منيته جوزي بنيته، وكذا الكافر؛ لأنه لو جُوزي بعمله لم يستحق التخليد في النار إلَّا بقدر مدة كفره؛ لأنه نوى الإقامة على كفره أبدًا لو بقي فجوزي بنيَّته، ذكره بعضهم».

النيّة في كل شيءٍ:

□ قال الثوري لعلي بن الحسن: «اعمل بنيّة، وكُلْ بنيّة واشرب بنيّة».

□ وعن ابن المبارك سألت الثوري عن الرجل يصلي أي شيء ينوي بصلاته قال: «ينوي أن يناجي ربه».

□ وعن مكي بن إبراهيم قال: «دخلت على سفيان بن سعيد يومًا وبين يديه رغيف وكفّ زبيب -أو حفنة- فقال لي: ادن يا مكيّ، قلت: يا أبا عبد الله دخلت إليك غير مرة وأنت تأكل فلم تَدْعُني قبلها، قال: اليوم حضرتني النيّة»[١].

□ وعن عمر بن ذر قال: «ربمَا قيل لإبراهيم التيمي: تكلم! فيقول: ما تحضرني نيّة»[٢].

□ وقالت أخت داود الطائي له: «لو انتقلت من الشمس إلى الظل! فقال لها: هذي خطى لا أدري كيف تُحسب».

أقوال في النيّة:

□ قال سفيان الثوري: «عليك بتقوى الله ولسان صادق ونيّة خالصة، وأعمَال شتى صالحة، ليس فيها غش ولا خدعة، فإن الله يراك وإن لم

(١) «تهذيب حلية الأولياء» (٢/ ٤٠٢، ٤٠٣).
(٢) «تهذيب الحلية» (٢/ ٣٨٦- ٣٨٧).

تكن تراه، وهو معك أينمَا كنت، لا يسقط عليه شيء من أمرك، ولا تخدع الله فيخدعك، فإنه من يخادع الله يخدعه، ويخلع عنه الإيمان ونفسه لا تشعر.. وأحسن سريرتك يُحسِنِ الله علانيتك، وأصلح فيمَا بينك وبين الله يصلح الله فيما بينك وبين الناس»(١).

ومن الناس من تكون نيته وهمته أجلّ من الدنيا وما عليها، وآخر نيته وهمته مِن أخس نيّة وهمّة، فالنيّة تبلغ بصاحبها في الخير والشر ما لا يبلغه عمله، فأين نيّة من طلب العلم وعلّمه ليصلي الله عليه وملائكته وتستغفر له دواب البر وحيتان البحر إلى نيّة من طلبه لمأكل أو وظيفة كتدريس، وسبحان الله كم بين من يُريد بعلمه وجه الله والنظر إليه وسمَاع كلامه وتسليمه عليه في جنة عدن وبين من يطلب حظًّا خسيسًا كتدريس أو غيره من العرض الفاني»(٢).

ليهنك أبا سليمان النيَّة والحظوة:

□ أمر الصديق خالد بن الوليد بالتوجُّهِ لقتال الروم في الشام، وأثنى على خالد ثناءً عَطِرًا، فقال: «إنه لم يُشج الجموع من الناس – بعون الله- شجاك، ولم ينزع الشجيُّ من الناس نَزْعك، فليهنك أبا سليمَان النيّة والحظوة، فأتمِم يُتمم الله لك، ولا يدخلنَّك عُجْبٌ فتخسر وتخذل، وإياك أن تُدِلَّ بعمل، فإن الله له المَنُّ، وهو وليُّ الجزاء»(٣).

□ وفي يوم اليرموك وقف معاذ بن جبل ﵁ وقال للناس مثنيًا على

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «فيض القدير» (٦/ ٢٩٢).

(٣) «تاريخ الطبري» (٣/ ٣٨٤).

خالد ﷺ: «أما والله – إن أطعتموه، لتطيعُنَّ مبارك الأمر، ميمون النقيبة، عظيم الغَناء، حسن الحسبة والنيّة».

وقال أيضًا عن خالد: «أما إني لأرجو أن الله قد أعطاه بصيرة على جهاد المشركين وشدّته عليهم وجهاده إياهم مع حسن بصيرته وحسن نيته وإعزاز دينه أحسن الثواب، وأن يكون من أفضلنا بذلك عملًا»[1].

(١) «البداية والنهاية» (٩/ ٧٩).

علو الهمة
في
الحِفاظ على اللّسان العربي

علوُّ الهمَّة في الحِفاظ على اللِّسان العربي

وإنما بدأنا بهذا الفصل قبلَ فصل «علو الهمة في طلب العلم»، لأن معرفة اللسان العربي تعدُّ مفتاحًا مهمًّا لدراسة العلوم الشرعي، وبدونها يتعثَّر طالبُ العلم كثيرًا، ويخسرُ خيرًا وفيرًا.

فنقول ـ وباللّه التوفيق ـ:

إن الثباتَ علَى اللسان العربي هو واحدٌ من صور الاعتزاز بدين الإسلام وشريعةِ ذي الجلال والإكرام، لأن التمسكَ به ـ لا سيَّما في مجالات الدعوة بكافةِ جوانبها المكتوبة والمسموعة ـ دليلٌ على تعظيم الشرع وصاحبه، بل على محبته وإجلاله.

وعلى العكس تمامًا، نرى الذين أهملوا لسانهم العربيَّ الشريف من أكثر الناس بعدًا عن دين اللّه، وصدودًا عن نهجه، وتهاونًا بشرعه.

□ قال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد كان العارفون باللغة العربية حينَ بَعَثَ اللّهُ مُحمَّدًا، إنَّما يوجَدون في جزيرة العرب وما والاها ـ كأرضِ الحجاز واليمن وبعض الشام والعراق ـ، ثُم انتشر، فصار أكثرُ الساكنين في وسط المعمورة العربيَّة ـ حتَّى اليهود والنصارى الموجودون في وسط الأرض ـ يتكلمون بالعربية ـ كما يتكلمُ بِها أكثر المسلمين ـ، بل كثيرٌ من اليهود والنصارى يتكلمون بالعربية أجودَ ممَّا يتكلمُ با كثيرٌ من المسلمين.

وقد انتشرت هذه اللغةُ أكثرَ ممَّا انتشرت سائرُ اللغات، حتَّى إنَّ الكتب القديمةَ ـ مِن كُتب أهل الكتاب ومِن كُتب الفُرس والهند واليونان والقِبطِ وغيرِهم ـ عُرِّبَتْ بهذه اللغة» انتهى [(١)].

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٢/ ٥٧).

والشاهدُ هنا أن المسلمين ـ والعرب ـ نشروا هذه اللغة اعتزازًا بدينهم وعربيتهم، ولم يعتزُّوا بتراثٍ آخر سوى ما خلَّفه لهم أسلافُهم العِظام، ومن ثم سارت هذه اللغة مسيرَ الشمس في الأقطار، بل امتدت إلى كلِّ ما امتدَّ إليه الليلُ والنهار.

□ وقال العلَّامة ابنُ خُلدون رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلمْ أن لغات أهل الأمصار إنما تكونُ بلسان الأمة ـ أو الجيل ـ الغالِبين عليها أو المختطِّين لها، ولذلك كانت لغاتُ الأمصار الإسلامية كلُّها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربيةً، وإن كان اللسانُ العربيُّ المُـضَرِيُّ قد فسدت مَلَكتُه وتغيَّر إعرابُه.

والسبب في ذلك ما وقع للدولـة الإسلاميـة من الغَلَب على الأمم، والدينُ والمِلَّةُ صورةٌ للوجود وللمُلك، وكلُّها موادُّ له، والصورةُ مقدَّمةٌ على المادة، والدينُ إنما يُستفاد من الشريعة ـ وهي بلسان العرب ـ ولأن النبيَّ ﷺ عربيٌّ، فوجب هَجرُ ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها.

واعتبر ذلك في نَهْي عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رَطانـة الأعاجم، وقال: «إنها خِبٌّ» ـ أي مكرٌ وخديعة ـ، فلمـا هَجـر الديـنُ اللغاتِ الأعجمية، وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربيًّا، هُجرت كلُّها في جميع ممالكها، لأن الناس تبَعٌ للسلطان وعلى دينه، فصار استعمالُ اللسان العربي من شعائرِ الإسلام وطاعةِ العرب.

وهَجَر الأُممُ لغاتِهم وألسنتَهم في جميع الأمصار والممـالك، وصار اللسانُ العربيُّ لسانَهم، حتى رَسَخ ذلك لغةً في جميع أمصارهم ومُدُنهم، وصارت الألسنةُ الأعجميةُ دخيلةً فيها وغريبة.

ثم فَسَد اللسانُ العربي بمخالطتها في بعض أحكامـه، وتغيَّـر أواخـره

ـ وإن كان بقي في الدلالات على أصله ـ، وسُمِّي لسانًا حضريًا في جميع أمصار الإسلام.

وأيضًا، فأكثرُ أهل الأمصار في المِلَّة ـ لهذا العهد ـ من أعقاب العرب، المالكين لها، الهالكين في ترفها، بما كثَّروا العجمَ الذين كانوا بها، ووَرِثوا أرضهم وديارَهم ـ واللغاتُ متوارَثة ـ، فبقيت لغةُ الأعقاب على حيالِ لغة الآباء ـ وإن فسدت أحكامُها بمخالطة الأعاجم شيئًا فشيئًا، وسُمِّيت لغتهم «حضرية» ـ منسوبةً إلى أهل الحواضر والأمصار ـ، بخلاف «لغة البدْو» من العرب، فإنها كانت أعرقَ في العروبية.

ولمَّا تملَّك العجمُ من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق، وزناتة والبربر بالمغرب، وصار لهم مُلكٌ واستيلاءٌ على جميع الممالك الإسلامية، فَسَد اللسانُ العربيُّ لذلك، وكاد يذهبُ، لولا ما حَفِظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة ـ اللذين بهما حِفظُ الدين ـ، وصار ذلك مرجِّحًا لبقاء اللغة المُضريَّة من الشِّعر والكلام ـ إلا قليلًا بالأمصار ـ عربيةً.

فلما ملك التترُ والمغول بالمشرق ـ ولم يكونوا على دين الإسلام ـ، ذهب ذلك المرجِّح، وفسدت اللغةُ العربية على الإطلاق، ولم يَبْقَ لها رسمٌ في الممالك الإسلامية، بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسِّند وما وراء النهر، وبلاد الشمال، وبلاد الروم، وذهبت أساليبُ اللغة العربية من الشعر والكلام، إلا قليلًا يقعُ تعليمُه صناعيًّا بالقوانين المتدارَسة من علوم العرب، وحِفظِ كلامهم لمن يسَّره اللّهُ تعالى لذلك.

وربما بَقِيت اللغةُ العربية المُضريَّةُ بمصر والشام والأندلس والمغرب، لبقاء الدينِ طالبًا لها، فانحفظت بعضَ الشيء، وأما في ممالك العراق وما

وراءه»، فلم يَبْقَ له أثرٌ ولا عين، حتى إن كتبَ العلوم صارت تُكتب باللسان العجمي، وكذا تدريسُه في المجالس، واللَّهُ أعلم بالصواب» اهـ[(١)].

إنَّ اللَّهَ تعالى لمَّا جعل رسالةَ الإسلام آخِرَ عِناقٍ بين السَّماءِ والأرض، واختار العربَ ـ دون سائرِ البشر ـ ليُحَمِّلهُم هـذه الأمانـةَ، لم يكن ذلك الاختيارُ عبثًا؛ فالربُّ ـ الحكيمُ العليمُ ـ يَعلمُ أينَ يضعُ رسالتَه.

والعربُ أُمَّةٌ فصيحةٌ بليغةٌ، ولسانُها العربيُّ أوسعُ وأشملُ وأجملُ وأفصحُ الألسنة؛ وإذا أنعمَ اللَّهُ تعالى على الواحدِ منهم بالفصاحةِ في المنطق، وسرعةِ البديهة، وحُسن إلقاءِ الكلام وإيضاحِه، فإنَّك حينَها تسمعُ سِحرًا يَخلِبُ الألباب، ويُثيرُ المشاعرَ والإعجاب.

وهذه اللغةُ الشريفةُ لا يَعرِفُ جمالها وحلاوةَ منطقِها وعُذوبةَ رَونَقِها إلَّا مَن تذوَّقها وأقبل عليها بحُبٍّ وشوق؛ أمَّا مَن نظر إليها على أنَّها مشاكلُ معقَّدة، وقوانينُ مُصفَّدة[(٢)]، فإنه يَصعُبُ عليه أنْ يتعرَّفَ جمالَها وبَهاءَها، وبالتالي سينفِرُ منها ومِن تعلُّمها.

ولكنْ سبحانَ مَن جعل لكلِّ شيءٍ سببًا! فإنَّه تعالى لمَّا أراد أن يُشعِرَ العباد بحلاوةِ هذه اللغةِ البديعة، أنزل عليهم كتابَه الخاتَمَ الجليلَ بها، الذي مَن سَمِعه يُتلـى من قارئٍ متمكِّنٍ ذي صوتٍ عذبٍ جميل، فلا شكَّ أنه سينجذبُ بقلبه وفِكرِه ورُوحِـه إلى هـذا الكتـاب العظيم، وإلى مُنْزِلِه الكريم، وإلى اللِّسان الذي يُتلـى به على مرِّ الأيامِ والسِّنين[(٣)].

---

(١) «مقدمة ابن خلدون» (١/ ٢١٤).

(٢) الصَّفْد: الشدُّ والإغلاق. والمقصود: صعبةُ الحَلِّ.

(٣) وقد قال ﷺ: «زَيِّنُوا القُـرآنَ بأصواتكم، فإنَّ الصَّـوتَ الحَسَـنَ يَزيدُ القرآنَ حُسنًا».
صحيح: رواه الدارمي (٣٥٠١) والحاكم (١/ ٧٦٨) والبيهقي في «الشعب» =

□ قال الإمامُ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد اختار اللّهُ تعالى أن يكون اللسانُ العربيُّ مظهرًا لوحيه، ومستودعًا لمراده، وأن يكون العربُ هم المتلقِّين أولًا لشرعه وإبلاغ مرادِه، لحكمةٍ علِمها، منها كونُ لسانهم أفصحَ الألسُنِ وأسهلَها انتشارًا، وأكثرَها تحمُّلًا للمعاني، مع إيجازِ لفظه» انتهى(١).

□ وقال الخطيبُ البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَحتاجُ الناظرُ في عِلم القرآن إلى: حِفظ الآثار، ودَرسِ النحو وعِلم العربيةِ واللغة ـ إذ كان اللّهُ تعالى إنَّما أنزله بلسان العرب ـ ، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف]» انتهى(٢).

□ وقال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف]، وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصِّلت: ٤٤]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣].

فهذا يتضمَّن إنعامَ اللّه على عباده، لأنَّ اللسانَ العربيَّ أكملُ الألسِنةِ وأحسنُها بيانًا للمعاني، فنُزُولُ الكتاب به أعظمُ نعمةٍ على الخلقِ من نزوله بغيرِه، وهو إنَّما خُوطب به ـ أولًا ـ العربُ ليفهموه، ثُم مَن يَعلمُ لُغتَهم يَفهَمُه كما فهموه، ثُم مَن لم يعلمْ لُغتَهم، ترجمه له مَن عَرَف لغتَهم، وكان إقامةُ الحُجَّةِ به على العرب ـ أولًا ـ ، والإنعامُ به عليهم ـ

(٢/ ٣٨٦) بلفظ: «حسِّنوا القرآن..»، وصحَّحه الشيخ حسين الداراني عند الدارمي، والعلَّامة الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٤٥) و(٣٥٨١).

(١) «أسباب الخطأ في التفسير» للشيخ طاهر بن محمود بن محمد (٢/ ٩٨٢).

(٢) «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٩٨).

أولًا ـ لمعرفتهم بمعانيه قبل أن يعرفه غيرُهم» انتهى(١).

□ وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «واللّهُ تعالى أنزل كتابه بلسان العرب وهو ـ لابدَّ ـ أن يُنْزِله بلسانٍ من الألسنة، وأكملُ الألسِنةِ لسانُ العرب، وأكملُ البلاغةِ بلاغةُ القرآن باتِّفاق أهل العلم بذلك» انتهى(٢).

□ وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ اللّهَ تعالى خصَّ العرب ولسانَهم بأحكامٍ تَميَّزوا بها»(٣).

□ وقال الإمامُ ابنُ الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «حضر عندي في بعض الأيام رجلٌ من اليهود ـ وكنتُ إذ ذاك بالديار المصرية ـ، وكان لليهود في هذا الرجل اعتقادٌ ـ لمكان علمِه في دينهم وغيره ـ، وكان لَعَمْري كذلك، فجرى ذِكرُ اللغات، وأن اللغة العربية هي سيدةُ اللغات، وأنها أشرفُهنَّ مكانًا، وأحسنُهنَّ وضعًا، فقال ذلك الرجل: كيف لا تكون كذلك وقد جاءت آخِرًا، فنفت القبيحَ من اللغات قبلها، وأخذت الحَسَن!! ثم إن واضعَها تصرَّف في جميع اللغات السالفة، فاختَصر ما اختَصر، وخفَّف ما خفَّف، فمن ذلك اسم «الجَمَل»، فإنه عندنا في اللسان العبراني «كوميل» على وزن «فوعيل»، فجاء واضعُ اللغة العربية، وحذف منها الثقيلَ المستبشَع، وقال «جمل»، فصار خفيفًا حسنا، وكذلك فَعَل في كذا وكذا ـ وذكر أشياءَ كثيرةً ـ.

ولقد صدق في الذي ذكره، وهو كلامُ عالِمٍ به» انتهى(٤).

---

(١) «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» (٢/ ٦٩ ـ ٧٠).
(٢) «الرد على البكري» (٢/ ٦١٦).
(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٥٤).
(٤) «المثل السائر» (١/ ١٩٣).

□ وقال الحافظ السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتُرجمت التوارةُ والزَّبور ـ وسائر كتب اللّه ﷻ ـ بالعربية، لأنَّ غيرَ العرب لم تتَّسع في المجاز اتساعَ العرب»[١].

□ وقال الإمام القلقشندي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عن فضل «العربية» ـ: «لا خفاءَ أنها أمتنُ اللغات، وأوضحُها بيانًا، وأذلقُها لسانًا، وأمدُّها رُواقًا، وأعذبُها مذاقًا، ومن ثَم اختارها اللّهُ تعالى لأشرف رُسُله، وخاتمِ أنبيائه، وخِيرتِه من خلقه، وصفوته من بريَّته، وجعلها لغةَ أهلِ سمائه وسكان جنَّته[٢]، وأنزل بها كتابه المبين الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

قال في «صناعة الكتاب»: وقد انقادت اللغاتُ كلُّها للغة العرب، فأقبلت الأممُ إليها يتعلمونها» انتهى[٣].

□ وقال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكما أن الذي أُنزل عليه القرآنُ نبيُّ العرب، فالقرآنُ نبيُّ العربية، بحيث لا تَجِدُ من فضل لرسول اللّه ﷺ على الأنام، إلَّا وجدتَ فضلًا في معناه لكلامِ اللّه على

---

(١) «المُزهِر في علوم اللغة» (١/ ٢٥٤).

(٢) ورد في هذا حديث موضوع: رواه الحاكم (٤/ ٨٧) ـ وصحَّحه ـ، والطبراني (١١/ ١٨٥) والبيهقي في «الشعب» (١٤٣٣) وتمَّام في «الفوائد» (١٣٤)، وأورده الشوكاني في «الفوائد المَجموعة من الأحاديث الموضوعة» (١٦٧)، ولكن جملة: «حُبُّ العرب..»، ذَكَر العجلوني في «كشف الخفا» (١/ ٥٤) أن لها شواهدَ كثيرةً يصيرُ بها الحديث حسنًا، ولعلَّ هذا هو السبب في أنْ حسَّن الحديث الحافظُ السِّلفي ـ كما في «الاقتضاء» (١/ ٤٤٣) ـ، واللّهُ أعلم.. وقد حكم على الحديث العلامةُ الألباني في «الضعيفة» (١٦٠) و«ضعيف الجامع» (١٧٣) بأنه موضوع.

(٣) «صبح الأعشى» (١/ ١٨٣).

الكلام» انتهى[١].

□ ولله در الإمام الصرصري الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال:

اللَّـــهُ أكبـــرُ إنَّ دِيـــنَ محمـــدٍ وكتابَـــه أقـــوى وأقـــومُ قِـــيلَا

لا تُـــذكَرُ الكُتْـــبُ الـــسَّوالفُ طَلَعَ الصباحُ فأطْفِئِ القِنديلَا[٢]

ولمَّا كان اللسانُ العربي بهذه المكانةِ من الشرع المعظَّم، كان لابدَّ لكل مسلم ـ بوجهٍ عام ـ، وكلِّ طالب علم ـ بوجهٍ خاص ـ أن يهتمَّ به اهتمامًا يفوقُ كلَّ اهتمام لأهلِ اللغات الأخرى بألسنتهم.

ويزدادُ الأمرُ تأكيدًا على دعاة الإسلام، الذين يصعَدون على المنابر، ويؤلِّفون الكتب والرسائل، ذلك لأنه لابدَّ للدعوة من مؤهلات، إذا أهملها الداعيةُ ضعُفت ثمراتُ دعوته، ولا ريب أن إتقان اللسانَ العربي على رأس الأسس التي لابد للداعية أن يحكمها.

□ قال قَتادةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن حَدَّث قَبل حِينه، افتُضِح في حينه»[٣].

□ وقال سَهلُ بن مُحمدٍ الصُّعلوكيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن تصدَّر قبل أوانه، فقد تَصدَّى لهوانه[٤]»[٥].

وفي هذا الكلام النفيس بيانٌ هام أنه لابد أن تتأهَّل قبل أن تتصدر، وهذا المبدأُ أصله موجودٌ في كلام اللّهِ تعالى.

---

(١) «تاريخ آداب العرب» (١/ ٨٣).
(٢) «الموسوعة الشعرية» (٤٥) لبدر بن عبدالله بن عبدالكريم الناصر.
(٣) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (١/ ٥٠٧).
(٤) أي: جعل نفسه عُرضةً للذلِّ والهَوان.
(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٢٠٨).

قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦].

واستمعوا معي لهذه الكلمات:

• عن جعفرِ بن عقبةَ الحَنْظلي قال: «قيل لعبدِالمَلِك بن مروان: أسرَعَ إليك الشَّيب! فقال: شيَّبني كثرةُ ارتقاءِ المنبر مَخافةَ اللحن»[١].

• وفي ترجمة أحمدَ بن إبراهيم بن تزمرد: «كان عاقلًا، يفهمُ العربية ولا يتكلم بها، يقول: أخافُ أن أُخْطئ، والخطأُ من الرئيس قبيح»[٢].

□ ولله در القائل:

وقد يَكشِفُ القولُ عِيَّ الفتى … فيبدو، ويستُرُه ما سَكت[٣]

وقد كثُرت كلماتُ العلماء عن أهميّة اللسان العربيّ في حياةِ طُلَّاب العلم ـ على الأخصِّ ـ ، فضلًا عمّا حَوَتْه لنا كتبُ التاريخ والأخبار والتراجم من جهودهم العظيمة في سبيل تعلم العربية وإتقانها.

ولْنقطف بعضَ الأزهار من بساتين كلامهم وأخبارهم، لنعلمَ مقدارَ الخطورةِ الناجمة عن إهمالِ اللسان العربيّ على طالب العلم ودعوته، وبعد ذلك نأخذ نُتفًا من أخبارهم.

□ قال الإمامُ الأصمعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ أَخْوَفَ ما أخافُ على طالب العِلم ـ إذا لم يعرفِ النَّحوَ ـ أن يدخلَ فيما قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَن كَذَب عليَّ مُتعمِّدًا فلْيَتبوَّأْ مَقعدَه من النار**»[٤]؛ لأنه ﷺ لم يكن لحّانًا، ولم يَلحَنْ في

(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٣٧/ ١٣٨).

(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ٢٧٧).

(٣) «الأمثال والحكم» للإمام الماوردي (٨٨ ـ ط: دار الوطن).

(٤) صحيح: رواه أحمد (١/ ٧٨) والبخاري (١١٠) ومسلم (٣) وأبو داود (٣٦٥١) =

حديثِه، فمهما رَوَيْتَ عنه ولحَنْتَ، فقد كَذَبْتَ عليه[(١)]»[(٢)].

□ وهذا ما قَصده الإمامُ أبو يوسف رَحِمَهُ اللهُ حين قال: «هَلك مَن كان لا يعرفُ العربية».

□ وقال عَفَّانُ رَحِمَهُ اللهُ: «سَمعتُ حمّادَ بنَ سَلمةَ يقول لإنسانٍ: إنْ لحنتَ في حديثي فقد كذبتَ عليّ، فإني لا أَلْحَنُ»[(٣)].

□ وقال وكيعُ بنُ الجَرَّاح رَحِمَهُ اللهُ: «أتيتُ الأعمشَ أسْمَعُ منه الحديثَ، وكنتُ ربَّما لحَنْتُ، فقال لي: أبا سفيان، تركتَ ما هو أولى بك من الحديث[(٤)]. فقلتُ: يا أبا محُمَّدٍ، وأيُّ شيءٍ هو أولى بي من الحديث؟ فقال: النحو. فأملى عليّ الأعمشُ النحوَ، ثُم أملى عليّ الحديثَ»[(٥)].

□ وقال الأوزاعيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أعرِبُوا الحديثَ، فإنَّ القومَ كانوا عُرْبًا[(٦)]»[(٧)].

والترمذي (٢٢٥٧) وابن ماجة (٣٠).

(١) ومُتعمِّدُ الكـذب عليه ﷺ، هل يَكفـرُ بذلك؟. فيه خلاف بين العلماء. انظر: «شرح صحيح مسلم» (١/ ١٠٤ ـ ط: دار الحديث).

(٢) «تهذيب الكمال» للإمام المِزِّي (١٨/ ٣٨٨)، و«تاريخ دمشق» للحـافظ ابـن عساكر (٣٧/ ٨٠)، و«روضة العقلاء» للحافظ ابن حبان (٣٦٤).

(٣) «الجامع» للخطيب (٢/ ١٩).

(٤) لم يقصد الأعمشُ بالطبع أن النحوَ أفضل من الحديث النبوي؛ لأن الأول وسيلة والثاني غاية، لكنه قَصَد أنه مِفتاحُ التفقه في الحديث.

(٥) «الجامع» للخطيب (٢/ ١٢)، و«فضل العلم وآداب طلبته»، للشيخ محُمد بن سعيد ابن رسلان (٣٠٠).

(٦) عُرْبًا ـ بضم العين وتسكين الراء ـ ، أي: أهل إعراب لِما يقولون.

(٧) «جامع بيان العلم»، للإمام ابن عبدالبر (١/ ٣٣٩).

□ وقال أيضًا: «لا بأسَ بإصلاح اللحن في الحديثِ[(١)]»[(٢)].

□ وقال أبو زَيدٍ النَّحْويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان الذي حَدَاني[(٣)] على طلب الأدب والنحوِ أني دخلتُ على جعفرِ بن سليمانَ، فقال: ادْنُهْ[(٤)]. فقلت: أنا دَنيٌّ! فقال: لا تقلْ «أنا دنيٌّ»، ولكن قُلْ: «أنا دانٍ»[(٥)]»[(٦)].

□ وقال أبو المُوَفَّق رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنتُ عند أبي شَيبةَ، وعنده رَقبةُ[(٧)] ـ وكان[(٨)] يلحَنُ لحنًا شديدًا ـ ، فقال رقبةُ: يا أبا شَيبة، لو كان لحنُك من الذنوب لكان من الكبائر»[(٩)].

□ وقال بعضُ السلف: «العلومُ أربعة: الفقهُ للأديان، والطبُّ للأبدان، والنجوم للأزمان، والنحو للسان»[(١٠)].

---

(١) أي: إذا رأيت حديثًا في كتابٍ فيه خطأٌ نحويٌّ، فعليك بإصلاحه، وانظر اختلاف السَّلف في هذا الأمر في بداية الجزء الثاني من «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، للخطيب البغدادي.

(٢) «جامع بيان العلم» (١/ ٣٤٠).

(٣) حداني: دفعني.

(٤) ادنُهْ: اقترب. وأصلها «ادن»، ولكنَّ «الهاء» التي معها يُسميها العلماء «هاء السَّكت»، كالتي في قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وأصلها: «اقتَدِ».

(٥) لأن «دَنيّ» معناها «حقير»، كما قال الشاعر:

لا يكونُ العليُّ مِثل الدَّنيّ ... لا ولا ذُو الذكاء مِثل الغَبيِّ

(٦) «الجامع للخطيب» (٢/ ١٤).

(٧) اسم رجل.

(٨) أي: أبو شيبة.

(٩) «الجامع» للخطيب (٢/ ١٨).

(١٠) المستطرف (١/ ٣٨).

□ وقال إبراهيمُ الحَربيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَن تكلَّمَ في الفقه بغير لُغةٍ تكلَّمَ بلسانٍ قصير[(١)]»[(٢)].

□ وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ ـ وهو يتحدَّثُ عن أدب المُناقِش في العلم[(٣)] ـ: «ويجبُ عليه إصلاحُ مَنطِقِه، وتَجنُّبُ اللحن في كلامه، والإفصاحُ عن بيانه؛ فإنَّ ذلك عونٌ له في مناظرته، ألَا ترى إلى استعانة موسى بأخيه عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث يقول: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[(٤)] يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: ٣٤]! وقولُه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه]!»[(٥)].

ولمعرفةِ قَدرِ العلماء بالعربية ـ ولا سيَّما في قراءة كتب العلم ـ ، كانوا ينتقُون ممَّن يقرأُ على الطلبة مَن يُتقِنُ العربية، ويوصون بذلك:

□ قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ: «وينبغي أن يتخيَّرَ [الشيخُ] للقراءة أفصحَ الحاضِرين لسانًا، وأوضحَهم بيانًا، وأحسنَهم عبارةً، وأجودَهم أداءً:

قال الشافعيُّ: «جئتُ إلى مالكٍ ـ وقد حفظتُ «الموطَّأ» ـ ، فقلتُ له: إني أريد أن أقرأ عليك «الموطَّأ». فقال: اطلبْ إنسانًا يقرأُ لك، فقلتُ له: اسْمَعْ قراءتي، فإن لم تُعجِبْك أخذتَ إنسانًا يقرأُ لي، فقرأتُ عليه».

---

(١) أي: لم يستطع إيصال المقصود إيصالًا صحيحًا.

(٢) «الفقيه والمتفقه»، للخطيب البغدادي (٢/ ٤١ ـ ط: دار ابن الجوزي).

(٣) الجِدال أحيانًا يكون مرضيًّا ممدوحًا، وأحيانًا يكون مبغوضًا مرفوضًا. انظر: «أصول الجدل والمناظرة»، للشيخ حمَد العثمان.

(٤) الرِّدْء: العَون. أي: أرسِلْه معي مُعينًا.

(٥) «الفقيه والمتفقه» للخطيب (٢/ ٥٤ ـ ٥٦)، و«الجامع» له (٢/ ١٢).

وقال عبدُاللّه بنُ أحمدَ بن حنبل: «سَمعتُ أبي يقول: كان الشافعيُّ من أفصحِ الناس، قلتُ له: كان له سنٌّ؟ قال: لم يكن بالكبير، قلتُ له: إنَّ مُصعبًا الزُّبيْريَّ قال: هو أسنُّ مني بأربعٍ ـ أو خمس ـ سنين، قال: كذا كان لم يكن بالكبير. قال أبي: قال الشافعي: أنا قرأتُ على مالكٍ، فكان تعجبُه قراءتي.. قال أبي: لأنه كان فصيحًا»..»[(١)].

□ وقال النَّضرُ بنُ شُميل رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان هُشيمٌ لحّانًا، فكسوتُ لكم حديثَه كِسوةً حسنةً».. يعني الإعراب[(٢)].

□ وقال يَحيَى بنُ خالد: «ما رأيتُ رجلًا قطُّ إلَّا هِبتُه حتى يتكلم، فإن كان فصيحًا[(٣)] عَظُم في صدري، وإنْ قَصَّر سَقط من عيني»[(٤)].

□ وقال الحافظ ابنُ عبدالبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِن الواجب على مَن لا يَعرِفُ اللسانَ العربي ـ الذي نَزَل به القرآن وهو لُغةُ النَّبي ﷺ ـ أن يأخذَ مِن علم ذلك ما يَكتفي به ولا يَستغني عنه، حتى يعرفَ تصاريفَ القول وفَحواه وظاهِرَه ومعناه[(٥)]؛ **وذلك قريبٌ على مَن أَحبَّ عِلمَه وتَعَلَّمه، وهو عونٌ له على عِلم الدِّين** ـ الذي هو أرفعُ العلوم وأعلاها ـ ، به يُطاعُ اللّهُ ويُعبَدُ ويُشكَرُ ويُحمَد، فمَن عَلِم من القرآن ما به الحاجةُ إليه، وعَرَف من السُّنة ما يُعوِّلُ عليه، ووقف من مذاهب الفقهاء على ما نَزَعوا به وانتزعوه من

---

(١) «الجامع» للخطيب (١/ ٤٤٣).

(٢) «إتحاف السادة المتقين» (١/ ٦٦ ـ ط: دار الكتب العلمية).

(٣) الفصاحة: خلوصُ الكلام من التعقيد. ولا يكون الرجلُ فصيحًا إلا إذا كان نحويًّا. انظر: «المستطرف» للأُبشَيهي (١/ ٧٦).

(٤) «المستطرف» (١/ ٧٦).

(٥) فإنَّ كلام العرب له معانٍ متعدِّدةٌ، ولا يُمكنُ فَهمُها إلَّا لمن دَرَس لُغتَهم.

كتاب ربهم وسُنَّةِ نبيِّهم: حَصَل على علمِ الدِّيانة، وكان على أمَّةِ نبيِّه مؤتَمَنًا حقَّ الأمانة إذا أَبقى اللّهُ فيه[١] عِلمَه، ولم تَمِلْ به دنيا أو شهوةٌ[٢] أو هوًى يُردِيهِ[٣]؛ فهـذا عندنا العلـمُ الأعلى الـذي نَحظى بـه في الآخرة والأولى»[٤].

◻ وقد رُوي أن أبا عمرِو بنَ العلاء كان يقول: «العلمُ بالعربية هو الدينُ بعينه. فبلغ ذلك عبدَاللّه بنَ المبارك، فقال : صدق؛ لأنّي رأيتُ النصارى قد عبدوا المسيح لجهلهِم بذلك، قال اللّهُ تعالى: «أنا ولَّدتُك من مريم، وأنت نَبيِّي»، فحسِبوه يقول: «أنا وَلَدتُك، وأنت بُنيِّي» ـ فبتخفيف اللام وتقديم الباء، وتعويض الضمة بالفتحة ـ، فكفروا»[٥].

◻ وقال الزُّهري رَحِمَهُ اللهُ: «ما أَحْدثَ الناسُ مروءةً أحبُّ إليَّ من طلب النحو»[٦].

◻ وقال العلَّامة ابنُ عُثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «عليك أن تُعدِّل لِسانَك، وأنْ تُعدِّل بَنَانك[٧]، وألَّا تكتبَ إلَّا بالعربية، وألَّا تَنطِقَ إلَّا بالعربية»[٨].

◻ وقال العلَّامة بكر أبو زيد ـ مبينًا لونًا من جهلِ المُدَّعين للعلم ـ :

---

(١) في الكتاب «فيها»، ولعلَّ الصواب ما أثبتُّه.
(٢) في الكتاب «دنيا شهوته»، ولعلَّ الصواب ما أثبته.
(٣) يُردِيه: يُهلِكُه.
(٤) «جامع بيان العلم» (٢/ ٧٨٩).
(٥) «عناية العلماء باللغة العربية» (١٠ ـ ١١).
(٦) «العقد الفريد» (١/ ٢٤٨).
(٧) أي: أن تُحسِّنَ خَطَّك عند الكتابة. وانظر فصلًا نافعًا جدًّا حول هذا في «أدب الدنيا والدين»، للإمام الماوردي (٨٤: ٩٨).
(٨) «شرح حلية طالب العلم»، للعلَّامة ابن عثيمين (٢١٦ ـ ط: دار البصيرة).

«ومنه الانحلالُ اللُّغويُّ من كرائم لغة العرب[(١)] إلى لوثةِ العُجمة؛ فعلى أهلِ العلم والإيمان المَحافظةُ على هذا اللسان بالدَّعوة إليه[(٢)]، وكفِّ الدخيلِ عنه، والابتعادِ عن دَعَوات الشُّعوبية[(٣)]؛ ومِن آلامِهَا تنْزيلُ لُغةِ الجرائدِ الهزيلةِ في كتب العلم؛ وعليهم أن يبذلُوا الجهدَ في نَسجِ الكلام على سَنَن[(٤)] لغة العرب، فإنَّ المباني[(٥)] ذاتُ خِدمةٍ كبيرة للمعاني، فلابدَّ من انتقائها ورفضِ المُولدِ والهَجِين[(٦)]، وفي المشهور[(٧)]: «الألفاظُ قوالبُ المعاني»، و«الألفاظ خَدَمُ للمعاني»، و«المعاني مالكةٌ سياسةَ اللفظ».

وهذه الوجهةُ[(٨)] لن تتعاصى ـ بإذن اللّه تعالى ـ على مُبتغيها متى عَقَد العهدَ لموالاتها ونَبْذِ الدخيل عليها، وأقامَ سُوقَ الولاءِ والبَراء فيها؛ ولا يكونُ هذا إلَّا مِن نفوسٍ **تَحلَّت بالشَّرفِ وعُلوِّ الهمَّةِ وإباءِ الضَّيم[(٩)]، وعَمِلت في سبيلها احتسابًا وديانةً**».

ثُم بيَّن فضيلةُ الشيخ ـ سدَّده اللّهُ ـ أن لُغةَ العرب لا تتعاصى إلَّا على من هَجَرها وانخرط في العاميَّة ولغةِ الشوارع.

---

(١) أي: الانحراف عن اللسان العربي العزيز.
(٢) ومِن هنا لابدَّ للدعاة والمُعلِّمين أن يُذكِّروا الناس بقيمةِ العربية بين حينٍ وآخر.
(٣) الشُّعوبية: دعوة تحتقرُ العرب، وتقدم غيرهم عليهم.
(٤) السَّنَن ـ بفتح السين ـ: العادة والطريقة.
(٥) يقصد تركيب الألفاظ.
(٦) المُولَّد: الأجنبي المَحض. والهَجين: الملفَّق بيـن اللغات، بإخراج كلماتٍ فيها حروفٌ من هذه وحروفٌ من تلك.
(٧) أي: في الكلام الشهور على الألسنة.
(٨) أي: إصلاح اللسان العربي وطردِ ما سواه.
(٩) الضَّيم: الذل والتبعيَّة.

□ فقال ـ حفظه اللّهُ ـ : «أمَّا مَن كانت وسائلُ الإعلام سَماعًا وقِراءةً سَمِيْرَهُ وهِجِّيرَاهُ[١]، فاستعاض بالمَقهى عن المعهد، وبالجريدة عن الكتاب، وبالمناقشات الرياضيَّة عن المُذاكرات العلميَّة[٢]، فأنَّى له ذلك[٣]؟! ولْيَعلمْ ـ وإنْ كان في نفسه عظيمًا ـ أنه لِقًى منبوذٌ في العَراءِ بفعل يَمينه[٤]، قد ضُرب بينه وبين العلم بسورٍ له باب.

قال الشيخُ مُحَمَّدُ الخِضْر حُسين:

لُغــةٌ قــد عَقــدَ الــدِّينُ لها ... ذمَّــةً يَكلؤُهــا[٥] كُــلُّ البَـشَرْ
أولــم تُنــسَجْ على مِنــوالِها ... كَلِمُ التَّنْزيلِ في أرقـى سُـوَرْ!
يـا لقــومي لِوفــاءٍ إنَّ مَــن ... نَكـثَ العهـدَ أتـى إحـدَى الكُبَـرْ
فـأقِيموا الوَجـهَ في إحيائهــا ... وتلافُـوا عِقـدَ مــا كـان انْتَثَـرْ

وقال ابنُ فارسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان الناسُ قديمًا يَجتنبون اللحـنَ فيمـا يكتبونه أو يقرؤونه اجتنابَهم بعضَ الذنوب[٦]، فأمَّا الآن، فقد تَجوَّزوا؛ حتى إنَّ المُحدِّثَ يُحدِّثُ فيَلحَنُ، والفقيهَ يُؤلِّفُ فيَلحنُ، فإذا نُبِّهَا قالَا: «ما ندرِي ما

(١) السَّمِير: الصاحب. والهِجِّيرَى: العادة الدائمة.
(٢) يقصد فضيلة الشيخُ هؤلاء الفارغين الكسالى الذين لا نراهم إلا على المقاهي والأرصفة ليس لهم همٌّ إلا توافِهَ الأمور ومنكراتها.
(٣) أي: كيف سيصلُ إلى معرفة هذه اللغة الشريفة؟!!.
(٤) اللِّقى: الحقير الذي أُلقِيَ به. المَنبوذ: المطرود. بِفعل يَمينه: بما جَنَته يداه هو. ومعنى الجملة: أنه رَخَّص نفسَه وحقَّرها.
(٥) يكلؤها: يحفظها.
(٦) وهذا من أبدع الجمل.

الإعرابُ! وإنَّما نحن مُحدِّثون فقهاء»! فهما يُسَرَّان بما يُسَاءُ به اللبيبُ»(١).

□ وقال العلَّامة بكر أبو زيد أيضًا ـ موصيًا طالب العلم ـ : «ابتعِدْ عن اللحن في اللفظ والكَتْب(٢)، **فإنَّ عَدمَ اللحن جَلالةٌ، وصفاءُ ذَوقٍ، ووقوفٌ على مِلاحِ المعاني بسلامةِ المباني**»(٣).

وكلماتهم النيِّرة غير هذا كثيرة، وفي هذه التوجيهاتِ كفاية.

*** والآن لِنَعِشْ مع عبير أحباب العربية وعشَّاقها:**

ابن عباس رضي الله عنهما:

□ قال عمرو بن دينار رحمه الله: «ما رأيتُ مجلسًا أجمع لكل خيرٍ من مجلس ابن عباس: الحلال والحرام، والعربية، والأنساب، والشعر»(٤).

□ وقال أبو العالية الرياحي: «كان ابنُ عباسٍ يُعلِّمُنا الإعراب، لأن به يُجتنبُ اللحنُ»(٥).

زِرُّ بنُ حُبيش:

□ جاء في ترجمته رحمه الله: «كان من أعرب الناس، وكان ابنُ مسعود ـ وغيرُ واحدٍ ـ يسألونه عن العربية»(٦).

---

(١) «التعالم» (٨٤ : ٨٨) باختصار.

(٢) الكَتْب ـ بفتح الكاف وتسكين التاء ـ : الكتابة.

(٣) «حلية طالب العلم» (٢٠٠) ضمن «المجموعة العلمية».

(٤) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبدالبر (١/ ٢٨٥)، و«تاريخ آداب العرب» (١/ ٢٢).

(٥) «تاريخ دمشق» (١٨/ ١٧٦)

(٦) «الطبقات» لابن سعد (٦/ ١٠٥)، و«الإصابة» لابن حجر (٢/ ٦٣٣)، و«تهذيب الكمال» للمزي (٩/ ٣٣٧).

أبو العالية الرِّياحي:

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنتُ مَملوكًا أخدُمُ أهلي، فتعلَّمتُ القرآن والكتابةَ العربية»(١).

هذه همتُه وهو مملوك، فأين همتكم ـ أيها الأحرار ـ ؟!.

يحيى بن يَعْمَرَ الليثي:

□ جاء في ترجمته: «كان نَحْويًّا، صاحبَ علمٍ بالعربية والقرآن، ثُم أتى خُراسان، فنَزل مَرْوَ، ووليَ القضاء بها»(٢).

أبو الزناد:

□ وهو الإمام عبدالرَّحمن بن هُرمز ـ المشهور بـ«الأعرج» ـ ، جاء في ترجمته: «كان فصيحًا، بصيرًا بالعربية، عالمًا عاقلًا»(٣).

ابن طاووس:

□ عن مَعمَرٍ قال: «ما رأيتُ ابنَ فقيهٍ مثل ابن طاووس. فقيل له: ولا هشامَ بنَ عروة؟ فقال: حسبُك بهشام بن عروة(٤)، ولكنْ لم أَرَ مثل هذا(٥)، كان من أعلمِ الناس بالعربية، وأحسنهم خُلُقًا»(٦).

خلف بن هشام:

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أُشكِل عليَّ بابٌ من النحو، فأنفقتُ ثَمانين ألفَ دِرهمٍ

(١) «الطبقات» (٧/ ١١٣).
(٢) «الطبقات» (٧/ ٣٦٨)، و«تهذيب التهذيب» (١١/ ٢٦٦).
(٣) «تهذيب الكمال» (١٤/ ٤٨٢).
(٤) أي: لا ينكر فضلَه وجلالته.
(٥) أي: ابن طاووس.
(٦) «تهذيب الكمال» (١٥/ ١٣١)

حتى حَذِقتُه»(١).

القاسم بن معن:

وهو من أحفاد ابن مسعودٍ ﵁.

□ جاء في ترجمته: «أنه كان أروى الناسِ للحديث والشِّعر، ومن أعلمِهم بالعربية»(٢).

عمر بن عبدالعزيز:

□ قال ﵀: «إن لي نفسًا توَّاقة، لقد رأيتُني وأنا بالمدينة غلامٌ مع الغلمان، ثم تاقت نفسي إلى العلم ـ إلى العربية والشعر ـ ، فأصبتُ منه حاجتي وما كنتُ أريد، ثم تاقت إلى السلطان، فاستُعملتُ على المدينة، ثم تاقت نفسي ـ وأنا في السلطان ـ إلى اللبس والعيش الطيب، فما علمتُ مِن أحدٍ من أهل بيتي ولا غيرهم كانوا في مِثل ما كنت فيه، ثم تاقت نفسي إلى الآخرة والعملِ بالعدل، فأنا أرجو أن أنال ما تاقت نفسي إليه من أمر آخِرتي، فلستُ بالذي أُهلك آخرتي بدنياهم»(٣).

الإمام الشافعي:

□ قال هارون الرشيدُ للشافعي ـ رحمهما اللّه ـ : «كيف بصُرك بالعربية؟ قال: هي مبدؤُنا، وطباعُنا بها قُوِّمت، وألسنتُنا بها جرت، فصارت كالحياةِ لا تتمُّ إلَّا بالسلامة. وكذلك العربية لا تسلَمُ إلا لأهلها، ولقد وُلدتُ وما أعرفُ اللحن، فكنتُ كمن سَلِم من الداء ما سَلِم له

---

(١) «تُحفة العلماء بترتيب سير أعلام النبلاء» (٣٤).
(٢) «تهذيب الكمال» (٢٣/ ٤٥١).
(٣) «حلية الأولياء» (٢/ ٤١٩).

الدواء، وعاش بكامل الهناء. وبذلك شهد لي القرآن: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]»[١].

□ وقال الأصمعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما هِبتُ عالمًا قطُّ ما هِبتُ مالكًا حتى لحَنَ، فذَهبَتْ هيبتُه من قلبي، وذلك أنني سَمعتُه يقول: «مُطِرْنا مطرًا، وأيُّ مطرًا»[٢]؛ فقلتُ له في ذلك، فقال: كيف لو قد رأيتَ ربيعةَ بنَ عبدالرَّحمن[٣]؟ كُنَّا إذا قلنا له: «كيف أصبحتَ»، يقول: «بخيرًا بخيرًا»[٤]! وإذا مالكٌ قد جَعَل لنفسه قُدوةً في اللحْن!![٥].

ثُم رأيتُ مُحمَّدَ بنَ إدريسٍ الشافعيَّ ـ في وقت مالكٍ وبعد مالك ـ، فرأيتُ رجلًا فقيهًا عالمًا، حَسنَ المعرفة، بيِّنَ البيان[٦]، عَذْبَ اللسان، يَحتجُّ ويُعرِبُ، لا يَصلُحُ إلَّا لِصَدرِ سريرٍ أو ذُروةِ مِنبَرٍ[٧]، وما عَلِمتُ أنني أفدْتُه حرفًا ـ فضلًا عن غيره ـ، ولقد استفدتُ منه ما لو حَفِظ رجلٌ يسيرَه لكان عالمًا[٨]»[٩].

□ وعن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «ما أردتُ بها ـ يعني: العربيةَ والأخبار ـ

---

(١) «الحلية» (٤/ ٨٤).

(٢) لأن الصواب: «وأيَّ مطرٍ» ـ بفتح «أيَّ»، وجرِّ «مطرٍ» ـ.

(٣) شيخُ الإمام أبي حنيفة.

(٤) والصواب: «بخيرٍ بخيرٍ».

(٥) هذا الكلام تعجُّبٌ من الأصمعي من حال مالك، كيف يَحتجُّ بربيعةَ وخطئِه في الكلام ولا ينظر إلى أهل الفصاحة ويقتدي بهم.

(٦) أي: بليغًا فصيحًا.

(٧) أي: يستحقُّ التصدُّرَ للخَطابة والتدريس عن غيره.

(٨) هذا كلامُ الأصمعيِّ بَحر اللغة والنحو والبلاغة والأدب.

(٩) «الفقيه والمتفقه» للخطيب (٢/ ٥٤ ـ ٥٦)، و«الجامع» له (٢/ ١٢).

إلا الاستعانة على الفقه»[١].

□ وقال عبدُالملك بنُ هشام النحوي ـ وكان بصيرًا بالنحو والعربية ـ: «الشافعيُّ مِمَّن يؤخذُ عنه اللغة»[٢].

□ وقال الشافعي: «إعرابُ القرآن أحبُّ إليَّ من بعض حروفه»[٣].

□ وقال الإمام أبو منصور الأزهري ـ وهو من فحول العربية ـ: «ألفيتُ أبا عبدالله محمد بن إدريس الشافعي ـ أنار اللهُ برهانه، ولقاه رضوانه ـ، أثقبَهم بصيرة، وأبرعَهم بيانًا، وأغزرَهم عِلمًا، وأفصحَهم لسانًا، وأجزلَهم ألفاظًا، وأوسعَهم خاطرًا، فسمعت مبسوطَ كُتبِه، وأمهاتِ أصولِه من بعض مشايخنا، وأقبلتُ على دراستها دهرًا؛ إذ كانت ألفاظه عربيةً محضةً، ومن عُجمة المولَّدين مصونة»[٤].

عبدالله بن المبارك:

□ قال العباسُ بنُ مصعب: «جمع عبدُالله بنُ المبارك: الحديثَ، والفقهَ، والعربية، وأيامَ الناس، والشجاعةَ، والتجارةَ، والسخاءَ، والمَحبَّةَ عند الفِرَق»[٥].

---

(١) «السير» (١٠/ ٧٥).

(٢) «تاريخ دمشق» (٥١/ ٣٧٣).

(٣) «تاريخ دمشق» (٥١/ ٣٧٤).

(٤) «الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي الذي أودعه المزني في مختصره» (٣٣ ـ ٣٤)، نقلًا عن «عناية المسلمين باللغة العربية خدمة للقرآن الكريم» للشيخ سليمان ابن إبراهيم العايد (٧).

(٥) «تهذيب الكمال» (١٦/ ١٨)، و«تهذيب التهذيب» (٥/ ٣٣٦).

الأوزاعي:

□ قال أبو مُسهِر رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان الأوزاعيُّ لا يلحن»(١).

سفيان بن عيينة:

□ جاء في ترجمته: «كان أعلمَ الناس بالعربية في بلده»(٢).

يحيى بن إسحاق الحضرمي:

□ جاء في ترجمته: «كان ثقةً ـ وله أحاديث ـ، وكان صاحبَ قرآنٍ وعلمٍ بالعربية والنحو»(٣).

□ وقال أبو حاتم السجستاني عنه أيضًا: «هو أعلمُ من رأيت بالحروف والاختلاف في القرآن وعلله ومذاهبه، ومذاهب النحويين»(٤).

أحمد بن حنبل:

□ قال يَحيَى بنُ معين رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيتُ خيرًا من أحمدَ بن حنبل قط، ما افتخر علينا قطُّ بالعربية ولا ذَكَرها»(٥).

إبراهيم الحربي:

□ قال ثعلب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما فقدتُ إبراهيمَ الحربيَّ في مَجلسِ لُغةٍ ولا نَحوٍ من خمسين سَنةً»(٦).

---

(١) «تاريخ دمشق» (٣٥/ ١٨٩).
(٢) «تهذيب التهذيب» (٩/ ٢٦٦).
(٣) «الطبقات» (٧/ ٢٥٤)، و«تهذيب الكمال» (٣١/ ٢٠٠).
(٤) «معرفة القراء الكبار» (١/ ١٥٨).
(٥) «تهذيب الكمال» (١/ ٤٤٤).
(٦) «معجم الأدباء» (١/ ١١٨).

محمد بن أسلم الطُّوسي:

□ قال مُحَمَّد بنُ القاسم ـ خادم مُحَمَّد بن أسلم ـ: «سَمعتُ أبا يعقوبَ المَروَزِيَّ ببغداد، وقلتُ له: قد صحبتَ مُحَمَّدَ بنَ أسلمَ، وصحبتَ أحمدَ ابنَ حنبل، أيُّ الرجلين كان عندك أرجحَ أو أكثرَ أو أبصرَ بالدِّين؟ فقال: يا أبا عبدالله، لم تقولُ هذا؟ إذا ذكرتَ مُحَمَّدًا في أربعةِ أشياءَ فلا تَقرِنْ معه أحدًا: البَصَرُ بالدِّين، واتباعُ أثَرِ النَّبيِّ ﷺ في الدنيا، وفصاحةُ لسانه بالقرآن والنَّحو»[(١)].

داود الطائي:

□ قال أبو نعيم: «رأيتُ داودَ الطائي، وكان من أفصح الناس وأعلمهم بالعربية»[(٢)].

القاسم بن مَعْن:

□ ورد في ترجمته: «عالمُ زمانه، ثقة، كان أروى الناس للحديث والشعر، وأعلمَهم بالعربية والَفقه»[(٣)].

ابن محيصن:

□ جاء في ترجمته: «كان من أعلمِ الناس بالقرآن والعربية»[(٤)].

أبو عبيد -معمر بن المثنى-:

□ قال أحمدُ بنُ كاملٍ القاضي: «كان أبو عُبيدٍ فاضلًا في دينه وفي

(١) «السير» (١٢/ ١٩٦ـ ١٩٧)، و«الحلية» (٩/ ٢٣٨ـ ٢٣٩).

(٢) «تاريخ الإسلام» للذهبي (٣/ ٢١٤).

(٣) «تاريخ الإسلام» (٢/ ٣٢٢).

(٤) «تهذيب الكمال» (٢١/ ٤٣٠).

علمه، ربَّانيًّا، مفتيًا في أصنافٍ من علوم الإسلام ـ من القرآن، والفقه، والأخبار، والعربية ـ ، حسنَ الرواية، صحيحَ النقل، لا أعلمُ أحدًا من الناس طَعن عليه في شيءٍ من أمرِه ودينه»[(١)].

شيخ المفسرين ابن جرير الطبري:

□ جاء في ترجمته: «كان عالـمًا زاهدًا فاضلًا ورعًا، لمَّا ترعرع حفِظ القرآن، وكتب الحديثَ لطلب اَلعلم، واشتغل به عن سائر أمور الدنيا، وآثَر دارَ البقاء على دار الفناء، ورفض الأهلَ والأقرباء، وكتب فأكثر، وسافر فأبعد، وسَمَح له أبوه في أسفاره، وشكره على أفعاله، وكان أبوه طولَ حياته يَمدُّه بالشيء بعد الشيء إلى البلدان التي يقصِدُها، فيقتاتُ به، وكان يقول: أبطأتْ عني نفقةُ والدي، واضطُررتُ إلى أن فَتقتُ كُمَّيْ قميصي فبعتُهما وأنفقتُه إلى أن لحِقَتني.

وأحكم ما أمكنه إحكامه من علم القرآن والعربية والنحو ورواية شعر الجاهلية والإسلام، وأسند حديثَ النبيِّ ﷺ من طرقة، وما رُوي عن الصحابة والتابعين من علم الشريعة، وعلم اختلاف علماء الأمصار وعللهم، وكتب أصحاب الكلام وحُجَجهم، وكلام الفلاسفة وأصحاب الطبائع وغيرهم»[(٢)].

قاسم بن أصبغ:

□ جاء في ترجمته: «كان بصيرًا بالحديث والرجال، نبيلًا في العربية»[(٣)].

---

(١) «تهذيب الكمال» (٢٣/ ٣٥٩).

(٢) «تاريخ دمشق» (٥٢/ ٢٠٣).

(٣) «لسان الميزان» (٤/ ٤٥٨).

محمد بن عبدالرحمن بن عبيد القرشي:

□ قال عنه ابنُ عُيينة: «كان أعلمَ مَن عندنا بالعربية»(١).

أبو عمرو بن العلاء:

من أئمة القراء السبعة.

□ قال مَعْمَرُ بنُ المثنَّى: «كان أبو عمرو بنُ العلاء أعلمَ الناس بالقرآن والعربية والعرب وأيامِها والشِّعر وأيامِ الناس»(٢).

□ وقال أبو بكر بن مُجاهد: «كان أبو عمرٍو مقدَّمًا في عصره، عالمًا بالقراءة ووجوهها، وكان قدوةً في العلم باللغة، إمامَ الناس في العربيَة، وكان ـ مع علمه باللغة وفقهه في العربية ـ متمسِّكًا بالآثار، لا يكادُ يُخالفُ في اختياره ما جاء عن الأئمة قبله، متواضعًا في علمه»(٣).

عاصم بن أبي النجود:

□ في ترجمته: «كان عاصِمٌ نحويًّا فصيحًا»(٤).

حمزة بن حبيب الزيات:

من الأئمة السبعة أيضًا:

□ قال الإمام الذهبي: «كان إمامًا حُجَّةً، قيِّمًا بكتابِ اللّه تعالى، حافظًا للحديث، بصيرًا بالفرائض والعربية، عابدًا خاشعًا قانتًا للّه، ثخين الورع، عديمَ النظير»(٥).

---

(١) «تهذيب الكمال» (٢٥/ ٦١٤).
(٢) «تهذيب الكمال» (٣٤/ ١٢٤).
(٣) «تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٠٩).
(٤) «معرفة القراء الكبار» (١/ ٩١).
(٥) «معرفة القراء الكبار» (١/ ١١٢).

سيبويه:

الإمام العلم الكبير، عمرو بن عثمان بن قَنْبر - شيخ العربية -.

□ جاء في ترجمته: «طلب الفقه والحديث، ثُم طلب العربية، فبَرَع فيها، وساد أهل زمانه، وصنف فيها كتابه الكبير[(١)] الذي لم يُصنِّف أحدٌ بعدَه مِثله»[(٢)].

□ وقال المُبَرِّد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ سِيبويه كان يَستملي على حمّادِ بن سلمة، فقال له حمادٌ يومًا: قال رسولُ اللّه ﷺ: «**ما أحدٌ من أصحابي، إلَّا وقد أخذتُ عليه، ليس أبا الدرداء**»[(٣)]. فقال سيبويه: «أبو الدرداء»[(٤)]. فقال حمادٌ: لحنتَ يا سيبويه! فقال سيبويهِ: لا جَرَمَ، لأطلبنَّ عِلمًا لا تُلَحِّنُني فيه.. فطلب النحو، ولزِم الخليل»[(٥)].

□ وفي لفظ آخر: «كان سيبويه يختلف إلى حمّاد بن زيد يقرأُ عليه الحديث، فكان يلحن في قراءته، فيردُّ عليه حمادٌ، فأبرمه يومًا لحنُه، فقال له: كم تلحن! أما لك مروءة! فخجل ووجم، فلما قام من مجلسه انقطع إلى الخليل بن أحمد، فقرأ عليه النحو، فمهر فيه وفاق، وسار ذكره في الآفاق»[(٦)].

---

(١) واسمه «الكتاب».

(٢) «تاريخ الإسلام» (٣/ ٢٩٩).

(٣) ضعيف - بنحوه -: والذي ورده منسوبا لأبي عبيدة بن الجراح - لا أبي الدرداء -، رواه الحاكم (٣/ ٢٩٨)، وقال: «مرسل غريب، ورواته ثقات»، ووافقه الذهبي، وضعفه العلّامة الألباني في «ضعيف الجامع» (٥١٣٧) و«الضعيفة» (٤٤٦٩).

(٤) يقصد سيبويه أن الصواب بالرفع.

(٥) «الجامع لأخلاق الراوي» (٢/ ٨٣).

(٦) «غرر الخصائص» (١/ ٩١).

عيسى بن حمران الطائي:

◻ قال الحاكم: «كان من كبار المُحدِّثين وثقاتهم، من أئمة أصحاب العربية»[(١)].

النضر بن شميل:

◻ قال العباسُ بنُ مُصعبٍ المَروَزيِّ: «كان النضرُ بنُ شُميل إمامًا في العربية والحديث، وهو أولُ مَن أظهر السُّنَّةَ بمَرْوَ وجميعِ خُراسانَ»[(٢)].

الإمام ابن حزم الظاهري:

◻ جاء في ترجمته: «نشأ في نعمةٍ ورياسة، وكان أبوه من الوزراء، ووَلِيَ هو وزارةَ بعض الخلفاء من بني أمية بالأندلس، ثُم تركها، واشتغل في صباه بالأدب والمنطق والعربية»[(٣)].

ابن دحية:

هو المحدِّث أبو الخطاب بن دِحْية الأندلسي.

◻ جاء في ترجمته: «متَّهمٌ في نَقله، مع أنه كان من أوعيةِ العلم، له حظٌّ وافرٌ من اللغة، ومشاركةٌ في العربية. قال ابن الزبير: كان معتنيًا بالعلم، مشاركًا في فنونه، ذاكرًا للتاريخ والأسانيد والرجال والجرح والتعديل، سُنيًّا مُجانبًا لأهل البدع، سَرِيًّا[(٤)] نبيلًا»[(٥)].

---

(١) «تهذيب التهذيب» (٢/ ٣١٢).

(٢) «تهذيب التهذيب» (١٠/ ٣٩٠).

(٣) «لسان الميزان» (٤/ ١٩٨).

(٤) السَّرِيُّ: الشريف.

(٥) «لسان الميزان» (٤/ ٢٩٧).

ابن القوطية:

□ جاء في ترجمته: «تقدَّم في فنِّ الأدب، وكان من أعلم أهل زمانه باللغة والعربية والنوادر والشعر، مع مشاركةٍ قويةٍ في الفقه والحديث»[١].

□ وفي لفظٍ آخر: «كان علَّامةَ زمانه في اللغة والعربية، حافظًا للحديث والفقه، وأخباريًّا لا يُلحَقُ شأوُه، ولا يُشقُّ غبارُه»[٢].

أبو الفضل الرياشي:

□ جاء في سيرته: «كان أبوه مولى رجل اسمه «رِياش»، بصريٌّ علَّامةٌ في العربية والشِّعر، ثقةٌ، قتلته الزِّنج»[٣].

المطرِّد:

□ جاء في ترجمته: «شيخُ أهل النحو، وحافظُ علم العربية، كان عالمًا فاضلًا موثوقًا به في الرواية، حَسَنَ المُحاضَرة، مليحَ الأخبار، كثَيرَ النوادر»[٤].

أبو جعفر الضرير:

● جاء في ترجمته: «كان ثقةً مأمونًا، عالِمًا بالعربية واللغة، عالِمًا بالقرآن»[٥].

أبو بكر الخوارزمي:

□ قال عنه الخطيب البغدادي: «كان ثقةً ورعًا، مُتقِنًا متثبتًا فَهِمًا،

---

(١) «لسان الميزان» ٥/ ٣٢٤)، و«الصِّلة» لابن بُشْكُوال (١/ ١١٤).
(٢) «تاريخ الإسلام» (٦/ ٢٢٨).
(٣) «الكاشف» (١/ ٥٣٦).
(٤) «تاريخ بغداد» (٣/ ٣٨٠).
(٥) «تاريخ بغداد» (٤/ ٣٤٥).

حافظًا للقرآن، عارفا بالفقه، له حظٌّ من علمِ العربية، كثيرَ الحديث، حسنَ الفهم له والبصيرةِ فيه»[١].

عبدالله بن إدريس بن يزيد الكوفي:

□ وقال ابنُ عمَّار: «كنَّا عند ابن إدريس يومًا، فحدَّثنا ـ وكان رجلٌ يسألُه ـ ، فسأله فلحَن فيما سأله، فقال ابن إدريس ـ لمَّا رآه يَلحنُ ـ : ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم]، ثُم قال: لا والله، إنْ[٢] حدثتُكم اليوم بحديث.

وكان ابنُ إدريس إذَا لحَن الرجلُ عنده في كلامه لم يُحدِّثْه، وقال: ليس عندكم بالمَوصِل من يتكلمُ بالعربية؟!.

قال[٣]: وذاك أني كنتُ أسأل[٤]، فقال لي عليُّ بنُ المُعافى: دعْني حتى أسأل أنا ـ وكان صاحبَ عربية ـ ، فأوّل ما أخذ يسألُ أخطأَ خطأً فاحشًا! فأمسك ابنُ إدريس عن الحديث، وحلَف ألَّا يُحدِّثَنا ذلك اليوم، فلم يُحدِّثْنا»[٥].

أبو بكر بن دُريد:

□ قال أبو عليّ ـ الحسنُ بنُ سهل بن عبدالله ـ القاضي: «رأينا جنازةً ومعها جماعةٌ ـ عَرفتُهم بالأدب ـ ، فقلتُ لهم: جنازةُ مَن هذه؟ فقالوا: جنازةُ أبي بكرِ بن دُريد. فذكرتُ حديثَ الرَّشيد لمَّا دُفن مُحمدُ بنُ

(١) «تاريخ بغداد» (٤/ ٣٧٤).
(٢) أي: ما «النافية».
(٣) أي: ابن عمار.
(٤) أي: إذا كان هناك سؤال لأحد سألته أنا.
(٥) «تاريخ بغداد» (١١/ ٧٢ ـ ٧٣).

الحسن والكِسائيُّ بالرَّيِّ في يوم واحد ـ وكان هذا في سنة ثلاثٍ وعشرينَ وثلاثِمئةٍ ـ ؛ فأخبَرتُ أصحابَنا بالخبر، وبَكينا على الكلامِ والعربية طويلًا.. ثُم افترقنا»[(١)].

الكسائي:

أحد أئمة القراء السبعة.

◻ قال أبو العباس ـ ثعلبٌ ـ : «قال لي خَلفٌ: أولمتُ وليمةً، فدعوتُ الكِسائيَّ واليزيديَّ، فقال اليزيديُّ للكِسائي: يا أبا الحسن، أمورٌ تبلُغُنا عنك، وحكاياتٌ تتَّصلُ بنا يُنكَرُ بعضُها! فقال الكسائي: أوَ مثلي يُخاطَبُ بهذا؟! وهل مع العالِمِ مِن العربية إلا فَضلُ بُصاقي هذا ـ ثُم بَصَق ـ، فسكت اليزيديُّ»[(٢)].

◻ وقال الإمام الذهبي عن الإمام الكِسائي أيضًا: «إليه انتهت الإمامةُ في القراءة والعربية»[(٣)].

قالون:

أحد الأئمة السبعة أيضًا.

◻ قال عنه الإمام الذهبي: «وتبتَّل «قالونُ» لإقراءِ القرآن والعربية»[(٤)].

يحيى بن المبارك اليزيدي:

◻ قال عنه الذهبي: «كان فصيحًا مفوَّهًا، بارعًا في اللغات والآداب»[(٥)].

---

(١) «تاريخ بغداد» (١١/ ٥٥).
(٢) «تاريخ بغداد» (١١/ ٤٠٩).
(٣) «معرفة القراء الكبار» (١/ ١٢١).
(٤) «معرفة القراء الكبار» (١/ ١٥٥).
(٥) «معرفة القراء الكبار» (١/ ١٥٢).

الفرَّاء:

□ قال ثعلب: «لولا الفَرَّاءُ لَمَا كانت عربيةٌ، لأنه خلَّصها وضبطها، ولولا الفرَّاءُ لسقطت العربية، لأنَّها كانت تُتنازع، ويدعيها كلُّ مَن أراد، ويتكلمُ الناسُ فيها على مقاديرِ عقولِهم وقرائحِهم فتذهب»[١].

حماد بن سلمة:

□ جاء في ترجمته: «كان بارعًا في العربية، فقيهًا، فصيحًا، مفوَّهًا، صاحبَ سُنَّةٍ»[٢].

□ وقال يونسُ النحوي: «مِن حمّادِ بن سلمة تعلمتُ العربية»[٣].

□ وقال حمّادٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان ابنُ حمّادِ بن أبي سليمان يَختلفُ إليَّ يتعلمُ العربية مني»[٤].

أبو إسماعيل الهروي:

□ جاء في ترجمته: «كان على حظٍّ تامٍّ من معرفة العربية والحديث والتواريخ والأنساب.. إمامًا كاملًا في التفسير، حَسَنَ السِّيرة في التصوف»[٥].

الحُميدي:

□ قال إبراهيمُ السَّلَماسي عنه: «لم تَرَ عيناي مِثل الحُميديِّ في فضله ونُبلِه وغزارةِ علمه وحرصِه على نشر العلم، وكان ورعًا ثقةً إمامًا في

(١) «تاريخ بغداد» (١٤/ ١٤٩).
(٢) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٠٣).
(٣) تاريخ الإسلام، للإمام الذهبي.
(٤) «الكامل في التاريخ» (٢/ ٢٣٦).
(٥) «تذكرة الحفاظ» (٣/ ١١٨٩).

الحديث وعلله ورُواته، متحقِّقًا في علم التحقيق والأصول، على مذهب أصحاب الحديث بموافقةِ الكتاب والسُّنة، فصيحَ العبارة، متبحِّرًا في علم الأدب والعربية والترسُّل»[١].

الإمام الغسَّاني -محدث الأندلس-:

□ جاء في ترجمته: «كان من جهابذةِ الحُفَّاظِ البُصَراء، بصيرًا بالعربية واللغة والشعر والأنساب، صنف في ذلك كله، ورحل الناس إليه، وعوَّلوا في النقل عليه، وتصدَّر بجامع قُرطبة، وأخذ عنه الأعلام، وأثنَى عليه غير واحد، ووصفوه بالجلالة والحفظِ والنباهة والتواضع والصيانة»[٢].

الإمام حَمْد بن نصر بن أحمد:

□ جاء في ترجمته: «حافظٌ ثقةٌ مُكثِر، وكان مع بصره بهذا الشأن عارفًا بفقه أحمدَ بن حنبل، ناصرًا للسُّنة، عالمًا بالعربية، وافرَ الجلالة»[٣].

الإمام أبو القاسم التيمي:

□ جاء في ترجمته: «كان فاضلًا في العربية ومعرفة الرجال»[٤].

الإمام أبو طاهر السِّلَفي:

□ جاء في ترجمته: «بَقِي في الرِّحلة بضعَ عشرةَ سنةً، وسَمِع ما لا يُوصَفُ كثرةً، ونَسَخ بخطه الصحيح السريع، وهو في غضون ذلك يقرأ القرآن والفقه والعربية وغير ذلك، وكان متقنًا متثبتًا ديِّنًا خيِّرًا حافظًا ناقدًا

---

(١) «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٢١٩).
(٢) «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٢٣٤).
(٣) «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٢٤٩).
(٤) «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٢٨١).

مَجموعَ الفضائل»(١).

الإمام ابن حبيش -قاضي الأندلس-:

□ جاء في ترجمته: «كان عالمًا بالقراءات، إمامًا في علم الحديث، عارفًا بعِللِه، واقفًا على رجاله، لَم يكن بالأندلس مَن يُجاريه فيه ـ أقرَّ له بذلك أهلُ عصره ـ، مع تقدُّمه في اللغة والأدب واستقلالِه بغير ذلك من جميع الفنون، وكان له حظٌّ من البلاغة والبيان، صارمًا في أحكامه، جَزْلًا في أموره، تصدَّر للإقراء والتسميع والعربية، وكانت الرحلةُ إليه في زمانه، وطال عمرُه»(٢).

الإمام أبو القاسم بن الطيلسان:

مُحدِّث الأندلس وعالمها.

□ جاء في ترجمته: «تصدَّر للإقراء والإسماع، وكان له معرفةٌ بالقراءات والعربية، متقدِّمًا في صناعةِ الحديث متفننًا»(٣).

الحافظ الدِّمياطي:

□ قال الإمامُ الذهبي: «شيخُنا، الإمام العلَّامة، الحافظ الحُجَّة، الفقيه النسَّابة، شيخ المُحدِّثين. كان صادقًا حافظًا متقنًا، جيِّدَ العربية، غزيرَ اللغة، واسعَ الفقه، رأسًا في عِلم النَّسَب، ديِّنًا، كيِّسًا، متواضعًا، بسَّامًا، مُحبَّبًا إلى الطلبة، مليحَ الصورة، نقيَّ الشَّيبة، كبيرَ القَدْر»(٤).

---

(١) «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٢٩٩).

(٢) «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٣٥٤).

(٣) «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٤٢٧).

(٤) «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٤٧٨).

الإمام أبو الحجاج المِزِّي:

□ قال عنه الإمام الذهبي: «شيخُنا الإمام العالم، الحَبْرُ الحافظُ الأوحد، مُحدِّثُ الشام، نَسَخ بخطِّه المليح المتقَن كَثيرًا لنفسه ولغيره، ونظر في اللغة، ومَهَر فيها وفي التصريف، وقرأ العربية، وأما معرفةُ الرجال، فهو حاملُ لوائها والقائمُ بأعبائها، لم تَرَ العيونُ مِثله»(١).

الإمام أبو الوليد الكاتب:

هو صالح بن عبدالرَّحمن ـ أبي الوليد الكاتب ـ.

□ جاء في ترجمته: «مِن أهل البصرة، كان أبوه سُبيَ وسُبي [صالِحٌ] معه، واشترتْهم امرأةٌ من بني النَّزال بن عبيد، فأعتقتهم، فتعلم صالِحٌ كتاب العربية والفارسية، وكان فصيحًا جميلًا»(٢).

الإمام أبو الحسن الأنطاكي:

□ جاء في ترجمته: «المقرئ، الفقيه الشافعي، قدم الأندلس، وكان عالمًا بالقراءات، رأسًا فيها، لا يتقدَّمُه أحدٌ في معرفتها في وقته، بصيرًا بالعَربية والحساب، له حظٌّ من الفقه، على مذهب الشافعي»(٣).

سليمان بن عبدالملك:

□ جاء في ترجمته: «كان فصيحًا بليغًا يُحسِنُ العربية، ويرجعُ إلى دينٍ وخيرٍ ومَحبَّةٍ للحق وأهلِه، واتباعِ القرآن والسُّنة، وإظهارِ الشرائع الإسلامية»(٤).

---

(١) «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٤٩٨).
(٢) «تاريخ دمشق» (٢٣/ ٣٤٣).
(٣) «مختصر تاريخ دمشق» (١/ ٢٤٥٧).
(٤) «البداية والنهاية» (٩/ ٢٠٧).

الإمام الليث بن سعد:

□ جاء في ترجمته: «كان إمامًا في الفقه والحديث والعربية»[١].

الإمام أبو بكر الأنباري:

□ جاء في ترجمته: «كان من بُحور العلم في اللغة العربية والتفسير والحديث وغير ذلك»[٢].

الإمام أبو محمد الجويني:

□ جاء في ترجمته: «كان إمامًا في الفقه والأصول والأدب والعربية»[٣].

الإمام ابن سِيْدَهْ[٤]:

□ قالوا في ترجمته: «كان إمامًا حافظًا في اللغة، وكان ضريرَ البصر، أخذ علمَ العربية واللغة عن أبيه ـ وكان أبوه ضريرًا أيضًا[٥] ـ»[٦].

الإمام أبو القاسم القُشيري:

□ جاء في ترجمته: «تُوفّي أبوه وهو طفلٌ، فقرأ الأدب والعربية، وصحب الشيخ أبا عليّ الدَّقاق، وأخذ الفقه عن أبي بكرِ ابن مُحمد الطُّوسي، وصنف الكثيرً»[٧].

---

(١) «البداية والنهاية» (١٠/ ١٧٨).
(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ٢٢٢).
(٣) سِيْدَهْ: بكسر السين، وسكون الياء، وفتح الدال، بعدها هاء.
(٤) «البداية والنهاية» (١٢/ ٧٠).
(٥) وهذا من أعجب العجب.
(٦) «البداية والنهاية» (١٢/ ١١٧).
(٧) «البداية والنهاية» (١٢/ ١٣١).

الإمام زيد بن الحسن الكِندي:

□ جاء في ترجمته: «فاق أهل زمانه شرقًا وغربًا في اللغة والنحو، وغيرِ ذلك من فنون العلم، وعلوِّ الإسناد، وحسن الطريقة والسيرة، وحسن العقيدة، وانتفع به علماء زمانه، وأثنوا عليه، وخضعوا له»[١].

الإمام الشمس ابن الخبَّاز:

□ جاء في ترجمته: «اشتَغل بعلم العربية، وكان شافعيَّ المذهب، كثير النوادر والملح، وله أشعارٌ جيِّدة»[٢].

الخليفة المستعصم:

□ جاء في ترجمته: «أتقن في شبيبتـه تـلاوةَ القـرآن حفظًا وتَجويدًا، وأتقن العربية والخط الحسن، وغير ذلك من الفضائل»[٣].

الإمام زين الدين بن مُنجَّى:

□ جاء في ترجمته: «شيخُ الحنابلة وعالِمُهم، سَمع الحديث وتفقَّه، وبَرع في فنونٍ من العلم كثيرة من الأصول والفروع والعربية والتفسير.. وغير ذلك»[٤].

الأمير أبو يحيى الهنتاني الجياني:

□ ورد في ترجمته: «أميرُ بلاد المغرب، وقرأ الفقه والعربية»[٥].

---

(١) «البداية والنهاية» (١٣/ ٨٦).

(٢) «البداية والنهاية» (١٣/ ١٨٤).

(٣) «البداية والنهاية» (١٣/ ١٨٨).

(٤) «البداية والنهاية» (١٣/ ٤٠٧).

(٥) «البداية والنهاية» (١٤/ ١٩٠).

الإمام ابن سيِّد الناس:

◘ جاء في ترجمته: «اشتَغل بالعلم، فبَرع وساد أقرانه في علومٍ شتَّى من الحديث والفقه والنحو من العربية وعلم السير والتواريخ.. وغير ذلك من الفنون»(١).

الإمام قطب الدين التبريزي:

قاضي قضاة بغداد قطب الدين التبْريزي الشافعي.

◘ جاء في ترجمته: «سَمع شيئًا من الحديث، واشتغل بالفقه والأصول والمنطق والعربية والمعاني والبيان، وكان بارعًا في فنونٍ كثيرة»(٢).

الإمام عبدالواحد بن الحسين:

◘ ورد في ترجمته: «كان ثقةً، بصيرًا بالعربية، عالمًا بوجوه القراءات، حافظا لمذاهب القُرَّاء»(٣).

الإمام أبو نصر الرامشي:

◘ جاء في ترجمته: «سافر الكثير، وسَمع الكثير، ورحل في طلب القراءات والحديث، وكان مبَرَّزًا في علـوم القـرآن، وله حظٌّ في علم العربية»(٤).

الخليفة المأمون:

◘ ورد في ترجمته: «بَرع في الفقه والعربية وأيام الناس»(٥).

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ١٩٦).
(٢) «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٠٣).
(٣) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» لابن الجوزي (٨/ ١٩٩).
(٤) «المنتظم» (٩/ ١٠٢).
(٥) «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (٢٦٨).

الإمام عثمان بن سعيد المصري:

المشهور بـ«ورش»(١) أحد القرَّاء السَّبعة.

□ جاء في ترجمته: «اشتَغل وبَـرَع في التـلاوة، وانتهت إليـه رئاسةُ الإقراءِ بالديار المصرية، وكان بصيرًا بالعربية»(٢).

الأمير أبو محمد الباهلي الخراساني:

□ جاء في ترجمته: «وَلِيَ خُراسانَ، وكان بصيرًا بالحديث والعربية»(٣).

الإمام عبدالله بن سعيد الأموي:

□ ورد في ترجمته: «كان ثقةً علَّامةً في اللغة والعربية»(٤).

الإمام يحيى بن السكن:

□ ورد في ترجمته: «كان ثقةً ثَبْتًا عالِمًا بالكتاب والسنة، وله معرفةٌ باللغة والعربية»(٥).

الإمام يعقوب بن إسحاق الحضرمي:

□ جاء في ترجمته: «لم يُرَ في زمنه مثلُه؛ وكان عالمًا بالعربية ووجوهِها، والقرآن واختلافِه، فاضلًا تقيًّا نقيًّا، ورعًا زاهدًا، بَلَغ مِن زُهده أن سُرِق رداؤه عن كتفه وهو في الصلاة ولم يشعر، ورد إليه فلم يشعر ـ

---

(١) لقَّبه بذلك شيخُه الإمام «نافع» ـ إمام القراءة ـ ، وذلك لشدة بياض عثمان. و«الوَرْش»: شيءٌ يُصنع من اللبن. وقال بعضهم: بل لقبه «ورشان» ـ اسم لطائر معروف ـ .

(٢) «تاريخ الإسلام» (٣/ ٤٩٩).

(٣) «تاريخ الإسلام» (٤/ ٣٩).

(٤) «تاريخ الإسلام» (٤/ ٤٥).

(٥) «تاريخ الإسلام» (٤/ ٨٧).

لشُغله بعبادةِ ربه ـ»[١].

الإمام سهل بن محمد السجستاني المقرئ:

□ جاء في ترجمته: «حمل الناسُ عنه القرآن والحديث والعربية»[٢].

أبو عثمان الحداد المغربي:

شيخ المالكية في زمانه.

□ جاء في ترجمته: «إمامٌ مُجتهدٌ كبير الشأن، كانت له مقاماتٌ مَحمودةٌ في الذب عن السنة، ناظَرَ أبا العباس الشيعيَّ ـ داعي الروافض ـ ، وناظر بالقَيرَوان الفرَّاء ـ شيخ المعتزلة ـ ، وكان إمامًا في اللغة والعربيـة والنظر، إلا أن كان يَحُطُّ على المالكية، ويُسمِّي «المدوَّنة»: «المدوَّدة»! فسبَّه المالكية، وقاموا عليه، ثُم اغتفروا له ذلك وأحبُّوه لمّا ناظَرَ الشيعيَّ ونَصَر الحق»[٣].

الإمام أبو جعفر الأنباري:

□ جاء في ترجمته: «كان ثقةً عظيم القدر، واسعَ الأدب، تامَّ المروءة، فقيهًا حنفيًّا بارعًا في العربية»[٤].

الإمام إبراهيم بن أحمد الفهري:

□ ورد في ترجمته: «كان عارفًا بالفقه والعربية، فصيحًا مرابطًا»[٥].

البـاقي:

الفقيه الشافعي: محمد بن عبدالله.

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٤/ ٩٠).
(٢) «تاريخ الإسلام» (٤/ ٤٩٧)
(٣) «تاريخ الإسلام» (٥/ ٣١٤).
(٤) «تاريخ الإسلام» (٥/ ٤٠٧).
(٥) «تاريخ الإسلام» (٦/ ٢٨٩).

□ ورد في ترجمته: «الفقيه الشافعي، برع في المذهب، وكان ماهرًا بالعربيـة، حاضِرَ البديهة، حُلوَ النَّظم»(١).

أبو علي الدَّقاق:

الزاهد النيسابوري.

□ جاء في ترجمته: «الزاهد النَّيسابوري، شيخُ الصوفية، لسانُ وقته، وإمامُ عصره، تعلم العربية، وحَصَّل علم الأصول، وخَرج إلى مَرْوَ، فتفقَّه بها على الخُضري»(٢).

الإمام الحسين بن محمد الصوري:

□ جاء في ترجمته: «كان شيخَ صُورَ في العربية والفقه»(٣).

الإمام سعيد بن محمد بن شعيب:

الخطيب الأديب الأندلسي.

□ جاء في ترجمته: «كان عالمًا بمعاني القرآن وقراآته، متقدِّمًا في العربية، حافظًا ثَبْتًا»(٤).

الإمام أبو الوليد الصفَّار:

قاضي القضاة بقرطبة.

□ قال صاحبه أبو عمر بن مهدي: «كان من أهل العلم بالحديث والفقه، كثيرَ الرواية، وافرَ الحظ من العربية واللغة، قائلًا للشِّعر النفيس،

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٦/ ٣٩٢).

(٢) «تاريخ الإسلام» (٦/ ٤٤٤).

(٣) «تاريخ الإسلام» (٦/ ٤٨٩).

(٤) «تاريخ الإسلام» (٧/ ٢٠).

بليغًا في خُطبه، كثيرَ الخشوع فيهـا، لا يتمـالكُ مَن سَمِعَه عن البكاء، مع الزهد والفضل والقنوع باليسير، ما لقيتُ في شيوخنا من يُضاهيه في جميع أحواله، كنتُ إذا ذاكرتُه شيئًا مـن أمـر الآخرة يَصفرُّ وجهُه ويُدافعُ البكاء ـ وربَّما غلبه ـ ، وكان الدمعُ قد أثَّر في عينيه وغيرهما لكثرة بكائه، وكان النـورُ باديًـا على وجهه، وصحب الصالحين»[١].

الملك أبو منصور خسرو فيروز:

□ ورد في ترجمتـه: «وَلِيَ إِمـرةَ «واسطَ» لأبيـه، وبـرع في الأدب والأخبار والعربية، وأكبَّ علَى اللهو والخلاعة!»[٢].

سبحان اللّه! خليعٌ رقيع، ويُتقنُ اللسانَ الرفيع!.

عبدالله بن مفوز المعافري:

□ جاء في ترجمته: «زاهد الأندلس، كان عجبًا في الزهد والتقلُّل والخير، مع براعةٍ في الفقه وجَودةِ العربية»[٣].

أحمد بن علي الشيرازي:

□ ورد في ترجمته: «العلَّامة، مسند نَيسابور في وقته، الأديب المُحدِّث، المتقن السماع، ما رأينا شيخًا أورعَ منه ولا أشدَّ إتقانًا، حَصَل على حظٍّ وافرٍ من العربية، وكان لا يُسامِحُ في فوات كلمةٍ ممَّا يُقرأُ عليه، ويراجَعُ في المشكلات ويبالغ، رحل إليه العلماء من الأمصار»[٤].

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٧/ ٧٠).
(٢) «تاريخ الإسلام» (٧/ ١٢٤).
(٣) «تاريخ الإسلام» (٧/ ٢٥٩).
(٤) «تاريخ الإسلام» (٧/ ٣٩٠).

الإمام أبو الحسن الرُّعَيني الإشبيلي الأندلسي:

□ جاء في ترجمته: «المقرئ خطيب إشبيلية، علمٌ من أعلام البيان، بَذَّ في صنعة الإقراء، وبَرَز في العربية، مع علمٍ بالحديث وفقهٍ بالشريعة»(١).

الملك عز الدين أبو سعد:

صاحب بَعْلَبَك ـ ابن أخي السلطان صلاح الدين ـ.

□ جاء في ترجمته: «كان كثيرَ الصدقة والتواضع، ولديه فضيلةٌ في العربية والشِّعر»(٢).

الإمام أبو الربيع التجيبي:

□ ورد في ترجمته: «كان عارفًا بالعربية والفقه، وتصدَّر للإقراء والعربية»(٣).

مُحمد بن أحمد بن رشد:

حفيد العلَّامة ابن رشد الفقيه.

□ ورد في ترجمته: «كان يُفزعُ إلى فُتياه في الطب ـ كما يُفزع إلى فتياه في الفقه ـ، مع الحظ الوافر من العربية»(٤).

الحافظ عبدالرحمن الأزدي:

□ جاء في سيرته: «كان حافظًا للحديث، مُتقِنًا، ذا حظٍّ من العربية، مدرِّسًا للفقه»(٥).

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٨/ ٢٢٤).
(٢) «تاريخ الإسلام» (٩/ ٧٥)
(٣) «تاريخ الإسلام» (٩/ ١٣٤).
(٤) «تاريخ الإسلام» (٩/ ٢٣٩).
(٥) «تاريخ الإسلام» (٩/ ٢٨٨).

الإمام الكُشْمَيْهَني:

مُحمد بن أبي عبدالرَّحمن المروزي ـ الكُشْمَيْهَني ثُم البغدادي ـ.

□ جاء في سيرته: «سَمِع من غير واحد، وتفقَّه على مذهب الشافعي، وبَرَع في المذهب، وتكلم في مسائلِ الخلاف، واشتغل بالعربية»(١).

الإمام الثعلبي:

أبو إسحاق النيسابوري ـ صاحب التفسير المشهور ـ.

□ جاء في ترجمته: «كان أوحدَ زمانه في علم القرآن، عالِمًا بارعًا في العربية، حافظًا موثَّقًا»(٢).

الإمام ابن خير:

□ جاء في ترجمته: «الحافظُ المُقرئ، أبو بكر محمد الأَمَوي ـ بفتح الهمزة ـ، خالُ مصنِّف «الروض الأنف»(٣)، وأحدُ الأئمة المشهورين بالإتقان والتقدم في العربية والقراآت والرواياتِ والضبط»(٤).

الإمام إسماعيل بن مُحمد الأصبهاني:

الملقَّب بـ«قوَّام السنة».

□ جاء في سيرته: «إمامٌ في التفسير، والحديث، واللغة، والأدب، عارفٌ بالمتون والأسانيد، عديمُ النظير، لا مثيل له في وقته، وكان فاضلًا في العربية ومعرفة الرجال، عارفًا بكل علمٍ، متفننًا»(٥).

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٩/ ٤٨٦).
(٢) «طبقات المفسرين» للسيوطي (١٧).
(٣) وهو الإمام السُّهَيلي.
(٤) «فتح المغيث» للسخاوي (١/ ١١٣).
(٥) «طبقات المفسرين» للسيوطي (٢٦).

الإمام ابن المنيِّر السَّكَندري:

□ جاء في ترجمته: «أحدُ الأئمة المتبحِّرين في العلوم، من التفسير والفقه والأصلين والنظر والعربية والبلاغة والإنشاء»(١).

الإمام محمد بن محمد الأقسرائي:

□ ورد في ترجمته: «كان جامعًا للعلوم الشرعية والعقلية والعربية، ودرَّس العلوم وأفاد، وصنَّف وأجاد، وانتفع به كثيرٌ من العلماء والفضلاء»(٢).

الإمام أبو عمرو بن الصلاح:

إمام الحديث في عصره بلا مدافعة.

□ جاء في ترجمته: «كان إمامًا بارعًا، حُجَّةً متبحِّرًا في العلوم الدينية، بصيرًا بالمذهب ووجوهه، خبيرًا بأصوله، عارفًا بالمذاهب، جيِّدَ المادة من اللغة والعربية»(٣).

شيخ الإسلام ابن تيمية:

العلم البحر العلَّامة، إمام المسلمين، وحسنةُ الدهر، وبركة الأيام.

كانت عربيَّتُه قويةً جدًّا، ويتضحُ ذلك جليًّا من اطلاعةٍ يسيرةٍ على «مجموع الفتاوى» ـ لا سيِّما التفسير ـ، كيف لا، وقد كان له اليدُ الطولى فيها، حتى إن من سمعه يتحدثُ في العربية ظنَّ أنه لا يُحسن غيرها.

□ جاء في ترجمته: «حفِظ القرآن، وأقبل على الفقه، وقرأ أيامًا في

(١) «طبقات المفسرين» للأدنروي (٢٥٢).
(٢) «طبقات المفسرين» للأدنروي (٢٩٣).
(٣) «فتح المغيث» للسخاوي (١/ ١٧).

العربية على ابن عبدالقوي ـ أبي محمد ـ، ثم فهمها، وأخذ يتأمل «كتاب» سيبويه حتى فهِمه، وبرع في النحو، وأقبل على التفسير إقبالًا كليًّا حتى حاز فيه قصْبَ السَّبق، وأحكم أصول الفقه.. وغير ذلك»[١].

الإمام ابن قيم الجوزيَّة:

□ ورد في ترجمته: «صار من الأئمة الكبار في علم التفسير والحديث والأصول ـ فقهًا وكلامًا ـ والفروع والعربية، ولم يُخلِّفِ الشيخُ العلامةُ تقيُّ الدين ابنُ تيمية مِثله»[٢].

أحمد بن إبراهيم بن سباع «ابن الفركاح»:

الملقب بـ«شرف الدين»، والمشهور بـ«ابن الفركاح»:

□ قال الذهبي في «المعجم المختص»: برع في النحو، وتصدَّر لإقرائه مدةً، وكان فصيحًا مفوَّهًا، وخطيبًا بليغًا، لا يكاد يلحن، ليِّنَ الكلمة، طيِّب النغمة، حسنَ التودُّد والدين والأمانة»[٣].

الإمام الذهبي:

□ جاء في ترجمته رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد عُني بدراسة النحو، فسمع «الحاجبية» في النحو على شيخه «موفق الدين أبي عبدالله محمد بن أبي العلاء النَّصيبي البعْلُبكي المتوفَّى سنة (٦٩٥هـ).

ودَرَس على شيخ العربية وإمام أهل الأدب في مصر آنذاك، الشيخ بهاء

(١) انظر: «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية عبر سبعة قرون» (٢٥٠ـ٣٣٢ـ٣٩٩ ـ٤٦٩ـ ط: دار عالم الفوائد).

(٢) «الوافي بالوَفَيات» للصفَدي (١/ ٢٦١).

(٣) نقلًا عن «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» (١/ ٢٨).

الدين محمد بن إبراهيم المعروف بـ«ابن النحَّاس» المتوفَّى سنة (٦٩٨هـ).

إضافةً إلى سماعه لعددٍ كبير من مجاميع الشعر واللغة والآداب»[١].

□وفي ترجمته أيضًا: «وقد عرفنا من سيرة الذهبي ومكانته العلمية: أنه قد حصَّل طرَفًا صالحًا من العربية ـ في نحوِها وصرفِها وآدابها ـ، كما أنه عُني عنايةً كبيرةً في مَطْلَعِ حياته بالقراآت التي تقوم في أساسها على علمٍ تامٍّ بالعربية، وقد تعاطَى الشِّعرَ، فنَظَمَ اليسيرَ منه.

لكل ذلك أصبحت لغتُه قويَّةً جدًّا، بحيث يصعبُ أن نجدَ في كتابه لحنًا أو غلطًا لُغويًّا، أو استعمالًا عاميًّا، فإذا كان النادرُ من ذلك، فإنه من سهوِ القلم، أو الذهول، أو بعض ما يغلَطُ فيه الخواص، وليس ذاك بشيءٍ»[٢].

□وقال العلَّامة المحقق بشَّار بن عوَّاد بن معروف: «إن معرفة اللغة العربية معرفةً جيدةً، والتمتُّعَ بالأسلوب الرصين، من العوامل المهمة التي تُخرِجُ ترجمةً جيدةً يُنتفع بها، والقولُ بأن المعنيَّ بعلم التراجم لا يحتاجُ كلَّ هذه المعرفة قولٌ فاسد، وقد أشار شيخُ الذهبي ورفيقُه الحافظ أبو الحجَّاج المِزِّي في نهاية تقديمه لكتابه العظيم «تهذيب الكمال» إلى هذه الضرورة، فقال: «وينبغي للناظر في كتابنا هذا أن يكون قد حصَّل طرفًا صالحًا من علم العربية ـ نحوها ولغتها وتصريفها ـ، ومن علم الأصول والفروع، ومن علم الحديث والتواريخ وأيام الناس، فإنه إذا كان كذلك، كثُر انتفاعه به، وتمكَّن من معرفة صحيح الحديث وضعيفه، وذلك خصوصيةُ المحدِّث التي من نالها وقام بشرائطِها ساد

---

(١) مقدمة «سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٢).

(٢) مقدمة «السير» (١/ ١١٧).

أهل زمانه في هذا العلم، وحُشر يوم القيامة تحت اللواء المحمدي ـ إن شاء اللّهُ تعالى ـ»[١].

الحافظ السيوطي:

□ قال عن نفسه رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن عِلمَ الحديث رفيعُ القَدْر، عظيمُ الفخر، شريفُ الذِّكر، لا يَعتني به إلَّا كلُّ حَبْر، ولا يُحرَمُه إلا كلُّ غَمْر[٢]، ولا تَفنى محاسنُه على ممرِّ الدهر.

وكنتُ ممن عَبَرَ إلى لُـجَّةِ قاموسه، حيث وقف غيري بشاطئه، ولم أكتفِ بوِرد مجاريه، حتى بقَرتُ عن منبعه ومناشئه، وقلت لمن على الراحة عوَّل، متمثِّلًا بقول الأول:

لسنا وإنْ كنا ذَوِي حسبٍ ... يومًا على الأحساب نتَّكلُ
نبني كما كانت أوائلُنا ... تبني ونفعلُ مثلَ ما فعلوا

مع ما أمدَّني اللّهُ تعالى به من العلوم، كالتفسير الذي به يُطَّلعُ على فهْم الكتاب العزيز، وعلومِه التي دوَّنتها ولم أُسبَقْ إلى تحريرها الوجيز، والفقهِ الذي مَن جَهِله فأنَّى له الرفعةُ والتمييز؟، واللغة التي عليها مدارُ فهم السّنة والقرآن، والنحوِ الذي يُفتضح فاقدُه بكثرة الزلل، ولا يصلحُ الحديث للَّحَّان، إلا غير ذلك من علوم المعاني والبيان التي هي لبلاغةِ الكتاب والحديث تبيان..»[٣].

(١) مقدمة «سير أعلام النبلاء» (١/ ١١٨).
(٢) الغَمْر: الجاهل.
(٣) مقدمة «تدريب الراوي بشرح تقريب النواوي» (١/ ٣٤ ـ ط: دار العاصمة).

العلامة الزَّبيدي:

محمدُ بنُ محمد بن محمد بن عبدالرزَّاق الحُسينى الزَّبيدى، أبو الفيض، صاحب «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين».

□ جاء في ترجمته: «كان علَّامةً باللغة والحديث والرجال والأنساب، من كبار المصنِّفين»[(١)].

العلامة محمد بن إبراهيم الوزير اليمني:

صاحب «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ﷺ»[(٢)].

□ ورد في ترجمته: «تلقَّى العلمَ عن طائفةٍ من العلماء: فأخذ العربية عن الهادي بن إبراهيم الوزير، ومحمد بن حمزة بن مظفَّر، وأخذ علم الكلام عن عليّ بن عبداللّه بن أبي الخير اليمني، وأخذ التفسير عن عليّ ابن محمد بن أبي القاسم، وأخذ الفقه عن عبداللّه بن حسن الدواريَ وغيره من مشايخ «صعدة»، وأخذ علم الحديث عن عليّ بن عبداللّه بن ظهيرة بمكة المكرمة، وفي غيرها عن نفيس الدين العلويَ»[(٣)].

أحمد بن يحيى بن المرتضى «المهدي»:

صاحب «حدائق الأزهار»[(٤)].

□ جاء في ترجمته: «وُلد بمدينة «ذِمار»، وارتضع ثديَ العلم، ورُبِّي في حِجْر العلم، ودأب على التحصيل والمدارسة، وقرأ في علم العربيَة، فلبِث في قراءة النحو والتصريف والمعاني والبيان قدْرَ سبعِ سنين، وبرع

(١) «الأعلام» للزركلي (٧/ ٧٠).
(٢) وهو مطبوع في تسعة مجلدات، بتحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط.
(٣) «البدر الطالع في »
(٤) والذي شرحه العلَّامة الشوكاني في «السيل الجرار».

في هذه العلوم الثلاثة، وفاق غيره من أبناء زمانه»[١].

أحمد بن إبراهيم الفزاري:

الإمام الكبير، مُحدث الشام.

□ ورد في سيرته: «كان فصيحًا مفوَّهًا، عديْمَ اللحن، عذبَ القراءة»[٢].

الشيخ علي الطنطاوي:

□ جاء في ترجمته: «كان الشيخُ من الذين جمعوا في الدراسة بين طريقتَي التلقِّي على المشايخ، والدراسةِ في المدارس النظامية، فقد تعلَّم في هذه المدارس إلى أن تخرَّج من الجامعة، وكان يقرأُ معها على المشايخ علومَ العربية والعلوم الدينية على الأسلوب القديم»[٣].

الشيخ محمد الطاهر بن عاشور:

العلامة المفسر، صاحب «التحرير والتنوير».

□ جاء في ترجمته: «تلقَّى العلمَ كأبناء جيله، حيث حَفِظ القرآن، واتجه إلى حفظِ المتون السائدة في وقته، ولمَّا بلغ الرابعةَ عشْرةَ من عمره، التحق بجامع «الزيتونة» سنة (١٣١٠هـ)، وشرع ينهلُ من مَعينِهِ في تعطُّشٍ وحبٍّ للمعرفة، ثم برز ونبغ في شتى العلوم، سواءٌ في علوم الشريعة أو اللغة أو الآداب أو غيرها، فكان آيةً في ذلك كله»[٤].

---

(١) من مقدمة «السيل الجرار» للعلامة الشوكاني (١/ ٦٦ ـ تحقيق العلامة محمد صبحي حسن حلاق ـ ط: دار ابن كثير).

(٢) «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٥٠٠).

(٣) «مقالات لكبار كتاب العربية» للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد (١/ ٢٣ ـ ط: دار ابن خزيمة) هامش (٢).

(٤) «مقالات لكبار كتاب العربية» (١/ ٣٤) هامش (٢).

العلامة محمد الأمين الشنقيطي:

صاحب «أضواء البيان».

□ جاء في ترجمته: «بعد أن أتمَّ حفظ القرآن في سنِّ العاشرة، تعلَّم رسم المصحف العثماني على ابن خاله ـ وهو محمد بن أحمد بن محمد المختار ـ، كما قرأ عليه التجويد في مقرأ نافع برواية «ورش» من طريق أبي يعقوب الأزرق، و«قالون» من رواية أبي نشيط، وأَخذ عنه سندا بذلك إلى النبي ﷺ، وكان قد بلغ من العمر ستةَ عشرَ عامًا.

كما درس أثناء تلك القراءة بعض المختصرات في الفقه على مذهب الإمام مالك كـ«رجز ابن عاشر»، كما درس الأدب مع شيءٍ من التوسع على زوجة خاله، وأخذ عنها إضافة إلى الأدب مبادئ النحو ـ كالآجرومية وبعض التمرينات ـ.

كل هذا حصَّله في بيت أخواله! وقد أخذ عن غيرهم الفقه المالكي من «مختصر خليل» والنحو من «ألفية ابن مالك» وغيرها، والصرف والأصول والبلاغة وشيئًا من الحديث والتفسير.

لقد حبا اللّهُ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ذكاءً مفرطًا، وحافظةً نادرةً، وهمةً عليَّة، فسخَّر ذلك كلَّه في تحصيل العلم وجمعه بمختلف فنونه وصنوفه ـ من عقيدة وتفسير وحديث وأصول وعربية ـ.

وكان رَحِمَهُ اللهُ يحفظُ من أشعار العرب وشواهد العربية الآلاف المؤلفة من الأبيات، كما كان يحفظُ أكثر أحاديث «الصحيحين» و«ألفية ابن مالك» و«مراقي السعود» و«ألفية العراقي» وغير ذلك من المنظومات في السيرة النبوية والغزوات والأنساب والمتشابه من ألفاظ القرآن، وشيئًا

من المتون في الفقه نثرًا ورجَزًا»[١].

العلامة ابن ضُوَيَّان[٢]:

هو الشيخ العلَّامة إبراهيمُ بن محمد بن سالم بن ضُوَيَّان، صاحب «منار السَّبيل في شرح الدليل»[٣].

□ جاء في ترجمته: «كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يُمضي أكثرَ وقته للعلم والتعليم، فقد كان يجلسُ بعد صلاة الفجر لتدريس المبتدئين: «الأصولَ الثلاثة» و«آدابَ المشي إلى الصلاة» و«كشف الشُّبهات»، وكلُّها من تأليف الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفي الضُّحى يجلس لتدريس النحو، وقد كان الشيخ له اهتمامٌ في اللغة، نَسخ «المعلَّقات السَّبع» وشرحها.

أما بعد صلاة الظُّهر، فقد كان يجلسُ لتدريس بعض المتون المشهورة، كـ«عُمدة الأحكام» و«بلوغ المرام».

وبعد صلاة المغرب يجلسُ لتدريس الحديث وشرحه رَحِمَهُ اللَّهُ»[٤].

العلاَّمة محمد بن صالح العثيمين:

الفقيهُ المتبحِّر المتفنِّن، كان أستاذًا في العربية، متقنًا لها، ويكفي أن تطَّلع على كتابه النفيس «الشرح الممتع في شرح زاد المستقنع»[٥]، لترى

---

(١) مقدمة «أضواء البيان» ـ ط :دار عالم الفوائد.

(٢) ضُوَيَّان: بضم الضاد، وفتح الواو، وتشديد الياء المفتوحة، كذا ضبطت في «منار السبيل» (١/ ١٧ ـ ط: دار طيبة)، وهي أنفس الطبعات.

(٣) «منار السبيل في شرح الدليل»: هو شرح لـ«دليل الطالب لنيل المطالب»، للعلامة مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي.

(٤) مقدمة «منار السبيل» (١/ ١٩ ـ ط: دار طيبة).

(٥) وقد أتمَّت طباعته دار ابن الجوزي بالدمام في ستة عشر مجلدًا، والحمد للّه.

نفائس القواعد اللغوية التي يَبني عليها الكثير من الأحكام.

هذا بجانب شرحه للمقدِّمة «الآجرومية» التي طار ذكرُها في الأقطار، وانتفع بها من شاء اللّه.

والعلَّامة ابنُ عثيمين بهذه الصورة يُعطينا تأكيدًا عمليًّا على أهميّة العربية في حياة طلّاب العلم، وأنه لابدَّ لهم من الإلمام بقواعدها لتفهُّم العلوم الشرعية المخدومة.

العلاَّمة بكر بن عبدالله أبو زيد:

علَّامةُ الجزيرة في العصر الحاضر، وأحدُ أبرز العلماء الذين دافعوا عن حياض «العربية»، مع التأكيد الدائب على ضرورة إتقانها صيانةً للعلوم الإسلامية من تعدِّيات المستشرقين المتلاعبين بالتراث الإسلامي من ناحية، وعن إهمالها في كتابات بعض الكتاب المسلمين وتفضيل «لغة الجرائد» ـ كما سماها ـ على الفصحى من ناحية أخرى.

وقد اشتُهر العلَّامة بكر أبو زيد بقوَّةِ بيانه وجزالةِ ألفاظه ومتانة عربيته، حتى إنك تُحِسُّ في كتاباته بمتعةٍ جليلة، وتستشعرُ أنفاس السلف ـ أهل العربية الصرفة ـ، ويكفيك أن تنظرَ في «المجموعة العلمية» لترى صدقَ ما نقول، وكيف لا يكون كذلك، وهو من تلاميذ العلَّامة البارع محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ الذي سبقت إشارة إليه قريبًا ـ.

وقد قدَّمنا بعضًا من كلمات العلَّامة بكر أبو زيد في مَطْلَع هذا الفصل حول حتميةِ الالتزام بالعربية ـ خاصة في بثِّ العلم الشرعي ـ محاضرةً وخطابةً وتأليفًا ـ.

الشيخ شُعيب الأرنؤوط:

المحدِّثُ الكبير، والذي يسَّر اللّهُ على يديه ـ ويدي تلامذته ـ نشرَ

الكثير من كتب التراث التي لم تعرف النورَ من قبلُ.

□ قال الشيخ إبراهيم الكوفحي: «نشأ الشيخ الأرنؤوط في ظلِّ والديه نشأةً دينيةً خالصة، تعلَّم في خلالها مبادئَ الإسلام، وحَفِظ أجزاءً كثيرةً من القرآن الكريم، ولعل الرغبةَ الصادقة في الفهم الدقيق لمعاني القرآن، والإدراكَ العميق لأسراره، من أقوى الأسباب التي جعلته يندفعُ بقوةٍ ونشاطٍ ـ منذ السابعة عشرة من عمره ـ إلى دراسة اللغة العربية، والعناية الفائقة بها.

وكان في هذا الوقت يعتقد أن من عوامل سقوط الدولة العثمانية المتراحبة، هو عدمُ جعل العربية اللغة الرسمية للدولة، إذ لو كانت فعلت ذلك، لتمكَّنت بسهولةٍ من توحيد الشعوب المختلفة الواقعةِ تحت سلطانها، وتمكنت كذلك من إيجادِ طبقةٍ من العلماء المجتهدين القادِرين على أن يمُدُّوا الدولةَ بالحلول المناسبة لجميع معضِلات الحياة، فضلًا عن عدم احتفالها بالنواحي المادية التي من شأنها أن تُكسبها القوةَ والمَنَعة، وتجعلها في مقدمة الأمم.

وقد مكث الشيخ الأرنؤوط في دراسة العربية ما يربو على عشر سنوات، كان يختلف في خلالها إلى مساجد دمشق ومدارسها القديمة، قاصدًا حلقات اللغة في علومها المختلفة، من نحوٍ وصرفٍ وأدبٍ وبلاغة، وما إلى ذلك.

وفي خلال هذه المدة قرأ الشيخ الأرنؤوط ـ على كبار أساتذة العربية في دمشق آنذاك ـ أشهرَ مصنفات اللغة والبلاغة العربية، ومن ذلك ـ على سبيل التمثيل ـ: «شرح ابن عقيل»، و«كافية» ابن الحاجب «بشرح ملَّا جامي»، و«المفصل» للزمخشري، و«شذور الذهب» لابن هشام الأنصاري،

و«أسرار البلاغة»، و«دلائل الإعجاز» لعبدالقاهر الجُرجاني.. وغيرها.

ومن الأساتذة الذين درس العربيةَ عليهم وتلمذ لهم، الشيخ محمد صالح الفرفور، وكان هذا من التلاميذ الملازمين لمحدِّث الديار الشامية في عصره الشيخ محمد بن يوسف المعروف بـ«بدر الدين الحَسَني»، وله فيه كتابٌ نشره منذ سنواتٍ، يتحدث فيه عن حياته الشخصية والعلمية[1]، وكان الشيخ الفرفر في طليعة الذين يعرفون العربية، ويجيدون فهمها، وله شعرٌ رصينٌ، ينمُّ عن أصالةٍ وتمكُّنٍ من ناصية البيان.

ومن هؤلاء الأساتذة أيضًا، الشيخ عارف الدوجي، وكان هذا معيدًا عند الشيخ بدر الدين الحسني، والمعيدُ في ذلك الوقت هو المؤهَّلُ أن يكون أستاذًا فيما بعد، يخلُفُ شيخَه في الحلقة، وأبرزُ ما يتميزُ به هو إلمامُه الواسع بعلوم العربية، ثم إلمامُه بالعلم الذي هو بصدده.

وبعد هذه الرحلة الشاقة في أعماق العربية، والتي أكسبته القدرةَ على الفهم الصحيح، والاستنباط الدقيق، وإبداءِ الحجة والدليل، بفضل ذكائه الحاد، وحافظته القوية، وهمته العالية، أحس الشيخ الأرنؤوط بأنه في مسيس الحاجة إلى دراسة الفقه الإسلامي، فلزم أكثرَ من شيخ، يقرأ عليه كتب الفقه، ولا سيما التي تخصُّ المذهب الحنفي، من مثل: «مراقي الفلاح» للشُرُنبلَّالي، و«الاختيار» للموصلي، و«الكتاب»[2] لأبي الحسن القُدُوري،

(١) انظر: محمد صالح الفرفور «المحدث الأكبر وإمام العصر العلامة الزاهد السيد الشريف الشيخ محمد بدر الدين الحسني ـ كما عرفته»، دار الإمام أبي حنيفة، دمشق، ط١، ١٩٨٦م.

(٢) وهذه الثلاثة الكتب من المتون المعتبرة في الفقه الحنفي، ويطلقون عليها مصطلح «ظاهر الرواية»، وهي مسائل الأصول التي رويت عن أعيان المذهب، وهم: أبو =

وحاشية ابن عابدين، التي تُدعى: «ردَّ المحتار على الدر المختار»، وغيرها»[١].

والأخبارُ والتراجم غير ذلك بالألوف المؤلَّفة، وفيما ذكر كفاية وتذكرة.

ولنختمْ هذا الفصل ببعض الوصايا والكلمات السلفية القيِّمة عن أهميَّة العربية في حياة الأمة المسلمة.

□ كَتب عُمرُ بنُ الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «أمَّا بعدُ، فتفقَّهوا في السُّنَّة، وتَعلَّموا العربيَّة»[٢].

□ وقال أيضًا رضي الله عنه: «تعلَّموا العربيَّة، فإنَّها تَزيدُ في المُروءة»[٣].

□ وقال أيضًا رضي الله عنه: «رحِم اللَّهُ امرأً أصلحَ مِن لسانه»[٤].

□ وقال أيضًا رضي الله عنه: «سوءُ اللحن أسوأُ من سُوء الرمي»[٥].

□ وقال المَدائني رحمه الله: «كتب الحُصين بنُ أبي الحُرِّ إلى عُمرَ كتابًا، فلحن في حرفٍ منه، فكتب إليه عمر: أنْ قَنِّعْ كاتبَك سَوطًا»[٦].

□ وقال أيضًا رضي الله عنه: «تعلَّموا النحو كما تتعلمون السننَ والفرائض»[٧].

حنيفة، وأبو يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن الشيباني. انظر: «رسائل ابن عابدين» (١/ ١٦)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ.

(١) من رسالة «المحدث شعيب الأرنؤوط» للأستاذ إبراهيم الكوفحي.

(٢) صحيح: رواه ابن عبدالبر في «جامع العلم» (٢/ ١١٢٣ ـ ط: دار ابن الجوزي).

(٣) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، للخطيب البغدادي (١/ ١٠ ـ ط: الرسالة)، و«الآداب الشرعية»، للعلَّامة ابن مفلح (٢/ ٣٤ ـ ط: الرسالة)، ونقلها غيرُ واحدٍ عن عمر رضي الله عنهما.

(٤) «بهجة المَجالس»، للإمام ابن عبدالبر (١/ ٦٤).

(٥) «طبقات ابن سعد» (٣/ ٢٨٤)، ولهذا الكلام قصة، وراجع تعقُّب مصطفى صادق الرافعي عليه في «تاريخ آداب العرب» (١/ ١٩٧).

(٦) «البيان والتبيين» (١/ ١٨٣).

(٧) «غرر الخصائص» (١/ ٩٠)، و«العقد الفريد» (١/ ١٤٩).

□ وقال عليُّ بنُ مُحمدٍ العَلوِي:

رأيتُ لِسانَ المَرءِ رائدَ عَقلِهِ ... وعُنوانَه فانظُرْ بماذا يُعَنْونُ
ولا تَعْدُ إصلاحَ اللسان فإنَّهُ ... يُخبرُ عمَّا عندَه ويُبيِّنُ
ويُعجبُني زِيُّ الفتَى وجمالُه ... فيَسقُطُ مِن عيني ساعةَ يَلحَنُ[(١)]

□ وكان ابنُ عمرَ وعليٌّ وابنُ عباس - رضي الله عنهم - يَضرِبون أولادَهم على اللحن[(٢)].

□ عن عبدالله بن بريدة: «أن معاويةَ بنَ أبي سفيان رضي الله عنه دعا دَغْفل بن حنظلة، فسأله عن العربية، وسأله عن أنساب الناس، فإذا الرجل عالم، فقال: يا دغفل، مِن أين حفظتَ هذا؟ فقال: حفظتُ هذا بقَلبٍ عقولٍ ولِسانٍ سؤول، وإن غائلةَ[(٣)] العلمِ النسيان. قال معاوية: فانطلقْ إلى يزيدَ[(٤)]، فعلِّمْه أنسابَ الناس وعلِّمه العربية»[(٥)].

□ وعن بُريدةَ بن الحُصَيب رضي الله عنه قال: «كنَّا نؤمرُ أن نتعلمَ القرآن، ثُم السُّنَّة، ثُم الفرائض، ثُم العربيَّة»[(٦)].

---

(١) «بهجة المَجالس» (١/ ٦٤).
(٢) «الجامع» للخطيب البغدادي (٢/ ١٧)، وانظر: «الأدب المفرد» للإمام البخاري (٣٠٧)، حيث صحَّح الشيخ الألباني الأثر عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) الغائلة: الشر والمصيبة.
(٤) ولد معاوية رضي الله عنه.
(٥) «الاستيعاب» (١/ ١٣٧) و«أسد الغابة» (١/ ٣٣٦) و«الإصابة» (٢/ ٣٨٩) و«تهذيب الكمال» (٨/ ٤٨٩).
(٦) «الجامع» للخطيب البغدادي (٢/ ١٠).

□ وكان عبدُالمَلِكِ بنُ مَرْوانَ يُحِبُّ ابنَـه «الوليد»، ولا يأمـرُه بالأدب[١]، فخَرَج الوليدُ لحّانًا[٢]، فقال عبدُالملك: أضرَّ حُبُّنا بالوليد[٣]»[٤].

□ وقال شُعبةُ بن الحجَّاج رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَثَلُ الذي يتعلمُ الحديثَ ولا يتعلمُ النَّحو، كمثلِ البُرنُسِ لا رأسَ له»[٥].

□ وسَمِع المأمونُ مِن أحدِ أولاده لحنًا، فقال له: «ما على أحدِكم أن يتعلمَ العربيَّة، فيُقيمَ بها أَوَدَه[٦]، ويُزيِّنَ بها مَشهدَه، ويَفُلَّ بها[٧] حُجَجَ خَصمِه بمُسكِتات حِكَمِه[٨]، ويَملِكَ مَجلِسَ سُلطانه بظاهِرِ بيانه[٩]! أَوَ يَسُرُّ أحدَكم أن يكون لسانُه كلسان عبدِه أو أَمَته، فلا يزالُ الدَّهرَ أسيرَ كلمته؟!»[١٠].

□ وقال مُحمَّدُ بنُ سلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أحدثَ الناسُ مروءةً أفضلَ مِن

---

(١) أي: بتعلُّمِ الشِّعر والفصاحةِ والبيان.

(٢) أي: كثير الخطأ في العربية.

(٣) أي: دَلَّلناه حتى فسد.

(٤) «تنبيه النائم الغُمْر على مواسم العُمر»، للإمام ابن الجوزي (ص٥١ ـ ط: دار الحديث).

(٥) البُرنس: الثوب الذي يكون رأسُه ملتصقًا به ـ كثياب المطر ونحو ذلك ـ.. قال معناه الإمام أبو عبيد في «غريب الحديث».

(٦) الأَوَد: العِوَج.

(٧) أي: يغلبُ وينتصر. وأصل «الفَلِّ»: الكَسر.. انظر «لسان العرب» للإمام ابن منظور (١٥٩/٥ ـ ١ ـ ط: دار صادر).

(٨) أي: إذا تعلَّمتم العربية، استطعتم أن تَهزموا خصومكم في المناظرات.

(٩) أي: تكونون أشرفَ مَن في المَجلس.

(١٠) «بهجة المَجالس» (٦٤/١).

طلب النَّحو[١]»[٢].

□ وقال الإمام عبدُاللّه بنُ المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اللحنُ في الكلام أقبحُ من آثار الجُدَرِيِّ[٣] في الوجه»[٤].

□ وقال أيضًا: «اللحنُ في الرجل السَّرِيِّ[٥] كالجُدَرِيِّ في الوجه»[٦].

□ وقال عبدُالمَلك بن مروان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإعراب جمالٌ للوَضِيع، واللحنُ هُجنةٌ بالشَّريف[٧]»[٨].

□ وقال أيضًا: «اللحنُ في الكلام أقبحُ من التفتيق في الثوب النفيس»[٩].

□ وقال الإمامُ المُبرِّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لَنَّحوُ يُصلِحُ مِن لِسان الأَلْكَنِ[١٠] ... والمَرءُ تُكرِمُهُ إذا لم يَلْحَنِ
والنَّحوُ مِثلُ المِلحِ إنْ ألقيتَه ... في كلِّ ضدٍّ مِن طعامِك يَحسُنِ
لَحنُ الشريفِ يَحُطُّهُ عن قَدْرِهِ ... وتراه يسقُطُ مِن لِحاظِ الأعيُنِ

---

(١) لا يقصِد على المستوى العام بالطبع، لكن لعله يقصدُ على مستوى الفصاحة والبلاغة، لأن النحو أساس ذلك كله.
(٢) «بهجة المَجالس» (١/ ٦٥).
(٣) الجُدَري: مرضٌ يظهر بصورة قروح.
(٤) «بهجة المَجالس» (١/ ٦٥).
(٥) السَّرِيُّ: الشريف العظيم
(٦) «الجامع» للخطيب (٢/ ١٦).
(٧) الهُجْنة: القُبح والعار.
(٨) «بهجة المَجالس» (١/ ٦٦).
(٩) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ١٩٧).
(١٠) الألْكَن: العاجز عن الفصاحة.

وترى الدَّنيءَ إذا تكلَّم مُعرِبًا نال النَّباهةَ باللسان المُعلِنِ
ما ورَّث الآباءُ فيما ورَّثوا أبناءَهم مِثلَ العلوم فأَتقِنِ
وإذا طلبتَ مِنَ العُلوم أَجَلَّها فأَجَلُّها منها مُقيمُ الألسُنِ(١)

□ وقال ابنُ شُبْرُمَة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيتُ لِباسًا على امرئٍ أحسنَ من فصاحة؛ وإنَّ الرَّجل ليتكلمُ فيُعرِبُ، فكأنَّ عليه الخزَّ الأَدْكنَ(٢)، وإنَّ الرجل ليتكلمُ فيَلحَنُ، فكأنَّ عليه أسمالًا(٣). وإذا سَرَّكَ أن تَعظُمَ في عَينِ مَن كنتَ في عينه صغيرًا، ويَصغُرَ في عينيك مَن كان كبيرًا، فتعلمِ العربيَّة(٤)»(٥).

□ وقال المُبرِّد رَحِمَهُ اللَّهُ:

النحوُ زَينٌ وجمالٌ يُلتَمَسْ يأخُذُ مِن كلِّ العلومِ بالنَّفَسْ(٦)

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ١٥)، و«بهجة المَجالس» (١/ ٦٦)، و«غرر الخصائص» (١/ ٩٠).

* تنبيهٌ هامٌّ: اعترَض بعض العلماء على الإمام المُبرِّد في قوله «فأجلُّها منها مقيم الألسُن» وقالوا: كان الأولى بالشاعر أن يقول: «فأجلُّها منها مقيمُ الأديْنُ»، ولكنْ تعقَّبَ هذا العلَّامةُ الشيخ بكر أبو زيد قائلًا: «لبعض العلماء تعقيبٌ على كلام المُبرِّد، مِن أن أجل العلوم علمُ «التوحيد»، لكنَّ الجلالةَ هنا نسبيةٌ إلى علوم الآلة، واللَّهُ أعلم. «حلية طالب العلم» (٢٠٠ ـ ضمن «المَجموعة العلمية»).

(٢) الأدكن: الأخضر القريب من السواد.

(٣) الأسمال: الثياب القديمة.

(٤) «تهذيب الكمال» للحافظ المِزِّي (١٥/ ٨٠)، والجملةُ الأخيرة وردت في «بهجة المَجالس» (١/ ٦٦) هكذا: «وإن أحببتَ أن يصغُرَ في عينيك الكبيرُ، ويكبُرَ في عينيك الصغيرُ فتعلمِ النحوَ».

(٥) انظروا!! هذا في زمان العقلاء وعند أهل الفقه والفضل.

(٦) يُلتَمَس: يطلبه أهل المروءة والهمم العالية.

صاحبُه مُكـرَّمٌ حيثُ جَلَسْ هل يَستوي رَبُّ الحِمارِ والفَرَسْ![١]

□ ورأى الإمامُ أبو الأسودِ الدُّؤلي رَحِمَهُ اللَّهُ أَشوِلةً لتُجَّار مكتوبًا عليها «هذا لأبو فُلان»[٢]؛ فقال: «سبحانَ اللّه! يَلْحَنون ويربَحون!»[٣].

□ وقال بعضُ السلف: «الإعرابُ حِليةُ الكلام»[٤].

□ وقال رجلٌ للحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا أبو سعيد»، فقال له: «شَغَلَك كسبُ الدراهمِ عن أن تقول: «يا أبا سعيد»؟![٥]»[٦].

□ وقال الشَّعْبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «النحوُ في العلم كالمِلحِ في الطعام، لا يَستغني شيءٌ عنه»[٧].

□ وقال الزُّهريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفصاحةُ مِنَ المروءة»[٨].

□ وقال سَلْمُ بنُ قُتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنتُ عند ابن هُبيرةَ الأكبر، فجرى الحديثُ، حتى جرى ذِكرُ العربيَّة، فقال: واللّه ما استوى رجُلان، دينُهما واحدٌ، وحَسَبُهما واحدٌ، ومروءتُهما واحدةٌ، أحدُهما يَلحَنُ والآخرُ لا يَلحَنُ[٩].

---

(١) أي: هل يستوي صاحبُ الحمار مع صاحب الفرس؟! والبيتان في «الجامع» للخطيب (٢/ ١٦).

(٢) الصواب: «هذا لأبي فلان».

(٣) «بهجة المَجالس» (١/ ٦٦).

(٤) «عيون الأخبار» للإمام ابن قتيبة (٢/ ١٧٢ ـ ط: دار الكتب العلمية).

(٥) لأن المنادَى المضاف يكون منصوبًا.

(٦) «بهجة المَجالس» (١/ ٦٦).

(٧) «الجامع» (٢/ ١٦)، و«عيون الأخبار» (٢/ ١٧٢).

(٨) «خوارم المروءة» للشيخ مشهور حسن آل سلمان (٣٨).

(٩) أي: لا يستوي رجلان في كلِّ شيءٍ، لكن أحدهما فصيحٌ والأخرُ غير فصيحٍ، إلَّا كان صاحبُ الفصاحة أعلى من الآخر مكانةً.

فقلتُ: أصلحَ اللّهُ الأمير[١]، هذا أفضلُ في الدنيا بفضل فصاحته وعربيَّته؛ أرأيتَ الآخرة، ما بالُه فُضِّل فيها[٢]؟! قال: إنه يقرأُ كتابَ اللّه على ما أَنزل اللّهُ جَلَّ وعلا؛ والذي يَلحَنُ يَحمِلُه لحنُه على أن يُدخِل في كتاب اللّه ﷻ ما ليس فيه، ويُخرِجَ منه ما هو فيه. قلتُ: صَدَقَ الأميرُ وبَرَّ»[٣].

□ وقال مَسْلمةُ بنُ عبدالمَلِك رَحِمَهُ اللَّهُ: «مُروءتان ظاهِرتان: الرِّياسةُ والفَصاحة[٤]»[٥].

□ وقال مُحَمَّدُ بنُ عبداللّه البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أيُّها الطالبُ فَخرًا بالنَّسَب ... إنَّما الناسُ لأُمٍّ ولأبْ
هل تراهم خُلِقوا من فضةٍ ... أو حديدٍ أو نُحاسٍ أو ذَهَبْ؟
أو تَرى فَضْلَهُم في خَلْقِهم! ... هل سِوى لحمٍ وعَظمٍ وعَصَبْ؟
إنَّما الفخرُ بحلْمٍ راجحٍ ... وبأخلاقٍ كرامٍ وأَدَبْ
ذاك مَن فاخَرَ الناسَ به ... فاقَ مَن فاخَرَ منهم وغَلَبْ[٦]

□ وقال عبدالرَّحمن بن مَهديٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما نَدِمتُ على شيءٍ كندامتي

(١) هذا من دعاء العرب.
(٢) أي: لماذا فُضِّل صاحبُ الفصاحة على الآخر في الآخرة؟!.
(٣) «الجامع» للخطيب (٢/ ١١)، و«روضة العقلاء» (٣٦١)، و«تاريخ دمشق» للحافظ ابن عساكر (٤٥/ ٣٨٠).
(٤) ولا يسمَّى الفصيحُ فصيحًا إلّا إذا أخرج الكلام سديدًا غيرَ ملحون.
(٥) «خوارم المروءة» (٤٥).
(٦) «روضة العقلاء» (٣٦٢).

أني لم أنظرْ في العربية»[١].

□ وقال الإمام الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن تَعلمَ القرآنَ عظُمت قيمتُه، ومَن نَظر في الفِقهِ نَبُل قَدْرُه، ومَن نظر في اللغة رَقَّ طَبْعُه، ومَن نظر في الحساب[٢] جَزُل رأيُه، ومَن كَتب الحديثَ قَوِيَتْ حُجَّتُه، ومَن لم يَصُنْ نفسَه لم يَنفعْه عِلمُه»[٣].

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَولى الناس بالفَضل مَن كان لسانُه لسانَ النَّبي ﷺ»[٤].

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما جَهِل الناسُ ولا اختلفوا، إلَّا لِتَركهم لسانَ العرب ومَيلِهم إلى لسان أرِسْطو»[٥].

□ وقال: «ينبغي لكلِّ أحدٍ يقدِرُ على تعلُّم العربية أن يتعلمَها، لأنه اللسانُ الأَولى بأن يكون مرغوبًا فيه، مِن غير أنْ يُحرِّمَ على أحدٍ أن ينطِقَ بالعَجَميَّة[٦]».

---

(١) «روضة العقلاء» (٣٦٣)

(٢) يقصد: الجَمع والطرحَ والقِسمةَ والضَّرب وغير ذلك مما يَحتاجُ إليه العباد في دينهم ودنياهم، ولم يقصد أبدًا حساب النجوم والفلك.

(٣) «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٥١)، ومقدمة «المَجموع» للإمام النووي (١/ ٥٧٩)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٢٤)، و«تاريخ دمشق» (١٣/ ٩٥).

(٤) «فضل العربية» للشيخ رسلان (٣٩).

(٥) «ملامح رئيسية للمنهج السلفي» للشيخ علاء بكر (٥٢).

* تنبيه: ذكر الإمامُ الذهبي في «السير» (١٠/ ٧٤) أن هذه حكايةٌ غيرُ صحيحة، معلِّلًا بأن كتب أرسطو لم تكن تُرجمت للعربية. نقلًا عن «تصحيح الدعاء»، للعلَّامة بكر أبو زيد (٤١٤).

(٦) وفق الضوابط التي سبقت، والتي ستأتي في فصل «حكم تعلم اللغات الأعجمية» ـ إن شاء اللّه ـ.

□ قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ معلِّقًا ـ: «فقد كَرِه الشافعيُّ لمن يعرفُ العربيَّة أن يُسمِّي بغيرها، وأن يتكلمَ بها خالطًا لها بالعجَميَّة، وهذا الذي ذكره قاله الأئمةُ مأثورًا عن الصحابة والتابعين»[(١)].

□ وقال الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: «على كلِّ مسلم أن يتعلمَ مِن لسان العرب ما بَلَغه جَهدُه حتى يَشهدَ به أَلَّا إلهَ إلَّا اللّهُ، وأن مُحمَّدًا عبدُه ورسوله، ويتلوَ به كتابَ اللّه، وينطقَ بالذِّكر فيما افتُرِض عليه من التكبير، وأُمِر به من التسبيح والتشهُّد وغير ذلك؛ وكلَّما ازدادَ من العلمِ باللسان الذي جَعَله اللّهُ لسانَ مَن خَتَم به نبوَّتَه وأنزل به آخِرَ كُتبه: كان خيرًا له».

□ قال العلَّامة أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ معلِّقًا على هذا الكلام ـ: «وفي هذا معنًى سياسيٌّ وقوميٌّ جليل، لأنَّ الأُمَّةَ التي نزل بلسانها الكتابُ الكريم، يَجب عليها أن تعمل على نَشرِ دينها ونَشرِ لسانها ونَشرِ عاداتها وآدابها بين الأمم الأخرى وهي تدعوها إلى ما جاء به نبيُّها من الهُدى ودين الحق، لتَجعل من هذه الأمَّةِ الإسلاميةِ أُمَّةً واحدة، دينُها واحد، وقِبلتُها واحدة، ولغتُها واحدة، ومقوِّمات شخصيتها واحدةٌ، لتكون أُمةً وسطًا، ويكونوا شهداءَ على الناس، فمَن أراد أن يدخل في هذه العُصبةِ[(٢)] الإسلاميَّة، فعليه أن يعتقدَ دينَها، ويَتَّبعَ شريعتَها، ويهتديَ بهديها، ويتعلَّمَ لغتَها، ويكون في ذلك كلِّه ـ كما قال الشافعي ـ: تبعًا، لا متبوعًا»[(٣)].

□ ونَقل شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإمام أحمد كراهةَ أن يتعوَّد

---

(١) «فضل العربية» (٦٣).

(٢) العُصبة: الجماعة.

(٣) «فضل العربية» (٤٢ ـ ٤٤).

الرجلُ الكلام بغير العربية[١].

□ وقال بعضُهم: «المروءةُ: الفَصاحةُ والسَّماحةُ»[٢].

□ وقال الأصمعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثلاثةٌ تَحكُمُ لهم بالمروءة حتى يُعرفوا: رجلٌ رأيتَه راكبًا، أو سَمِعتَه يُعرِب، أو شَمِمتَ منه رائحةً طيِّبةً.

وثلاثةٌ تَحكم عليهم بالدَّناءة حتى يُعرفوا: رجلُ شَمِمتَ منه رائحة نبيذٍ في مَحفَلٍ[٣]، أو سَمعتَه يتكلمُ في مصرٍ عربيٍّ بالفارسية، أو رأيتَه على ظَهرِ الطريق يُنازِعُ في القَدَر»[٤].

□ وقال أيضًا: «تَعلموا النَّحو، فإنَّ بني إسرائيل كفروا بكلمةٍ واحدةٍ، كانت مُشدَّدةً فخَفَّفوها؛ قال اللّهُ: «يا عيسى، إني وَلَّدتُكَ»[٥]، فقرؤوها: «يا عيسى، إني وَلَدْتُك»، فكفروا»[٦].

□ ورُويت هذه الكلمةُ عن عبدالله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ بلفظ: «أنفقتُ في الحديث أربعين ألفاً، وفي الأدب ستِّين ألفاً، وليتَ ما أنفقتُه في الحديث أنفقته في الأدب، قيل له: كيف؟! قال: لأن النصارى كفروا بتشديدةٍ واحدةٍ خفَّفوها، قال تعالى: «يا عيسى، إني ولَّدتُك من عذراءَ بتول[٧]».

---

(١) «فضل العربية» (٥٤ ـ ٥٥).

(٢) «خوارم المروءة» (٤٧).

(٣) لأن هذا يدلُّ على قِلة حيائه من اللّـه تعالى ومن الناس.

(٤) «خوارم المروءة» (١٢٨)، والكلمة الأخيرة «القَدَر» ضبطُها من عندي، إذ قد تكون «القِدْر»، ويكون لها وجهٌ.. واللّهُ أعلم.

(٥) أي: أخرجتُك من بطن أمك.

(٦) «روضة العقلاء» (٣٦٣).

(٧) البتول: المنقطعة للّـه سبحانه.

فقالت النصارى: وَلَدْتُكَ»..»[١].

□ وقال الكُرَيزيُّ:

أكرم بذِي أدبٍ أكرِمْ بذِي حَسبٍ ... فإنَّما العِزُّ في الأحساب والأدَبِ
والناسُ صِنفان: ذو عقلٍ وذو ... كمَعدِن الفِضَّةِ البيضاءِ والذَّهبِ
وسائرُ الناس مِن بين الورى هَمَجٌ ... كانوا مواليَ أو كانوا من العَرَبِ[٢]

□ وقال أبو عليّ الجُبَّائي: «خصَّ اللّهُ تعالى هذه الأُمَّةَ بثلاثٍ، لم يُعطِها مَن قبلها: الإسْناد، والأنساب، والإعراب»[٣].

□ وقال الكُريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولم أرَ فَضلًا تمَّ إلَّا بشِيمةٍ[٤] ... ولم أرَ عَقلًا صحَّ إلَّا على أدَبِ
ولم أرَ في الأعداءِ حين اختبَرتُهمْ ... عدوًّا لِعقلِ المرءِ أعدَى منَ الغَضبِ[٥]

□ وقال شعبةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تعلَّموا العربية، فإنَّها تَزيدُ في العقل»[٦].

ولْنختم هذا الفصلَ بهذه الكلمات:

□ يقول العلَّامة المُحقِّق أحمد تيمور رَحِمَهُ ٱللَّهُ متحدثًا عن شَمائل العرب، فيقول: «كانت لغتُهم من أعزِّ الأشياء لديهم، حتَّى إنَّهم كانوا يأنَفون من

---

(١) «معجم الأدباء» (١/ ٢).
(٢) «روضة العقلاء» (٣٦١).
(٣) انظر كتابنا: «مبشرات النصر والتمكين» (٣٨٥).
(٤) الشِّيمة: الصفة الحسنة النبيلة.
(٥) «روضة العقلاء» (٣٦٤).
(٦) «تهذيب التهذيب» (٤/ ٣٠٢).

مُخالطةِ غير العرب حِفظًا لهم من العُجمة» انتهى[(١)].

□ ويقول الأستاذ محمد صادق عنبر: «اللغةُ من الأمة كالقلب من الجسم، كلاهما ألطفُ شيءٍ وأدقُّه، وكلاهما لا تكونُ بدونه الحياة، وما من أمةٍ خَلعت دهرًا لبسته، فخرجت بذلك من ماضيها، وطَفِقت تعملُ لحاضرها وتمهِّدُ لمستقبلها، إلا كانت لغتُها مَعقِدًا لهذه الأطراف الثلاثة من التاريخ، ذلك أن اللغة من مشخِّصات الأمة الناطقة بها، فما فرَّطت أُمةٌ في جانب لغتها إلا كان ذلك إيذانًا بفَدْح مُصابها، أو إيذانًا بوشك ذهابها، بل ليس هذا التفريطُ إلى انقطاعًا من سَلْك التاريخ، وما انقطعت أمةٌ من سَلكه إلَّا جهِلته، فكان مثلُها مثلَ الرقيق الذي يألفُ من فقدان حريته أن يجهل حريتَه إذا ملك أمره، فهو إن لم يجد مالكًا يُسخِّرُه كُرهًا، سخَّر نفسه طوعًا على أن يؤجر بمساك حياته، إذ تكون حريتُه مادةً في معدته، بعد أن كانت معنًى رُوحانيًّا في فطرته.

أجل، إن اللغةَ وُصْلَةٌ بين غابرٍ وحاضر، فإذا ضاعت لغةُ أُمةٍ انقطعت أواصرُ النسب بين السلف والخلَف، وفَقَدت الأمةُ بفقدان لغتها سِجِلَّها الحي، فالتوى لسانُها الناطق، وسكن قلبَها الخافق، وفي بعض ذلك كلُّ الموت.

وأنت، ألست ترى ـ إذا ذهبتَ تُوازِنُ بين أخطار الأمم ـ أن أهونها على الدهر خطرًا هي التي جَهِلتْ لُغتَها، وما لغتُها إلا لسانُ تاريخها، فلم تعُدْ ترتبطُ من الزمان بصِلة، وكان من الهين على من يشاءُ أن يستلحقها، وهان عليها أيضًا أن تلتحقَ بكلِّ تاريخ، كما يَلحقُ الخادمُ بكل مَن

---

(١) «مقالات لكبار كتاب العربية» (١/ ٤٣).

يستخدمه، لا يميِّز بين سيدٍ وسيدٍ إلا بمقدار الأجر الذي يبيعُ به كرامتَه، ويشتري به مهانته.

وهل تُفرِّقُ بين أمةٍ بلي فيها لسانُها، وأمةٍ غابرةٍ بَلِيت عليها أكفانُها ـ وكلتا الأمتين مَيْتة ـ إلَّا بأن الأُولى لم يُشقَّ لها قبر؟!.

ألا إن اللغةَ تَرِكةُ الماضي، وغِنى الحاضر، وميراثُ المستقبل، وهذه الثلاثةُ الأزمنة هي كلُّ أعمار الأمم في التاريخ، فما أرى ـ إذا أضاعت أمةٌ لُغتَها ـ بأي شيءٍ يُشار إليها، وبأيِّ دلالةٍ يُدلُّ عليها؟! ولا أعرف ـ إذا لم تتميز جنسيةُ أمةٍ بلغتها ـ أيَّ حدٍّ يَفصلُ بينها وبين غيرها من الأمم؟!.

ولقد علِمنا أن لكل أمةٍ شاهدًا من لغتها على ما فُطرت عليه من دين، ودُوِّن لها من تاريخ، وعُرف عنها من نسبٍ ومدنيَّةٍ وفنون، ففقدانُ أُمةٍ لهذه الثروة المعنوية اعترافٌ منها بسفاهتها، وبأنها في حاجةٍ إلى القوَّام.

ولقد أراق الكُتَّابُ كثيرًا من المِداد في بيان أن اللغة هي الأساسُ الذي يُقام عليه بنيانُ الوحدة في كل جنس، وأنها في الصِّلةِ الحسيةِ بين المتكلِّمين بها أفرادًا، وصورةُ الحياة الاجتماعية عندهم تركيبًا، وكفى في الدلالة على ما بين اللغة والأمة من علاقةٍ وثيقة: أنك لا تجدُ أُمةً في مكانٍ من العزة مَكينٍ، إلا حيثُ تجدُ لُغةَ أهلها قائمةَ السلطان على الألسنة، ولا تجدُ لغةً عُرضةً لغائلةِ الحوادث إلا حيث تجدُ أُمةً عُرضةً لعَوادي المقادير.

ألا إن اللسان ـ من حيث هو مضغةٌ ـ مرآةٌ للصحة، ومن حيث هو لغةٌ مرآةٌ للأمة، فأخلِقْ بأُمةٍ ـ تُسلِّمُ لغتها للفناء ـ أن نقرأ عليها منذ الآن قصائدَ التأبين والرثاء» انتهى[1].

---

(١) «مقالات لكبار كتاب العربية» لمحمد بن إبراهيم الحمد (٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤).

نسألُ الله تعالى أن يُعينَنا على صيانة لغةِ الكتاب والسنة، إنه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين[(١)].

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت: ٣٩٥) صاحب «مجمل اللغة» و«معجم مقاييس اللغة»:

□ قال الثعالبي عنه: «أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المقيم كان بهمذان. من أعيان العلم وأفذاذ الدهر، يجمع إتقان العلماء، وظُرف الكُتَّاب والشعراء. وهو بالجبل كابن لنكك بالعراق، وابن خالويه بالشام، وابن العلاف بفارس، وأبي بكر الخوارزمي بخراسان»[(٢)].

□ يقول عنه العلَّامة المحقق المدقِّق عبد السلام محمد هارون: «عُرِف ابن فارس بمعرفته الواسعة باللُّغة. وكتابه «المجمل» في اللغة لا يَقِلُّ كثيرًا في الشهرة عن كتاب «العين» و«الجمهرة» و«الصحاح». وقد عُرِف رَحِمَهُ اللهُ بالتزامه إيراد الصحيح من اللُّغات».

قال السيوطي – بعد أن سرد طائفة من كُتب اللغة المشهورة-: «وكان في عصر صاحب الصِّحاح ابن فارس، فالتزم أن يذكر في مجمله الصحيح»[(٣)].

وقد بلغ من حُبِّه للّغة وعشقه لها، أن ألَّف فيها ضروبًا من التأليف، وكان يستحث عزيمة معاصريه من الفقهاء أن ينهضوا بتعرُّف اللغة

---

(١) « هذا الفصل مستفادٌ من كتاب: «منزلة اللسان العربي، ودوره الهام في سيادة الأمة»، كتبه: أبو شُعيب طارق بن عبدالواحد بن علي ـ عفا اللّهُ عنه ـ.

(٢) «يتيمة الدهر» (٣/ ٢١٤) للثعالبي.

(٣) «المزهر» للسيوطي (١/ ٩٧).

والتبحُّر فيها، وألَّف لها فَنًّا من الإلغاز سمَّاه «فُتيا فقيه العرب»، يضع لهم مسائل الفقه ونحوها في معرض اللغة، ولعلَّ الإمام الشافعي أوَّل من عُرِف بهذا الضَّرب من المُعاياة اللغوية الفقهية.

□ على أن ابن فارس في كتابه «معجم مقاييس اللغة» قد بلغ الغاية في الحذق باللغة، وتكنُّه أسرارِها، وفَهْم أصولِها؛ إِذْ يردُّ مفردات كلِّ مادة من موادِّ اللُّغة إلى أصولها المعنوية المشتركة فلا يكاد يخطئه التوفيق. وقد انفرد من بين اللُّغويين بهذا التأليف لم يَسبقه أحدٌ ولم يخلُفْه أحَد. وأرى أن صاحب الفضل في الإيحاء إليه بهذه الفكرة العبقرية هو الإمام الجليل أبو بكر محمد بن الحسن بن دُرَيْد.. فحاول أن يقوم بمَا عجز عنه ابن دريد أو نكص عنه، فألَّف كتابه «المقاييس» يطْرُد فيه قاعدة الاشتقاق فيمَا صحَّ لديْه من كلام العرب.

□ وابن فارس يُعَدُّ في طليعة العلماء الذين أخذوا من كُلِّ فنٍّ بسهم وافر، ولم يقف بنفسه عند حدِّ المعرفة والتعليم، بل اقتحم ميدان التأليف المُوَفَّق، فهو يذهب فيه إلى مدًى متطاول. ويحتفظ التاريخ له بهذه المؤلَّفات العديدة القيِّمة»:

(١) الاتباع والمزاوجة. (٢) اختلاف النحويين. (٣) الإفراد. (٤) أمثلة الأسجاع. (٥) الانتصار لثعلب. (٦) تمام فصيح الكلام. (٧) دارات العرب. (٨) الصاحبي وهو الاسم الذي شهر به كتابه «فقه اللغة». (٩) الفريدة والخريدة. (١٠) اللامات. (١١) مختصر في المؤنث والمذكَّر. (١٢) مقالة كَلَّا وما جاء منها في كتاب الله»[١].

---

(١) مقدمة الأستاذ عبد السلام هارون «لمقاييس اللغة» (ص٣- ٣٧) مُلَخَّصة. طبع

الإمام عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٣٠-١٠٩٣هـ) «صاحب خزانة الأدب» و«لبِّ لباب لسان العرب»:

□ قال عنه الشيخ محمود محمد شاكر في رسالته القيّمة «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»: «هبّ من جوف الغفوة الغامرة أشتاتٌ من رجال أيقظتهم هَدَّة هذا التقوّض[1] فانبعثوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة في غفوتها.. رجال عظام أحسوا بالخَطر المُبْهَم المُحْدِق بأمَّتهم، فهبُّوا بلا تباطؤ بينهم. كانوا رجالًا أيقاظًا مُفَرَّقين في جَنبَاتِ أرضٍ مترامية الأطراف، متباعدةٌ أوطانهم، لا يجمعهم إلَّا هذا الذي توجَّسوه في قرارة أنفسهم مبهما من خطر مُحدق. أحَسُّوا الخطر فراموا إصلاح الخَلَل الواقع في حياة دار الإسلام: خَلَل «اللُّغة» و«خلل العقيدة» و«خلل علوم الدين» و«خلل علوم الحضارة». وبأناة وصبْر عَمِلُوا وألَّفُوا وعَلَّموا تلاميذهم. وبهمّةٍ وجدٍّ أرادوا أن يُدْخلوا الأمّة في «عصر النهضة»، نهضةِ دار الإسلام من الوَسَن والنَّوْم والجهالةِ والغفلة عن إرث أسلافهم العظام. من هؤلاء خمسة من الأعلام أذكرهم هنا مجرَّد ذكر باختصار.

١- البغدادي، عبد القاهر بن عمر، صاحب «خزانة الأدب» (١٠٣٠-١٠٩٣هـ/ ١٦٢٠-١٦٨٣م) في مصر.

٢- «الجبرتي الكبير» حسن بن إبراهيم الجبرتي العقيلي في مصر.

٣- ابن عبد الوهاب.. محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي.

دار الجبل.

(١) مناصبة أوروبا العداء للخلافة العثمانية ومحاولة تقويض أركانها.

٤- «المرتَضى الزبيدي»، محمد بن عبد الرزاق الحسيني، صاحب «تاج العروس» (١١٤٥-١٢٠٥هـ/ ١٧٧٢-١٧٩٠) في الهند وفي مصر.

٥- الشوكاني: محمد بن علي الخَوْلاني الزيدي في اليمن.

البغدادي:

هبَّ البغدادي في منتصف القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، فألَّف ما ألَّف ليردّ على الأمة قدرتها على «التذوّق»، تذوّقِ اللُّغة والشعر والأدب وعلوم العربية..

وهب «المرتضى الزبيدي» يبعث التُّراث اللُّغوي والديني وعلوم العربيَّة وعلوم الإسلام، ويُحيي ما كاد يَخفَى على الناس بمؤلفاته ومجالسه»[(١)].

و«خزانة الأدب» شرح لشواهد «الرضي» على الكافية، التي بلغت ٩٥٧ شاهدًا من شواهد العربيّة. وفيها يقول المولى محمد المحبي[(٢)]: «وألَّف المؤلفات الفائقة، منها شرح شواهد شرح الكافية للرضى الأستراباذي في ثماني مجلَّدات، جمع فيه علوم الأدب واللغة بأسرها إلَّا القليل، ملكْتُه بالروم وانتفعت به، ونقلت منه في مجاميع لي نفائس أبحاثٍ يعزُّ وجودها في غيره». و«خزانة الأدب» -وهو الذي خَلَّد اسم البغدادي- يُعَدُّ أعلى موسوعة في علوم العربية وآدابها. شَحَنَه بالنصوص النادرة، وحفظ لنا بقايا من كُتُب قد فُقِدَتْ أو اندثرت، مع عناية حازمة

(١) «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» للشيخ محمود محمد شاكر (ص٨٣، ٨٤).

(٢) «خلاصة الأثر» للمحبي (٢/ ٤٥٢).

بالنَّقد والتحقيق لكلِّ ما يُورِده من ذلك.

هذا إلى سرده لكثير من أمثال العرب، وبيان معانيها ومضاربها وأصولها، وحشده للغات القبائل ولهجاتها، وحرصه على إيراد قصائد الأبيات التي تعرَّض لها، مع شرح الكثير منها شرحًا مُحَقَّقًا مع العناية الكاملة بالمقصد الأول لشرحِ الشواهد، وهو تحقيق المسائل النحوية واستيعاب دراستها، مع الاعتماد على أمهات النحو ومُطَوَّلاته، ومراجع شروح الشواهد، في علاج علميّ نقدي.

علامة العراق الشيخ أبو المعالي محمود شكري الألوسي (١٢٧٣-١٣٤٣هـ/ ١٨٥٦-١٩٢٤م):

□ قال عنه تلميذه العلَّامة محمد بهجة الأثري: «العلَّامة السيد محمود شكري الألوسي رُكْنٌ من أرْكان النهضة، فذٌّ، متعَدِّد الجوانب.. جَرَّ عَواليه، وأجْرَى سوابقه في نواحي مختلفة من ميادين المعرفة والإصلاح والجهاد، وكان الفارس المُجلِّي في العلوم النقلية والعقلية، وإمامًا في الدين واللغة والأدب والتاريخ، جَمَع إلى الذاكرة الجامعة والتطبيق الجلد الصبور عُمْقَ التفكير واستقلاله وجراءته، وامتاز بالتحرُّرِ وحرارة الإيمان مع سُمُوِّ الذات»(١).

وهو من أوائل علماء الأمة الذين أعملوا أقلامهم في إحياء مقومات الأمة ومشخِّصاتها الأصيلة من دين وأدب ولغة وتاريخ وحضارة.

□ وكان رَحِمَهُ اللَّهُ شديد الثبات، جلدًا على البحث والتنقيب والنسخ

---

(١) محمود شكري الألوسي سيرته ودراساته اللغوية – لمحمد بهجة الأثري (ص٣)- طبع مركز المخطوطات والتراث- الكويت.

والمطالعة، لا تعرف همَّته الملل ولا الكسل.. إذا استحسن كتابًا عاود مطالعته ولو كان مجلَّدات، وهذا ما صنع بلسان العرب لابن منظور. بل ألف في شهر واحد كتابًا في سبعين كراسة بياضًا من دون تسويد..

قد كنتَ للعلم في أوطاننا جبلًا إذا تقسّم فيها كان أجبالا
وبحرَ علم إذا جاشت غواربه نغّصت بالحزن شهر العيد شوّالا

□ ورحم الله مفتي البصرة أحمد بن عبد الحميد الشاوي حيث يقول في شكري:

وما إنْ رأى إنسانُ عيني واحدًا كما شئت إنسانًا يُعَدُّ سوى شكري
فقل لغَبِيٍّ قاسَهُ بسوائه ولم يَعْرِف التِّبر المُصَفَّى من الصُّفر
عداك الحجَى أين الثُّرَيّا من الثرى وأين حصى الحصباء مِن دُررِ

وفّقه الله لتأليف عدَّة كتب ورسائل، تتجاوز خمسين مؤلفًا ما بين مختصر ومطَوَّل[١].

ألَّف رَحِمَهُ اللهُ كتابه القيِّم «غاية الأماني في الرَّدِّ على النبهاني» في شهر الصيام[٢].

□ قال عنه الشيخ محمد رشيد رضا في «مجلة المنار»: «عالم العراق، ورحلة أهل الآفاق، ناصر السُّنَّة، قامع البدعة، محيي هَدْيِ السَّلَف، حافظ فنون الخَلَف، علّامة المنقول، ودرّاكة المعقول، دائرة المعارف الإسلامية، نبْراس الأمة العربية». وقال فيه: «كان إمامًا يُقتدَى به في عِلمه

(١) المصدر السابق (ص «ط»).
(٢) بالتدقيق: في أربعين يومًا.

وعمله، وهَدْيه وآدابه وفضائله، وقف جميع حياته على علوم الإسلام وفنون اللغة العربية في هذا العصر الذي قلّ فيه الاشتغال بالعلم والأدب في تلك البلاد بين أهل السُّنَّة وكاد ينحصر في الشيعة».

إلى أن قال: «فلم نسمع للعلوم العربيَّة والدينية على مذهب السُّنَّة صوتًا إلَّا من هذا الرَّجُل؛ لهذا لقَّبْناه في مكتوباتنا له بعالِم العراق»[(١)].

□ كانت ببغداد لعهده ثماني خزائن كتب عامة في مساجدها حافلة بنوادر المخطوطات، فنفضها نفضًا، ونسخ الكثير منها، وعلّق الفوائد والفرائد، ثم تجاوز جهده في ذلك إلى خزائن كتب دمشق والقاهرة والمدينة ونجد وإسلامبول وغيرها[(٢)].

□ ألَّف كتابه الكبير «بلوغ الأرب في أحوال العرب» في الثلاثين من عمره، ونال هذا الكتاب جائزة الملك «أسكار الثاني» ملك السويد والنرويج، وهو فوز سجّل به الألوسي الشاب مظهرًا جديرًا للعبقرية العربية كسب إعجاب الغربيين[(٣)]، وكتب إليه الكونت كرلودي لندبرج نائبًا عن لجنة المسابقة».. فنحن نشكر السيد على هذه الهمة المحمودة، والغيرة العِلمية المشهودة، فلا شك أنه أجهد نفسه في البحث والتِّنْقاب، حتى استخلص من بين تلك القشور ذلك اللباب، فهكذا تكون الهمم، ولمثل ذلك فليعمد رجال الحِكَم»[(٤)].

---

(١) المصدر السابق (ص٥٩).
(٢) المصدر السابق (ص٥٨).
(٣) المصدر السابق (ص٦٤).
(٤) المصدر السابق (٧١).

□ وله رَحِمَهُ اللهُ الدراسات اللغويَّة العميقة التي تصف لنا عبقرية اللغة العربيَّة، وتكشف عن طاقاتها الحيّة.

وعكف رَحِمَهُ اللهُ على كتب اللغة العربية وتملّي بدائعها وروائعها، ويتفقّه في أسرارها، ويتعمّق في فلسفتها، وصبر واستشعر اللذّة كل اللّذّةِ في هذا الصبر على قراءة أعظم مُطوّلات المعاجم مرَّةً بعد مَرَّة، كـ «لسان العرب» الذي قرأه ثلاث مرات من أوّله إلى آخره بالترتيب قراءة تدبُّر وتأمُّل وإمعان نظر، لتتمثّل في ذهنه هيئات المفرَدات، ويتعمّق حسه اللُّغوي، ولعلَّه من أيسر ما قرأ واستوعب في عمره المدبد.

ومن بيِّناته كذلك دُءُوبُهُ على تدريسها، وتفقيه الناس بها، وتخريج الطُّلّاب الذين يخلفونه على خدمتها.. في مدى خمسين عامًا وزيادة، في طرفي النهار وزُلَفٍ من الليل، لم يدركه فيها وناءٌ ولا مَلَل، وقد كان أثره في تنشئة طُلّابه على الحفاظ على اللغة العربية يُشاكل أثره في بحوثه، بل يزيدُ عليه؛ فإنه أنفق في هذا من الوقت ومن المجهودِ أضعاف ما أنفقه في البحث والتأليف.

□ وكان من شدة هذا العشق عنده للغة يتهلّلُ مُحَيَّاه بِشْرًا حين يُطلِعُ تلاميذه على سِرٍّ من أسرارها، أو يُفقههم مسألة من مسائلها الحيوية التي تكشف عن طاقاتها وعن قدرتها على مسايرة الحياة.

وكان رَحِمَهُ اللهُ لا يكلَفُ بشيء كَلَفه بهذه اللغة، ولا ينظر إليها إلّا ولسانُ حاله يقول مع ذي الرُّمَّة:

وإني متى أُشرفْ على الجانبِ ... به أنتِ مِن بينِ الجوانب ناظِرُ

□ يقول: «لقد سمعتُ بعض من لا خَلاقَ له من الناس يدَّعي «أن

لغات الإفرنج اليوم أوسعُ من لغة العرب، بناءً على ما حدث فيها من ألفاظ وضعوها لِمَعانٍ لم تكن في القرون الخالية والأزمنة الماضية، فضلًا عن أن تعرفه العرب فتفوه به، أو تتخيّله فتنطق به»[١].

ثم يقول: «ولا يخفى عليك أن هذا كلامٌ يُشعر بعدم وقوف قائله على منشأ السَّعة، وأنه لم يَخُضْ بحار فنون اللغة حتى يعلم أن المزيّة من أين حصلت».

ولقد أبحر الألوسي في علوم اللغة وأتى بالأعاجيب في علم«الاشتقاق»، و«الترادف»، و«النحت» و«التضمين» و«ما يصح به الاستشهاد في اللغة» و«فنّ الوضع».

فرحم الله هذا الإمام الفذّ، وأجزل له المثوبة في فردوسه، ومتَّعَه بالنظر إلى وجهه.

شيخ الباحثين الرئيس محمد كُرد علي (١٢٩٣-١٣٧٢):

مؤسس أول مجمع عربي وهو «المجمع العلمي العربي بدمشق «مجمع اللغة العربية» عام ١٩٢٠.

□ وكان له دور كبير وعظيم في إنشاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إذ أنه قدّم للملك فؤاد الأول في لقاء بينهمَا عام ١٩٢٦ تجربة دمشق في إنشاء المجمع، فكان بذلك ممن مهّدوا لإنشاء المجمع بالقاهرة ١٩٣٤ واختير من أعضائه، وقضى في مجمع اللغة بالقاهرة نحو عشرين عامًا.

□ وكان رَحِمَهُ اللهُ موسوعيًّا بأشمل ما تعنيه الموسوعية من معنى، تنوّعًا

---

(١) «بلوغ الأرب» (١/ ٤٤).

في المعرفة، ووفرة في الإنتاج، وبلوغًا بهمَا الحدّ الذي تقع دونه همم الموسوعيين، ولكن الموسوعية عنده لم تتحيّف الموضوعية التي يُطالب بها العصر الحديث، ولا التخصص الذي لا بد منه.

ولقد توارد على صعيد دراساته كثير من المحدثين المتخصصين في الدراسات الأدبية أو التاريخية أو الإسلامية، فمَا وجدوه واقفًا من تلك القضايا بعيدًا عمَا وقفوا، بل لم يجدوا فيمَا انتهوا إليه بالتخصص والموضوعية كثير فرق عمَا انتهى إليه بالشمولية والموسوعية(١).

محمد كرد علي المُحقّق الثَّبْت ومطالعته للمخطوطات:

لقد نبش محمد كرد علي المخطوطات من مدافنها ولخّصها.

ومن أعظم ما كتب «خطط الشام»، وإذا رجعنا إلى مقدمته نكادُ أن نضيع في هذه المصادر التي عوّل عليها في تأليف كتابه.

ومن كتبه القيمّة التي أَثْرَت اللغة كتابه «أمراء البيان» الذي اختار فيه عشرة مبشرة بالبلاغة في عصر العرب الزاهر، اختارهم من عيون الكتابة في البيان العربي على ذوْقٍ رفيع وعلم عميق، وتجربة مثاليّة، فتناول بالدراسة عبد الحميد الكاتب، وابن المقفع، وسهل بن هارون، وعمرو ابن مسعدة، والجاحظ، والتوحيدي، وابن العميد.

(١) «شيخ الباحثين الرئيس محمد كرد علي» (ص٨، ٩، ١٠) لمحمد بن إبراهيم الشيباني – مركز المخطوطات والوثائق- الكويت.

شيخ العروبة وحامل لوائها فارس التراث أبو فهر الشيخ محمود محمد شاكر (١٣٢٧هـ - ١٤١٨هـ) = ١٩٠٩-١٩٩٧م:

الفارس الأخير الذي سقط تحت «راية القرآن» وفي حومة الدفاع عن مقومات هذه الأمة وأصالتها وقرآنها وفُصحاها وتراثها وهويتها الإسلامية، التي ضاعت الأمة بعد أن أضاعتها.

□ لله دَرُّ أبي فهر الحاصل على جائزة الملك فيصل في الأدب العربي، ولقد كان شيخ العربية الشيخ محمود شاكر صاحب منهج يقوم على العودة إلى التراث، وعلى التمسك بلغة القرآن وأدب العربية الأصيل، في شعره الجاهلي وما بعد الجاهلي، ليكون من ذلك كله درع تصدّ عن الأمة تيار التغريب الجارف الذي ضيّع هوية الأمة بالتقليد الأعمى لكل ما لدى الغرب، وأقام الشيخ لمنهجه المعالم والصوى.

□ وكان للشيخ فرادة في مجالات عديدة أجاد فيها، سواء في مجال التحقيق الذي كان صاحب منهج منفرد فيه، أم في مجال الدراسات الأدبية والفكرية، أم في مجال الإبداع الذي بلغ ذروة العطاء في ملحمة «القوس العذراء» التي قال فيها الناقد الكبير الدكتور إحسان عباس: «لا ريب عندي في أن الشعر الحديث قد ضل كثيرًا حين لم يهتد إلى (القوس العذراء) وأن الناقد الحديث كان يعشو إلى أضواء خادعة حين انقاد وراء التأثر بشعر أجنبي ورموز غريبة، ولم يستطع أن يكتشف أدواته في التراث كما فعلت القوس العذراء»[١].

□ انقطع عن الكتابة في الصحف والمجلات، بعد إغلاق «الرسالة»

(١) «مجلة الأدب الإسلامي» - العدد السادس عشر (ص١).

القديمة في سنة ١٩٥٢م، وتفرغ للعمل بالتأليف والتحقيق ونشر النصوص، فأخرج جملة من أمهات الكتب العربية مثل: «تفسير الإمام الطبري» (ستة عشر جزءًا)، و«طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحي، و«جمهرة نسب قريش» للزبير بن بكار، وشارك في إخراج «الوحشيات» لأبي تمام، و«شرح أشعار الهذليين».

□ ونشر في عام ١٩٥٢م قصيدته «القوس العذراء» التي تعد معلمًا على طريق الشعر الحديث رغم التزامها بحرًا متساوي الشطرين ومحافظتها على وحدة القافية، ثم أعاد نشرها مرة ثانية في سنة ١٩٦٤م.

□ كما ألف كتابه الشهير «أباطيل وأسمار»، وهو مجموعة مقالات (٢٥ مقالة) كتبها في مجلة الرسالة الجديدة، ثم طبعت مرتين، المرة الأولى سنة ١٩٦٥م وصدر مجلد واحد (فيه قسم من المقالات) وصودر المجلد الثاني، والمرة الثانية، سنة ١٩٧٢م في مجلدين ضمَّا جميع المقالات.

□ وكان سبب كتابة هذه المقالات التعليق على ما نشره الدكتور لويس عوض، المستشار الثقافي لجريدة الأهرام القاهرية حينذاك، في جريدة الأهرام بعنوان «على هامش الغفران» وذهب فيمَا نشره إلى تأثر المعري بحديث الإسراء والمعراج، كمَا ألمح فيه إلى أثر الأساطير اليونانية وغيرها في الحديث النبوي، مما دفع الأستاذ محمود شاكر إلى بيان تهافت كلام لويس عوض وجهله وافترائه، ثم انتقل إلى الكلام عن الثقافة والفكر في العالم العربي والإسلامي وما طرأ عليهمَا من غزو فكري غربي ولا سيمَا حركة التبشير التي غزت العالم العربي والإسلامي، وما تنطوي عليه هذه الحركة من أساليب ووسائل، وقاده البحث إلى تناول قضايا هامة بحيث يعد تاب «أباطيل وأسمَار» من أهم كتبه، بل من أهم

الكتب التي ظهرت في المكتبة العربية في العشرين عامًا الأخيرة.

□ وأعاد طبع كتابه الإمام عن «المتنبي» الذي نشر كعدد مستقل من المقتطف سنة ١٩٣٦م، وقد أثار الكتاب ضجة كبيرة حين صدوره بمنهجه المبتكر وأسلوبه في البحث والإبداع، ومقدمته التي عنوانها: «لمحة من فساد حياتنا الأدبية» التي تناولت بكل صراحة ما اعترى الحياة الأدبية في النصف الأول من هذا القرن من فساد، وما أصاب أجيال المثقفين من تفريغ، تولى كِبْرَه واضع نظم التعليم في مصر، المبشِّر «دنلوب» الذي سيطر سيطرة تامة على التعليم، والذي لا تزال آثاره باقية على أشنع صورة في نظمنا التعليمية.

□ في الفترة التي صاحبت انتقاله إلى مسكنه في شارع السباق ثم إلى مسكنه في شارع حسين المرصفي بضاحية مصر الجديدة، بدأت أجيال من دارسي التراث العربي والمعنيين بالثقافة الإسلامية، من كافة أرجاء العالم الإسلامي، يختلفون إلى بيته، ويترددون على مجالسه العلمية يأخذون عنه ويفيدون من علمه ومكتبته الحافلة التي يسرها للدارسين والباحثين ومنهم: الدكتور ناصر الدين الأسد، والدكتور إحسان عباس، والدكتور شاكر الفحام، والأستاذ أحمد راتب النفاخ، والدكتور محمد يوسف نجم.

□ في سنة ١٩٥٧م أسس - مع الدكتور محمد رشاد سالم والأستاذ إسماعيل عبيد - مكتبة دار العروبة، لنشر كنوز الشعر العربي ونوادر التراث، وكتب بعض المفكرين، وباعتقاله هو وشريكيه في ٣١ أغسطس ١٩٦٥م تم وضعها تحت الحراسة.

□ شارك في عدد من المؤتمرات والملتقيات العربية فحضر «مؤتمر

الأدباء العرب» في بغداد سنة ١٩٧٠م، ودعي إلى حضور الدروس الرمضانية التي تعقد في ليالي رمضان في القصر الملكي بالرباط بالمملكة المغربية (رمضان ١٣٩٥هـ).

□ كذلك لبى دعوة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض وألقى سلسلة من المحاضرات عن «الشعر الجاهلي» ستصدر في كتاب بعنوان «قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام الجمحي».

□ كرمته الدولة فأهدته «جائزة الدولة التقديرية في الآداب» عن عام ١٩٨١م تقديرًا لجهوده وإسهاماته المتعددة في خدمة تراث الإسلام ودرايته الواسعة بعلوم العربية، ومكانته المتميزة في تاريخ الفكر الإسلامي.

وتسلم الجائزة في احتفال أقيم مساء يوم الثلاثاء ٨ رمضان ١٤٠٢هـ/ ٢٩يونيو ١٩٨٢م.

□ وعلى المستوى العربي نال جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي، وتسلم الجائزة في احتفال بحضور الملك فهد بن عبد العزيز في الرياض في ٢٤ جمادي الأول سنة ١٤٠٤ هـ الموافق ٢٥ فبراير ١٩٨٤م.

□ انتخب عضوًا عاملًا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٨٢م.

□ عضو المجلس الاستشاري لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (١٩٩١-١٩٩٧م).

□ عضو مجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية (١٩٩٤-١٩٩٧م).

□ انتقل إلى جوار ربه تعالى مساء يوم الخميس ٣ ربيع الآخر ١٤١٨هـ الموافق ٧ أغسطس ١٩٩٧م.

ثانيًا: آثاره:

أ- مؤلفاته.

١ - المتنبي.

- عدد خاص من المقتطف عام ١٩٣٦م.

- ط ثانية في مجلدين القاهرة ١٩٧٧م.

- ط ثالثة مطبعة المدني - القاهرة - دار المدني بجدة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢ - القوس العذراء.

- نشرت أول مرة في مجلة الكتاب ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

- مكتبة دار العروبة - القاهرة ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

- مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

٣- أباطيل وأسمار.

- الجزء الأول مكتبة دار العروبة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

- الجزءان الأول والثاني مطبعة المدني - القاهرة ١٩٧٢م.

٤ - برنامج طبقات فحول الشعراء.

مطبعة المدني القاهرة ١٩٨٠م.

٥ - نمط صعب ونمط مخيف.

دار المدني - جدة ١٩٩٦م.

[وهو سبع مقالات نشرت في مجلة «المجلة» عام ١٩٦٩، ١٩٧٠م].

٦ - قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام.

- دار المدني – جدة ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

٧- رسالة «في الطريق إلى ثقافتنا».

صُدّر بها كتابُ المتنبي في طبعته الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ثم صدرت في كتاب مستقل في سلسلة كتاب الهلال بالقاهرة.

ب- تحقيقاته.

١- فضل العطاء على العسر لأبي هلال العسكري المطبعة السلفية – القاهرة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.

٢- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع لتقي الدين المقريزي.

- لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٤٠م.

٣- المكافاة وحسن العقبى لأحمد بن يوسف بن الداية الكاتب.

- المكتبة التجارية ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م.

٤- طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي.

- دار المعارف ط أولى ١٩٥٢م – ط ثانية ١٩٧٤م.

٥- تفسير الطبري.

- الأول والثاني – دار المعارف ١٩٥٤م.

- الثالث والرابع - دار المعارف ١٩٥٥م.

- السادس والسابع والثامن - دار المعارف ١٩٥٦م.

- من التاسع إلى الثاني عشر - دار المعارف ١٩٥٧م.

- الثالث عشر والرابع عشر - دار المعارف ١٩٥٨م.

- الخامس عشر - دار المعارف ١٩٦٩م.
- السادس عشر - دار المعارف ١٩٦٩م.

٦- جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار.

- جـ١ مكتبة دار العروبة ١٣٨١ هـ السفر الأول.

٧- تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار للطبري.

مسند علي بن أبي طالب - مسند عبد الله بن عباس - السفر الأول.

- منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- مسند عبد الله بن عباس - السفر الثاني.
- مسند عمر بن الخطاب.
- منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.

٨- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني.

- مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٨٩م.

٩- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني.

- دارالمدني - جدة ١٤١٢ هـ/ ١٩٩١م(١).

□ قال عنه تلميذه عبد القدوس أبو صالح رئيس تحرير مجلة الأدب

---

(١) استعنا في سيرة حياته وآثاره بالكتيب الذي صدر عن: الهيئة العامة لدار الكتب القومية والمجلس الأعلى للثقافة في ١٥/ ٩/ ١٩٩٧م.

الإسلامي ورئيس رابطة الأدب [(١)]: «لم تكن ذاكرة الشيخ الفريدة، ولا اطلاعه الواسع الشامل، هما اللذان أوصلا الشيخ محمود شاكر إلى أن يكون شيخ العربية دون منازع، وإن أعانا على بلوغه تلك المنزلة العالية، ولكن الذي بوأه مكانته طول معايشته للتراث، وطول تأمله فيه، حتى خالط لحمه ودمه، وحتى ألقى عليه مقاليده وأسراره، فكان كما شهدت وشهد الكثيرون أفرس الناس ببيت الشعر، وكان صاحب أسلوب كالبنيان المرصوص، وكان أن ندب نفسه ليكون سادنًا للغة القرآن، وحاميًا لتراث الأمة ونذيرًا لها من هجمة التغريب الشرسة.

وكان الشيخ محمود شاكر يَعُدُّ تقصير المحققين للتراث خيانة سافرة لهذا التراث، وكان منهجه يقوم على استفراغ الجهد في التحقيق، بكل ما يقتضيه منهج التحقيق العلمي.

ودليل على تبحره في اللغة ما نجده في «فهارس طبقات فحول الشعراء، إذ نجد فهرسًا عجيبًا بعنوان: «ألفاظ من اللغة، أخلّت بها المعاجم أو قصرت في بيانها»، وقد جاء هذا الفهرس العجيب في أربع صفحات ونصف الصفحة، وما كان الشيخ محمود شاكر ليضع لفظة واحدة في هذا الفهرس الكبير الذي استظهره من تحقيقه لكتاب واحد، لولا أنه استعرض كتب اللغة ومعجماتها، ثم وضع نفسه ندًّا لأئمة اللغة الذين ألفوها، ومضى يستدرك ما أخلوا به أو قصروا في بيانه.

وهو بحق فارس التراث، وشيخ العربية وأديبها الكبير.

---

(١) من مقاله «الشيخ محمود شاكر كما عرفته» لعبد القدوس أبو صالح – مجلة الأدب الإسلامي العدد السادس عشر (ص٩- ١٥).

وعلى الرغم من قلة ما ترك الشيخ لأمته من المؤلفات، فإنه كان في مواقفه ومقالاته وكتبه يمثل صورة الفارس الأخير، الذي حمل راية القرآن من الرافعي، كاتب الإسلام الأكبر، واستطاع أن يقف أمام طه حسين الذي فجر تيار التغريب في هذه الأمة، حين مضى يدعو إلى انسلاخ مصر قلب العالم العربي - عن هذا العالم، بل عن الشرق كله، ويدعو في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» إلى أن يأخذ المصريون حضارة الغرب بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، وما يحب منها وما يستكره.

وكذلك استطاع أن يتصدى في «أباطيل وأسمار» إلى لويس عوض، الذي يمثل الجيل الذي خلف طه حسين، وزاد عليه في التنكر للتراث، وفي دفع الأمة إلى مهاوي العلمانية واليسار والاشتراكية.

□ وقد أنكر بعض الناس أن يتصدى الشيخ محمود شاكر، وهو العملاق الكبير، لقزم لا يطاوله، ولكني أقول: «لقد أراد الشيخ أن يجعل «لويس عوض» مثالًا لتحطيم الأصنام، التي أخذت أجيال من هذه الأمة المسكينة يعدونهم دعاة تنوير، ودعاة تقدم بعد أن تسنم الكثيرون منهم مقاليد الأمور وسيطروا على وسائل الإعلام المختلفة، وعلى دور النشر الرسمية.

وإذا كانت الأمة قد بدأت صحوتها الإسلامية لتعود إلى الإسلام من جديد، فلقد كان محمود شاكر ممن مهدوا لقيام هذه الصحوة، على أساس مكين من التمسك بالقرآن ولغته الفصحى، والاعتماد على تراث الأمة، والوقوف أمام تيار التغريب، سعيًا وراء منهج يعيد الأمة، كما أرادها الله، خير أمة أخرجت للناس.

□ يقول الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى رئيس قسم البلاغة السابق بكلية اللغة العربية جامعة القاهرة في مقاله «محمود محمد شاكر.. والفجر الصادق»[١] : «قليل هم في زماننا الذين عاشوا هموم الوجود العربي الإسلامي، ومن هذا القليل الأستاذ محمود محمد شاكر الذي انقطع لهموم العرب والمسلمين، وجعل هذا الهم شاغله في ليله ونهاره، وفيما يكتب، وفيما يقرأ، وفيما يحدث به مَن يرتادونه، وكأن هذه الأمَّة العربية الإسلامية مع تنائي أقطارها، واتساع ديارها، واختلاف أجناسها، إنما هم أبناء أمه وأبيه، وهم أهله، وعشيرته، الذين يقوم لهم، ويقعد.

ويقول الدكتور عبد الحميد إبراهيم في مقاله «محمود شاكر – الرجل والمواقف»[٢] :

«ألا لا يمنعنّ رجلًا هيبة الناس، أن يقول بحق إذا علمه».

□ هذا نص حديث شريف، استفتح به الشيخ محمود شاكر كتابه «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا».

وهو حديث لا يصدق على أحد بقدر ما يصدق على الشيخ شاكر نفسه، إن مفتاح شخصيته يتلخص في قدرته على قول الحق، مهما كانت الظروف.

وقبل هذه القدرة هناك قدرة ثانية تتكامل معها: وهي قدرته على أن يتبين الحق قبل أن يتنبه له الآخرون.

---

(١) «مجلة الأدب الإسلامي»- العدد السادس عشر (ص١٦- ٢٤) ملخصًا.

(٢) المصدر السابق (ص٢٦- ٢٧).

□ إن تاريخ الشيخ شاكر يتلخص في أنه يدرك الحق قبل أن يدركه غيره، هذا أولًا. وفي أنه يجاهر بهذا الحق ولو سكت غيره، وهذا ثانيًا.

هذا مفتاح شخصيته، وهو مفتاح يدل على أننا إزاء صنف من الرجال، يختلف عن غيره من بقية خلق الله.

فالرجل - أي رجل - لا يقاس بغزارة علمه، ولا بوفرة ماله، فما أكثر العلماء الذين يعرضون صفحات الكتب، ثم يتركون دنياهم، دون أن يدري بهم أحد، وما أكثر الناس الذين يحبون المال حبًّا جمًّا. ويَفنون ويبقى المال ويذهب الأثر.

لقد ذكر الرسول ﷺ أن هناك نَهِمَيْنِ لا يشبعان، طالب علم وطالب مال.

ولا غرابة في ذلك فكلاهما - طالب العلم وطالب المال - يغرقان في لذة شخصية، قد تصرفهما عن المواقف التي تتجاوز حدود الشخصية ومتطلباتها الفردية.

□ الرجل إذن لا يقاس بعلمه، ولا بماله، ولكن يقاس بمواقفه.

وهذا المعيار لا يفرق بين شخص وآخر، بين شخص يعيش لنفسه ويسعى نحو لذائذه، وآخر يعيش من أجل غيره، ويرتفع بمطالبه الشخصية؛ لترتبط بهدف ورسالة.

بين شخص يعيش ليأكل، وآخر يأكل ليعيش، كما تقول الكتب المدرسية، والشيخ شاكر هو من هذا النوع الأخير.

فهو لا يقاس بعلمه ولا بماله فهناك غيره الكثيرون ممن يحفظون النظريات ويسردون عناوين الكتب، وهناك غيره أكثر مالًا وأعز نفرًا.

□ ولكن الشيخ شاكر هو رجل المواقف بالدرجة الأولى.

وهي مواقف تفصله عن غيره، وتتيح له من الخلود ما لا يتاح لغيره.

□ هو يستطيع أن يتبين الحقيقة، في وقت لا يعرفها أحد أو يخشى أن يعرفها أحد.

وهو إذا تبينها جاهر بها، لا تمنعه هيبة الناس أن يقولها، مهما كان مقدار هؤلاء الناس.

□ يقول الشيخ شاكر: «صار حقًّا عليّ واجبًا أن لا أتلجلج أو أحجم، أو أجمجم، أو أداري، ما دمت قد نصبت نفسي للدفاع عن أمتي ما استطعت إلى ذلك سبيلًا»(١).

□ رحمك الله يا شيخ العربية:

قد جئت في زمن ضاعت مكارمه ... وحرمة اللغة الغرّاء تُستَلَبُ

فكنت سدًّا منيعًا دون حوزتها ... من أن يغير عليها الخائنُ الدَّرِبُ

رُمت «الأباطيل والأسمار» تدحضُها ... فهُتِّكتْ دونها الأستارُ والحُجُبُ

□ وفي حوار معه أجراه الدكتور نجم عبد الكريم (٢) قال الشيخ محمود شاكر: «إن هذا الجيل الذي نراه منزوع من أصوله نزعًا كاملًا.. الجيل الذي نشأ في السنوات الأخيرة كله منزوع من أصوله نزعًا كاملًا. وإنه لا بقاء لأمة. لا بقاء لأمة بغير حصيلتها الماضية! بغير هذا التيار المتدفق من القرون الطويلة.

(١) «أباطيل وأسمار» (ص١٠) للشيخ محمود شاكر - طبعة المدني.

(٢) عن صحيفة الشرق الأوسط -العدد ٥٦٦٣- الثلاثاء ٣١/ ٥/ ١٩٩٤، وجاء كاملاً بمجلة الأدب الإسلامي- العدد السادس عشر (ص٥٦- ٦١).

وأعني بالتيار المتدفق ذلك التيار الفكري واللغوي الذي يعيش به الإنسان.. الإنسان يعيش بلغته – فهذا الانفصال بين الماضي والحاضر قاطع بأن كل طريق في الحياة الأدبية سوف ينقطع أيضًا.

□ كأنك بذلك تدق ناقوس الخطر؟

نعم.. لا تستطيع أي أمة أن تعيش بغير تاريخها، والذي يريد أن يُنشئ في هذا الزمن أمة أخرى عن طريق التوهم فهو مخطئ، فتأسيس أمة جديدة عن طريق التوهم ضَرْبٌ من ضروب الخطأ، الأمم بلسانها فقط، الأمم بحركاتها الأدبية واللغوية فقط.. أما الأشياء الأخرى من الصناعة إلى كذا وكذا.. أو الآراء الاجتماعية وما شابه ذلك فهي زائلة ومتحولة، أو يمكن أن تتحول في أي وقت من الأوقات.

ولكن إذا تحوَّل التاريخ فلا يمكن أن يبقى إنسان على صورة صحيحة في هذه الحياة.

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ لمَّا سُئل عن موقفه من «لويس عوض»؟ قال: «الذي دفعني لموقفي أني وجدت شيئًا غريبًا جدًّا كنت أراه مفرقًا ثم رأيته مجتمعًا.. وقد ذكرت ذلك في مقدمتي «أباطيل وأسمار» قلت: كيف تنبهت إلى هذا فقد انفتحت عيناي على شيء مخيف، وهو أني أرى اكتساحًا كاملًا مرورًا بالزمن للعقل العربي والمصري.. وأنا أذكر مصر هذه المرة، وأقول: إن الخطر آت من مصر، وإني أرى توجيهًا شديدًا لمحق كل شيء يمكن أن يكون له صلة بالحياة الصحيحة للفكر الأدبي في المستقبل.

ومعنى هذا أن هذه المعركة ليست معركة أدبية، إنما هي معركة

سياسية بمعنى أنهم يمنعون الأمة مما يجب وينبغي أن تكون عليه وخاصة في مصر.. لأني كما قلت لك أعتقد أن تاريخ الأمم هو تاريخ النفس الإنسانية في تعبيرها عن ذاتها، فإذا مُحِق هذا التعبير الحقيقي الصحيح، فقد انتهت الأمور، فالحرب من هذه الناحية إذن هي حرب الكيان السياسي لا الكيان الأدبي. إنما أنا أعتقد أن هذا الذي ذكرت اسمه في كلامك؛ لأنه لا يساوي شيئًا في التاريخ الأدبي الصحيح ولا فهم له ولا إدراك في أي شيء.. أنا لا أريد أن أذكر هذا الاسم لأنه ثقيل عليّ، وهو ثقيل عليّ منذ زمن قديم.. وقد ذكرت هذه القصة.. فأنا أقرأه منذ كان صغيرًا، وأراه وأعرفه وأعرف كيف نشأ، وكيف نشأ أستاذه [(١)] أيضًا، وكيف تكوّن أستاذه، ومن يليه أعلمهم وأعرفهم جميعًا.. لو كانت لنا أمة حقيقية لفهمت هذه الأشياء؛ لأن الأمم الأخرى تفهم كيف تُحصن نفسها من سموم هذا وأشباهه.

هذا الكلام قبل على لسان من هم أكبر من هذا الذي لا أريد ذكر اسمه؛ لأنه تابع بسيط مبتذل مبهور في كتب من سبقوه من اليهود وأمثاله.

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ: «أحب أن أقول لكل امرئ: إنه مسؤول أمام هذه الأمة التاريخية العظيمة المسماة بالأمة العربية مسؤولية حقيقية.. وأن على كل امرئ أن يبصر طريقه بوضوح قبل أن يفوت الوقت.. فإن الأمم ليست بالصورة التي نتصورها.. الأمم تفنى وتزول، وأنتم ترون بأعينكم أنكم تُعاملون في العالم الآن معاملة شاذة جدًّا في تاريخ البشر، ولا يمكن أن يحدث في التاريخ القديم والمعاصر ما حدث لكم، لقد وصلت

---

(١) عدو الإسلام.. القزم سلامة موسىٰ.

الأمور في بلادنا أننا طُردنا من بيوتنا وشُرِّدنا من أوطاننا وانتهكت كل الحقوق في بلادنا دون أن يتحرك في العالم ضمير إنسان، ودون أن يتحرك حتى الضمير العربي.

واللغة العربية من أشرف اللغات بين العالم، فاللسان هو حياة الأمة لا حياة لأمة بغير لسان! واللسان كالنهر الجارف يجمع كل محصول الأمة، وهو كالغيث منهمر لآلاف القرون، ليتكون منه هذا النهر العظيم.. فإذا انقطع هذا النهر فقد وقعنا في أكبر خيبة» اهـ.

□ قال الدكتور حيدر الغدير في قصيدته «الصقر»[1] : «كان محمود محمد شاكر أمة وحده.. فهو شيخ العربية، وعاشق العروبة، وحارس التراث، وفارس الأصالة، جمع إلى غَيْرَة المسلم عزة العربي.. غفر الله له ورحمه وأنزله منازل الأبرار والصالحين..

صقر على شم الرعان يُحلِّقُ ... ومداه مغرب شمسها والمشرقُ
والنجم والأفلاك في تطوافها ... والروح في أسرارها والمطلقُ
نسجته من أرض الجزيرة ريحها ... ونخيلها وخيولها والأينق
وجبالها ورمالها وجلالها ... وبيانها العذب الشهي المونقُ
وحراء والآي الزواهر تزدهي ... فيه وتهدي العالمين وتعبقُ
فأتى أبرّ رجالها وأعزهم ... وأحبّ ما يرجو الفخار ويعشقُ

باق عطاؤك في الزمان مفاخرًا ... كالنيرات زواهرًا تتألق

(١) «مجلة الأدب الإسلامي»- العدد السادس عشر (ص٦٢- ٦٤).

ستظل للفصحى وإن كـره العـدا | العْلـم يـروي والـصوارم تبـرق
أمـا عِـداك ففـي غـد راياتهم | تطوى كما يطوى الظلام وتمحق
فيقـول راوٍ عـارَهم وشـنارَهم | انظـر إلـيهم لا بقـين ولا بَقُـوا

ووهبتـك آيـات الفـصاحة سـرها | فـإذا بـك القلـم البـديع الـشّيق
والـضاد أنـت نجيُّهـا ونجيبهـا | وعليمهـا وكليمهـا المتـذوق
والحارس الشاكي يصون ذمارها | ويصول إن حمي الـوطيس ويهـرق
غـضبًا لهـا وحميـة مبـرورة | وجـذاه إعـصار يطـوف ويحـرق
فإذا انتصفت لها رجعـت مكلّـلًا | بالنـصر وهـو مزغـرد ومـصفق
ورجعت بالرضوان أنـك صـنتها | أمـا الجبـين فبـالجلال مطـوق
وعلـى محيـاك الأبـي وضـاءة | تـسري فيـأتلق الحجـا والمفـرق
والـضاد تهـديك الثنـاء متوجًـا | والمـسك أكـرم طيبـه والزنبـق

ولقـد عرفتـك في فـؤادك حُرْقـة | نـزَّت جراحـاتٌ تفـيضُ وتَفْهَـقُ
أدمنـت حزنـك إذ رثيـت لأمـة | هي منك قلبك في الجوانح يخفـق
وجعلت همك أن تكـون بـشيرها | ونـذيرها العريـان وهـو المـشفق
والسيفَ سُلّ فمـا يعـود لغمـده | والحادي الهـادي يقـول ويـصدق
وجعلتها عرضًـا يـصان ويفتـدي | بالغاليـات الطيبـات ويـصدق
عاينتهـا فوجـدتها مـصروفة | عن رشدها والجهـل شـر مطبـق
فهتفـت مـن قلـب يكـابر لوعـة | والحـزن عاصـفة ونـار تحـرق

أبنـــاء إسمـــاعيل أنـــتم أمـــة | في التيـه مرهقـة الخطـا تتمـزق
أنتم أسارى الجهل يـدعوكم لـه | لَـسِنٌ يقـول ومـدَّع يتـشدق
أو سـامريٌّ في الجهالـة خـابط | يـسعى بـه حقـد قـديم أزرق
أو مـستكين قـاده مـستغرب | أو قـاده لـضلاله مستـشرق
تتراكـضون وراءه وشـرُورُه | فيكم أشدُّ من الزعاف وأرهق

ولقـد رحلـتَ وفي فـؤادك غـصة | والعين يغشاها الـذهول المرهـق
أبـصرت أمتـك الكريمـة قـصعةً | وحمًـى مباحًـا في المذلـة يغْـرق
عبثـت بهـا أدواؤهـا وبلاؤهـا | فيهـا ومنهـا غاشـيات تطـرق
والمـسلمون مـن الهـوان كـأنهم | دِمَـنٌ صـواد بـالبلى تتمـزق
«نـتن» يعيـث بهـم ويعلـم أنهـم | لن يثأروا مهمـا رغـوا وتـشدقوا
يُقْضى علـيهم غـائبين فـإن أتـوا | لم يغـضبوا أو يـأنفوا أو ينطقـوا

لا أبـا فهـر فأمـةُ أحمـد | ستظل كالـشمس المنيـرة تـشرق
إن الـذي حفـظ الكتـاب وصـانه | نـورًا يفـيض وجـدولًا يترقـرق
سـيظل يحفظهـا ويعلـي شـأنها | ويقيـل عثـرة أمرهـا ويُوَفّـقُ
منهـا الليـاذ بـه ومنـه حفظهـا | والعهـد منـه ومنـه جـلّ الموثـق
ألّا تمـوت وإن كبـت في سـيرها | بل تـستجيش ومـن جديـد تخلـق
فتعـود بالبعـث الجديـد فتيـة | كالغاب من بعـد اليبوسـة تـورق
والله واق مـن يـؤوب لأمـره | وهـو الحفـي بمـن أتـوه الأرفـق

فضيلة الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة وكتابه الفذّ «دراسات في القرآن الكريم»:

ويكفينا هنا ما قاله شيخ العربية وفارسها الشيخ محمود محمد شاكر في تقديمه لهذا الكتاب القيم.

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فماذا يقول القائل في عَمَلٍ قام به فَرْدٌ واحِدٌ، لو قامتْ عليه جماعةٌ لكان لها مَفْخَرَةً باقيةً؟ فمن التواضُع أَنْ يُسَمَّى هذا العملُ الذي يَعْرِضُه عليك هذا الكتابُ «مُعْجَمًا نَحْوِيًّا صرْفيًّا للقرآن العظيم».

فمعلومٌ أنَّ جُلَّ اعتمَاد المعاجم قائمٌ على الْحَصْرِ والترتيب.

أمَّا هذا الكتاب، فالْحَصْر والترتيب مُجَرَّد صورةٍ مُخطَّطَة يعتمِدُ عليها.

أمَّا القاعدة العُظْمى التي يقوم عليها، فهي معرفةٌ واسعةٌ مسْتوعِبةٌ تامةٌ لدقائِق عِلْم النحوِ، وعِلْم الصرفِ، وعِلْم اختلاف الأساليب.

ولولا هذه المعرفةُ لم يَتَيَسَّرْ لصاحبِه أَنْ يوقِّع في حصْره من حروف المعاني وتصاريف اللغة على أبوابها من علم النحو، وعلم الصرف، وعلم أساليب اللغة.

وهذا العملُ الجليلُ الذي تولاه أستاذنا الشيخ محمد عبد الخالقِ عضيمة والذي أَفْنَى فيه خمسةً وعشرين عامًا طوالًا، والذي يَعْرِض عليك منه هذا القسمَ الأوَّلَ إنمَا هو جُزْءٌ مِنْ عَملٍ ضَخْمٍ لم يَسْبقْه إليه أَحدٌ، ولا أظنّ أَنَّ أحدًا من أهْلِ زماننا كان قادرًا عليه بمفرده، فإنَّ الشيخ قد أوتى جَلَدًا، وصبرًا ومعرفةً، وأمانةً في الاطلاع، ودِقَّةً في التحرِّي لم أَجدها متوافرةً لكثير ممّن عرفت.

وحروف المعاني التي يتناولها هذا القسمُ الأولُ من جَمْهَرةِ علم القرآن العظيم[١]، أَصْعَبُ أبواب هذه الْجَمْهرةِ، لكثرتها وتَدَاخُلِ معانيها، فقلّ أن تخلُوَ آيةٌ من القرآن العظيم من حرْفٍ من حروفِ المعاني.

أمَا المشقَّةُ العظيمةُ، فهي في وجوهِ اختلافِ مواقِع هذه الحروفِ من الْجُمَلِ، ثمَ اختلافِ معانيها باختلافِ مواقِعها، ثمّ ملاحظةِ الفروق الدقيقةَ التي يَقْتَضيها هذا الاختلافُ في دلالته المؤثرةِ في معاني الآيات، وهذا وَحْدَه أساس عِلْمٍ جليلٍ من علوم القرآن العظيم.

وسترى في هذا القسم العَمَلَ المُتْقَنَ الذي تولاه أستاذنا الجليل، مواضعَ كثيرةً من الاستدراكِ على النحاة منذ سيبويه إلى ابن هشام، ولكن ليس معْنى هذا أن نَبْخَس الشُّيُوخَ الأوائل نَصِيبهم من التفوُّق الهائل الذي يُذْهل العقول، ولكن معْناه أن الأساس الذي أَسَّسوه في أَزْمنتِهم المتطاولةِ كان ينْقُصُه هذا الْحَصْرُ الدقيق لكل ما في القرآن العظيم من حروف المعاني، وكان هذا الحَصْر خارجًا يومئذٍ عن طاقَتِهم، فإن الذي أعان عليه هو الطباعةُ التي استحدثت في زماننا، والناظر في كُتُبِ القدماءِ لا يُخطئه أن يرى أَنَّهم قاموا بِحصْرٍ غيرِ تامٍّ، بيْدَ أنَّ هذا القَدْرَ الذي قاموا به هو في ذاته عَمَلٌ فوق الجليلِ وفوق الطاقةِ.

ويظنّ أستاذنا الشيخ عضيمة أنّ الأوائلَ قد شغَلَهم الشِّعْرُ عن النَظر في شواهد القرآن العظيم، وأظنّ أنَّ الذي تولاه أستاذنا من حصْرِ هذه الأشياء في القرآن العظيم، وتنزيلِها في منازِلها من أبواب علْم النحو،

---

(١) «الجمهرة» هذه اللفظة وضعتها لما نسميه في هذا الزمان: «دائرة المعارف» أو الموسوعة.

وعِلْم الصرف، وعِلْم أساليب اللغة، مقدمةٌ فائقةُ الدلالة، لعَمل آخر ينبغي أن تتولاه جماعةٌ منظمة في حصْرِ ما في الشِّعْرِ الجاهلي والإسلامي من حروفِ المعاني، ومن تصاريفِ اللغة، ومن اختلافِ الأساليب ودلالتها، والذي ظنَّ الأستاذ أنّ القدماء قد فَرّغوا هِمَمَهُمْ له، هو في الحقيقة ناقصٌ يحتاج إلى تمامٍ، وتمامه أن يُهيىء الله للناس منْ يقوم لهم في الشِّعْرِ بمثْلِ ما قام به هو في القرآن العظيم.

وإذا تمّ هذا كما أتمّ الشيخ عَملَه في القرآن العظيم، فعسى أن يكونَ قد حان الحينُ للنظَرِ في «إعجاز القرآن» نظرًا جديدًا، لا يتيسّر للناس إلَّا بعْد أن يَتِمّ تَحليلُ اللغةِ تحليلًا دقيقًا قائمًا على حصْرِ الوجوهِ المختلفة لكل حرْفٍ من حروفِ المعاني، وتصاريف اللغة، لأنّ هذه الحروف وهذه التصاريف، تُؤثِّر في المعاني، وتُؤثِّر في الأساليب، وتُحدد الفُروق الدقيقةَ بين عبارةٍ وعبارة وأثرها في النفْس الإنسانية وأثر النفْس الإنسانية فيها وفي دلالاتِها.

وإذا كان أستاذنا الجليل قد تواضع فظنّ أنَّه قد وضع أساسًا عِلْميًّا ثابتًا للحكْم على أساليب القرآن، وموقعها من النحو والصرف، فإني أظنّ أنَّه قد فات ذلك وسبقه، فهيّأ لنا أساسًا جديدًا للنظر في «إعجاز القرآن» نظرةً جديدةً تُخْرِجه من الْحيِّزِ القديم، إلى حيِّزٍ جديد يعين على إنشاء علم بلاغة مستحدث؛ فإنه مهما اختلف المختلفون في شأن «البلاغة» فالذي لا يمكن أن يدْخلَه الاختلافُ هو أَنَّ تركيب الكلام على أُصولِ النحو والصرف، هو الذي يُحْدث في كلامٍ ما ميزةً يفوق بها كلامًا آخر، وهذا لا يتيسَّر معْرِفتُهُ إلَّا بتحليلِ اللغةِ وتحليلِ مفرداتها وأدواتها، وروابطها، التي هي حروف المعاني، عَملٌ لا يُنْتَهى فيه إلى غاية، إلَّا بعد

الْحَصْرِ التامِّ للغة وتصاريفها، ولا سيمَا حروف المعاني، وبعد معرفة الفُروقِ الدقيقةِ التي تُحدثها هذه الحروفُ في مواقعها، وبعد معرفة أثر هذه الفروق في تفضيل كلامٍ على كلام.

والشيخ – حفظه الله– لم يترك مجالًا للاستدراك على عمله العظيم، فكلّ ما أستطيع أن أقولَه، إنمَا هو ثَناءٌ مسْتَخْرَجٌ من عَمل يُثْنِي على نفْسه.

ولكن بقي ما نتهاداه في هذه الحياة الدنيا، وهو أن أدعُو الله له بالتوفيق، وأن يزيدَه من فَضْله، وأن يُعينه على إتمام ما بدأ، وأن يجعل هذا العمل ذخيرة له يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون»[(١)].

□ يرحم الله الإمام ابن حزم القائل: «وأمّا من وسم اسمه باسم العلم والفقه وهو جاهل بالنَّحو واللغة فحرام عليه أن يُفتي في الله بكلمة، وحرام على المسلمين أن يستفتوه»[(٢)].

الدكتورة نفوسة زكريا سعيد وكتابها القيم في نسف الدعوة إلى العامِيّة وهو «تاريخ الدعوة إلى العامِيَّة وآثارها في مصر»:

□ قال الأستاذ العلامة المحقق: أبو فهر/ محمود محمد شاكر عن هذا الكتاب: «عندما شرعت أعدّ هذه الكلمة، قضيت أيَّامًا أطوف بذاكرتي فيمَا قرأتُ، وأراجع بعض ما قيَّدْتُ، فأفنيْتُ وقتًا طويلًا في حشد مادَّة الكتابة، ثم وقع إليَّ كتابٌ لم أكن سمعت به. فلمَّا بدأتُ أقرؤُه، وجدتني قد أضعت أيَّامي هباءً؛ لأنه لو كان في يدي قبل ذلك، لأغناني

(١) مقدمة الشيخ محمود محمد شاكر لكتاب «دراسات في القرآن الكريم» للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة (ص٥- ٧) طبع دار الحديث.

(٢) «أنواع العلوم» (ص٣١).

عن بحث طويل وتنقيب مُضْنٍ، فلم أستحل لنفسي أن أعود إلى قضية الأكاذيب الملفَّقة، حتى أنصف صاحبته ما استطعت، جاء هذا الكتاب كأنه تقريعٌ لي، ولكُل من نصب نفسه لعلاج المسائل العامة في حياة الشعب العربي والإسلامي؛ لأننا عشنا دهرًا في موجٍ متلاطم، ثم لم يكن لنا من الحكمة والعقل، ما يدفعنا إلى تقييد ما يجري في زماننا على ترتيب تاريخيّ متصل، فيكون ذلك مِعْوانًا لنا على جلاء الصُّورة التي عشناها، أو التي نعيشُها في ضوءٍ مبين عن حقيقتها، وتلافيفها، وتعاريجها، وخفاياها، وهذه هي النكبة التي نكبنا بها، وأنا أشهد على نفسي - على الأقل - أني قصرت في ذلك تقصيرًا معيبًا إذ شغلتني نفسي عن تتبع كثير من الحقائق وتقييدها، فلمَّا جئت أطلبها، وقعتُ في المأزق، حتى جاء كتاب «تاريخ الدعوة إلى اللغة العامية وآثارها في مصر»، فأنقذني مما تورطت فيه، وهذا الكتاب النفيس، من تأليف الدكتورة/ نفوسة زكريا سعيد، المدرسة بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية. (الطبعة الأولى ١٣٨٤ هجرية/ ١٩٦٤م). والجهْد المبذول في جمع مادة هذا الكتاب، جُهْد يَدُلّ على التجرّد الصحيح السليم في طلب المعرفة، وعلى الصدق في السعي إلى الحقيقة، وعلى النفاذ في إدراك الحقائق، وعلى الصبر في معاناة التنقيب بلا كلال ولا ملل. ولا أظنني قرأتُ منذ سنوات طوال كتابًا يتناول المسائل العامة في حياتنا الحديثة، بذل فيه صاحبه من الوقت والجهد والأناة، ما بذلت الدكتورة نفوسة في كتابها هذا، ولا أظنني قرأتُ أيضًا في هذا الدَّهر كتابًا، ينبغي لكل عربي وكل مسلم أن يقرأهُ من ألفه إلى يائه، يضارع هذا الكتاب، وحسبها أنها استطاعت أن تجلو للناس صورة صحيحة صادقة مؤيدة بالأسانيد، بلا تزيّد ولا كذب ولا ادّعاء

عن أكبر معركة تدور في العالم العربي والإسلامي، وهي معركة البناء أو الهدم، معركة الحياة أو الموت، معركة الحرية أو الاستعباد، معركة وحدة العرب والمسلمين بلغة عربية هي الفصحى، أو تفرُّق العرب والمسلمين أشتاتًا بلغات متنابذة هي العامية، ولو كان لي من الأمر شيء لأمرت أن يطبع هذا الكتاب ليكون في يد كل شاب وشابة، وكل رجل وامرأة، ويكون له مختصر ميسَّر لكُلِّ من مكّنه الله من القراءة، ولست أريد الإغراق في الثناء، وإخلاء الكتاب من كل عيب، ولكني أراه كتابًا صالحًا لكل مثقّف، يجد فيه مادة صحيحة لتاريخ معركة قاسية خبيثة، إذا وقانا الله شرَّها باليقظة فقد نجوْنَا من المحنة الساحقة، وإذا أسأنا فابتلينا بتمَام الغفلة فذلك ذُلُّ الأبد، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله»[١].

وفي خاتمة هذا الكتاب القيم تخرج الدكتور نفوسة بنتائج هامة منها:

- أن الأوربيّين هم أول من دعوا إلى العامِيّة، وأن أول مؤلف أجنبي لهم خُصِّص لدراسة العامية المصرية هو «قواعد العربيّة العامِيّة في مصر» الذي ظهر سنة ١٨٨٠ للدكتور «ولهام سبيتا»، وكان هدفهم القضاء على الوحدة العربية، عن طريق تحطيم أهم رابطة من روابطها وهي اللغة العربيّة الفصحى.

- أن الجهود الضخمة التي بذلوها في سبيل تدعيم العَامِيّة والترويج لها لم تستطع تدعيم العاميّة، بل لقد كشفت عن كثير من نقائصها وعدم كفايتها في التعبير.

- أن الحملة التي قاموا بها على اللغة العربية الفصحى التي هدفوا إلى

(١) «أباطيل وأسمار» للشيخ محمود محمد شاكر (ص١٢٥، ١٢٦).

القضاء عليها لم تستطع أن تنال منها، وإنمَا دفعت كثيرًا من أبنائها إلى القيام بأبحاث قيمة للذَّوْد عنها، وكان لها فضلٌ كبير في الكشف عن أسرار العربية الفصحى ودقائقها، وبيان عراقتها، وقدرتها على مسايرة الحضارات في مختلف العصور.

▢ أن تأفُّف بعضنا من اللغة العربية الفصحى لم يكن نتيجة للشعور بعجز الفصحى عن الوفاء بحاجاتنا العلمية والأدبية، وإنمَا كان نتيجة للشَّك الذي أثاره فينا الأوربيون نحو الفصحى في دعوتهم إلى العاميّة.

▢ إن هذه الدعوة عندما بدأت تشق طريقها إلينا وجدت استنكارًا من الرأي العام، فلم يستجب لها إلَّا قِلّة، ذهبت تناصرها بالأساليب نفسها التي استخدمها الأوربيون، سواء في حملتهم على اللغة العربية الفصحى أم في دعوتهم إلى العامية.

وتكلَّمتْ عن فكرة رفاعة الطهطاوي في ضبط العَامِّيَّة واستخدامها في الكتابة، ومن الكُتَّاب الذين كتبوا بالعامية يعقوب صنوع صاحب مجلة «أبو نظارة»، وجورجي زنانيري صاحب مجلة «الغزالة»، ومحمد النجار صاحب مجلة «الأرغول»، وأحمد لطفي السيد في اقتراحه لتمصير اللغة العربية، وعبد العزيز فهمي في اقتراحه لاستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، وسلامة موسى في رأيه عن لغة الأدب الجديد.

▢ إن كل ما تركته هذه الدعوة من آثار في اللغة وفي الأدب قد رجَّح كفة الفُصحى على العامية، وأوضح نظريًّا وعمليًّا حقيقة كل منهمَا.

▢ ثم قالت الدكتورة نفوسة خاتمة لكتابها القيم الفذّ: «وعلى ضوء هذه الحقائق يمكننا أن نقرِّر فشل الدعوة إلى العامِيّة، تلك الدعوة التي

أثارت كثيرًا من مشاكلنا اللغوية والأدبية طوال هذا القرن، والتي بدأت بثورة على الفُصحى وانتهت بالثورة لها» [١].

ونختم بما قاله «شاعر النيل» حافظ إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

اللغة العربية تَنْعِي حظها بين أهلها

رَجَعْتُ لنَفْسِي فاتَّهَمْتُ حَـصاتِي ... ونادَيْتُ قَوْمِي فاحْتَسَبْتُ حَيـاتي [٢]
رَمَـوْني بعُقْـم في الـشَّبابِ ولَيْتَنـي ... عَقِمْتُ فلَم أَجْزَعْ لقَوْلِ عِدَاتِي [٣]
وَلَدْتُ ولمَّـا لَـم أَجِـدْ لعَرائِـسي ... رجـالًا وأَكْفـاءً وَأَدْتُ بَنـاتِي [٤]
وسـعْتُ كتـابَ الله لَفْظًـا وغايـةً ... وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعظـاتِ [٥]
فكيف أَضيقُ اليومَ عن وَصْف آلَةٍ ... وتَنْـسيق أسمـــاءٍ لمُخْتَرعـاتِ؟

(١) «تاريخ الدعوة إلى العاميَّة وآثارها في مصر» (ص٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩) للدكتورة نفوسة زكريا سعيد- طبع دار الدعوة الإسلامية للنشر والتوزيع.

(٢) رجعت لنفسي: أي تأملت. والحصاة: الرأي والعقل. واحتسبت حياتي: عددتها عند الله فيما يدخر. يقول على لسان اللغة العربية: إنني عدت إلى نفسي وفكرت فيما آل إليه أمري، فأسأت الظن بمقدرتي، وكدت أصدِّق ما رموني به من القصور، وناديت الناطقين بي أن ينصروني فلم أجد منهم سميعًا، فادخرت حياتي عند الله.

(٣) العداة: الأعداء: يقول: اتهموني بأني لا ألد على حين أني في ريعان شبابي. وليتني كنت كما قالوا فلا يحزنني قولهم. وكنى بالعقم هنا عن ضيق اللغة وجمودها.

(٤) يريد «بالعرائس»: الألفاظ المجلوة الحسنة. ووأد البنت: دفنها حية.

(٥) الآي: جمع آية.

أنا البَحْرُ في أَحْشائِه الدُّرُّ كامِنٌ فهل سَألوا الغَوَّاصَ عن صَدَفاتِي
فيا وَيْحكُمْ أَبْلَى وتَبْلَى محَاسنِي ومنكُم وإنْ عَزَّ الدّواءُ أُساتِي (١)
فلا تكِلُوني للزّمان فإنَّني أَخافُ عليكمْ أنْ تَحِينَ وَفاتِي (٢)
أَرَى لرِجالِ الغَرْب عزًّا ومَنْعَةً وكم عَزَّ أَقوامٌ بعِزِّ لُغات (٣)
أَتَوْا أَهْلَهُمْ بالمُعْجزات تَفَنُّنًا فيا لَيْتَكُمْ تأتونَ بالكَلِمَات!
أَيُطْرِبُكُمْ منْ جانِب الغَرْب ناعِبٌ يُنادِي بِوَأْدي في رَبيع حَياتِي؟ (٤)
سَقَى الله في بَطْن الجَزيرة أَعْظُمًا يَعِزُّ عليها أنْ تَلِينَ قَناتِي! (٥)
حَفظْنَ وِدادي في البِلى وحَفظْتُه لهنّ بقَلْبٍ دائم الحَسَراتِ
وفَاخَرْتُ أَهلَ الغَرْب والشرقُ مُطرِقٌ حَياءً بتلكَ الأَعْظُمِ النَّخِرات (٦)
أَرَى كلَّ يوم بالجَرائِد مَزْلَقًا مِنَ القَبْرِ يُدْنِيني بغَيْرِ أَناة (٧)
وأَسْمَعُ للكُتّاب في مِصْرَ ضَجّةً فأَعْلَمُ أنَّ الصائِحين نُعاتِي (٨)

(١) الأساة: جمع الآسي، وهو الطبيب.
(٢) تكلوني: تتركوني.و تحين: تحل.
(٣) يقال: هو في منعة، أي في قوم يمنعونه ويحمونه.
(٤) الناعب: المصوت بما هو مستكره، وربيع الحياة: أيام الشباب والقوة.
(٥) القناة: الرمح. ولينها: كناية عن الضعف. ويريد «بالأعظم»: من دفن في الجزيرة من العرب الأولين.
(٦) النخرات: البالية المتفتتة.
(٧) المزلق: مكان الانزلاق، أي السقوط والزلل. والأناة: التأني والإبطاء. ويريد وصف لغة الجرائد إذ ذاك بالضعف.
(٨) النعاة: جمع ناع، وهو المخبر بالموت.

أَيَهْجُرُني قومِي - عفا الله عَـنْهُمُ - إلـى لُغَـةٍ لَـمْ تَتّـصلْ بُـرواةِ؟[١]

سَرَتْ لُوثَةُ الإفْرِنْجِ كمـا سَرَى لُعابُ الأفاعِي في مَسِيلِ فُـراتِ[٢]

فجَاءتْ كثَوْبٍ ضَمَّ سَبْعِين رُقْعَةً مُـشَكَّلَةَ الألْـوان مُخْتَلِفـاتِ

إلى مَعْشَرِ الكُتّابِ والجَمْعُ حافِلٌ بَسَطْتُ رَجائِي بَعْدَ بَسْطِ شَكاتِي[٣]

فإما حَياةٌ تَبْعَثُ المَيْتَ في البِلى وتُنْبِتُ في تِلْكَ الرُّمُوسِ رُفاتِي[٤]

وإمّـا مَمـاتٌ لا قِيامـةَ بَعْـدَهُ مَماتٌ لعمري لَمْ يُقَسْ بمَمـاتِ[٥]

---

(١) لم تتصل برواة: أي لم يأخذها الخلف عن السلف بطريق الرواية التي تحفظها من التغيير كما هو الشأن في العربية، ويشير إلى تلك اللغة المرقعة التي كانت مستعملة أيام نشر هذه القصيدة.

(٢) اللوثة (بالضم): عدم الإبانة. ولعاب الأفاعي: سمها. والفرات: الماء العذب.

(٣) الشكاة: الشكوى.

(٤) تبعث الميت: تحييه. والرموس: القبور، الواحد: رمس. والرفات: كل ما تكسر وبلي؛ يريد ما بقي من الجسد بعد الموت.

(٥) «ديوان حافظ إبراهيم» (ص٢٥٤- ٢٥٥).

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

كمبيوتر الصديق
محمول/٠١٦١٩٠٣٦٨٥
٠١٨٤٤١٩٢٥٠
ت/٢٦٤٣٢٨٣٧